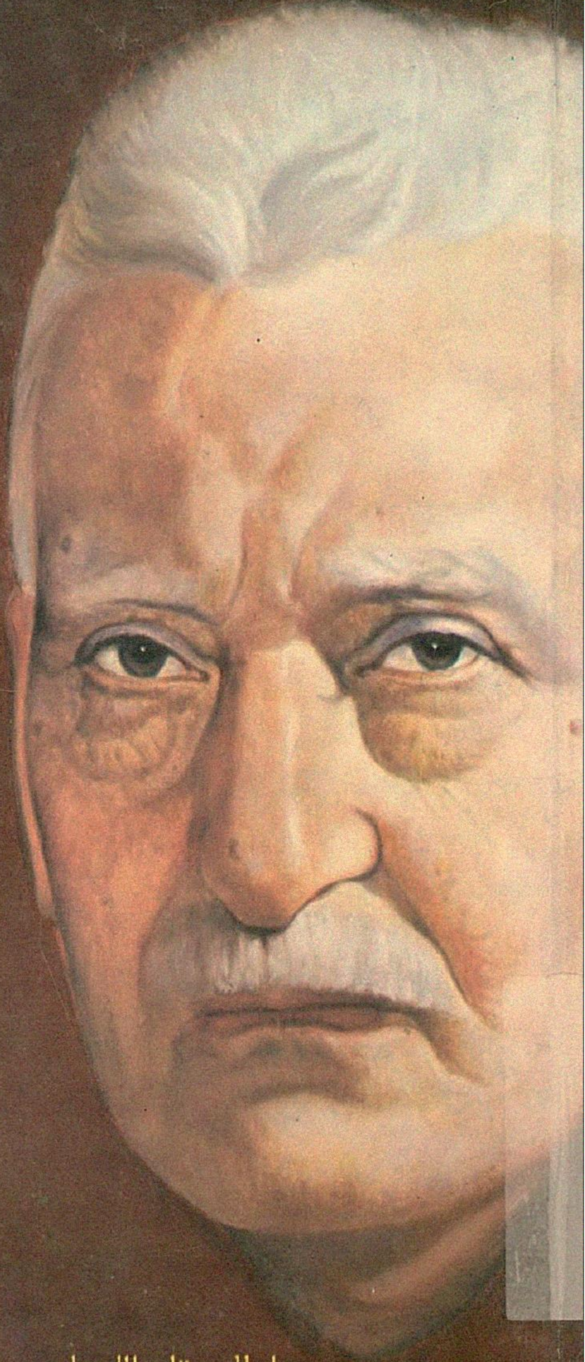
المجموعة الكاملة
لمؤلفات الأستاذ

عباس محمود

العقاد



العبقريات الإسلامية

3

دار الكتاب اللبناني - بيروت

المجلد الرابع

العبقريات الإسلامية - ٤

المجموعة الكاملة لمؤلفات الأستاذ

عباس محمود

العقاد

المجلد الرابع

العبقريات الإسلامية ٤

يحتوي على

عمرو بن العاص

معاوية بن أبي سفيان

داعي السماء بلال

دار الكتاب اللبناني - بيروت

دار الكتاب اللبناني
برقياً : كتالبان - بيروت
ص.ب : ٣١٧٦
بيروت - لبنان

الطبعة الثالثة
١٩٨٦

عباس محمود

العقاد

عمرو بن العاص

دار الكتاب اللبناني - بيروت

نَشْأةُ عَمْرِو بْن العَاص

نشأ عمرو بن العاص فى بطن من البطون القرشية المشهورة ، وهم بنو سَهْم .

والبطون القرشيــة كثيرة ، تتفــاوت فى الضعف والقوة ، والقلة والــكثرة . ولــكن البطــون التى انتهى اليهــا الشرف ــ كما قال النسابة الــكلبي ــ عشرة ، اتصل شرفها فى الجاهلية والاسلام ، وهم : هاشم ، وأمية ، ونوفل ، وعبــد الدار ، وأسد ، وتيم ، ومخزوم ، وعدي ، وجُمَح ، وسهم .

والظاهر من بعض أنباء « سَهْم » أنهم كانوا على كثرة فى العدد ، وان لم يحسبوا من ذوى الصــدارة فى قريش ، الى جانب بني هاشم أو بني أمية أو بني عبد الدار .

فلما انقسمت قريش الى حزبين ، في أحدهما بنو عبد مناف ، وفي الآخر بنو عبد الدار عبىء بنو سهم لبني عبد مناف ، وهم أكبر هؤلاء الأحلاف ، كأنهم ندٌ لهم كثرةً وقوةً فى الصلح والخلاف .

وتفاخر بنو ســهم وبنو عبــد مناف مرة ، فقال كل حى منهما : « نحن أكثر ســيدا ، وأعظم رجــالا ، وأكثر قائدا » ... فكثر بنو عبد مناف بني سهم بعدد الأحيــاء ، ثم تكاثروا بالأموات ، فجعلوا يشيرون الى القبر فيقولون : أفيكم مثل هذا ؟ أفيكم مثل هذا ؟ ويذكر كل منهم انه أكثر مالا وأعز نفرا ، كما جــاء فى القرآن الــكريم ، ونزلت فى ذلك الآية : « أَلْهَــاكُمُ التَّــكَاثُرُ حَتَّىٰ زُرْتُمُ المَقَــابِرَ » على احدى الروايات .

فعمرو بن العــاص ينتمي ــ على هــذا ــ الى بطن يعد من أكبر

بطون قريش ، ويطمح الى مساواة بني عبد مناف بوفرة الرجال والأموال وكثرة السادة والقادة ، ويوصل شرفه في الجاهلية بشرفه في الاسلام .

أما حصتهم من شرف الجاهلية فقد كانت اليهم الحكومة ، والأموال المحَجَرة التي سموها لآلهتهم ، وهي أموال حبسوها على الأرباب والمعابد وخيراتها ، كأنها الأوقاف فى العصور الاسلامية ، وكأن الرؤساء من بني سهم طائفة من نظار الأوقاف يعرفون بحسناتهم أو سيئاتهم التي اتصف بها نظار الأوقاف في جميع الأزمان .

ولا نعلم على التحقيق ما هي تلك الحكومة التي وُكلت الى بني سهم فى الجاهلية ، كما وكلت الشورى والرفادة والسقاية وغيرها من مهام الحجاز الى البطون القرشية الأخرى .

ولكننا نستطيع ان نقيسها الى بعض ما ندب له ابن العاص في الاسلام ، على حكم العادة الموروثة التي قلما تتغير في مأثورات القبائل المحفوظة ، ويؤخذ من هذه المهام ان المرجع في حكومة بني سهم الى اللباقة في تناول الأمور ، والتلطف في حسم الشقاق ، والتغلب على حرج النفوس في الشئون الدقيقة التي تتصل بالمصاهرة ومعاذير الراغبين فيها أو الراغبين عنها من الرجال والنساء ، كما تتصل بالاقناع فيما يمس المروءة والعقيدة ، أو يَرِد الإقناع فيه على النفس من طريق التهوين والتسويغ على سنن الدهاة من الساسة بين سائر الأمم وفي سائر العصور .

وجماع ذلك كله أن الحَكَم على هذه الطريقة هو الرجل « الأريب » الذي يعرف « من أين تؤكل الكتف » ويترفق بعلاج النفوس وتناول الأمور .

خطب سلمان الفارسي الى عمر بن الخطاب ، فأجمع على تزويجه ، فشق ذلك على عبد الله بن عمر ، وشكاه الى عمرو بن العاص ... فها هنا مسألة دقيقة بين أب وابنه في تزويج رجل لا تحسن الاساءة

إليه بعد وعده ، ولا بد للحَكَم فيها من رفق وإربة ، حتى يرضى الأب والابن والخطيب وما منهم من يسخط على زميليه . قال عمرو لعبد الله بن عمر : عليَّ أن أرده عنك راضيا . وأتى سلمان فضرب بين كتفيه بيده ، ثم قال : هنيئا لك أبا عبد الله ! هذا أمير المؤمنين يتواضع بتزويجك .. ! فالتفت سلمان مغضبا وقال : أَبِي يتواضع ؟ والله لا تزوجتها أبدا .

وخِطب عمر بن الخطاب أم كلثوم بنت أبي بكر الى أختها أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها ، فقالت له : الأمر اليك ! ثم سألت أختها فأبته وهي تقول : لا حاجة بي اليه . فزجرتها قائلة : أترغبين عن أمير المؤمنين ؟ قالت : نعم ، انه خشن العيش ، شديد على النساء .. !

وهنا مسألة دقيقة من قبيل ما تقدم : أمير المؤمنين ترفضه أم المؤمنين ، ولا ينبغي أن يواجه بالرفض ، وان كان لا سبيل الى اكراه أم كلثوم على قبوله .

فلجأت السيدة عائشة الى عمرو بن العاص ليحتال في الأمر برفقه ودهائه ، فجاء عمَر وفاجأه قائلا : بلغني خبر أعيذك بالله منه ، قال : ما هو ؟ قال : خطبتَ أم كلثوم بنت أبي بكر ؟ قال : نعم ، أفرغبت بي عنها أم رغبت بها عني ! قال : لا واحدة . ولكنها حدثة نشأت تحت كنف أمير المؤمنين في لين ورفق ، وفيك غلظة ، ونحن نهابك وما نقدر أن نردك عن خلق من أخلاقك ، فكيف بها ان خالفتك في شيء فسطوت بها ؟ كنت قد خلفت أبا بكر في ولده بغير ما يحق عليك !

ولا شك ان عمر قد فطن الى ما وراء هذه الوساطة ، وفهم أن ابن العاص لا يقدم عليها من عند نفسه ، فسأله كأنه يستطلع ما وراءه : كيف بعائشة وقد كلمتها ؟

قال : أنا لك بها ، وأدلك على خير منها : أم كلثوم بنت علي

ابن أبي طالب ، تعلق منها بنسب رسول الله .

فهي إذن حكومة الإرضاء والتناول الرفيق لكل شائك محرج من العلاقات التي يصعب الحكم فيها بغير هوادة وحنكة .. !

وشبيه بهذا ـ وان لم يكن من شئون المصاهرة ـ ايفاد عمرو الى نجاشي الحبشة لإقناعه بتسليم من قِبَله من المسلمين إلى مشركي قريش ، وهو أمر فيه من المساس بأصول الضيافة ما تصعب المفاتحة فيه فضلا عن الإقناعِ به ، إلا أن تكون لباقة ورفقٌ مدخلٍ وقدرة على التخلص السريع ..

وشبيه بهذا أيضا ايفاد عمرو الى أخوال أبيه في عهد الاسلام لاقناعهم بالخروج من دينهم والدخول في الدين الجديد .

ويتفق مع هذا وذاك أن تكون الوساطة على النحو المعهود بين طلاب الوساطات في جميع قضايا الخلاف ، فيتخاصم الرجلان على ضيعة أو حق مغصوب ، ويرجعان إلى حكومة الحَكَم المختار لعلمهما بقدرته على فض الخصومات واستلال الأضغان .

ومن ذلك حكومة عمرو بين طلحة بن عبيد الله والزبير بن العوام حين اختلفا على واد يدعيان ملكه بالمدينة . فقال عمرو لهما :

« أنتما في فضلكما وقديم سوابقكما ونعمة الله عليكما تختلفان ! لقد سمعتما من رسول الله صلى الله عليه وسلم مثل ما سمعت ، وحضرتما من قوله مثل ما حضرت ـ فيمن اقتطع شبرا من أرض أخيه بغير حق انه يطوّقه من سبع أرضين ! والحَكَم أحوج إلى العدل من المحكوم عليه ، وذلك لأن الحكم اذا جار رزىء دينه ، والمحكوم عليه اذا جير عليه رزىء عرض الدنيا . ان شئتما فأدليا بحجتكما ، وان شئتما فأصلحا ذات بينكما » .

فاصطلحا وأعطى كل واحد منهما صاحبه الرضا .

فهذه حكومة معهودة في قضية من القضايا الشائعة التي لا تمس المحرجات النفسية ولا تشوك اليدين في تناول الدعوى بين الطرفين ،

وما هما بعد بخصمين . ولكننا تتأمل هذه الحكومة أيضا فنلمح فيها حب الاستعانة باللباقة والكيس قبل الاستعانة بالعدل والانصاف ، كأنما كان الخصمان يريدان الوفاق بغير غضاضة على أحد منهما ، فاختارا الحكم الذي يمنع هذه الغضاضة وييسر لهما سبيل الوفاق .

وقد جاء في الأثر أن النبي ـ عليه السلام ـ أمر عمْرا بالفصل بين رجلين اختصما إليه ، فكأنه عُرف بهذه المقدرة وبقيت له شهرتها في حضرة النبي عليه السلام .

* * *

وليست حكومة القهر والاكراه على أية حال بالحكومة التي كان العرب يرتضونها ويسعون اليها . فهم اذا لجأوا الى الحكم لم يلجأوا اليه لأنهم ينتظرون منه أن يقهرهم على سماع حكمه ، ويلزمهم أن يتبعوه في قوله وفعله ، بل لعلهم يتعمدون أن يختاروا لحكومتهم رجلا لا يُخشى ولا يُهاب ، ولا يقع العار على من يخضع له بالخوف والاذعان . فاذا أطاعوه قيل انهم يطيعون كلمتهم وينزلون باختيارهم على الحكم الذي ارتضوه ، ولم يقل قائل انهم مطيعون عن ذلة ، ومستمعون لأمره مسوقون الى استماعه .

فالحكم الذي يختارونه ـ على هذا ـ انما يكون على خصلة من خصلتين : رجل يأنسون الى عدله وانصافه ، أو رجل يأنسون الى لباقته وحيلته وحسن بصره بمواقع الأهواء وذرائع الارضاء . والثاني ببني سهم أشبه وأمثل ، لأنهم لم يشتهروا بالعدل والإنصاف ، بل كان من زعمائهم من يَمْطُل أصحاب الحقوق ، ويَلْوي الضعيف بديونه ويلج في ذلك لجاجة حملت السادة من قريش على التحالف فيما بينهم ليردُّنَّ المظالم ويأخُذُنَّ للضعيف حقّه حيث كان ، وسمّوه حلف الفضول المشهور ، وهو الحلف الذي قال عنه النبي عليه السلام : « لقد شهدتُ في دار عبد الله بن جَدْعان حِلْف الفضول :

ما أحب أنّ لي به حُمْر النَّعَم ، ولو دُعي إليه في الإسلام لأجبت » !

وسبب هذا الحلف غير بعيد عن عمرو بن العاص نفسه ، لأن الذي مطل الدين أبوه العاص بن وائل من أغنى السهميين وأشهرهم بالعزة والعصبية . وكان رجل من بني زبيد في اليمن قد وفد الى مكة معتمرا ، ومعه بضاعة طيبة ، فاشتراها العاص ، ولواه بحقه ، ولم يجبه الى رجائه حين سأله ماله أو متاعه . فقام الرجل في الحِجْر ينشد :

يا آل فِهْرٍ لمظلومٍ بضاعتَه
ببطن مكةَ نائي الدارِ والنَّفَر
وأشعثٍ مُحْرِمٍ لم يقض عُمرتَه
بين المقام وبين الحِجْرِ والحَجَر
أقائمٌ في بني سهمٍ بذمتهم
أو ذاهب في ضلالٍ مالُ مُعتمِرِ

فخف لنجدته أقطاب قريش ، وكان ذلك من أسباب حلف الفضول .

* * *

تلك جملة المعروف من شأن بني سهم الذين نبت فيهم عمرو بن العاص من بطون قريش .

أما أسرته القريبة فأبوه هو العاص بن وائل بن هاشم بن سعيد ابن سهم بن عمرو بن هُصَيص بن كعب بن لؤَي بن غالب ، يرتفع بنسبه الى الذؤابة القرشية .

ويقال في متواتر الروايات انه كان من ذوي اليسار ، وكان يتجر بين الشام واليمن ، ويحتشد لرحلة الصيف ورحلة الشتاء .

وقد كان عمرو بأبيه جد فخور ، حتى لقد كان يفخر به على الخلفاء كعمر بن الخطاب وعثمان بن عفان .

فلما أرسل اليه عمر بن الخطاب من يحاسبه ويشاطره ماله ، غضب وقال للرسول : « قبح الله زمانا عمرو بن العاص لعمر بن

الخطاب فيه عامل . والله اني لأعرف الخطاب يحمل فوق رأسه حزمة من الحطب وعلى ابنه مثلها ! وما منهما الا في نَمِرة لا تبلغ رسغيه ! والله ما كان العاص بن وائل يرضى أن يلبس الديباج مزررا بالذهب » .. ثم خشي العاقبة ، فاستحلف الرسول ليكتمنّ عليه ما قال بأمانة الله .

ولما عزله عثمان من ولاية مصر ، دعاه فأنبه .. وقال له : استعملتك على ظلعك وكثرة القالة فيك . فقال عمرو : قد كنت عاملا لعمر بن الخطاب ففارقني وهو عني راض . واحتدم الجدل بينهما ، فهمّ عمرو بالخروج مغضبا وهو يقول : قد رأيت العاص ابن وائل ورأيت أباك ... فوالله للعاص كان أشرف من عفان . فما زاد عثمان على أن قال : مالنا ولذكر الجاهلية !

وقد أدرك العاص الدعوة المحمدية ، ومات بعد الهجرة بقليل وهو في الخامسة والثمانين ، ولكنه — في أشهر الروايات — لم يسلم ، ولم يزل يناصب النبي وأصحابه العداء ، ويكيد لهم في الجهر والخفاء . وهو الذي قال عن النبي عليه السلام حين مات ابناه لقاسم وعبد الله : ان صاحبكم هذا لأبتر . فنزلت فيه الآية : « إنّ شانِئَكَ هوَ الأبتَرُ » .. وكأنما كان التكاثر بالذرية والاعتزاز بالعصبية شنشنة غالبة على هؤلاء السهميين !

* * *

وعلى قدر ذلك الفخر بأبيه كان خجله من نسبه الى أمه واجتراء الناس عليه بمسبتها كلما تعمدوا الغضّ منه والاساءة اليه

فكان حساده والنافسون عليه يلاحقونه بذكرها وهو على دست الامارة ومنبر الخطبة ، وخاطر بعضهم رجلا أن يقوم اليه وهو على المنبر فيسأله : من أمّ الأمير ؟ .. فأمسك من غضبه وقال : النابغه بنت عبد الله . أصابتها رماح العرب فبيعت بعكاظ ، فاشتراها عبد الله بن جدعان ، ووهبها للعاص بن وائل ، فولدت فأنجبت ،

فان كانوا جعلوا لك شيئا فخذه .. !

ويؤخذ من بعض هـذه المعايرات أنها كانت تؤجر للغنـاء بمكة فان عمرا شتم أروى بنت الحارث بن عبـد المطلب بمجلس معاوية ، فانتهرته قائلة : « وأنت يا ابن النـابغة تتكلم ، وأمك كانت أشـهر امرأة تغني بمكة وآخذهن لأجرة ؟ .. اربع على ظلعك ، واعن بشأن نفسك ، فوالله ما أنت من قريش في اللبـاب من حسـبها ولا كريم منصـبها ولقـد ادعاك خمسـة نفر من قريش كلهم يزعم انه أبوك ، فسئلت أمك عنهم فقالت : كلهم أتاني ، فانظروا أشبههم به فألحقوه به » .. !

ومن كلامه عنهـا في بعض ما نقل عنه : « أنها سـلمى بنت حرملة تلقب بالنـابغة من بني عَنَزَة ، ثم أحد بني جِلاّن ، أصابتها رماح العرب ، فبيعت بعكاظ ، فاشـتراها الفاكه بن المغيرة . ثم اشـتراها منه عبد الله بن جدعان . ثم صارت الى العاص بن وائل »

ويروى أنها كانت على صـلة بالعـاص وأبي لهب وأمية بن خلف وأبي سفيـان . فولدت عمرا فألحقته بالعـاص . وسـئلت في ذلك فقالت : انه كان ينفق على بناتي .

وأياً كان شـأن المبـالغة في لغة الثلب والتعيير ، فالمتفق عليه أنها كانت سـبية مغلوبة على أمرها ، فلم تقـارف البغـاء سـقوطا منها وابتـذالا لعرضها ، ومثل هـذه لا تحسب عليهـا زلاتها كما تحسب على المرأة التي تزل ولها مندوحة عن الزلل ، وتهوي وهي في موضع الصون والـكرامة . وانجاب هـذه ومثيـلاتها للنوابغ من البنـين ليس مما يخالف المـألوف من سنن النسب والوراثة .

* * *

ولا يظهر من أخبـار عمرو أنه تلقى مالا كثيرا من أبيـه . فقـد كان يحترف الجزارة ويعمـل بمال غير وافر في تجارة الأدم والعطر بين اليمن والشام ومصر ، على ما جاء في احدى الروايات .

إلا أن القصة التي روت لنا خبر سَفرته الى مصر تروي لنا كذلك انه خرج في تلك السفرة الى بيت المقدس ، وقصارى ما يرجوه أن يصيب ما يشتري به بعيرا فتكون له ثلاثة أبعرة .

وقد حاسبه عمر رضي الله عنه فقال له في كتابه اليه : « ... فشت لك فاشية من خيل وابل وغنم وبقر وعبيد ، وعهدي بك قبل ذلك ألّا مال لك » ! فلم ينكر عمرو أنه لم يكن له مال ، بل قال : « ... أتاني كتاب أمير المؤمنين يذكر فيه ما فشا لي ، وانه يعرفني قبل ذلك لا مال لي واني أعلِم أمير المؤمنين اني بأرض السعر فيه رخيص واني أعالج من الحرفة والزراعة ما يعالج أهله ، وفي رزق أمير المؤمنين سعَة » .

فاذا صدقت الرواية عن ثروة العاص بن وائل ، فمن العجيب ألا يبقى لعمرو من هذه الثروة نصيب موفور ، وهو أكبر ولديه ، وليس لأبيه ذرية كثيرة من الذكور فيقال إن الثروة الكبيرة تبددت بالتوزيع والتقسيم ، وقد أسلم عمرو بعد موت أبيه ، فلا يقال انه حرمه الميراث لاسلامه غضبا عليه .

نعم ان هشاما — أخاه الاصغر — كان أحب الى أبيه ، وكانت أمه بنت هشام بن المغيرة من كرائم قريش وليست سبية مشتراة كأم عمرو ، وكانت الى هذا محببة الى زوجها ، وباسم أبيها سمى ولده على غير الشائع المألوف في تسمية الأبناء بين القبائل العربية . ولكننا لم نعرف من أخبار العاص ولا من أخبار ولديه أن هشاما استأثر بالميراث دون أخيه . والأشبه إذا كان أحدهما قد حرِم ميراثه أن يكون هو هشاما لأنه أسلم في حياة أبيه .

ولا تفهم قلة المال عند عمرو — مع ما اشتهر به أبوه من الثراء — الا على فروض كثيرة يصح الأخذ بها جميعا ، لأن الاكتفاء بواحد منها غير معقول . وهي ان ثروة العاص كانت أقل من شهرتها ، وانه كان ينفق ولا يمسك ، وانه أصيب في تجارته قبل موته ، ولا سيما

بعد قيام المسلمين على طريق الشام ، وان عمرا كان كأبيه من المنفقين ، ولم يكن من المقترين ، وقد يؤخذ هذا من ظهور شكواه بعد عزله من ولاية مصر بأقل من عام ، فقال له عثمان وقد سبه لما بلغه من تحريضه عليه : « ما أكثر ما قمل جرُبّان جبتك — أي طوق جبتك — وانما عهدك بالعمل عاما أول » !

فلا يبعد انه أصاب شيئا من الميراث فأنفق منه ما أنفق بعد يأسه من تجارة الحبشة والشام ، ولم يبق له عند ولايته على مصر الا اليسير.

* * *

والاهتمام بنسب المترجَم لهم واجب لازم في كل سيرة من السّير ، وهو في سيرة عمرو أوجب وألزم لأن أثر الوراثة فيه أقوى من المعهود الشائع في العظماء عامة .

وليس الأثر الذي استفاده من تلقين البيئة وفعل الرياضة النفسية بأقل من أثر الوراثة التي لا اختيار له فيها .

فمن أثر الوراثة مشابهة عمرو لأبيه في الخلقة والخليقة ، ولولا قوة الشبه في الخلقة لما عرفت نسبته الى أبيه وهو وليد .

ومن المشابهة في الخليقة حبه للمال والسيادة ، واعتداده بالعصبية ونخوة القبيلة .

الا ان المغمز الذي كان يؤلمه من نسبه الى أمه قد كان له من قوة الأثر في تكوين فكره وتوجيه نفسه ما يعدل أثر الوراثة ، أو يزيد .

فاحتياجه إلى مداراة هذا المغمز ، والغلبة على من يفاخرونه بكرم الأمومة — هو الذي أغراه فبالغ في اغرائه بالمال والرئاسة .

وشعوره بهذا المغمز هو الذي أعز أباه عنده ، وعلقه بفخره ، وألهجه باسمه وسمعة ثرائه .

وكان لاعتداده بأبيه دخل في تعويق اسلامه وتأخير شهادته للدين الجديد الى ما بعد موته ، وقد كان يعلم ذلك من نفسه ويجهر به اذا فوتح فيه . فسأله رجل : « ما أبطأ بك عن الاسلام وأنت

أنت في عقلك » ! فقال : « إنا كنا مع قوم لهم علينا تقدم ، وكانوا ممن يوازي حلومهم الجبال ، فلما بعث النبي صلى الله عليه وسلم ، فأنكروا عليه ، فلذنا بهم ، فلما ذهبوا وصار الأمر الينا نظرنا وتدبرنا ، فاذا حق بَيِّن ، فوقع في قلبي الإسلام » !

بل أصبح اعتداده بأبيه اعتدادا للعصبية بالقبائل الأولى ، كَمَن فيه من أيام جاهليته الى ما بعد اسلامه ، وعالجه أحيانا فلم يستطع أن يجتثه من أصوله .

وقع بينه وبين المغيرة بن شعبة كلام ، فسبه المغيرة ، فقال : يا آل هُصَيْص ! أيسبني ابن شعبة ؟ وكان ابنه عبد الله حاضرا ، وهو من أتقى المسلمين ، وقد أسلم قبل أبيه ، فقال : انا لله ! دعوت بدعوى القبائل وقد نُهي عنها ! فأعتق عمرو ثلاثين رقبة .

وسمع معاوية مرة يأذن للأنصار ، فأحب أن يأذن للناس بأسماء قبائلهم ويردهم الى أنسابهم .

وكان من إعزازه لأبيه وحضور العصبية في ذهنه أنه فكر في الانتقام من عمارة بن الوليد المخزومي لاجترائه على تقبيل زوجته أمامه فلم يقدم على الانتقام منه ــ وهما في طريق الحبشة ــ حتى بعث إلى أبيه أن يخلعه لكيلا تحيق به أو بأحد من أهله ترات العصبية التي تدين بها القبائل فيما بينها .

وعصبيته هذه هي التي أنسته ان الاسلام ينهى عن كراهة الذرية من البنات ، فأنف انفة الجاهلية حين رأى معاوية يقتل ابنته عائشة . قال : من هذه ؟ قال معاوية : هذه تفاحة القلب ! فقال له : « إنبذها عنك . فوالله إنهن ليلدن الأعداء ، ويُقرِّبن البُعداء ، ويورثن الضغائن » .. !

ولا شك ان الألم من ذلك المغمز في نسبته الى أمه كان من أشد الحوافز النفسية تغلغلا في سريرته ، وأصلحها لتفسير ميوله وبدواته ومنها الحسن والمفيد .

فقد كان خوفه من التعيير به يعقل لسانه عن فحش القول ، ويُلزمه سـمت الجد والتوقر في مخاطبة الناس .

ولم يبالغ حين اعتذر لمسلمة بن مَخلد ، وقد ناله بلسانه في ساعة حدة ، فقال له يسترضيه : « ما أفحشت قط الا ثلاث مرات ، مرتين في الجاهلية وهـذه الثالثة ، وما منهن مرة الا ندمت ، وما استحييت من واحدة منهن أشـد مما استحييت مما قلت ، ووالله اني لأرجو ألا أعود إلى الرابعة » ...

كذلك كان يتحرج من إسـقاط هيبته ونسيانه سَمْته ، حتى قال عمر بن الخطاب وقد نظر اليه وهو يمشي : « ما ينبغي لأبي عبد الله أن يمشي على الأرض الا أميرا ! » .

فهي بلوى في طيّها نعمة كما قال أبو تمام :

قد يُنعم الله بالبـلوى وان عظـمت
ويبتـلي اللهُ بعضَ القـومِ بالنّعم

* * *

ولم يجزم المؤرخون بتاريخ مولد عمرو ولا قاربوا الجزم فيه ، فهو عند بعضهم عاش سبعين سنة ، وعند بعضهم بلغ المائة .

واذا صح انه كان يذكر الليـلة التي ولد فيهـا عمر بن الخطاب . وانه كان له يومئذ من العمر سبع سنين فالأرجح انه ولد قبل الهجرة بنحو أربع وأربعين سنة ، حوالي سنة ٥٨٠ للميلاد .

على ان المؤرخين مختلفون في سـن عمر بن الخطاب يوم وفاته ، فبعضهم يؤكد انه قتل وله من العمر خمس وخمسون سنة ، وبعضهم يؤكد انه كان يومئـذ في الثالثة والستين . ونحن نميل الى الاقتراب من التاريخ الثاني ، لأن عمر رضي الله عنه كان يشكو الكِبَر في سنة وفاته ، ويسأل الله أن يقبضه اليه لأنه شاخ وانتشرت رعيته ، والمرء في بنية عمر وقوته لا يشكو الهرم في الرابعة والخمسين أو الخامسة والخمسين ، فذلك بما بعد الستين أوفق وأقرب الى القبول .

وعلى هــذا تكون السنة التي رجحنا ولادة عمرو فيها هي أقرب التواريخ الى المعقول ، ويكون عمرو قد جاوز الثمانين بسنوات ولم يرتفع الى المائة ، لأنه عاش بعد عمر عشرين سنة ، وولد قبله بسبع سنين . فاذا كانت سن عمر عند وفاته حوالي الستين ، فقد عاش عمرو ابن العاص الى قريب من السابعة والثمانين .

واذا شككنا في سن عمرو يوم مولد عمر ، وحسبناها دون السابعة ، فهو اذن قد جاوز الثمانين بقليل .

ويدعونا الى الشك في هــذه الســن ان اعتذار عمرو من تأخر اسلامه باتّباع كبار قومه لا يقبل من رجل في نحو الخمسين ، وهي سنه عند اسلامه ، وان كان مع ذلك ليستغرب حتى ممن بلغ الأربعين .

وليس في نشأة عمرو من تاريخ يستوقف المترجم له بعد سنة ميلاده غير سنة زواجه ، ويظهر انه كان من المبكرين بالزواج ، لأن ابن قتيبة يقول : « ان الفارق في المولد بينه وبين ابنه عبد الله اثنتا عشرة سنة » وهو فارق غير معقول ، ولــكنه يدل على صغر ســنه حين بنى بأم عبد الله ، وهي فتــاة من قبيلتــه اسمها ريطة بنت منبه بن الحجاج .

التعريف بعمرو بن العاص

التعريف بنشأة عمرو بن العاص ، تمهيد لازم للتعريف بصفاته وطباعه ، والتعريف بهذه الصفات والطباع تمهيد لازم للتعريف بأعماله ومساعيه ، لأن الأعمال والمساعي لن تفهم على حقيقتها الا بفهم الطباع التي توحيها ، والنيات التي تسبقها ، والغايات التي ترمي اليها . وقد تتشابه الأعمال والمساعي في ظاهر الأمر وهي في الحقيقة مختلفة أشد اختلاف ، مفترقة كما يفترق الخير والشر أو تفترق الرفعة والضعة ، وانما مناط ذلك كله بالفرق بين باعث وباعث ، والاختلاف بين نية ونية .

وأدنى الى القصد في هذه السبيل ان نلم بالصفات والطباع ، ثم نتتبع الأعمال الصادرة عنها مفهومة واضحة البواعث والأغراض ، من أن نلم بالأعمال مبهمة متشابهة ، ثم نعود الى تفسيرها بما نستخلصه من طباع صاحبها ونياته .

لهذا بدأنا قبل سرد الأعمال بهذا التعريف الذي يسبغ الدلالة على تلك الأعمال .

* * *

والمحفوظ لنا من صفات عمرو الجسدية قليل ، ولكنه كاف اذا لم يكن بد من الاكتفاء منها بقسط له دلالة .

فهو كما يؤخذ من جملة الأقوال التي وصف بها : « أدعج ، أبلج وافر الهامة ، رَبْعَة ، أقرب الى قصر القامة ، يخضب بالسواد » عليه مهابة وشمائل نباهة وسيادة ، كما يدل عليه ما تقدم من قول عمر فيه « ما ينبغي أن يمشي أبو عبد الله الا أميرا .. »

وإذا جاز أن يكون لهذا التكوين الجسدي أثر في أخلاقه ودخائل طبعه ، فذلك أثر آخر يعين أثر النسب المغموز من جانب أمه ، وهو التماس « التعويض » بكل ما في النفس من حول وحيلة ، وحفز الهمة الى مكان يسطع فيه المرء سطوعا يداري المغمز في النسب والنقص في المظهر ، فيروع القلب بالسطوة والشارة اذا اجترأت عليه العيون أول نظرة ، أو اجترأت عليه الألسنة بالثلب والمهانة : رجل متهم النسب قصير ، ولكنه لا يضار بذلك في مقام الفخر بين ذوي الحسب والبسطة من عظماء الرجال .

وإذا اعتزم الرجل هذه العزمة ، وكان من أصحاب الهمة والشهامة ، أو ما نسميه اليوم بالقوة الحيوية ، فأخلِق به أن يبلغ ما يصبو اليه ، وأن يذهب بعيدا في مسعاه الذي توفر عليه .

أما ان عَمرا كان من أصحاب « القوة الحيوية » فذلك ظاهر من احتفاظه بحضور ذهنه ومضاء عزمه ، الى تلك السن العالية التي تجاوز بها قوم التسعين ، ولم يهبط بها أحد الى ما دون السبعين ، فانه ليجيش به هذا الطبع وقد أناف على الخامسة والأربعين الى فتح البلاد ، وتقليب الدول ، وافتتاح المساعي الى المجد والرئاسة ، كأنه ناشيء لما يزل في بادرة الشباب ومستهل المغامرات والمجازفات في سبيل الشهرة والسلطان !

وقد وُصِفت لنا شارة عمرو هنا وهناك ، فإذا هو في كل صفة من هذا القبيل عظيم العناية بما يروع الناس من هيبته وفخامة مرآه ، وليست مشيته التي أشار اليها الفاروق بأقل ما احتفل به لتلك الشارة والفخامة .

قال أبو مخنف : « حج عمرو بن العاص فمر بعبد الله بن عباس ، فحسده مكانه وما رأى من هيبة الناس له وموقعه من قلوبهم ، فقال له : يا ابن عباس ! مالك اذ رأيتني ولّيتني القَصَرة ، وكأن بين عينيك دبَرة » ! (أي أعرضت وازوررت عني) .. فأجابه ابن عباس

جوابا مقذعا فيه من الجرأة مثل ما فيه من الدهاء ، وانتهى منه قائلا : « حملك معاوية على رقاب الناس ، فأنت تسطع بحلمه ، وتسمو بكرمه » .

ولم يشأ عمرو ــ وقد ذهب دور المفاجأة ــ أن يبزّه ابن عباس في الدهاء ، فعاد يقول : « أما والله اني لمسرور بك . فهل ينفعني عندك » ؟

قال ابن عباس : « حيث مال الحق ملنا ، وحيث سلك قصدنا » !

ووصفه بَحِير بن ذاخر المعافري وهو مقبل الى المسجد يخطب الناس يوم الجمعة فقال : « .. فأطلنا الركوع ، اذ أقبل رجال بأيديهم السياط يزجرون الناس ، فذعرت .. فقام عمرو بن العاص على المنبر .. وعليه ثياب موْشِيّة ، كأن به العقيان يأتلق ، عليه حلة وعمامة وجبة .. »

فهذه الأبهة المقصودة ــ ولا سيما قبل استقرار السلطان له ــ هي أثر من آثار ذلك النسب المغموز وتلك القامة المحدودة .

* * *

أما صفاته النفسية فنبدأها بما وصف به نفسه ، أو بقول الرواة الذين وصفوه هذا الوصف ، وهم يدعون من المعرفة به ما يقوله الرجل حين يصف نفسه بلسانه .

روى هشام بن الكلبي أن اناسا لاموا معاوية على تقديمه عمرا ، فبلغته ملامتهم ، فقال بعد استشهاد : « .. قد علمتم انني الكرّار في الحرب ، وانني الصبور على غِيَر الدهر ، لا أنام عن طلب ، كأنما أنا الأفعى عند أصل الشجرة .. ولعمري لست بالواني أو الضعيف ، بل أنا مثل الحية الصماء ، لا شفاء لمن عضته ، ولا يرقد من لسعته . واني ما ضربت الا فريت ، ولا يخبو ما شببت . عرفني أصحاب يوم الهرير (بحرب صفين) انني أشدهم قلبا ، وأثبتهم يدا ، أحمي اللواء وأذود عن الحمى ، فكأنني وشانئي عند قول القائل :

وهل عجبٌ ان كان فرعيَ عَسجَدا
اذا كنتُ لا أرضى مُفاخـرةَ العُشبِ »

وهـذا وصف صادق ، اذا أغضينا عن جانب الفخر فيه ، طـابق صـفاته النفسية التي تشـهد بها أقواله وأعمـاله ومساعيه . وهي مجموعة محكمة من الصـفات القوية ، ولـكنها على قوتها بسيطـة متناسـبة ، يأخذ بعضها ببعض على نحو مألوف غير مستغرب في أمثال هـذه النفس الفطرية . وأعمقها جدا هو أظهرها جدا .. ! أو هو الذي تعمّق حتى بلغ من عمقه ان ينضح على قسمات وجهه وحركات جسده . وهو الطموح الى الهيبة والثراء ، وطلب البسطة في الجاه والمـال . ما نخاله وقف في الطموح عند حد ، ولا قعد عن الخلافة وهو مختار ، بل هو قـد طمح اليها وأعد عدّته لإقصـاء بني أمية عنهـا ، فلمـا أيأسـه مغمز النسب ورجحان بني أمية على بني سـهم في العصبيـة القرشية ، طوى الصدر على كظم ، وقعد عنهـا وهو كاره يعزي نفسه بقوله المـأثور عنه : « ان ولاية مصر جامعة تعدل الخلافة » .

وكان سعيه الى الرئاسة والمـال باديا منه في الاسـلام ، كما بدا منه في الجاهلية ؛ فلم يعرف له موقف قط نزل فيه عن الرئاسة باختياره .

فلما بعث به النبي عليه السلام الى غزوة ذات السلاسل ، أرسـل في طلب المدد ، فجاءه المدد من المهاجرين ، وفيهم أبو بكر وعمر وعليهم أبو عبيدة بن الجراح أمير ، فقال عمرو : أنا أميركم وأنا أرسلت الى رسول الله أستمده بكم ، فأنف المهاجرون أن يؤمِّروه وفيهم من فيهم من جِلّة الصحابة ، وقالوا : بل أنت أمير أصحابك وأبو عبيدة أميرنا .. قال عمرو : انما أنتم مدد أُمدِدت بكم ..

وأشفق أبو عبيدة أن يتخاذلوا وهم على أهبة الحرب ؛ فقال له : تعلَّمْ يا عمرو أن آخر ما عهد اليَّ رسول الله أن قال : « اذا قدمت على صـاحبك فتطـاوعا » وانك ان عصيتني لأطيعنك . قال عمرو : اذن أنا أعصيك . قال أبو عبيدة : وأنا أطيعك .

وعاد الى منازعة أبي عبيدة الرئاسة والامارة يوم أقدم أبو بكر — رضي الله عنه — على فتح الشام ، فسعى عند عمر ليقنع الخليفة بتأميره على الألوية جميعا ، وكان يوشك أن يفلح في مسعاه لولا اكبار عمر لأبي عبيدة ، حتى لقد همَّ بمبايعته بعد النبي عليه السلام ، وقال انه ليستخلفنه بعده لو عاش .

وقد كان حب المـال يملؤه ويتمكن منه ، حتي لم يبال أن يخفيه ، ولم يزل يتكلم — كلما دعاه داعي الكلام — بما يكشفه وينم عليه .

سأله معاوية وقد شـاخا وبطلت لذات الشـباب عندهما : ما بقي من لذة الدنيا تلذه ؟ قال : محادثة أهل العلم وخبر صالح يأتيني من ضيعتي .

وفي حديث آخر أنه دخـل يوما على معـاوية ، وقد كبر ودق ، ومعه مولاه وردان ، فتذاكرا الأيام ، واستطرد عمرو سائلا : يا أمير المؤمنين ما بقي مما تستلذه ؟ قال معاوية : « أما النساء فلا أرب لي فيهن ، وأما الثياب فقد لبست منها حتى وهَى بها جلدي ، فما أدري أيها ألين ، وأما الطعام فقد أكلت من لينه وطيبه حتى ما أدري أيه ألذ وأطيب ، وأما الطيب فقد دخل خياشيمي منه حتى ما أدري أيه أطيب .. فما شيء ألذ عندي من شراب بارد في يوم صائف ، ومن أن أنظر الى بنيَّ وبني بنيَّ يدورون حولي .. فما بقي منك يا عمرو ! » فقال : « مال أغرسه فأصيب من ثمرته وغلته ! » .

وقد اشتهر منه هـذا الحب للمال حتى عرضـه لظنون الخلفـاء واحدا بعد واحد . فقاسمه عمر ماله ، وعزله عثمان من ولاية مصر وهو يحسب انه قد استأثر بخراجها دون بيت المـال . وقال له معاوية يوما وهو يذكر له الحساب والعقاب والأوزار التي يثقل بها ميزان السيئات : هل رأيت بينها شيئا من دنانير مصر ؟

ومن ثَم تسابق الرواة في تقويم ثروته يوم وفاته ، فاعتدل صاحب « مروج الذهب » في وصفها بعض الاعتدال ، وبالغ صاحب « حيـاة

الحيوان » فقال : انه خلف « سبعين بهارا دنانير » والبهار من جلد الثيران ، قيل انه يسع اردبين !

ولقد كان النبي عليه السلام أدرى الناس بهذه الصفة في عمرو ابن العاص قبل أن يعرفه المسلمون أو المشركون بطول المراس وتعاقب الأعمال والمساعي وتفتق المطامع والآمال ، فولاه الإمارة في غزوة ذات السلاسل ، وقال له وهو يعرضها عليه : « اني أريد أن أبعثك على جيش فيسلمك الله ويغنمك ، وأزعب لك من المال زعبة صالحة » (١) فأجابه عمرو ، وهو يشفق أن يظن النبي باسلامه الظنون : « يا رسول الله ، ما أسلمت من أجل المال ، بل أسلمت رغبة في الاسلام » . فهون عليه النبي ما خامره من الظن ، ودفع عنه وهمه وهو يقول : « يا عمرو .. نعمّا بالمال الصالح للمرء الصالح » .

ثم عهد اليه فى ولاية الصدقة بعمان ، فبقيت له الى أن تولى أبو بكر الخلافة فرغبه فيما هو خير منها .

وظل الرجل يسائل نفسه عن حفاوة النبي به الى آخر حياته ، فروى الحسن البصري أن بعضهم قال له — أي لعمرو — : أرأيت رجلا مات رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو يحبه ، أليس رجلا صالحا ؟ قال : بلى . فقال محدثه : قد مات رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو يحبك ، وقد استعملك . قال : « بلى .. فوالله ما أدري أحباً كان لي منه أو استعانة بي » ..

* * *

ومن خصائص هذا الطموح الذي لزمه من صباه الى ختام حياته ، انه كان كما رأينا طموحا قائما على مطالب الواقع في بواعثه ومراميه ، فكانت نظرته الى الدنيا نظرة عملية معروفة الموارد والمصادر ، ولم تكن تلك النظرة الخيالية التي يتسم بها أصحاب الحماسة والأحلام من ذوي الطموح .

(١) الزعبة من المال بالفتح والضم : الدفعة والقطعة .

ومناط الرجحان في تلك النظرة العملية انما هو الأخذ بالأحوط والأنفع في كل أمر من الأمور ، ما كبر منها وما صغر ، حتى ليكاد الأحوط والأنفع أن يكون عنده مقياسا للحق أو لصحة الأشياء ، على نحو يشبه مقياس القائلين بفلسفة الذرائع Pragmatism في عصرنا الحديث .

فلم نعرف قط حكما من أحكامه في أجل الأشياء فارقته تلك النظرة العملية ، أو ذلك المقياس الموكل بالأحوط والأنفع في ترجيح جانب على جانب وطريقة على طريقة .

وحسبك من جلائل الأحكام في أعظم مطالب الحياة حكمه في مسألة العقيدة الاسلامية ، وحكمه في مسألة الخلافة ، وهما أعظم ما عرض له من المشكلات التي تتطلب الترجيح والتفضيل ، وكلاهما قد حكم فيه على سنة الأحوط والأنفع بين مختلف الوجوه .

فلما استراب المشركون في ميله الى الاسلام أوفدوا اليه من يسأله في ذلك ، فلم يكاشفه بالحقيقة لأول وهلة ، بل واعده الى مكان منفرد وقال له : أنشدك الله الذي هو ربك ورب من قبلك ومن بعدك ، أنحن أهدى أم فارس والروم ؟ قال صاحبه : اللهم بل نحن . فسأله : أفنحن أطيب معاشا وأوسع ملكا أم فارس والروم ؟ قال صاحبه : بل فارس والروم . فقال عمرو : فما ينفعنا فضلنا عليهم في الهدى ان لم تكن الا هذه الدنيا وهم أكثر فيها أمرا . ثم عاد فقال : قد وقع في نفسي أن ما يقول محمد من البعث حق ، ليجزى المحسن في الآخرة باحسانه والمسيء باساءته . هذا يا ابن أخي الذي وقع في نفسي ولا خير في التمادي في الباطل .

وخلاصة هذا البرهان العملي ان الاسلام أنفع للعرب وأصلح للدنيا والآخرة ؛ فهو أحق بالتصديق وأجدر بالاتباع .

ولبث في مشتجر الخلافة لا يميل الى طرف من أطرافها ، حتى انحسر الخلاف كله عن حزبين اثنين لا ثالث لهما ؛ فوجب عليه أن يخرج من

عزلته لينصر أيهما ، وهما حزب عليّ وحزب معاوية .

فدعا بولديه عبد الله ومحمد فقال لهما : اني قد رأيت رأيا ولستما باللذين تردانني عن رأيي ، ولكن أشيرا عليّ . اني رأيت العرب صاروا عنزين يضطربان ، وأنا طارح نفسي بين جزّاري مكة ، ولست أرضى بهذه المنزلة ، فالى أي الفريقين أعمد ؟ قال له عبد الله ، وقد علمنا تقواه : ان كنت لابد فاعلا فالى علي . قال : اني ان أتيت عليا يقول لي : انما أنت رجل من المسلمين ، وان أتيت معاوية يخلطني بنفسه ويشركني في أمره .

وعلى هذا الأساس في التفضيل بين الطرق سلك أحب الطريقين اليه وأجدرهما عنده بالاتباع .

* * *

وأعانه على هذه النظرية العملية انه كان مالكا لزمام شعوره ، آمنا أن تضلّه الحماسة من ناحيتها أو يضلّه الحنان من ناحيته ، قابضا بعقله على جمحات العاطفة كما نسميها اليوم ، أو كما قال هو : « أبلغ الناس من كان رأيه رادّا لهواه ، وأشجع الناس من ردّ جهله بحلمه » .

فليس في جوامح الشعور ما هو أشد جماحا ولا أقرب أن ينفلت من قبضة العقل — من غضبة الغيور على عرضه ، أو حنان الواقف على جثة أخيه ، أو نخوة المتصدي للقتال بين معسكرين ، فهي هي الجوامح التي قلّ أن تراض وأن تثوب على المشيئة الى قوام..

ولكن عمراً قد راضها كلها على ما أراده في حينها وبعد حينها . وكانت رياضته لها وهو في عنفوان الصبا كرياضته لها وهو في أوج الكهولة قد أناف على الأربعين .

خرج مع عمارة بن الوليد المخزومي الى أرض الحبشة تاجرين ، وكان عمارة مولعا بالخمر والنساء ، فشرب وهما في السفينة فانتشى ، ونظر الى امرأة عمرو نظرة اشتهاء ، ثم همّ بتقبيلها ، بل أومأ اليها أن تقبله في قول صريح . فقال لها عمرو ، منقيا ما يكون من رجل

سكران بين المـاء والسماء : قبّلي ابن عمك ! فقبلته .. فلم يزد ذلك عمارة الا اغراء بالمراودة ، وجرأة على القحة ، ولمح عمر ا على حافة السفينة ــ وهو في سكرة من سكراته ــ فدفع به الى المـاء يظنه غير قادر على السباحة ، كما يغلب بين أبناء البـادية ، فسبح عمرو حتى نجا ، وسمع عمارة وهو يقول له غير آبه بحقده عليه : أما والله لو علمت يا عمرو انك تحسن السباحة ما فعلت ! فاذا هو قد جمع سـوء النية بحياته الى سوء النية بعرضه ومع هذا كله كظم عمرو ما بنفسه ، وظل يصانعه حتى تمكن من الكيد له عند النجاشي ، فأرسله في العراء مخبولا يعيش في الغربة عيش الأوابد حتى مات .. !

واشترك عمرو وأخوه هشام في حرب الشام ، وأخوه هذا ممن علم الناس في الصلاح وصدق البلاء . فاذا ثلمة في الطريق يتخطف المدافعون من يهجم عليها بالسيوف ، فهابها العرب وأحجموا عنها ، وطال ترددهم لديها . فاذا هشام يقدم عليها وهو ينادي في الجيش : يا معشر المسلمين اليّ اليّ ! أنا هشام بن العاص ! أمن الجنة تفرون ؟ وما زال يتقدم حتى خرّ قتيلا متعرضا في تلك الثلمة المرهوبة . فلما انتهى المسلمون اليها هابوا أن يدوسوه كرامة له ولأخيه . فكان عمرو أول من تقدم فداسه وهو يصيح بجنده : أيها الناس .. إن الله قد استشهده ورفع روحه ، وانما هي جثة . ثم أوطأه وتبعه الناس ، حتى تقطع وهو مشغول عنه بما هو أجدى وأعظم . فلما انتهت الهزيمة عاد اليه وجعل يجمع لحمه وأعضاءه وعظامه بيديه ، ثم حمله في نطع فواراه .. !

وبرز علي بن أبي طالب يوما في حومة صفين ، وقد طال أمد القتال ، فقال : يا معاوية ! علام يقتتل الناس ؟ ابرز الي أو أبرز اليك ، فيكون الأمر لمن غلب . وجاء في روايات شائعة ان عمر ا قال لمعاوية يومئذ : والله لقد أنصفك الرجل .. ! فظن معاوية انه يغرر به ويدفع به الى هلاكه طمعا في دولته ، فأقسم عليه ليخرجن للمبارزة التي أغراه بها ، فلما غشيه عليّ بالسيف رمى بنفسه الى الأرض وأبدى له سوءته ،

فضرب عليٌ وجه فرسه وانصرف عنه .

وكل هـذه أخبـار متوافقة يخيّل اليك انك ترى ابن العاص وهو نفعلها ويروض وقائعها رياضة الرجل الذي يعتز بقدرته على هواه ، وكأنه يأنف لدهائه أن يغتر بنزوات الساعة كما يغتر بها سائر الناس ، وكلها تعبر عن خليقة لاشك في صدقها عند ابن العاص ، وإن تمارى الناس في صدق الروايات ، ونعني بها خليقة النظرة العملية وغلبة العقل على الشعور .

ولا شك ان استحضار هـذا « الخلق العملي » لازم جدا للمؤرخ في كل خطوة يخطوها مع عمرو بن العاص في أحواله الفردية أو أحواله العامة ، لأنه سرى من مزاجه الى سياسته وطريقة التفاهم بينه وبين الناس ، سواء كانوا من الزملاء أو الرعية أو الأعداء . وقلما تظهر الطريقة التي يقتنع بها الرجل من شيء كما تظهر من الطريقة التي يُقنع بها الآخرين .

انظر مثلا إلى الفرق بينه وبين عبادة بن الصامت في اقناع عظماء القبط ببقاء العرب في مصر ، وانهم لن يتركوها وقد دخلوها ، ولن يرجعوا عن فتحها جميعا لرغبة في رشوة ولا لرهبة من قوة .

فان عبادة بن الصامت لم يزد على ان احتقر الدنيـا حين خوّف المقوقس عاقبة الايغال في بلده ، فكان توكيد حب الآخرة هو فحوى كلامه حين قال : ان غاية أحدنا من الدنيـا أكلة يأكلها يسد بها جوعه لليله ونهاره ، وشملة يلتحفها ، فان كان أحدنا لا يملك الا ذلك كفاه ، وان كان له قنطار من ذهب أنفقه في طاعة الله واقتصر على هـذا الذي بيـده . انما النعيم والرخاء في الآخرة ، وبذلك أمرنا الله وأمرنا به نبيّنا ، وعهد الينا ألا تكون همة أحـدنا من الدنيـا الا ما يمسـك جوعته ويستر عورته ، وتكون همته وشغله في رضوانه وجهاد عدوه .

أما عمرو فانه وقف مثل هـذا الموقف فلجأ الى الطعام ليقنع عظماء القبط بأن العرب غير تاركي مصر وقد دخلوها .

« أمر – كما جاء في الطبري – بجزر ، فذبحت ، فطبخت بالماء والملح ، وأمر أمراء الأجناد أن يحضروا ، وأعلموا أصحابهم ، وجلس وأذن لأهل مصر . وجيء باللحم والمرق فطافوا به على المسلمين ، فأكلوا أكلا عربيا : انتشلوا وحسوا وهم في العباء ولا سلاح . فافترق أهل مصر وقد ازدادوا طمعا وجرأة ، ثم بعث في أمراء الجنود في الحضور بأصحابهم من الغد ، وأمرهم أن يجيئوا في ثياب أهل مصر وأحذيتهم ، وأمرهم أن يأخذوا أصحابهم بذلك ، ففعلوا ، وأذن لأهل مصر ، فرأوا شيئا غير ما رأوا بالأمس ، وقام عليهم القوّام بألوان مصر فأكلوا أكل أهل مصر ، ونحوا نحوهم ، فافترقوا وقد ارتابوا وقالوا : كدنا . ويبعث اليهم – أي الى أمراء الجنود – أن تسلحوا للعرض غدا ، وغدا على العرض ، وأذن لهم فعرضهم عليهم ثم قال : اني قد علمت انكم رأيتم في أنفسكم انكم في شيء حين رأيتم اقتقار العرب وهون تزجيتهم ، فخشيت أن تهلكوا ، فأحببت ان أريكم حالهم وكيف كانت في أرضهم ، ثم حالهم في أرضكم ، ثم حالهم في الحرب ، فظفروا بكم ، وذلك عيشهم ، وقد كلبوا على بلادكم قبل أن ينالوا منها ما رأيتم في اليوم الثاني ، فأحببت أن تعلموا ان من رأيتم في اليوم الثالث غير تارك عيش اليوم الثاني وراجع الى عيش اليوم الأول .. »

وان هذا الضرب من البراهين لقائم عنده أبدا ، لايأتي عرضا في حادث من الجوادث ثم ينقضي بانقضائه . وكثيرا ما ذكر الطعام وهو يلجأ الى الاقناع ، فكان من كلامه : « أكثروا الطعام ، فوالله ما بطن قوم قط الا فقدوا بعض عقولهم ؛ وما مضت عزمة رجل بات بطينا » !

بل هو يقوّم الأخلاق والفضائل بقيمتها العملية وفائدتها الملموسة ، فالعدل مثلا فضيلة جميلة محبوبة ، ولكنها عند عمرو محبوبة لأنها سياسة حسنة لتوفير المال كما قال : « لا رجال الا بمال ، ولا مال الا بعمارة ، ولا عمارة الا بعدل » .

وإن ذلك لشأنه في تقويم كل قيمة ، وتفضيل كل فضيلة .

* * *

وفي أخلاق عمرو « عقدة نفسية » لا تفتأ تصادفنا عند المقابلة بين نقائضه ، كما تصادفنا في جميع العظماء من أمثاله وأشباههم في الطبيعة والملَكة ، ونعني بهم أولئك الذين يلتقي فيهم الطموح والحركة وضبط النفس في سبيل المطالب التي يطمحون اليها ، فما منهم أحد الا وجدت له نقائض من الحذر الشديد والاندفاع الشديد ، أو من ضبط النفس كأنه لا يعرف جمحات الشعور ، ومن المجازفة كأنه لايعرف الرويّة . وهي نقائض في الظاهر وليست بنقائض في الحقيقة ، لأن قوة الطموح تفسر لنا النقيضين ، فاذا هما مستمدان من ينبوع واحد وهو قوة الطموح . اذ ان هذه القوة الطامحة لا تزال مُحضِرة له الأمل شاخصا باهرا نصب عينيه ، فيهون عليه أن يكبح شعوره الجامح في سبيل الوصول الى أمله العظيم ، أو في سبيل المحافظة عليه بعد الوصول اليه .

ثم يثقل الكبح على هذا الطماح لقوته فيلتمس الرّوح منه والمنفس من قيده بالمجازفة ، كما يتوق الصائم الى العيد ، والفرس الملجم الى المِراح .

فساعة المجازفة هى ساعة التسريح من القيد ، وهى ألزم له من حالة التوسط التى لا قيد فيها ولا انطلاق .

وقد كان الذين يعرفون عمراً بالدهاء وكبح الهوى ، يعرفونه كذلك بالاندفاع والهجوم على المهالك . فقال عثمان يحذر منه الفاروق رضى الله عنهما : « ان عمر ا لجرىء الجنان ، وفيه إقدام وحب للإمارة ، فأخشى ان يخرج فى غير ثقة فيعرض المسلمين للهلكة » !

وشاعت عنه روايات فى المجازفة ، يخيل اليك انها من أطوار الحماسيين أصحاب الخيال ، لولا ان العقال يغرى بالانفلات من ربقته ؛

فيقدم الرجل الحذور على شطحات قد يحجم عندها صاحب الخيال المشبوب !

قيل انه تعرض للموت مرات ، لاقتحامه الحصون على أعدائه فى هيئة رسول أو محارب من عامة الجند فى جيش المسلمين . فلما طلب والى قيسارية رسولا من العرب يكلمه ذهب عمرو اليه ، فأعجب الرجل بحديثه وعقله ، وخطر له انه قد يكون أمير العرب فيستريح منهم جميعا بقتله ، فأمر له بجائزة وكسوة ، وبعث الى البواب : اذا مر بك فاضرب عنقه وخذ ما معه . قالوا : وتنبه عمرو ، أو نبّهه أحد الى المكيدة ، فرجع الى الوالى يقول : نظرت فيما أعطيتنى فلم أجد ذلك يسع بنى عمى ، فأردت أن آتيك بعشرة منهم تعطيهم هذه العطية ، فيكون معروفك عند عشرة خيرا من أن يكون عند واحد . فقال : صدقت ! عجّل بهم . وبعث الى البواب أن خلّ سبيله .

ورووا عنه فى الاسكندرية قصة تماثل هذه القصة ، وهى انه اقتحم بعض حصونها مع فريق من الجند ، ثم ارتدوا وبقى هو وثلاثة من صحبه ، فعرض عليهم الروم أن يخرجوا اليهم ليبارزوهم واحدا لواحد ، فتصدى هو للمبارزة ، لولا أن منعه صاحبه مسلمة بن مخلد ، ووقف دونه وهو يقول له : « ما هذا ؟ تخطىء مرتين ، فتشذ عنك أصحابك وأنت أمير ، وانما قوامهم بك ، وقلوبهم معلقة نحوك ، لا يدرون ما أمرك حتى تبارز وتتعرض للقتل ، فان قتلت كان ذلك بلاء على أصحابك . مكانك وأنا أكفيك ان شاء الله » ..

قالوا : ومَثَل بين يدى البطريق فعجب هذا من انفته وقوة جوابه ، فالتفت الى من فى مجلسه وقال لهم باليونانية : « يظهر من انفة هذا الرجل وكبَر نفسه انه من وجوه العرب ، وربما كان من كبار قوادهم فلا ينبغى ان تتخلى عن قتله » . وكان مولاه وردان يفهم اليونانية ، فأحب أن يريهم خطأهم ، ويبين لهم ان الذى يكلمهم انما هو رجل من عامة الجند ، فأسرع اليه فلطمه صائحا به : ما أنت ولهذا

يا لكع ! دع هـذا المقال لمن هو أولى منك بالكلام عن قومه ! فكانت هذه اللطمة سبب نجاته .

ورويت عنه روايات أخرى من هـذا القبيـل ، ان صحت كلها ، أو صح بعضها ، أو كانت كلها اختراعا من تلفيق الرواة ، فالدلالة التى لاشك فيهـا على كل حالة من هـذه الحالات ان الرجل كانت له شهرة بالمجازفة تقبل فيها أمثـال هذه الروايات ، وتدعو الى تلفيقها بما يشبه الواقع المعهود من أخلاقه .

وهو نفسه كان يقول ما ينم على هـذا الخلق فيه ، فهو القـائل : « عليكم بكل أمر مزلقة مهلـكة » ..

ولعله لم يفصح بكلمة من كلماته عن ضيقه بقيود الحكمة والسمت وكبح الهوى ، كما أفصح عنه بقوله وقد سئل عن أمتع اللذات ، اذ قال : « اسقاط المروءة » !

فهى كلمة الرجل الذى تقيد بالوقار ، حتى أصبح طرح الوقار عنده هو غاية ما يبتغيه من اللذة ويشتاق اليه ، وتقيـد بكبح الهوى حتى أصبحت المجازفة فى المزالق المهلـكة هى فرجة نفسه من ذلك الحجر الذى ضربه عليها .

أفنقول اذن انه شجاع مقدام ، أم نقول انه جبان حذور ؟

بل نقول انه شـجاع كما قال معاصروه وقد شـهدوه فى مواقف الاستبسال ومآزق الحرب والفزع ، ولكننا نعود فنقول ان شجاعتـه وكل فضيلة فيه انما كانت فى خدمة طموحه الى المجد الذى كان يسعى اليه ، فهو يضن بشجاعته أن يبذلها فى غير طائل ، ويتخذها وسيـلة الى غاية ، ولا يجعلها هى الغاية التى تنقطع دونها الوسائل .

وقد سأل هو صاحبه معاوية يوما : « والله ما أدرى يا أمير المؤمنين أشجاع أنت أم جبان ؟ » فقال معاوية :

شـجاعٌ اذا ما أمكنتنى فرصـــةٌ
وان لم تكن لى فرصـــةٌ فجبان

وبمثل هذا الجواب يستطيع عمرو أن يجيب من يسأله مثل ذلك السؤال ، الا انه كان أحوج الى الوثوب والمجازفة من معاوية ، فقد كان نسب معاوية ومكانته فى بنى أمية مع طول استعداده للملك مغنيا له عن عجلة الوثوب والمجازفة ، من حيث لا يستغنى عنه عمرو وهو مغموز النسب مخذول العصبية ، مضطر الى ادراك مطلبه قبل أن يفوته ، فلا تسنح لادراكه سانحة أخرى .

ومن ثم اختلف دهاؤه ودهاء معاوية ، كما قال مرة وهما يتساءلان عن العقل .. قال معاوية : ما بلغ من عقلك ؟ قال : ما دخلت فى شيء قط الا خرجت منه . فقال معاوية : لكننى ما دخلت فى شيء قط وأردت الخروج منه .

كل منهما بدهائه أشبه : عمرو فى اقتحام الطموح المغامر ، ومعاوية فى تؤدة المستقر الواثق ، وعمرو فى دفعة العبقرية ، ومعاوية فى روية التدبير الطويل .

ولعل هذه الحيلة الحاضرة التى كانت تجود بها عبقرية عمرو كخاطف البرق فى المآزق المطبقة ، هى التى كانت تزين له الهجوم على المورد وهو واثق من قدرته على الصدور ، فكان فى مجازفته شيء من الحيطة المجهولة ، تبقى مجهولة حتى تعلم فى الوقت المقدور ، فاذا هى مسعفة لا تخيب رجاءه فيها واعتماده عليها .

* * *

ولقد أحصى العرب دهاتهم فى الاسلام ، فعدوا أربعة هو منهم ، وجعلوا لكل منهم مزية يمتاز بها فى دهائه فقالوا : ان معاوية للروية ، وعمرو بن العاص للبديهة ، والمغيرة للمعضلات ، وزياد لكل صغيرة وكبيرة .

ونظن ان لو تكلم العرب باصطلاح هذه الأيام لقالوا : ان حيلة عمرو هى حيلة العبقرية المطاعة التى تتفتق له من حيث يعلم ولا يعلم ، وآيتها أنها عبقرية معبرة تلهم الخاطر السريع وتلهم التعبير عنه فى كلم

وجيز . وهذه هى العبقرية التى يختلط أمرها أحيانا على من يراقبونها فيتهمونها بالطياشة ، ويرمونها بدفعة التهور ، لأنهم يسلسلون أسبابهم فى بطء وتثاقل ، وهى تسلسل أسبابها فى سرعة وخفة ، فيبدو لها ما يظل خافيا عليهم ملتبسا فى أعينهم ، ولولا أنها واضحة عند صاحبها كل الوضوح لما تسنى له التعبير عنها بأسلوب يلائم ومضاتها فى السرعة والنفاذ

قيل لعمرو : ما العقل ؟ قال : الاصابة بالظن ، ومعرفة ما سيكون بما قد كان

وذلك هو الظن الذى يقول فيه القائل :

الألمَعِى الذى يَظنُّ بك الظنَّ
كأنْ قــدْ رأى وقد سَــمِعَا

والأصح أن يقال ان التعريف بالعقل هنا هو التعريف بعقل عمرو نفسه ، لأنه كان يجمع بين الفطنة والخبرة ، وبين التخمين واليقين ، ويأخذ مَنْ أمامَه بالنظرة الخاطفة ، فاذا هو قد وصل ، والذى أمامه لا يزال يتحرى سبيل الوصول

قيل فى غير الرواية التى قدمناها انه هو الذى وصف نفسه ووصف الدهاة الثلاثة معه على تلك الصفة ، وأنه اجتمع مع معاوية بن أبى سفيان مرة فقال له معاوية : من الناس ؟ فقال : أنا وأنت والمغيرة بن شعبة وزياد . قال معاوية : كيف ذلك ؟ قال أما أنت فللتأنّى ، وأما أنا فللبديهة ، وأما المغيرة فللمعضلات ، وأما زياد فللصغير والكبير .. قال معاوية : أما ذانك فقد غابا ، فهات بديهتك ياعمرو! قال : أو تريد ذلك ؟ فأجابه نعم ! فسأله أن يُخرج مَنْ عنده ، فأخرجهم . فقال عمرو : يا أمير المؤمنين ، أسارُّك فأدنى معاوية رأسه منه . فقال عمرو : هذا من ذاك ! من معنا فى البيت حتى أسارك ؟

وتصح هذه الواقعة أو لا تصح ، فهما يستويان . اذ الغرض الذى ترمى الى اثباته صحيح ، وهو أن تفكير عمرو تفكير بديهة حاضرة ، وأن

تفكير معاوية تفكير روية بطيئة ، ومرجع ذلك كما قدمنا الى سببين : أحدهما أصيل والآخر عارض ، فالسبب الأصيل أن عمر ا يصدر عن وحى العبقرية ، وأن معاوية صاحب عقل من العقول الوسطى التى أفادتها المرانة وتمثلت أمامها قدوة الآباء ، كأنها السِّجل المحفوظ الذى ينقل عنه نقل المحاكاة . والسبب العارض أن عمر ا مضطر الى الوثوب والاقتحام ، لأنه لن يُفتح له باب بغير اقتحام . أما معاوية ففى موضعه وانتظار ساعته على هينة ووثوق ، فان وصل فذاك ، وان لم يصل فالذى فى يده يغنيه ، والعجلة لا تغنى عنه ولا تنفعه كما تنفعه الأناة

***

والبديهة الحاضرة فى أعمال عمرو لا تحصى شواهدها ، فانها تلازمه فى جميع حالاته ، ولا تبدو منه فى حالة دون حالة : تذكيها المآزق والخوف من الخطر ، ولا تخمدها الطمأنينة والأمان فى سرية ، ويستخدمها لغيره كما يستخدمها لنفسه كما شاء

خرج يعسُّ بالليل وهو أمير على مصر ، فسمع أناسا يقعون فيه ويتوعَّدونه ، وعلم أنه ان تركهم الى غده لم يعرفهم ولم يظفر بأجمعهم فأقبل عليهم اقبال الخائف الطريد ، وأوهمهم أنه يلوذ بهم ويضرع اليهم ألا يسلموه الى الأمير لأنه يتعقبه ويمعن فى طلبه ، فاستَبَقوا الى تقييده وساقوه الى باب قصره لايتخلف أحد منهم طمعا فى المثوبة ، فأوصلهم الى حيث أراد !

وقتل الروم رجلا من المسلمين حول الاسكندرية ، واحتزوا رأسه وانطلقوا به الى داخل الحصن ، فأقسم أبناء قبيلته لا يدفن الا برأسه . قال عمرو : تتغضبون كأنكم تتغضبون على من يبالى بغضبكم ! احملوا على القوم اذا خرجوا ، فاقتلوا منهم رجلا ، ثم ارموا برأسه يرموكم برأس صاحبكم . فلما فعلوا اذا برأس صاحبهم يسقط عليهم ، فقال : دونكم الآن فادفنوه برأسه

أما البديهة الحاضرة فى تعبير عمرو ، فمسطورة الشواهد فى مساجلاته وأجوبته ورسائله وأوصافه ، فهى جميعا مثل من أمثلة الايجاز والمضاء ، كأنها ضرب من الاختزال لولا أنها واضحة وضوح التفصيل . وقد رويت له مقطوعات من الشعر تسلكه بين طبقة من الشعراء ، لولا أن كلمات البديهة التى أثرت عنه قد غلبت على نظمه ونثره ، فكانت أولى بالدلالة على العارضة القوية فيه ، وهى أنبغ ملكاته . وحسبك من نبوغ هذه الملكة فيه أنها كانت عند الفاروق من آيات قدرة الله ، فكان اذا رأى رجلا يتلجلج فى كلامه قال : آمنت بالله !.. خالق هذا وخالق عمرو بن العاص واحد !

***

واذا اجتمع للرجل ذكاء ماض ، وعزيمة ماضية ، ولسان ماض ، وهوى يمضى فى زمامه ، وينثنى بعد عرامه ، فذلك الرجل الذى يحسب له حساب فى كل زمان وجد فيه

ولكنه أحرى أن يحسب له كل حساب فى أيام الفتن والقلاقل واختلاف الدعاوى والحقوق ، لأنه يستطيع التفريق والتوفيق ، ويستطيع التأليب والتغليب ؛ وعسير جدا أن يُهمَل شأنه بين الشِّيَع والأحزاب ، وان لم يكن إهماله فى غيبة الشيع والأحزاب جِدّ عسير

لهذا لم يظهر لعمرو بن العاص شأن ذو بال فى الترشيح للخلافة بعد الفاروق ، بل عُدّ دخوله فى هذا الأمر من الفضول والتظاهر بما ليس من قدره . فلما اجتمع رهط الشورى فى بيت عائشة لانتخاب الخليفة أقبل هو والمغيرة بن شعبة فجلسا بالباب ، فحصبهما سعد بن أبى وقاص وأقامهما من مكانهما وهو يهزأ بهما قائلا : تريدان أن تقولا حضرنا وكنا فى الشورى ؟!

فما زالت الأيام تدور دوراتها حتى أصبح هذا المحصوب الذى استُكثِر عليه الجلوس بباب أهل الشورى ، فاذا هو قبلة القُصّاد فى مشكلة الخلافة ، وكل من عداه لائذون بالأبواب .. !

ولا نختم الكلام فى التعريف بعمرو حتى نومىء الى تعريف له طريف من كلام مجالد عن الشَّعبى عن قبيصة عن جابر فى رواية النجوم الزاهرة ، حيث قال بعد كلام فى وصف نفر من الصحابة : « ... وصحبت عمرو بن العاص فما رأيت رجلا أنصع ظرفا منه ، ولا أكرم جليسا ، ولا أشبه سريرة بعلانية منه »

والطريف فى هذا الوصف مشابهة السريرة والعلانية فى الرجل الذى لم يشتهر بشىء كما اشتهر بالدهاء

فهل فرط الدهاء خيَّل الى الرجل الطيب الذى وصفه بتلك الصفة أنه أشبه الناس سرا بعلانية ؟

أو هو الصدق رآه الرجل الطيب فوصفه كما رآه غير مبال بمن يستغرب هذه الغريبة أو تخامره الشكوك فيها ؟

اننا فى الحق لا نستبعد أن يكون عمرو بن العاص شبيه السر بالعلانية فى جميع الأمور التى لا يعنيه أن يكتمها أو يلوذ فيها بحيطته ودهائه !

فقد عهد فى كثير من الدهاة أنهم ينطلقون بالحديث ، ولا يتحرزون من الصراحة فى أخطر الأمور . وقد أثر هذا عن بسمارك كما أثر عن بيكنسفيلد من دهاة الأوروبيين فى الزمن الأخير

ومعظم هؤلاء الدهاة يحبون ارسال النفس على السجية ، ويشبهون المهرة من اللاعبين الذين يلعبون « على المكشوف » ، كما يقولون فى عرفهم ، ثقة منهم بالقدرة على الاصابة والسداد ، أو يشبهون الفارس الذى يخلع شِكَّته من حين الى حين مباهاة ببأسه واقتداره ، ولا سيما اذا كان هؤلاء الدهاة ممن امتزجت بهم نزعة المغامرة والطموح البعيد

ويلوح من جملة أخبار عمرو مع معاوية على التخصيص أنهما كانا فى الصلة التى بينهما يؤثران اللعب المكشوف ولا يضيعان الوقت فى مِراء يعرفانه ولا يجهلانه . وقد كانت مساومة عمرو لمعاوية صريحة لا مداجاة فيها ، فقال له : « أترى أننا خالفنا عليًا لفضل منا عليه ؟ لا والله ! ان هى

الا الدنيا تتكالب عليهـا . وايم الله لتقطعن لى قطعـة من دنياك أو لأنابـذنّك ... »

***

وعلى هذا النمط كانت المساومات بينهما فى معظم الأحاديث المروية عنهما ، فاذا عمد أحدهما الى المداورة لم يلبث أن يرتد الى الصراحة وقد رأى عين صاحبه واقعة على أخفى خفاياه !

فغير بعيد اذن أن يكون عمرو من الظرفاء الصرحاء فى أحاديث المجالس وعروض الكلام المشاع ، وليس فى شىء من هذا ما ينـاقض صفته التى خرجنا بها من جمـلة أحواله ومساعيه ، وهى صفة الرجـل العملى ، الطموح ، الذكى ، الذى يكبح هواه ، وينفلت منه بين الحين والحين فى نوبات مجـازفة ، تغريه بها وثبات العبقرية وضرورة الاقتحـام ، ويهونها عليه اقتداره على رد الزمام الى يديه ، وابتداع الحيلة المسعفة حيث شاء

أما العربي الناشيء فى الحاضرة فالأغلب الأعم أن يستقل ببيته وعمله بعد زواجه ، ويصدق هذا على عمرو خاصة ، لأننا لم نقرأ من أخباره وهو عامل فىالتجارة أنه كان يصحب أباه فى رحلاته الى الحبشة والشام . وربما دل على استقلاله بمعيشته البيتية أنه كان يصطحب زوجه فى سفره ، كما جاء فى النبأ المشهور عن احدى رحلاته الى الحبشة ، وانه لكذلك دليل على شبيبة حازمة غير لاهية ، جديرة أن تضطلع بأدب الأسرة ، ولا تعيش فى الغربة عيث الاباحية التى شاعت بين فتوة الجاهلية

وقد داول فى شبيبته بين الجزارة والتجارة ، وظل يداول بينهما الى ما بعد إسلامه وانقضاء صدر من الاسلام ، الى قيام الفتنة بين على ومعاوية . ففى مشاورته لولديه بين اللحاق بهذا أو بذاك ، كان يشكو معيشته بين « جزارى مكة » ويطمح الى مقام أكرم له من هذا المنام

وللتجارة فى سيرة عمرو شأن أعظم من شأن المرتزق أو الصناعة التى يكسب بها مؤونة عيشه ، لأنها ولا ريب كانت مدرسته الكبرى التى تعلم فيها ما تعلم من أحوال الحياة وخلائق الناس ، بل كانت مدرسته الكبرى فى السياسة والفتوح : من سياحاتها تلقى علمه الأول عن الأمم والبلدان ، ومن سياحاتها نفذ الى عيوب الحكم ومواقع الخلل فى الدول التى كانت له يد فى الاشارة بفتحها وسوق الجيوش اليها ، وتهوين الأمر على الخلفاء حين خامرهم التردد فى القدرة عليها

وكانت سياحاته التجارية خليقة أن تطلعه على أسرار دخيلة ليس يفطن لها كل سائح ، لامتيازه بنفاذ البصر وبلوغه مرتبة الحظوة عند بعض الأمراء الذين كانت له تجارة فى بلادهم ، ومن تلك الحظوة أن نجاشى الحبشة قد ألفه وعوّده أن يلقاه كلما عاد اليه لقاء المودة ، ويستمع له فى خاصة أهله ويدعوه أحيانا بالصديق

وسنجتزىء من أخبار سياحاته بطائفة قليلة فيها الغنى عن سائر تلك الأخبار ، وفيها كذلك غنى فى الابانة عن كثير مما يستحق الجلاء من خلائقه ومساعيه

مِنَ التِّجارةِ إلى الإمارة

من الطمع الكثير أن تتطلع الى تاريخ مفصّل لطفولة عمرو بن العاص، أو لطفولة عظيم من عظماء عصره فى البلاد العربية خاصة ، لأن أبناء العصور القديمة قلما حفلوا بالطفولة أو حفلوا بأخبار الرجال — كبارهم وصغارهم — الا بمقدار اتصالها بالحوادث الجامعة . فهم حينئذ يدخلون فى حوزة التاريخ ويذكرون فى سياق الحوادث التى لهم بها اتصال

ولكننا نستطيع أن نقول على ثقة ان عمرا الطفل قد تعلم كل مايتعلمه أطفال العرب المقيمين فى الحاضرة ، لأنها السنّة العامة التى لا موجب للشذوذ عنها ، ولأننا نعلم ذلك وزيادة عليه من أخباره وهو فى طور الشباب والكهولة ، فنعلم أنه كان يحسن ركوب الخيل والسباحة ، ويحسن الضرب بالسيف ، وينظم الشعر ، ويعرف الكتابة كما كان يعرفها نفر من أبناء التجار النابهين الذين يرشحهم آباؤهم للعمل فى التجارة

وقد عصمه اعتزازه بالنسب أن ينظم الشعر للتكسب بالمدح والهجاء على عادة « المحترفين » من شعراء زمانه ، وانما كان ينظمه للتنفيس عن نفسه ، ويجرى به خاطره كما كانت تجرى به خواطر الوجوه من رؤساء العشائر فى معارض العظة والاعتبار

والظاهر من أخبار نشأته الأولى كما أسلفنا أنه بكّر بالزواج لأن الفارق بين سنه وسن ابنه عبدالله غير كبير . ومن ثم يجوز لنا أن نفهم أنه استقل بمعيشته وهو فى مَيْعة الشباب ، ولا سيما اذا ذكرنا أن أمه لم تكن سيدة الدار فى كَنَف أبيه

فربما تزوج الفتى الناشىء من أهل البادية ، ولم يستقل بالمعيشة بعد زواجه ، لأنه يعمل هو وزوجه فى رعى الابل له ولأبيه فى محلة واحدة

خرج الى الحبشة فى شبابه مع فتى عربيد من بنى مخزوم يدعى عمارة ابن الوليد ، (وقد سبق ذكر هذه الحادثة على ايجـاز) . فشربا فى السفينة خمرا ، فسكر عمارة ونظر الى امرأة صاحبه نظرة مريبة وسألها أن تقبّله ، فكظم عمرو غيظه وقال لامرأته وهو يسر فى نفسه شيئا : قبلى ابن عمك ! فقبلته

وطمع عمارة فلج فى غيّه ، وتمادى فى مراودة المرأة خلسة وعلانية ، وهى تمتنع عليه ، فظن أن امتناعها لخشيتها من زوجها ، وأنه بالغ مأربه اذا قذف به الى البحر على غرة منه ، فأمهل عمراً حتى دنا من حافة السفينة ودفع به الى الماء ، ثم أمعن فى حماقته فصارح عمراً بسـوء قصده ، وقد نجا هذا سابحا من الغرق وعاد الى السفينة ، فقال له قولة تنضح بالحمق والغفلة : أما والله لو علمت يا عمرو أنك تحسن السباحة ما فعلت ! أى أنه كان ينوى له قتلة لا سلامة منها ، فنجا وهو كاره لنجاته !

وتمضى الرواية فتنبئنا أن عمارة كان وسيما محببا الى النساء ، فدب الى حرم النجاشى وخرج يفخر لعمرو بفعلته ويحدثه بنجواه مع خليلته ، وعمرو يظهر له التكذيب ليستخرج منه دليل اليقين الذى لا يشـك النجاشى فى صدقه اذا نمى اليه ، حتى ظفر منه بذلك الدليل ، فأورده موارد الهلكة فى خبر طويل لا محل هنا لاستقصائه .. !

هذا خبر من أخبار رحلاته الى الحبشة

وخبر آخر من أخبار رحلاته الى تلك البلاد رواه هو فقال ما فحواه : « جمعت رجالا من قريش بعد مُنصَرَف الأحزاب من الخندق فقلت لهم : انى لأرى أمر محمد يعلو الأمور علوا منكرا ، وانى قد رأيت أن نلحق بالنجاشى فنكون عنده . فان ظهر محمد على قومنا كنـا عنـد النجاشى ، فلأن نكون تحت يديه أحب الينا من أن نكون تحت يدى محمد ، وان يظهر قومنا فنحن من قد عرفوا فلا يأتينا منهم الا خير . قالوا : ان هذا لرأى قلت : فاجمعوا له ما يُهدَى اليه . وكان أحب

ما يهدى اليه من أرضنا الأدم ، فجمعنا له أدما كثيرا ، ثم خرجنا حتى قدمنا عليه . وانا لعنده اذ جاء عمرو بن أمية الضَّمْرى من قبل رسول الله ، قد بعثه اليه فى شأن جعفر بن أبى طالب وأصحابه . فقلت لأصحابى : هذا عمرو بن أمية الضمرى ، لو قد دخلت على النجاشي وسألته اياه فأعطانيه فضربت عنقه ، رأت قريش أننى أجزأت عنها حين قتلت رسول محمد ..

« فدخلت عليه فسجدت له كما كنت أصنع ، فقال : مرحبا بصديقى ! أهديت لى شيئا من بلادك ؟ قلت : نعم أيها الملك . قد أهديت لك أدما كثيرا ، ثم قربته اليه فأعجبه واشتهاه !!

« ثم قلت : أيها الملك ! انى قد رأيت رجلا خرج من عندك وهو رسول رجل عدو لنا ، فأعطنيه لأقتله ، فانه قد أصاب من أشرافنا وخيارنا ..

« فغضب ، ثم مد يده فضرب بها أنفه ضربة ظننت أنه قد كسره . فقلت : والله أيها الملك لو ظننت أنك تكره هذا ما سألتكه . قال : أتسألنى أن أعطيك رسول رجل يأتيه الناموس الأكبر الذى كان يأتى موسى لقتله ؟! فراعنى ما سمعت وسألته : أيها الملك أكذاك هو ؟ قال : ويحك ياعمرو ! أطعنى واتبعه ، فانه والله لعلى الحق ، وليَظهرَنَّ على من خالفه كما ظهر موسى على فرعون وجنوده . ثم بسط يده فبايعته على الاسلام »

***

أما رحلاته الى غير الحبشة فالذى لا شك فيه أنه قد رحل الى الشام وبيت المقدس ، وحمل اليهما بضاعة من اليمن والحبشة والحجاز ، ولكن الذى تحيط به الشكوك رحلة له الى مصر ، يوشك — لولا ما فيها من الخرافة — أن تكون أقرب الرحلات الى التصديق ، لأن جهله بمصر أدعى الى الشك من بعض الخرافات ، فان لم تكن رحلة اليها فعلمٌ بها على الأقل يساوى العلم بالمشاهدة والاختبار

وخلاصة هذه الرحلة ، كما تناقلها مؤرخو العهد ، أن عمر آ كان يرعى ابله وابل أصحابه فى جبال بيت المقدس ، تنوبا بينه وبين أولئك الأصحاب . فبينما هو يرعى اذ أقبل اليه شماس يكاد يهلك من العطش ، فسقاه عمرو حتى روى ، وتركه ينام مستريحا الى جواره ، وانه لنائم اذ خرجت عليه حية عظيمة ، فقتلها عمرو قبل أن تصل اليه . فاستيقظ الشماس وشكره وقبّل رأسه ، وقال له : لقد أحيانى الله بك مرتين : مرة من شدة العطش ومرة من هذه الحية ، فكم ترجو أن تصيب من تجارتك ؟ قال : أرجو أن أشترى بعيرا فتكون لى ثلاثة أبعرة ، فسأله الشماس : كم دية أحدكم بينكم ؟ فأجابه عمرو : انها مائة من الابل .. فقال الشماس : لسنا أصحاب ابل ، نحن أصحاب دنانير . فكم تكون الدية بالدنانير ؟ قال : ألف دينار

عند ذلك أنبأه الشماس أنه غريب فى بيت المقدس ، قدم اليه وفاء بنذر قديم ، وسيعود الى اسكندرية بلده ، وعليه عهد الله لئن صحبه اليها ليعطينه ديتين ، لأن الله تعالى قد أحياه به مرتين

وسأله عمرو : كم يكون مكثه فى هذه الرحلة ؟ فأخبره الشماس أنه شهر ، ينطلق فى ذهابه عشرا ، ويقيم بالاسكندرية عشرا ، ويعود فى عشر

فانطلق عمرو وصاحب له حتى انتهوا الى الاسكندرية ، فرأى من عمارتها وثروتها ما أعجبه ، ووافق دخوله اليها عيداً يجتمع فيه ملوكهم وأشرافهم يترامون بكرة من ذهب ، ويحفظون فيما اختبروه منها أن من وقعت فى كمه لم يمت حتى يملك عليهم . فلما جلس عمرو والشماس على مقربة من ملعب الكرة ، أقبلت تهوى حتى وقعت فى كم عمرو ، فتعجب القوم لأنها لم تكذبهم خبرها فى مرة من المرات ، وتساءلوا : أترى هذا الأعرابى يملكنا ؟

ثم حدّث الشماس قومه حديث انقاذه على يدى عمرو ، فجمعوا له المال الذى وعده به ، وردّه محروسا مكرما الى أن بلغ أصحابه

تلك خلاصة القصة التى تناقلها المؤرخون عن رحلة عمرو الى مصر قبل اسلامه ، وهى قصة مريحة فى تلفيقها ، لأن القارىء لا يتعب فى الاهتداء الى مواضع التلفيق منها . فلا يخفى على قارىء من قراء العصر الحاضر موضع التلفيق من حكاية الكرة ، ولا موضع المبالغة من حكاية الدنانير . وشفاعة القصة الوحيدة أنها تروى لنا مدخل عمرو مصر على أقرب الوجوه أن يكون هو الوجه الصحيح ، وهو النظر الى شعبها وحكومتها وعمارتها ومجمل أحوالها فى صحبة شماس يريه من أسرار ذلك جميعه ما لا يراه فى صحبة رجل غيره ، اذ كان الشماسون يومئذ أعرف الناس بحقائق الخلاف بين الحكومة والكنيسة وبين شعب الكنيسة فى داخلها ، وكان عمرو خليقا أن يعرف منه مصر تلك المعرفة التى هونت عليه الهجوم على فتحها بذلك العدد القليل من الجند ، وتلك العدة القليلة من السلاح

الا أن هذه القصة على أية حال ليست مرجعنا الوحيد فى العلم بزيارة عمرو للديار المصرية ، فقد روى الكندى أنه كان يحمل التجارة اليها كما كان يحملها الى بيت المقدس والشام

والغريب حقا ألا يكون عمرو قد زار مصر فى جاهليته مرة أو مرات ، ويتجاوز حد الغرابة أن يكون قد وصل الى تخوم مصر تاجرا ومقاتلا ولم يسمع من أخبارها الوافية ما فيه غنى عن الزيارة !!

فلا شك أنه قد علم من أخبارها فى جاهليته وبعد اسلامه شيئا غير قليل ..

***

ومن وسعنا على الجملة أن تتخيل حياة عمرو فى الجاهلية على النحو الذى وصفته لنا حكايات الرحلة الى الحبشة والشام ومصر ، بما يتخللها من أفانين الاختراع والتزويق ، فلن تكون على نحو غير النحو المعقول من تلك الحكايات بعد اخلائها من الأخلاط التى لم تخل منها قصة قديمة من قبيلها

وقد ظهرت الدعوة المحمدية وعمرو بن العاص يعيش فى الحجاز هذه المعيشة ، أو يضرب فيما حوله على النحو الذى رأيناه ..

فكيف كان لقاؤه الأول للاسلام ؟ وكيف جاوب هـذا الرجل تلك الدعوة الطارئة عليه ؟

أوجز ما يقال أنه جاوبها كما ينتظر أن يجاوبها رجل مثله فى مثـل طبيعته وعمله وخبرته بما حوله

جاوبها على سنة الحيطة العملية ، التى لا تقدم على الأمر الا اذا زالت جميع الموانع من طريقه ، وتبينت دواعى الاقبال عليه ، فعـارض الاسلام فى حياة أبيه ، لأنه كان يعتز باسمه ويعتز بالعصبية التى تعلق بها جميع فخره ، أو جميع سلواه من حطة نسبه الى أمه

ومات أبوه ، فظل يعارض الاسلام لبقية أمل عنـده فى غلبة قريش واخفاق هذه الدعوة الواغلة عليها

وانهزمت قريش مرة بعد مرة ، فلم ييأس من رجعة النصر اليها ، ولم يستسلم لأمله فى انتصاره ، بل فكر فى الحبشة يلوذ بها وينتظر العاقبة فيها ، فيستبقى مودة قريش اذا انتصرت ، ولا يصاب بهزيمتها اذا هى أطبقت عليها الهزيمة ، ويأمن على نفسه فى الحبشة وعند صاحبه النجاشى ما استقر به المقام فيها

لكنه لقى النجاشى فاذا هو صديق للنبى العربى ، لا يغضبه ولا يفرط فى رسله ودعاته .. !

ويجوز أن النجاشى قد أحس صدق النبى وعلم ما بين الاسـلام والمسيحية من المقاربة والمناسبة ، فاستنكر أن ينصر ديانة الأوثان على ديانة التوحيد !

ويجوز أنه نظر الى الدعوة النامية نظرة حكمة وسداد ، فأبى أن يناهض صاحبها وهو موشك أن يسود الطريق بين الحبشـة ودولتى الفرس والروم ، وأن يشرف على مسالك التجارة بين أقطار العالم المعمور

وعلى كلتا الحالتين ليس هو بالعون لعمرو فى تربصه بالاسلام وكيده

لنبى الاسلام من قريب ومن بعيد !

وليس عمرو — فى حيطته العملية — بالذى يحارب قضية تؤيدها هذه الطوالع فى بلادها وغير بلادها ، ولا هو بالذى ينصر قضية لقريش قد خذلتها هذه الخواذل ، وحاق بها الفشل من نواحيها ، وذهبت مولّية تمعن فى توليها ولا تؤذن باقبال ..

هنا تفتح الحيطة سبيل التأمل والتفكير .. !

ومن دأب أصحاب هذه العقول أنهم يستنفدون أسباب الحيطة أولا ، ثم يتأملون ويفكرون ، فلا يمنعهم مانع أن ينفذوا الى اللباب ، وأن يدركوا ما هم أقدر على ادراكه من الآخرين ، لولا ما كان يعوقهم من طبيعة التربص والانتظار . واذا أدركوا ، فهم كذلك انما يدركون على ديدن الحيطة والموازنة بين الأمور والمقابلة بين طريق وطريق .. فما باله لا يفكر فى هذا الاسلام الذى لبث من قبل معرضا عنه مصرًّا على إبائه ؟..

ألا يجوز أن يكون خيرا وأبقى ؟ بلى هو خير وأبقى ، لأنه يكفل حياة الدنيا والآخرة ، ويعوض العرب عن ضنك العيش ، فلا تكون قسمتهم دون قسمة الفرس والروم ، وهم أصحاب العيشة الرخية فى هذه الحياة الدنيا

ففيه مرضاة للعزة العربية ، ومرضاة للحيطة ، ومنفس للأمل فيما بعد الموت ، وفيه المحيص حيث لا مَحِيص

أيفهم من هذا أن عمرا لم يسلم عن يقين وخلوص نيه ؟..

كلا ! بل يفهم منه أنه أسلم كما ينبغى لصاحب هذه الطبيعة أن يسلم أو يؤمن بعقيدة من عقائد الفكر والروح

فالاسلام لا يمنع اختلاف الطبائع وأساليب التفكير ، ولا يستلزم أن يكون طريق الناس الى فهم العقيدة واحدا لا تفاوت فيه

ومن المستحيل أن يكون الرجل مطبوعا على الحيطة دون أن يكون لذلك الطبع أثر فى اسلامه ، أو يكون مطبوعا على الشك والتردد ثم

يخلو منها ساعة تفكيره فى التدين والاعتقاد ، أو يكون شجاعا ويسلم اسلام الجبان ، أو جبانا ويسلم اسلام الشجاع .. !!

فاذا أسلم رجل كما ينبغى لطبعه وخلقه ، فقد أسلم اسلامه الصحيح ، ولا عجب أن يخالفه آخرون فى دواعيهم التى جذبتهم الى الاسلام ، فانما العجب أن يتفق الناس وهم مطبوعون على اختلاف !

ومن سيرة عمرو بعد اسلامه نعلم أنه كان يتعبد ، ويتصدق ، ويستغفر من ذنوب وقع فيها ، ويقيم الصلاة ، ويسرد الصوم ، ويعيش بين ذويه مسلما وكلهم مسلمون ، وأدركته الوفاة فبكى لما أضاع من أيامه فى جمع الحطام ، وود لو يأخذه منه من يحمل وزره ، وهو هنا أيضا يستقبل الموت استقبال المسلم الذى لا شك فى اسلامه ، والا لكان رضاه بترك المال لذويه أولى من أسفه لجمعه وحفظه . ولكنه كذلك لم يخرج عن طويّة طبعه الذى لا حيلة له فيه ، فهو يأخذ بالأحوط فى حفظ المال ما قدر على حفظه ، ولا يضيعه الا وهو قادر على تضييعه ناجيا من وزره ، آملا أن ينجو من حسابه !

***

مسلم لا شك فى اسلامه ، ولا شك فى طبعه ، ولا شك فى اختلاف الطبائع بين المعتقدين جميعا فى كل دين من الأديان ورأى من الآراء

فلما فتحت له الحيطة باب التفكير فى الاسلام أقبل عليه وود لو يغنمه بريئا من عقابيل الجاهلية ، لأنه نفض يديه منها وأيقن بضلالها

قال وقد اعتزم لقاء النبى عليه السلام ما فحواه : « فلقيت خالدا فقلت : ما رأيك ؟ قد استقام المَنْسِم ، والرجل نبى . فقال خالد : وأنا أريده . قلت : وأنا معك ... وقال عثمان بن طلحة : وأنا معك ... وكنت أسنّ منهما ، فقدمتهما لأستدبر أمرهما . فبايعا على أن يُغفر لهما ما تقدم من ذنوبهما . فأضمرت أن أبايعه على ما تقدم وما تأخر . فلما بسط يده قبضت يدى ، فقال عليه السلام : مالك يا عمرو ؟ قلت : أبايعك يا رسول الله على أن يغفر لى ما تقدم من ذنبى . قال : ان الاسلام

والهجرة يَجُبّان ما كان قبلهما . فبايعتَه ، والله ما ملأت عينى منه وراجعته بما أريد حتى لحق بربه ، حياء منه »

وقد كان ذلك فى السنة الثامنة للهجرة على أرجح الأقوال ، ويؤخره بعضهم الى ما بعد فتح مكة بزمن وجيز

***

ولقد كانت رحابة صدر النبى عليه السلام تَسَع الناس جميعا ، ولا تضيق بأحد من مختلف الطوائف والطباع : سُنّة النبى الكريم الذى يدعو الناس جميعا ، ولا يخص منهم فئة دون فئة ولا خليقة دون خليقة ، فكان يتقبلهم مرحّبا بهم مشجعا لهم راجيا أحسن الرجاء فيهم ، كلاً وما فُطر عليه ، وكلاً وما تؤهله له فطرته وشأنه . وقلّما ذهبت هذه السماحة سدى فى نفس مسلم أقبل على الاسلام ، سمح الاقبال أو مشوب السماحة بشىء من عقابيل الجاهلية . فكان أول أثر من آثار هذا الكرم النبوى أن يتسامى المسلم الى المنزلة التى رفعه ذلك الكرم النبوى اليها ، ومنهم من كان يستكثر الثقة الرفيعة التى ظفر بها فيعمل على استحقاقها والمحافظة عليها ، ويشفق أشد ما يشفق أن يداخل النبىَّ طائف من الظن بصدق نيته وخلوص إيمانه

وطالما أشفق عمرو بن العاص هذا الاشفاق ، وود لو تخلص له ثقة النبى على أحسن ما يتمناها ، لأنه ما زال يستكثر الثقة التى ظفر بها ، ويرى فيها من كرم النبوة أكثر مما يراه من حقه واستحقاقه .

فلما رشحه عليه السلام لبعثة يسلم منها ويغنم ، أسرع قائلا : ما أسلمت من أجل المال ، بل أسلمت رغبة فى الاسلام !

وظل الى ما بعد وفاته عليه السلام بسنين عدة يسائل نفسه عن تولية النبى له : والله ما أدرى أكان ذلك حبا لى أم استعانة بى !

ونخال انه لم يكن يملأ عينه من النبى كما قال ، حذرا من هذا الذى يساور نفسه ان يبدو من لحظه ، فتلتقى به نظرة من تلك النظرات النبوية النفاذة على ما بها من الطيب والسماحة .. وان طموحه الى

ثقة النبى لهو الذى جعله يقول كما قد قال فى بعض أحاديثه : « ما عدل بى رسول الله صلى الله عليه وسلم وبخالد بن الوليد أحدا من أصحابه فى حربه منذ أسلمت » !

الا أن هـذا القلق الذى كان يعتاده من حين الى حين انما كان مبعثه ما ركب فى طبعه من ظنون الدهاء ودخيلة الحيطة ، أو المساءلة الباطنية التى لا تريح أصحابها ممن جبلوا على غراره

أما مسلك النبى معه فقد كان قوامه ذلك الأدب الالهى ، الذى لا يكلف نفسا الا وسعها ، ولا ينتظر من نفس الا ما هى خليقة أن تعطيه ..

ولقد عرفه عليه السلام كما عرف غيره من الصحابة جد عرفانه

عرفه وعلم « وسعه » الذى يكلفه ، فعلم انه وسع كبير فيما يحسن وفيما يسىء ، وان فى وسعه هـذا خيرا للاسـلام هو وشـيك ان يستعين به عليه

وقد ندبه لأمور لا ينـدبه لها الا من كان على علم واف بالرجـل وما غلب عليه من ظاهر خصاله واستسر فى مكنون خلده

ندبه لغزوة ذات السلاسل ، ولهدم الصنم « سُوَاع » ، ولدعوة جَيْفر وعَبَّاد أميرى عُمَان إلى الاسلام .. ثم أقامه على الصدقة فى تلك الامارة ، فاذا هو عليه السلام قد وعى كل خاصـة من خواصـه التى ظهرت فى تاريخه اجمع : لأنه اختار له المساعى التى توافق رجلا معتدا بالنسب ولا سيما نسب أبيه ، محبا للرئاسة وتدبير المال ، لبقا فى الخطاب ، قديرا على الاقناع ، حذورا فى موضع الحذر ، جريئا فى موضع الاجتراء

كان أخوال العـاص بن وائل من قضاعة ، ونمى الى النبى عليه السلام انهم يتأهبون للزحف على المدينـة ويعيثون فى الطريق فندب لهم عمرا يتألفهم ان استطاع ، فان لم يستطع فهو بأن يزجرهم أولى من أن يجىء زجرهم على يد غيره . وأرسله فى سرية من ثلاثمائة رجل

سار بهم حتى بلغ ماء يسمى السلاسل ، فاستطلع ، فاذا القوم نافرون مصرون على جفاء ، واذا بهم أكبر عددا من أن يتصدى لهم بجيشه الصغير . فاستمد النبى عليه السلام ، فأمده بكتيبة على رأسها أبو عبيدة بن الجراح ، وفيها أبو بكر الصديق وعمر بن الخطاب ، وهم أجل الصحابة وأقربهم الى خلافة النبى عليه السلام ، وأمرهم أن يطيعوه اذا أبى عليهم الطاعة . فبلغه بذلك رضاه من الامارة !

وانهزمت قضاعة منذ الوقعة الأولى ..

فلم يغتر عمرو بالنصر ، ولم ينس ذمة القرابة واستبقاء الرحم على ما يبدو من مسلكه الذى جمع به بين المصلحة والمودة . فقد أراد جيشه أن يتعقب المنهزمين ، فنهاهم عن ذلك ، وذهب جماعة من الجيش يصطلون ليلا ، فتوعدهم لئن فعلوا ليقذفن بمن أضرم نارا فى النار التى أوقدها ، ووسطوا له أبا بكر فأصر على رأيه ووعيده !

ثم شكوه إلى النبى فكان فى عذره بلاغ بيِّن ، قال : كرهت أن يتبعوهم فيكون لهم مدد ، وكرهت أن يوقد المسلمون نارا فيرى عدوهم قلتهم فيكر عليهم بعد فراره

***

أما بعثته الى سُوَاع ، فقد كانت لهدم ذلك الصنم الذى عبدته هُذَيل فى الجاهلية ، وكان على مقربة من مكة ، يقصدونه للحج والعبادة وقضاء النذور ، وكانت له خزانة يودع فيها ما يودع من النذور ومن المال المحجر الذى وكل به بنو سهم قبل الاسلام ، فكان اختيار زعيم من بنى سهم فيه حرص على تحصيل المال نعم الاختيار لتلك البعثة التى لا حرب فيها

سأله سادن الصنم : ماذا تريد ؟

قال : أمرنى رسول الله أن أهدمه

قال السادن : انك لا تقدر على ذلك

فتقدم عمرو الى الصنم وكسره ، وأمر أصحابه بهدم الخزانة

فاذا هى خاوية !

فأقبل على السادن يسأله : كيف رأيت ؟ قال : أسلمت لله رب العالمين

***

وكانت رسالته الى عمان أشبه الرسائل به وأولاها باتدابه ، لأنها كانت مجالا مستجمعا لكل ما فطر عليه من اللباقة والدهاء والجرأة وحب الرئاسة والثراء

كتب النبي عليه السلام إلى جَيْفَر وعبّاد ابنى الجُلَنْدى كتابا يدعوهما فيه الى الاسلام ، قال فيه بعد السلام على من اتبع الهدى : « أما بعد ، فانى أدعوكما بدعاية الاسلام . أسلما تسلما فانى رسول الله الى الناس كافة لأنذر من كان حيا ويحق القول على الكافرين . وإنكما ان أقررتما بالاسلام ولّيتكما ، وإن أبيتما أن تقرا بالاسلام فان ملككما زائل ، وخيلى تحل بساحتكما ، وتظهر نبوتى على ملككما .. »

فحمل الكتاب عمرو بن العاص ، وكان عند ظن النبى به فى مقدرته ودهائه ، فبدأ بأصغر الأخوين عباد ، لأنه لم يكن على ولاية الملك ، فهو أقرب الى حسن الاصغاء ، فاحتفى به وأصغى اليه ، ووعده أن يوصله الى أخيه ويمهد له عنده

ثم لقى جيفرا فاذا هو أصعب مراسا من عباد . فطفق يسأل عمراً عن نفسه وعن أبيه : هل أسلم من قبله أو مات على غير الاسلام ؟ وسأله عما صنعت قريش ، فلخص له موقفها أوقع تلخيص حيث قال : « اما راغب فى الدين واما مقهور بالسيف » .. ثم عقب بكلام وجيز فيه وعد ووعيد ، فقال له : « وأنت ، ان لم تسلم اليوم وتتبعه يوطئك الخيل . فأسلم تسلم ، فيوليك على قومك ، وتبقى على ملكك مع الاسلام ، ولا تدخل عليك الخيل والرجال ، وفى هذا ، ومع سعادة الدارين راحة من القتال »

وأتبع هـذا الوعيـد بما يوائمه من قلة الاكتراث لجيفر حين لج هـذا فى عنـاده ، وأعلنـه بلقـاء المسـلمين دون أرضـه وصـدهم عن حوزة ملـكه ، فانصرف وقد ألقى فى روع عبـاد ما ألقى ، فاذا بعبـاد قد أتم له ما بدأه من النـذير والنصيـحة ، واذا بالأخوين ومن تبعهما مستجيبون للاسلام ..

وكان جزاء عمـرو على هـذا التوفيـق أن عقـد له النبى ولاية الزكاة ، يأخذها من الأغنيـاء ويفرقها على الفقراء ، وهو عمل حبيب الى طبعه لمـا فيه من تدبير المـال ومشـابهة للمهمة التى تولاها زعماء بنى سهم فى الجاهلية ، وله منهـا نصيب يرضيـه ، لأن الزكاة كما نص القرآن الـكريم فى الصـدقات : « انما الصـدقات للفقـراء والمسـاكين والعـاملين عليهـا والمؤلفـة قلوبهم وفى الرقاب والغارمين وفى سبيل الله وابن السبيل .. »

فله منها نصيب العاملين ..

* * *

فاذا كان النبى عليه السلام قد اختـاره لتلك المهام المرتبة ، فانما اختـاره وهو يعرف من اختـار ، ولم تكن مرضـاته كل ما توخاه عليه السلام بل هى مرضاته من طريق الخير لجميع المسلمين

وقد أبقـاه عليه السـلام على ولاية الصـدقة حتى توفاه الله ، فلم يشـأ أبو بكر رضى الله عنه أن يعزله عنهـا الا برأيه ومرضـاته ، ايثـارا للسـنة التى التزمها من اقرار كل ما أقره النبى عليه السـلام فى حيـاته . وألا يحل عقالا عقـله رسـول الله صلى الله عليه وسلم ، ولا يعقل عقالا لم يعقله » كما أوصى عمر آ نفسه يوم أبلغه نعى النبى الكريم ..

ولم ير عمرو قط فى حزن كالحزن الذى غمره يوم ورد اليه ذلك الـكتاب .. فبكى طويلا ، وجلس يتلقى العزاء كما يتلقاه فى أقرب الناس اليه ..

ثم جاءت حروب الردة ، فكان موقفه منها الموقف المنتظر من مثله كيفما نظرنا الى أسباب تلك الحروب ، فقد كانت ثورة على الاسلام وثورة من البادية على الحاضرة ، وثورة من القبائل على قريش ، وثورة على الزكاة من فرائض الدين خاصة .. وان أحق الناس أن يبغض تلك الردة لهو عمرو المسلم القرشى العامل على الزكاة

فلما كان فى طريقه من عمان الى المدينة ، نزل ببنى عامر ، فاذا بزعيمها قرة بن هبيرة يهم بالردة ويقول له : « يا عمرو ! ان العرب لا تطيب لكم نفسا بالاتاوة ، فان أعفيتموها فستسمع لكم وتطيع ، وان أبيتم فلا تجتمع عليكم » . فلم تأخذه فى الأمر هوادة ، بل اشتد فيه كما اشتد أبو بكر ، وصاح بزعيم بنى عامر : « ويحك ! أكفرت ياقرة ؟ تخوفنا بردة العرب ! فوالله لأوطئن عليك الخيل فى حَفْش أمك » أى فى خبائها !

ثم أبى الا أن ينبىء الخليفة بما سمع من قرة ، غير مبق منه بقية يسترها مخافة عليه . فلما جىء بالرجل مأسورا ، وانطلق عمرو يروى ما سمع منه ، ووصل إلى ذكر الزكاة صاح به الرجل : مهلا يا عمرو . فقال : كلا والله ! لأخبرنه بجميعه

وكان هذا الموقف منه أول ما استحق به الثقة والرعاية فى عهد الخلافة

* * *

وواقع الأمر أن ثقة الخليفة الأول كانت مكفولة لكل من تولى عملا للنبى عليه السلام ، ومات النبى وهو راض عنه

فلما وقف عمرو من حروب الردة ذلك الموقف الذى حمده أبو بكر خاصة ، لاشتداده فى قمع هذه الحركة الخبيثة ــ أصبح عمرو أقرب من المقربين فى العهد الجديد ، ونظر أبو بكر فيمن يوليه حرب قضاعة ، فلم ير أمامه خيرا من صاحبه عمرو ، وقد تولى حربها قبل دلك فى عهد النبى ، وكان الخليفة الأول يومئذ من جنوده .. فأبلى

فى تأديب قضاعة أحسن بلاء ولم يرجع عنها الا وقد سلمت بحق الزكاة وثابت الى شرعة الاسلام

والظاهر من بعض الروايات ان عمرا تولى لأبى بكر أعمالا أخرى تدل على ثقة الخليفة به واعتماده عليه . ففى رواية الحافظ أبى عبد الله شمس الدين محمد الذهبى انه « قدم دمشق رسولا من أبى بكر الى هرقل » ويغلب على الظن — ان صح نبأ هذه الرسالة — انه انما أوفد من قبل الخليفة لاستطلاع حال العرب فى طريق الشام ، مستنفرا اياهم الى حرب الروم اذا وقع المتوقع من الحرب بينهم وبين المسلمين ، فذلك أشبه المهام بما يندب له عمرو بن العاص ، وليس فى تواريخ الافرنج أو العرب ما يعزز نبأ رسالة من الرسائل حملها الى هرقل من أبى بكر الصديق

ثم ترامت أخبار الأهبة الكبيرة التى تأهب بها هرقل للقضاء على الدولة الاسلامية فى نشأتها ، ونمى الى الخليفة انه جمع مائتى ألف أو يزيدون على مقربة من حدود فلسطين ، فجرد جيشا من ثقاه المسلمين الذين لم يختلط بهم فى بادىء الأمر أحد من أهل الردة ، وعقد لواءه لخالد بن سعيد بن العاص — أخى عمرو لأمه — وأمره أن يستعين بالعرب فى طريقه ، وأن ينزل بتيماء مترقبا لا يبرح مكانه الا باذنه ، ولا يقاتل الا من بدأ بقتاله ، ولعله أراد بتجريد هذا الجيش تأمين الطريق من انتقاض أهل البادية حينما سمعوا بتحفز الروم للهجوم على بلاد المسلمين ، ثم استطلاع الخبر وتعويق حركة الروم حتى يجمع لهم كفايتهم من الجند والقواد

وقد كره عمر بن الخطاب ولاية خالد : « لأنه رجل فخور يحمل أمره على المغالبة والتعصب » ، فسعى عند الخليفة فى عزله ، فعزله وعقد لواءه ليزيد بن أبى سفيان

هنالك جاشت مطامع عمرو ، فسمت به همته الى قيادة الجيوش الاسلامية التى تصد الروم وتفتح الشام ، ورأى ان خالد بن الوليد

صاحبه القديم تكفل بدولة الأكاسرة ، فليكن هو اذن كفيل المسلمين بدولة القياصرة ، ولم يشأ أن ينتظر حتى يبرم الرأى فى مسألة القيادة العليا وهو غائب عنها ، فلما أخذ الخليفة فى تجريد الجيوش وعقد الألوية لها ، ذهب الى عمر بن الخطاب فقال له متلطفا : « يا أبا حفص ! انت تعلم شدتى على العدو ، وصبرى على الحرب ، فلو كلمت الخليفة أن يجعلنى أميرا على أبى عبيدة ، وقد رأيت منزلتى عند رسول الله ، وانى أرجو أن يفتح الله على يدى البلاد ويهلك الأعداء »

فأجابه عمر بصراحته الصادعة :

« كلا ! ما كنت لأكذبك ! وما كنت بالذى أكلمه فى ذلك ، فانه ليس على أبى عبيدة أمير ! ولأبو عبيدة عندنا أفضل منزلة منك وأقدم سابقة ، والنبى صلى الله عليه وسلم قال فيه : أبو عبيدة أمين الأمة » . فلم ييأس عمرو من اقناعه بعد ما سمع ، وراح يقول له : « ما ينقص من منزلته اذا كنت واليا عليه » . فانتهره عمر قائلا : « ويلك يا عمرو ! انك ما تطلب بقولك هذا الا الرئاسة والشرف ، فاتق الله ولا تطلب الا شرف الآخرة ووجه الله تعالى »

واستقر رأي الخليفة على البعوث وقوادها ، فأنفذ أبا عبيدة بن الجراح الى حمص ، ويزيد بن أبى سفيان الى دمشق ، وشرحبيل بن حسنة الى وادى الأردن ، وعمرو بن العاص الى فلسطين ، وخشى ان يقع الخلاف مرة أخرى على الرئاسة ، فقال له وهو يودعه : « .. كاتبْ أبا عبيدة ، وأنجده اذا أرادك ، ولا تقطع أمرا الا بمشورته » وأوصاه أن يذهب فى طريق العقبة الى فلسطين

ويقدر عدد الجيش الذى قاده عمرو بتسعة آلاف مقاتل ، معظمهم من أهل مكة والطائف وهوازن وبنى كلاب ، وعدد الجيوش الاسلامية كافة بسبعة وعشرين ألفا من الفرسان والمشاة

وكان ذلك فى أواخر السنة الثانية عشرة للهجرة ، على القول

المشهور ، أو فى أوائل السنة التى بعدها ، على قول آخرين

* * *

الا ان دهاء عمرو أنزله من هــذه الجيوش منزلة المشورة والمراجعة ، وان لم ينزله بينها منزلة الرئاسة العامة والقيادة العليا .

فلما اقترب جنـد المسـلمين من مواقعهم التى قصـدوا اليهـا ، سمعوا بأهبـة العـدو ، فاذا هو يزحف اليهم فى جحافل جرارة تبلغ عدتها مائة وخمسين ألفا ، من حاملى الشكة السابغة والعدة الكاملة . فترددوا وتشـاوروا وكتبوا الى عمرو بن العـاص والى الخليفـة ، فوافاهم الجواب منهما معا بالاجتماع للقاء الروم فى موقع واحـد ، وكان رأى عمر أن يتراجعوا الى اليرموك ، وينتظروا جيوش الروم هناك ..

وأقبل خالد بن الوليـد يطوى الصحراء بأمر الخليفة لنجدة القواد من اخوانه المبعوثين لحرب الشـام ، فألقـاهم متفرقين لا يجتمعون على قيادة ، واقترح عليهم ذلك الرأى الذى تواترت به الروايات ، وهو تداول الامارة بينهم ، وأن تكون الامارة اليه فى اليوم الأول ، وقـد وقع فى تعيين تاريخه خلاف كبير

قيـل ان عدة المسـلمين يومئـذ لم تجاوز خمسين ألفا ، وارتفع الطبرى بعدة جيش الروم الى مائتين وأربعين ألفا ، وهبط بها بعضهم الى أقل من نصف هذا العدد ، وليس هو بقليل

وكانت ملحمة الرجاء المستميت ، واليأس المستميت ، وتنادى أبطال المسلمين على عهـد الموت لا يرجعون إلا منتصرين ، أو يقعوا مكانهم مستشهدين ، وتزمل اليائسون من الروم فى أماكنهم ينتظرون القتـل ايثـارا له على عار الفرار ، فانجلى النهـار عن هزيمة اليأس وغلبـة الرجاء ، واشتهرت هـذه المعركة باسم معركة أجنادين ، على اختلاف فى الموقع والتاريخ لا يعنينا هنا أن نتقصاه

ويؤخذ من المصـادر المختلفة ان عمر ا قد اشترك فى أكثر حروب

الشام بين دمشق وفلسطين ، وان شجاعته فيها جميعا كانت كفاء دهائه وحزمه ، فلم يكن يرضى لنفسه مقاما فى الشجاعة دون مقام أحد من القواد أيا كان حظه من سمعة البأس والاقدام . وذكروا فى وصف وقعة اليرموك ان الروم هجموا فى بعض حملاتها بقضهم وقضيضهم على فريق من المسلمين ، فانكشف المسلمون وولى صاحب رايتهم ، فلحق به خالد بن الوليد وعمرو بن العاص تسابقان لأخذها من يده ، فأخذها عمرو واندفع بها يقاتل المتقدمين من الروم حتى كر اليه المسلمون وتجمعوا حوله ، فأدبر الروم منهزمين

* * *

وكأنما شاءت الأقدار للخليفة الأول — أبى بكر الصديق — أن يفارق الدنيا وقد اطمأن الى غزوة الروم ، التى اضطلع بتبعاتها المرهوبة وهو عظيم الهمّ بها ، شديد القلق من عواقبها . فانتهت أيامه بهذا النصر المؤزر الذى أوشك أن يكون حاسما كل الحسم فى معارك الشام وفلسطين

وأسلم الزمام إلى خير يد تلقى إليها الأزمّة من بعده ، فبويع لعمرو بن الخطاب بالخلافة والنصر مقبل ، والحوادث مواتية لمن يتولاها بالحزم الذى هو أهله ، وبالروية التى كانت قرينة لحزمه

وكان عمر بن الخطاب من أعظم الناس ثقة بأبى عبيدة بن الجراح ، لما سمع من تزكية النبى له ، واختبر من أمانته وايمانه فى طويل الصحبة بين الرجلين العظيمين . وكان يبلغ من هذه الثقة انه هم أن يبايعه بالخلافة فى عجلة الموقف بعد وفاة النبى عليه السلام ، وانه كان يقول وهو يجود بنفسه : « لو كان أبو عبيدة حيا لعهدت اليه » .

فلم يلبث غير قليل أن وضع هذه الثقة فى موضعها ، فأسند اليه القيادة العامة فى حرب الروم ، واعتمد على رأيه فيما يأتيه من اخبار ذلك الميدان الفسيح

والظاهر ان توحيد القيادة كان أعون على توزيع العمل بين

القواد فى أنحاء الميدان كله ، فاستقل عمرو بن العاص بغزوات فلسطين وما جاورها ، وتم على يديه فتح سواحلها وحصار بيت المقدس ومنازلة صاحبها « اريطيون » ، بالجرأة تارة ، وبالمكيدة تارة أخرى ، وكلتاهما من الصفات التى اشتهر بها عمرو بن العاص

واتفقت المصادر على التنويه ببلاء عمرو فى هذه الغزوات ، فوضح منها جميعا انه لم يكن يألو ذلك العمل الجسام الذى وكل اليه جهدا من شجاعته ولا من تدبيره ، وربما جشمته موارد التدبير مخاطر لم يتجشمها فى موارد القتال !

من أمثلة ذلك ما رواه ابن الكلبى حيث قال : « لما فتح عمرو ابن العاص قيسارية سار حتى نزل غزة » فبعث اليه علجها أن ابعث الى رجلا من أصحابك أكلمه ، ففكر عمرو وقال : ما لهذا أحد غيرى ! وخرج حتى دخل على العلج فكلمه ، فسمع كلاما لم يسمع قط مثله افقال العلج : حدثنى ، هل فى أصحابك أحد مثلك ؟ قال : لا تسأل عن هذا ، إنى هين عليهم إذ بعثوا بى اليك ، وعرضونى لما عرضونى له ولا يدرون ما تصنع بى . فأمر له بجائزة وكسوة وبعث الى البواب : اذا مر بك فاضرب عنقه وخذ ما معه . فخرج من عنده ، فمر برجل من نصارى غسان فعرفه . فقال : يا عمرو : قد أحسنت الدخول فأحسن الخروج . ففطن عمرو لما أراده ، ورجع ، فقال له العلج : ما ردك الينا ؟ قال : نظرت فيما أعطيتنى فلم أجد ذلك يسع بنى عمى ، فأردت أن آتيك بعشرة منهم تعطيهم هذه العطية ، فيكون معروفك عند عشرة خيرا من ان يكون عند واحد ! فقال : صدقت ، أعجل بهم ! وبعث إلى البواب أن خل سبيله . فخرج عمرو وهو يتلفت ، حتى اذا أمن قال : لا عدت لمثلها أبدا . فلما صالحه عمرو ودخل عليه العلج قال له : انت هو ؟ قال : نعم ، على ما كان من غدرك .. » اهـ

وهذه القصة التي أشرنا اليها غير مرة — لا تؤخذ على علاتها

فى تفصيلاتها ، ولا يلزم أن تصح أصولها ولا فروعها ، ولكنها تدل ـ ولو كانت مؤلفة ـ على أشياء قريبة من الحقيقة ، بل لابد أن تكون قريبة منها ، لأن صدق الأخبار عامة لايستقيم ولا ينتظم بغيرها ، فمن تلك الأشياء شهرة عمرو بالدخول فى أمثال هذه المداخل العويصة التي يجرب فيها حيلته كما يجرب اقدامه ، ومنها ان عرب الشام كان فريق منهم على الأقل ينظر الى الحرب بين الروم والمسلمين نظرة العصبية الجنسية ، على ما بينهم من الفارق فى العقيدة ، فلم يعتذروا كذبا حين زعموا بعد هزيمة الروم انهم أكرهوا على القتال فى صفوفهم وهم يودون لهم الهزيمة ، ويتمنون الظفر لاخوانهم فى الأصل واللغة . ومن تلك الأشياء ان عمر آ كان معروفا بين أهل غسان ، فلا يبعد أن يصدق ما خطر لنا عن رسالته الى أنحاء دمشق من قبل الخليفة الصديق ، وانها كانت رسالة الى عرب القبائل الشامية لتحريضها واستطلاع أحوالها قبل الشروع فى قتال الروم ..

وجماع تلك الأخبار التى لا خلاف فى لبابها ـ وان وقع الخلاف على قشورها ـ أن عمر آ كان بطل المغزوة الشامية فى ميدان فلسطين ، وانه ربما كان بطل الغزوة من طلائعها الأولى ، يوم كانت بعد فى طور التأهب والاستطلاع

وليس رأى الخليفة الجديد فى عمرو بمجهول ، فربما كانت ثقته باقتداره واستعداده لعظيمات الأمور أكبر من ثقة أبى بكر الذى تابع فى استعماله سنة النبى عليه السلام ، فعمر بن الخطاب هو الذى قال فيه : « لا ينبغى أن يمشى أبو عبد الله على الأرض الا أميرا » ، وهو الذى كان يقول كلما رأى رجلا يلجلج فى كلامه : « خالق هذا وخالق عمرو واحد » . وهو الذى تبين صواب هذه الثقة فى غزوات فلسطين نفسها ، فجعل يقول لاخوانه : « رمينا ارطبون الروم بأرطبون العرب » ، يعنى اريطيون الذى كانت تصفحه قلة النقط والشكل فى

الحروف العربية يومئذ الى ارطبون

وما زالت ثقة الفاروق بكفاءة عمرو ودرايته تعظم وتتمكن كلما صحبه التوفيق فى فتح مدينة بعد مدينة ، والغلبة على جيش بعد جيش . حتى فرغ من السواحل والمشارف ، واتجه بعزمه كله الى حصار « ايلياء » أو بيت المقدس حاضرة البلاد

وقد شدد الحصار عليها حتى يئس اريطبون من مقاومتها وفر منها الى الديار المصرية ، وقيل ان بطريقها لم يؤجل تسليمها للقائد العربى الا لأنه أراد أن يكون التسليم بمحضر من الخليفة ، فكتب عمرو يستدعيه ويعلمه برغبة البطريق ، وتم الصلح فى السنة الخامسة عشرة للهجرة بحضور الفاروق

وما هو الا ان سكنت الشام الى الحكم العربى ، وخف الطاعون الذى فشا فى أرجائها بين السنة السابعة عشرة والثامنة عشرة للهجرة ، حتى تطلعت نفس عمرو الى فتح أكبر وأخطر ، ونازعته الى منزلة أشبه به وأجدر : الى فتح الديار المصرية التى يعلم المسلمون من القرآن الكريم انها كرسى فرعون ذى الأوتاد ، ويعلمون من أخبار أيامهم انها درة التاج فى دولة هرقل ، وان الروم لا يدعونها ولو غلبوا عليها ، لأنهم عادوا اليها فانتزعوها من الفرس بعد مقامهم بها اثنتى عشرة سنة ، وفاقا لوعد القرآن ان الروم من بعد غَلَبِهِم سَيَغْلِبُون

وهنا تشترك المصادفة والتقدير اشتراكهما فى كل عمل جسام من أعمال التاريخ القديم والحديث !

ترى كيف كان يخطر هذا الخاطر على بال الفاروق لو لم يفاتحه فيه عمرو بن العاص ؟

وترى كيف كان يخطر هذا الخاطر على بال عمرو بن العاص لو لم يكن فاتح فلسطين على طريق مصر ، وكان فاتح دمشق أو فاتح السواد ؟

وترى كيف كان التردد منتهيا بالخليفة لو لم ينته وعمرو يغذ السير فى طريقه الى التخوم المصرية ؟ !

أفضى الفاتح الجسور بأمله وأمل الاسلام الى الخليفة ، فاستمع اليه ، وتردد فيه بين ما عرف من كفاية عمرو ، وما عرف من اقدامه على العظائم فى سبيل الشرف والرئاسة

بل تردد فيه بين دواعى السلم ودواعى الحرب ، وهو لا يرى داعية للحرب الا درءا لخطر أو قصاصا من عدوان

وكان أقرب الناس الى الفاروق يترددون مثله ، ويرون فى طماحة عمرو بن العاص مثل رأيه ، منهم من يخلص فى حذره ، ومنهم من يغار من عمرو أن يكتب هذا الفتح الجليل على يديه !

وفى طليعة المخلصين حذرا من عواقب هذا الطموح الجموح ، عثمان بن عفان ، فقد كان يذكر الفاروق بجرأة ابن العاص ، وانه يرد المهالك فى سبيل طمعه ، وما بالفاروق من حاجة الى تذكير .

أما ابن العاص ، فقد كان أخبر بالخليفة وبمصر من أن تفوته وسيلة الاقناع فى هذا المقام !

انه ليعلم حرص الفاروق على جند المسلمين أن يسفك دم واحد منهم فى غير خطر واقع أو عدوان محذور

فلتكن غزوته لمصر اذن دفعا للخطر الواقع ، وضمانا لأرواح المسلمين ، ولقد كانت هى كذلك لا مراء

ولم يكن عمرو مغررا بالفاروق ، ولا كان الفاروق ممن يجوز عليهم التغرير ، فانه ألقى الى الخليفة ان « اريطيون » داهية الروم قد فر الى مصر ليجمع فيها قوة الدولة الرومانية ويكر بها على الشام ، فلا أمان للمسلمين فى فلسطين أو الشام أو الحجاز نفسه وباب هذا الخطر مفتوح ! ! وانما يوصد الباب اذا ضربت الدولة الرومانية فى مصر ، وامتنع منها مدد الجند والمال والطعام لتلك الدولة المتداعية ..

فعلم الفاروق انه يستمع الى صواب ، واستجاب لرأى عمرو وهو بين الاقدام والاحجام ، فأذن له فى المسير ، وأنظره كتابا آخر يأتيه

منه فى الطريق ، وقال له : « سيأتيك كتابى سريعا ان شاء الله تعالى ، فان أدركك كتابى آمرك فيه بالانصراف عن مصر قبل أن تدخلها أو شيئا من أرضها ، فانصرف ، وان أنت دخلتها قبل أن يأتيك كتابى ، فامض لوجهك واستعن بالله واستنصره »

* * *

ولا نعتقد ان الفاروق قد ترك الأمر للقرعة المجهولة ، تبرم فيه وتنقض حسب اتفاقها ، ليسلم اليها العنان فى هذا العمل العظيم ، ولكنه أراد أن يستزيد من المشاورة والتفكير ، وأن يشرك معه ذوى الرأى فى التبعة التى هو مقدم عليها . فاذا كف عمرو بعد ذلك قبل أن يطرق أرض مصر فلا ضير من كفه ، واذا جاءه الكتاب وهو فى أرضها فقد امتنع الرجوع ووجب المسير ، لأن الرجوع عن أرض بعد دخولها يكشف للروم ضعفا من العرب ورهبة من العدو ، ويغريهم بالكرة على الشام ، ويعينهم على جمع الجموع لاستئناف القتال ولو لم يفكروا فيه قبل ذلك ، ويخيف أهل مصر أن يستسلموا للعرب اذا أقبلوا مرة أخرى ، لأن العرب أنفسهم يقدمون على بلدهم بين الشك واليقين

قيل ان كتاب الفاروق أدرك عمرا فى رفح ، فأغضى عن الرسول حتى بلغ الى مكان من مصر غير مختلف فيه ، فقرأ الكتاب وقال لجنده : لم يلحقنى كتاب أمير المؤمنين حتى دخلنا أرض مصر ، فسيروا وامضوا على بركة الله وعونه . وكذلك التقى التدبير والمصادفة مرة أخرى فى الصفحة الأولى من هذا التاريخ الكبير .

فَتْحُ مِصْرَ

كان الصـدام بين العرب والدولة الرومانيـة قضـاء موعودا منذ اللحظة التى نشأت فيهـا الدعوة الاسـلامية وكتب لها البقاء ، لأن الاسـلام رسـالة تتجه الى أسماع النـاس وقلوبهم ، ولأن الدولة الرومانية سلطان قائم يحول بين رسالته وبين الأسماع والقلوب

فلا مناص من التقائهما يوما من الأيام ، على سلام أو على خصام

وهما اذا التقيا على خصام أو على سـلام دخل الاسلام مصر مدافعا أو غير مدافع

ويفتح الاسـلام مصر على كلتـا الحالتين فتح رضـوان أو فتح تسليم .. وانما هو كتاب مؤجل الى أوانه المقدور

لمح النبى عليه السـلام هـذا المصـير بلحظ الغيب قبل ان يحين أجله المقدور ببضع عشرة سنة

وكتب الى المقوقس ، عظيـم القبـط ، يدعوه الى الدين الجديد دعوة أهل الـكتاب : « اسـلم تسلم يؤتك الله أجركَ مرتين ، فان توليت فعليك اثم القبـط : يا أهلَ الـكتابِ تَعَـالَوْا إِلَى كلمةٍ سَوَاءٍ بيننَـا وبينَـكم ألَّا نعبُـدَ الا اللهَ ولا نُشْرِكَ بهِ شيئـا ولا يتخـذَ بعضُنـا بعضـاً أرْباباً من دونِ اللهِ فانْ تَوَلَّوا فقولُوا اشـهدُوا بأنَّا مُسلِمُونَ »

وقد تلقى جواب المقوقس مؤذنا بالأمل ، غير قاطع بالاباء ، يقول فيه كما جاء فى بعض نصـوصه : « .. فهمت ما تدعو اليه ، وقد علمت ان نبيا بقي ، وقد كنت أظن انه يخرج بالشام » .. ثم يقول : « وقد أكرمت رسـلك . وبعثت اليك بجاريتين لهما مقام في القبط عظيم ،

وبكسوة ، وأهديت اليك بغلة لتركبها ، والسلام »

وتعلقت الحوادث بأجلها الموعود

وقال النبى جازما لصحابته الأقربين : « ستفتحون مضر ، وهى أرض يسمى فيها القيراط ، فاستوصوا بأهلها خيرا ، فان لهم ذمة ورحما . وعلم عليه السلام انه فتح لاينام عنه الغالب ولا المغلوب ، فقال لصحابته : « اذا فتح الله عليكم مصر فاتخذوا بها جندا كثيفا ، فذلك الجند خير أجناد الأرض » ، فقال أبو بكر رضى الله عنه : ولم يا رسول الله ؟ قال عليه السلام : « لأنهم وأزواجهم فى رباط الى يوم القيامة »

فما كان من مسلم فى حياة النبى عليه السلام ، أو بعد وفاته ، الا وهو يعلم ان مصر مفتوحة للمسلمين على يقين

وانما هو الأوان المحتوم ، فى يوم غير معلوم

وآية ذلك الأوان ان يجىء الخطر من قبل مصر ، أو يقوم الروم فيها عائقا كؤودا فى سبيل الدعوة

وعمرو بن العاص هو الذى قال انه رأى الآية بعينيه ، وقال : ان العائق كؤود اذا أجّل ، ميسور التذليل اذا عوجل قبل استقراره

وقالها وهو صادق فى مقاله !

غاية ما هنالك انه رآها بعين العبقرية التى تلمح ما وراء الحجب من بعيد ، وانه فسر الحلم المحقق بوحى الالهام فأحسن التفسير !

لم يكن هو الذى اخترع عزيمة الاقدام على فتح مصر ، فقد كان فتحها فى حكم الواقع المفروغ منه منذ سنين

ولكنه كان هو الذى أعلن الوقت المقدور ، وأصاب الاختيار ، واهتدى الى الأوان

ولم يخدع نفسه ، ولا خدع الخليفة ، ولا جازف بالفتح الخطير مجازفة الطيش والجهل بالعقبى ، ولكنه عند من يجهل الحقائق مجازف هجام ! ! وعند من عرف الحقائق كما عرفناها اليوم حاسب دقيق الحساب ، وحالم مطمئن أصدق فى حلمه من الخائف اليقظان !

فهل كان عمرو اذن يعرف الحقائق كما جلاها لنا التاريخ بعد مئات السنين ؟ .. لا ولا جدال ! ..

لم يكن يعرفها مفصلة محصلة كما عرفناها ، وذلك فضله الكبير .

ولكنه أحسها جملة ، فملأته باليقين الذى يمتلىء به العارف بعد التفصيل والتحصيل

ففى حياة عمرو بن العاص حدثت فى مصر ، وحول مصر ، خطوب لن يجهلها مثله ، وان لم يطلع على وصفها المسهب ، كما كتبه المؤرخون من أبناء العصور الحديثة

كان فى عنفوان الرجولة يوم أغار الفرس على الروم ، ففتحوا ما بين بيت المقدس والاسكندرية فى أقل من سنتين

وكان فتى يعقل الدنيا يوم أغار القائد الرومانى نقتاس على الديار المصرية من المغرب ، بجيش لا تزيد عدته على ثلاثة آلاف ، منهم البدو والسودان ، ففتحت له الثغور والمدائن بمواطأة من أهل البلاد ، ومن بعض الرومان الناقمين على عاهل القسطنطينية

وكان يزور بيت المقدس ، ويصغى الى حجاجه ورهبانه المقيمين فيه ، فيسمع أخبارا تنم على ما فى مصر من قلق الرعية ، وضعف الرعاة ، واستفحال الشقاق بين طوائف النصارى ، وغضب المصريين من الروم ، سواء منهم الموافقون لهم فى المذهب والمخالفون

وكان يلقى اليهود فى وادى الأردن ، وكلهم مغيظ من الدولة الرومانية ، لما أصابهم على يديها من الذبح والنهب والتشريد ، وفيهم من هو أعلم بمصر وبمداخلها ومخارجها ومواقع الخلل فيها من حكامها الرومان

وحضر غزوات الشام ، وسمع بغزوات العراق ، فعلم ان جيوش الاسلام على قلتها قد غلبت الفرس وغلبت من غلبوهم فى النضال الأخير : غلبت هرقل وهو فى أوج مجده ، فما أحراها أن تغلبه وهو مهيض بعد هزائم الشام وفلسطين ، وقد شاخ وغامت على عقله

الوساوس ، وحاقت به الدسائس ، وتلكأ زمنا بين الحياة والموت ! ..

فان لم يكن عمرو قد علم هذا تفصيلا ، فقد علمه جملة وافية ، علمه بالقدر الصحيح الذى يتيح له أن يقول للخليفة انه يقدم على فتح بلد « ليس أقل منه قوة ، ولا أعظم منه ثروة »

ولو انه علم تفصيل الحوادث التاريخية كما علمناها اليوم ، لكان ذلك أحرى أن يزيده اقداما ، وأن يلهب من شوقه الى الفتح ما يرسله فى سبيله قدما ، قليل المبالاة بكل تحذير وتهويل ! !

لأنه كان أحرى ان يعلم ان أهل البلاد يرحبون به ، وان لم يرحبوا بالفرس من قبله ، لأن الفرس قتلوا الرهبان والقسوس فى طريقهم الى مصر ، ولم يكن من عادة جيوش المسلمين ان يقتلوا أحدا من الرهبان والقسوس . ولأنه يسلك طريقا بدويا ، يستطيعه البدو ، واستطاعوه فى قديم ، ولا يزال سكانه منذ عرفه التاريخ بدوا يشعرون بعصبية القرابة لهذا الفاتح الجديد

ولأن الروم أنفسهم كانوا قد فقدوا عزيمة القتال ، بل فقدوا ما هو ألزم من ذلك للمقاتل ، وهو ايمانه بحقه فى النصر وبرضوان الله عليه . فقد كان ايمان الروم الغالب عليهم فى معارك الشام انهم استحقوا غضب الله ، وان العرب لهم سوط العذاب الذى يصبه الله على عباده الواقعين فى الخطيئة . وصاح بينهم بهذا النذير صائح مسموع الكلمة فى مؤتمر انطاكية الذى اجتمع اليه كبارهم وأحبارهم ، فقال لهم — وهرقل يسمع : ان الروم ليلقون من الله جزاء العصاة ! وربما كان هرقل نفسه يشعر بذلك الشعور ، لأنه كان فى شيخوخته دائم الندم معذبا بوسواس الخطيئة ، لبنائه ببنت أخته « مرتينة » ، بعد علاقة بينه وبينها ، وهو اثم محرم فى دينه ! !

ولا نخال عمرا قد غفل عن استطلاع البلاد المصرية برسل من عنده ، أو بالاستماع الى أناس يغنونه عن الرسل ، فعلم ان الحصون مهملة ، وان الدساكر معطلة ، وان الجنود المفرقين هنا وهناك يدفعون

عن معاقلهم فى وهن ويأس من المصير ، ويعيشون بين شعب يبغضهم ويتمنى لهم الهلاك والضيـاع ، ويجهر بعدائهم ومشايعة أعدائهم ، اذا أمن عاقبـة الجهر بالعداء ، ورجح عنده الأمل فى غلبة المغير عليهم ! وأى عدو هو أولى بالأمل فى غلبتـه من غزاة العرب الذين صـدوا الأكاسرة والقياصرة ، واقتحموا عليهم عقر دارهم وهم مجلبون اليهم من قرار سحيق ؟ فاذا أصبح لهؤلاء العرب مقام محمى فى تخوم مصر وعلى مداخلها ، أيشق عليهم اذن ان ينتزعوا مصر من هرقل وليس فيها غير ظل له بعيد ؟

تقدم العرب الى الديار المصرية ، وبينهم وبين عدوهم فروق كثيرة فى العدد والعدة والحضـارة والعقيـدة ، من الفضـول أن نعرض لحصرها فى هـذا المقام ، ومن الاسهاب فى غير موضـعه ان نتتبـع أصـولها ونتعقب فروعها فى تاريخ الأمتين . فانها لتجتمع كلها فى فرق واحد يغنى من وعاه عن كل تفرقة بعدها ، مسهبة كانت أو مقتضبة ، وهو الفرق بين قوم ضيعوا كل ثقة فى النصر ، وقوم ضيعوا كل شك فيه وآمنوا بحقهم فى النصر كل ايمان

ضاعت ثقة هرقل فى نفســه ، وضـاعت ثقة الروم فى صـلاحهم للحكم ، وضاعت ثقة الأعوان فى صلاح العاهل والدولة ، ولم تبق لهم الا بقية من تمسك يقيمها الخوف من عقـاب الرؤسـاء ، ويوشـك أن يذهب بها خوف أعظم منه وهو الخوف من بأس المغيرين !

ومن الجانب الآخر ملك العرب كل ثقـة بالنصر وكل ايمان بحقهم فيه ، واطمأنوا الى خليفة قوى ، وقائد قوى ، وصبر قوى على كل بلاء ! وعلم عدوهم هـذا منهم فوصفهم بعد رؤية وخبرة بأنهم « قوم الموت أحب اليهم من الحياة ! والتواضع أحب الى أحدهم من الرفعة ! ليس لأحدهم فى الدنيا رغبة ولا نهمة » !

ومع هـذا الفارق الذى هو خلاصة جميع الفوارق ، لم تكن الثقة وحدها هى العدة التى رجح بها العرب وانخذل بها الروم . بل ظهر

من تقابل الفريقين فى شتى المعارك ان العرب كانوا أخبر بفنون القتال ــ ولا سيما فى المفاجأة ــ من قادة الروم الذين كلوا وكلت عقولهم بالاهمال والاستنامة الى الترف والغرور

فقد كان عمرو يوجه خطط القتال كما يشاء منذ تخطى الحدود وأوغل فى جوف البلاد ، وكان يضطر أعداءه الى تبديل خططهم وتحويل معسكراتهم كلما تحرك فى الشمال أو الجنوب حركة مفاجئة لا يدرون ما يعقبها . فبينما هم يتجمعون فى الفيوم ، اذا هو يزحف الى منف شمالا ، ويوهمهم انه موغل فى الجنوب الى تخوم النوبة . وقد أعانه على المفاجأة خفة العدة ، وقلة الزاد ، وسرعة الخيل العربية فى سهول الريف ورمال الصحراء . ومن هذه المفاجآت البارعة تلك المفاجأة التى دهم بها الروم عند الجبل الأحمر ، وفقدوا بها جيشا يقارب عشرين ألفا ، لم يبق منه الا بضع مئات ، وكان قائدهم « ثيودور » قد خرج للقاء عمرو عند عين شمس ، فاستعد له عمرو بقلب جيشه ، وأقام من جناحيه كمينا عند الجبل الذى يلى المكان المعروف بالعباسية الآن ، وكمينا آخر عند « أم دنين » حيث قامت الأزبكية الحديثة . واستمر القتال بين الجيشين ، والروم يحسبون انهم يواجهون الجيش العربى كله ، ويستنفدون الجهد أجمع فى الغلبة عليه ، فما راعهم الا الجيشان الكمينان ينقضان على حين غرة ، فيبتعد الأمل القريب ويدب اليأس فى مكانه الى القلوب ، ويرجع القوم بثلاثمائة مشردين من ألوف ربما تجاوزت العشرين !

وكلما خطر للروم أن يأخذوا العرب بحيلتهم ويرتدوا عليهم بمفاجأة من مفاجآتهم ، حبطت الحيلة فى أيديهم ، ووجدوا العرب أيقاظا لهم كأنهم كانوا على علم بنياتهم ومكائدهم . فما خرجوا من معاقلهم المحصورة فى ليل ولا نهار ليدهموا العرب على غرة ، الا تجمعت لهم أهبة الجيش كله فى لحظات معدودات ، فاذا هم المأخوذون بما دبروه ، كأنهم سيقوا على كره منهم الى شرك منصوب

فالعرب لم ينتصروا اتفاقا ولا جزافا ، ولكنهم انتصروا بخير ما يكفل النصر للمجاهدين : بالثقة والخبرة ، ثم بشىء آخر يعين الثقة والخبرة أيما عون فى الميادين البعيدة عن ديار المعسكرين المتقاتلين ، وهو اطمئنان العرب الى أهل البلاد من حيث خَشِيَهم الروم وتوقعوا منهم كل مكروه ، لأن العداء بين المذهب الملكى ، وهو مذهب الروم ، والمذهب اليعقوبى وهو مذهب القبط ، لم يدع مكانا لتوفيق بين الكنيستين ، ولم يبق فى النفوس بقية للرحمة ولا للصلح والهوادة ، وبلغ من لدد هذا العداء ان الروم أمهلوا ثلاثة أيام للخروج من حصن بابليون ، فقضوا يوما منها فى تعذيب القبط وتقطيع أيديهم وأرجلهم ليتركوهم فى حالة لا يفرغون فيها لشماتة بعدوهم المهزوم

نعم ان التضارب كثير فيما كان من موقف القبط بين حكامهم الروم ، وبين المسلمين المغيرين على أرضهم ، ولكنه تضارب لا غرابة فيه ، ولا موجب لاتخاذه دليلا على كذب الأخبار فى جملتها ، ولا لتقييد المؤرخ بترجيح قول منها على قول . فان التضارب حالة لا محيص عنها فى الموقف كله ، وفى أقوال المؤرخين الذين كتبوا عنه بعد زمن طويل أو قصير

فكراهة القبط للروم ثابتة لا جدال فيها ولا يتطرق الشك اليها ، فاذا جاء فى بعض التواريخ انهم أظهروا المودة للعرب ، وجاء فى تواريخ أخرى انهم لبثوا على موالاة الروم الى ما بعد الهزيمة الحاسمة ، فليس سبب ذلك انهم أحبوا أولئك وكرهوا هؤلاء ، ولكنما السبب انهم ترقبوا جلاء الموقف بين الجيشين المتقاتلين ، وانهم كانوا يعملون متفرقين ، لامتلاء البلاد بالمعسكرات التى تقطع الصلة بين أجزائها ، فيكون قوم منهم على مقربة من جند الروم تارة ومن جند العرب تارة أخرى ، ويكون الأقوام المتفرقون على نية متشابهة وأعمال متخالفة على حسب الحوائل والأحوال

وعلينا أن نترقب تضاربا كهذا فى أكثر الأخبار التى تصل إلينا

عن فترة الفتح ، وعن حركات الجيوش ومفاوضات الصلح فى خلالها .

فمن العبث أن نجزم باستحالة حركة من هذه الحركات ، قياسا على أعمال الجيوش التى جرى بها العرف فى غير هذه الأحوال ، لأن الاستحالة والجواز انما يحسبان هنا بحساب لا يتكرر كثيرا فى جميع الحروب

ففى غير هـذا « الفتح » يجوز مثلا أن يسأل السائل : كيف استطاع عمرو بن العاص أن يترك حصن بابليون ويوغل فى الصعيد ، ومن ورائه جيش أعداء يقطع عليه الرجعة ويحصره حيث كان ؟ ويجوز تبعا لذلك أن نستبعد الحركة كلها ونحسبها من تلفيق المؤرخين .

ولكننا اذا اصطنعنا هـذا القياس هنا ، وجب ان نستبعد الفتح كله من ألفه الى يائه ، لأن أربعة آلاف مقاتل يتفرقون من العريش الى بابليون لا يفتحون قطرا يسكنه شعب كبير وتحميه دولة كبيرة ، فان لم يتفرقوا وساروا جميعا الى حصن بابليون ، فقطع الرجعة عليهم أيسر الأمور لو سارت الحركات العسكرية على المألوف فى سائر الحروب . وما أعجب حصر الاسكندرية مثلا وهى مفتوحة من البحر الى القسطنطينية ؟ وما أعجب التقصير فى امدادها خلال الفتح كله ، وهو أول ما يخطر على البال ؟

فالحساب فى هذا الفتح غير الحساب فى سائر الفتوح

وأولى أن يقال ان جند الروم ــ لا جند العرب ــ هم الذين كانوا على حذر من الايغال فى جوف البلاد ومن احداق الأعداء والرعية بهم فى مأزق غير متوقع . فالتناقض فى هـذه الأخبار وما شابهها هو طبيعة الموقف التى لعلها توجب الميل الى قبولها ، ولا توجب الشك فيها . وعلينا كما أسلفنا أن نترقبه فى كل شىء ، وفى كل مرحلة من مراحل هـذا التاريخ العجيب ، وقد نستغنى عن تعداد شواهده الكثيرة اذا أضفنا الى ما أسلفنا تناقضا آخر نختم به هـذه الملاحظة التى لا بد منها ، وهو التناقض الذى أحاط باسم الوالى الرومانى الذى تلقى العرب ثم صالحهم على تسليم البلاد . فمن هو « المقوقس » هذا ؛

وما حقيقة الأمر فيه ؟ أهو رومانى أو مصرى ؟ وهل هو من رجال الحرب أو من رجال الدين؟ وهل كان محبوبا فى شعبه أو كان مبغضا اليه ؟

قيلت جميع هذه الأقوال فيما كتبه العرب والرومان ، ولكنه فى أرجح الأقوال ــ كما سيأتى تفصيله ــ رجل من غير الروم ومن غير المصريين الأصلاء الأقدمين ، تولى من قبل هرقل سلطانا دينيا مقرونا بسلطان الدنيا ، ومضى فى سياسته على سنة النهازين للفرص من خدام الدول المتداعية ، فأغلظ للشعب الضعيف مرضاة للسادة الأقوياء ، ثم بدا له أن سادته الأقوياء ذاهبون ، فأحب أن يستقل بكرسيه ، وأن يأوى الى جناح الفاتحين لعلهم يشكرون له صنيعه ، ويحمونه من أعدائه فى مصر والقسطنطينية

ذلك هو أقل الغرائب فى وصف هذا الرجل الغريب ، ولكنه على ذلك ليس بالوصف القاطع الوثيق ، وأوثق ما يقال عنه انه رجل كان يرهن مصيره بمصير البلد الذى أقام فيه

تقدم عمرو من طريق الساحل الى العريش ، فلم يجد بها أحدا يصده من قبل الروم ، ثم تقدم الى « الفرما » فحاصر حاميتها واستولى عليها فى أقل من شهرين ، ثم مضى فى طريقه حتى نزل بلبيس ، فهزم بها جيشا رومانيا يقدره بعض المؤرخين بثلاثة أضعاف الجيش العربى ، وانقض من ناحية الصحراء على « أم دنين » فاستولى عليها ، وجاوزها الى حصن « بابليون » أو قصر الشمع كما سماه العرب ، على الضفة الشرقية من النيل .. واختلفوا فيمن كان يقود حاميته ، فقال اناس انه « جورج » أو الأعيرج ، كما سماه العرب ، وقال اناس انه هو « ثيودور » الذى نازل العرب غير مرة ، وقال غيرهم انه هو « أريطيون » صاحب عمرو القديم

وصل الجيش العربى الى جوار « منف » عاصمة الفراعنة ، فى شتاء ٦٤٠ للميلاد ــ ١٩ للهجرة ــ وعرض على والى البلد شروطه التى هى شروط المسلمين قبل كل قتال ، وهى الاسلام أو الجزية

أو السيف . وعمد الى التأثير الأدبى فى اقناع الحامية ومن يلوذ بها من أهل البلاد ، كما عمد الى الخدعة والبسالة . فكان اذا جاءه الرسل من قبل الروم أبقاهم بين جنوده يوما أو يومين ليروا بأعينهم زهد المسلمين فى الدنيا ، واستخفافهم بالموت ، وصبرهم على الشدة ، واقدامهم على الكريهة فى سبيل ما هم مؤمنون به وساعون اليه

الا أن أدوات الحصار فى جيش عمرو لم تكن من القوة بحيث تعينه على اقتحام سريع للحصون التى كانت توصف بالمناعة فى تلك الايام فطال لبثه أمام حصن بابليون قياسا على حصار الفرما وبلبيس ، ولم يشأ أن يقضى الوقت كله فى الاقامة على جوانب الحصن حتى تضيق الحامية ذرعا بالحصار فتستسلم اليه ، ولم يكن ميسورا له أن ينفذ السرايا الى مصر السفلى نحو الاسكندرية وما جاورها ، لأن ابتداء الفيضان فى النهر وجداوله الكثيرة حال دون ذلك ، فحول سراياه الى الصعيد وأطراف الفيوم . ويبدو لنا أنه لم يقصد بها الفتح والاستيلاء على المدن فى المرحلة الأولى من القتال ، وانما قصد بها أن يشغل جنده مخافة عليهم من فساد الراحة وطول الانتظار ، وأن يعرف بالتجربة المحسوسة مدى التعويل على ولاء أهل البلاد ، وأن يضطر حاميات الروم القليلة فى الصعيد الى البقاء حيث هى ، والعدول عن امداد الحامية فى حصن بابليون ببعض رجالها اذا خطر لها هذا الخاطر ، لأن تهديد الصعيد من حين الى حين ، يوجب عليها أن تحمى مواقعها قبل التفكير فى امداد غيرها ، فانما كانت حركات السرايا فى الصعيد مناورات للتعمية والاستطلاع ، ولم تكن حملات للفتح « والاحتلال »

وفى هذه الفترة خيل الى قائد الروم أنه قادر على أخذ العرب بالمباغتة كما يأخذونه ، فتأهب للهجوم على جيش عمرو فى قاعدته الكبرى بعين شمس ، وكانت تلك المعركة التى أسلفنا الاشارة اليها ودارت فيها الدائرة على الروم ، فتجلت فيها مهارة عمرو فى القيادة ، كما تجلت فيها يقظته لحركة أعدائه وثباته لقوتهم وهى أضعاف قوته فى الرجال والسلاح

وانقضت السنة ، ومضت أشهر من السنة التالية ، والحصن صامد لايسلم ، ولايزال الذين فيه يخرجون من حين الى حين لمناوشة جند المسلمين والعودة اليه ، وكان النيل قد هبط فى أثناء ذلك ، فاستطاع عمرو أن يرسل فرقا من جيشه الي مصر السفلى لتعويق حركات الروم قبل التقدم اليه ، فكان يهزمهم تارة ويرتد عنهم تارة أخرى ، بغير كبير طائل لهذا الفريق أو لذاك

وظل الفاروق فى المدينة يرقب جيشه الزاحف بعين لا تغفل ، وقلب لايَوْجَل . ولم يزل يمدهم ويسأل عن أخبارهم ويتفقدهم ، فلا يرى شيئا هو أحق عنده بالتفقد من سلاحهم الماضى قبل كل سلاح ، وعدتهم اللازمة قبل كل عدة ، وهى الايمان أو قوة الروح . فلما أبطأ الفتح المبين لم يرجع بابطائه الى قلة العدد ، أو قوة العدو ، بل رجع به الى نقص الايمان ودخَل النيات ، وكتب الى المسلمين يقول : « عجبت لابطائكم فتح مصر ، تقاتلونهم منذ سنتين ، وما ذاك الا لما أحدثتم وأصبتم من الدنيا ما أحب عدوكم ، وان الله تعالى لا ينصر قوما الا بصدق نياتهم »

ولهذا الاستبطاء معناه التاريخى الجليل فى فهم خطط المسلمين صدرَ الاسلام ، وفهم التردد الذى بدا من الخليفة يوم أن عرض عليه عمرو مسيره الى مصر لفتحها بعد فتح فلسطين . فان هذا الاستبطاء دليل على أنه لم يتردد فى تسيير الجيش الى مصر استهوالا لخطب الروم ، أو استعظاما لفتحها على جيش المسلمين ، ولكنه تردد على سنته فى اجتناب الغزو الا لدفع خطر ، أو إتقاء عدوان منتظر ، ولولا ذلك لكان استبطاؤه الفتح بعد استهواله اياه من أعجب الأمور

وحدث فى أثناء ذلك أن مات العاهل هرقل ، وشاعت الدسائس فى البلاط بعده ، وفشا المرض فى حامية الحصن حتى هلك به خلق كثير ، وتغلب حزب الصلح بعد موت العاهل الذى كان يأباه ، واعتز جيش المسلمين بإمداد من الفرسان المغاوير يقدر الواحد منهم بألف مقاتل ولا

مغالاة ، لأن تقديره بألف مقاتل لايعنى أنه يساويهم فى العدة والكثرة ، بل يعنى أنه يبث الشجاعة فى الجيش بقدرته ويقينه ، فيقاتل الجيش كأنه قد زيد ألف مقاتل ، ولم يكن قصاراه زيادة فارس واحد . وليس هذا بعجيب فى جيش تقوم عدته الكبرى على الثقة واليقين

من هؤلاء الزبير بن العوام الذى جاء فى بعض الروايات أنه تَسَوَّرَ الحصن يتبعه جماعة من المستشهدين ، فأوقع الرعب فى قلوب الحامية وهى تعانى ما تعانى من اليأس والخوف والسقام ، فأسرع أنصار الصلح الى التسليم بعد ممانعة قليلة من المعارضين . وكان ذلك يوم الجمعة السابق ليوم القيامة سنة (٦٤١)

وبادر عمرو بعد سقوط الحصن الى اقامة المعابر على النيل لعبوره قبل فيضانه ، ثم مضى فى طريقه الى الاسكندرية يقاتل من لقيه من فالّة الروم أو جموعهم المتربّصة فى حصون المدن الكبيرة بين بابليون وشاطىء بحر الروم ، وضرب الحصار على المدينة الكبيرة ، بينما كانت جنوده ، وهو على رأسها فى بعض الأحيان ، يشنون الغارة على مدينة بعد أخرى من مدن مصر السفلى ، حتى كان أول المحرم سنة ٢١ للهجرة (١٠ ديسمبر سنة ٦٤١) ، فسلمت الاسكندرية يأسا وخورا وهى قادرة على مواصلة القتال سنوات ، وانعقد الصلح على أن تؤدى الجزية دينارين عن كل رجل قادر على العمل ، وأن تستمر الهدنة أحد عشر شهرا تجلو الجيوش الرومانية فى خلالها عن المدينة ، وتحمل معها من متاعها ما تشاء ، وأن تباح للمسيحيين عبادتهم ، وتصان لهم معابدهم ، وأن يؤذن لليهود بالبقاء فى الاسكندرية ، وأن يضع الروم عند المسلمين رهائن لضمان نفاذ الاتفاق مائة وخمسين من المقاتلين ، وخمسين من السراة غير المقاتلين

وكان هذا الصلح على هوى المقوقس ، ولم يكن على هوى الكثيرين من غلاة الجند وأصحاب الأموال فى العاصمة التجارية الكبرى فثاروا بالمقوقس ، وأحاطوا بقصره متوعدين منذرين ، وخرج لهم باكيا يعتذر

لهم بمشيئة الله من أزل الآزال ، ولا رادّ لقضاء الله . فاستمعوا الى الرجل الذى يكلمهم بلسان الدين ولسان الدنيا وشاركوه فى البكاء !

تقدمت الاشارة الى بسالة عمرو فى حصار الاسكندرية ، ومجازفته بنفسه فى اقتحام حصونها مع طلائع المقتحمين ، فما هو صحيح من أنباء تلك البسالة فهو شاهد بخلق قد شهدت به معارك كثيرة ومآزق شتى ، وما ليس بصحيح فهو من مبالغة الخيال فى تكبير الواقع ، وليس مما ينقض ذلك الخلق المتفق عليه

على أن العظمة التى ثبتت لعمرو بن العاص بعد فتح مصر لا تقل عن عظمة الفاتح الجرىء ولا عظمة القائد الضليع بفنون الخدعة والاقدام

فقد عرف مصر وهو مقبل على حكمها ، كما عرفها وهو مقبل على فتحها ، فاذا هو صالح للعمار والقرار صلاحه للهجوم والحصار

انتهى دور الفاتح بتسليم الاسكندرية ، وبدأ دور الحاكم الذى يسوس رعاياه

وكان رأى عمرو أن مصر أخذت فتحا ، ولم تؤخذ صلحا كما يفهم من الصلح بغير قتال ، وفى ذلك يقول : « قعدت مقعدى هذا وما لأحد من قبط مصر علىّ عهد ولا عقد ، ان شئت قتلت ، وان شئت خمست ، وان شئت بعت » !

ولكنه مع هذا شاء غير القتل وغير التخميس وغير البيع ، فعامل الرعية فى أمور دينها ودنياها معاملة رضيتها ، وأطلقت ثناءها ، وجعلت البطرق بنيامين يسمى عهد العرب بعهد السلامة والأمان ، وعهد الرومان بعهد الجور والطغيان

وكان هذا البطرق مبعدا عن مكان الرئاسة الدينية لمخالفته مذهب الكنيسة الملكية ، فاستقدمه عمرو واحتفى به ورده الى مكانه

وأقبل على سياسة البلد وتدبير مصالحه وتوفير خيراته ، فعلم أن الرخص والغلاء مرهونان بفيضان النيل ، وأن سياسة مصر هى سياسة النهر فى ارتفاعه وهبوطه ، فكتب الى الخليفة أن أهل مصر يجهدهم

الغلاء اذا وقف النيل عند حد مقياس لهم ، فضلا عن تقاصره ، وشرح له علل الغلاء فقال : « ان فرط الاستشعار يدعوهم الى الاحتكار ، ويدعو الاحتكار الى تصاعد الاسعار بغير قحط » ثم أتبع ذلك فقال : « انى وجدت ما تروى به مصر حتى لا يقحط أهلها أربعة عشر ذراعا والحد الذى تروى منه الى سائرها حتى يفضل منه عن حاجتهم ويبقى عندهم قوت سنة أخرى ستة عشر ذراعا ، والنهـايتان المخوفتان فى الزيادة والنقصان وهما الظمأ والاستبحار اثنا عشر ذراعا فى النقصان وثمانية عشر ذراعا فى الزيادة »

وقام بأمر الخليفة على بناء المقاييس ، فبنى مقياس حلوان ومقياس أسوان ، وأشرف على صيانة الجداول والجسور ، وكان سكان البلاد يعتمدون على وسائل خرافية لاستدرار ماء الفيضان ، منها القاء قربان فى النيل يقال فى بعض الروايات الضعيفة انه عذراء بقيد الحياة ، ويقال على الأرجح انه دمية من الطين على هيئة فتاة تمثل الأرض الزراعيه التى « يتزوج » بها النيل أو يثمر منها ثمراته . فكتب عمرو الى الخليفة فى ذلك ، فجاءه منه الأمر بابطاله بعد أن فكر هو فى مثل ذلك ، فأبطل هذه العادة الخرافية ، واعتمد على الوسائل المعقولة من تنظيم الماء ومناوبة الرى حسبما تهيأت له الأسباب العلمية فى ذلك الزمان

وترفق فى جمع الأموال من جزية الرؤوس وخراج الأرض ، فوزعها على ثلاثة أقساط فى العام . ولم يزد محصول السنة على اثنى عشر مليون دينار : ثلثاها من جزية الرؤوس على حساب أربعة ملايين عدد الذكور العاملين ، ومنها نحو ثلاثة ملايين دينـار خراج الأرض على حساب مليون ونصف مليون فدان ، وهو دون الخراج الذى كان يجبى فى عهد الرومان والفراعنة غيرما كانوا يستصفونه غصبا من الخيرات والثمرات

وقد كانت قلة الخراج عن القدر المنظور فى أول الأمر مدعاة سؤال كثير من قِبَل الخلفاء ، فراجعه عمر فى ذلك ، وانتهت مراجعة عثمان اياه الى عزله . فزاد الخراج على عهد ابن أبى سرح ، وقال عثمـان

لعمرو : أشعرت أن اللقاح دَرَّت بعدك ألبانها ؟ قال عمرو : لأنكم أعجَفتم أولادَها !

ومهما يكن من تصرف عمرو فى مال الخراج ـ أو من طمعه المشهور ـ فما نظن أن طمعه فى المال المحصل كان سببا ظاهرا لذلك النقص الذى لحظه الخلفاء . لأنه كان يستطيع أن يجمع ما يكفيه ولا يُلحَظ نقصه لو آثر الجور على القصد فى السياسة . وانما عمل بالعهد الذى كتبه للمصريين ، ونظر الى طول البقاء فى هذه الولاية ، فمضى على السياسة التى تكفل له ولاء الرعية ، وتصلح شئون العمارة فى البلاد على حد قوله : « انه لا سلطان الا برجال ، ولا رجال الا بمال ، ولا مال الا بعمارة ، ولا عمارة الا بعدل »

وكان من أهم أعمال التعمير التى تمت على يديه بأمر الخليفة فتح الخليج الذى سماه بخليج أمير المؤمنين ، بين النيل والبحر الأحمر ، فكان ممرا صالحا للسفن التى تحمل المِيرة من مصر الى الحجاز ، وطالما احتاج الحجاز الى تلك الميرة فى أعوام القحط والمجاعة

وبنى مدينة الفسطاط حول مسجده المعروف باسمه الى اليوم . واذا صح ما قيل فى سبب تسميتها بالفسطاط ، فقد بقى عمرو « الشاعر » يقظان الحس والخيال تحت آكام السياسة وأنقاض الحروب . قيل انه أراد أن يقوّض فسطاطه ، فرأى يمامة قد باضت فى أعلاه فقال : لقد تَحرَّمت بجوارنا . وأمر الجند أن يُقِروا الفسطاط حتى تطير فراخها ، فبقى حتى بُنيت المدينة فى مكانه وسُميت بالفسطاط . أو لعل السياسى هنا كان أيقظ من الشاعر ، لأن حماية يمامة وديعة فى جوار والٍ ، لهى أجدى له من البأس والرهبة فى استمالة القلوب العصية الى « الحماية » الغريبة التى فرضت عليها

ومن تمام القول فى سمعة الحكم الاسلامى بعد فتح مصر ، أن نعرض لمسألة طال فيها الأخذ والرد بين المؤرخين وناقدى الاسلام ، وهي مسألة احراق المكتبة الكبرى بالاسكندرية !

وخلاصة هذه المسألة أن عمر ا رفع الى الفاروق خبر المكتبة ، فجاءه الجواب بما نصه : أما الكتب التى ذكرتها ، فان كان فيها ما يوافق كتاب الله ففى كتاب الله عنه غنى ، وان كان فيها ما يخالف كتاب الله فلا حاجة اليه . فتقدم باعدامها » ، فوزعت الكتب على أربعة آلاف حمّام بالمدينة ، ومضت ستة أشهر وهى تستخدمها فى وقودها

ولم تذكر هذه الرواية الا بعد انقضاء ستة قرون على تاريخ الفتح ، فلم يعرض لها البطريق يوتيخوس الذى توسع فى الكلام على فتح الاسكندرية . وكذبها ظاهر من المبالغة فى عدد الكتب التى تغنى أربعة آلاف حمام عن الوقود ستة أشهر ! ! مع العلم بأن الرّق الذى كانت الكتب تسطر عليه فى تلك العصور لا يصلح للوقود ، وأن الوالى الذى يريد اعدامها لا يسلمها الا لمن يبيعها أو يحفظها ، ولا يفوته أن يعهد فى نقلها الى أصحابها وقد حملوا معهم متاعهم الذى طلبوا حمله وهم ذاهبون الى أرض الروم . وقد حدث أن هذه المكتبة أحرقت مرات فى عهد يوليوس قيصر ، وعهد العاهل ثيودسيوس الذى أباد آثار الوثنية ، سواء من الكتب أو الصور أو التماثيل

وكفى لتكذيب هذه الأسطورة أنها لا تشبه عملا من أعمال الفتح الاسلامى ، الذى اقترن بالتعمير ولم يقترن قط بالتنكيل والتدمير . ومهما يكن من صدق القول المعزو الى عمرو في وصف مصر : « أن نيلها عجب ، وترابها ذهب ، وأمراءها جلب ، وهى لمن غلب » ، فانه لم يأخذها قط بسلطان الغلبة والرهبة ، ولم يشرع فيها شرعة الا كان رائده فيها الرفق والمودّة

حامية قديمة ، وهو من الأوهام التى لا سند لها من التاريخ ولا من الآثار الباقية ، لأن معنى الكلمة قديم فى اللغة المصرية بمعنى الأرض السوداء ، ومنهــا أخذ اليونان كلمة الكيمياء حين كان علم الكيمياء يسمى بالعلم الأسود أو السحر الأسود ، لأنه من العلوم الخفية التى يستعان عليها بالأرواح الشريرة فى زعم الأقدمين !

ولم يبق من أسماء مصر القديمة فى العصر الحاضر غير اسمين اثنين ، أحدهما اسم « ايجبت » Egypte الذى تلقاه الغربيون عن اليونان ، ولا يزال لديهم علما على البلاد المصرية ، وأصله مجهول ، تختلف فيه الأقوال ، ويرجح أن الكلمة منحوتة من كلمتين بمعنى « جى بتاه » أو « كى بتاه » ، أى بلاد فتاح الاله الذى كان معبودا فى « منف » ، العاصمة القديمة التى عرفها اليونان الأسبقون

والذين يرجحون هذه التسمية يرون أن كلمة « قبطى » مشتقة من النسبة الى « كى بتاه » ، خلافا لمن يرجع بها الى قفط أو كوبتوس فى طريق البحر الاحمر . وقديما قيل انها كانت بلدة على البحر الاحمر ، ثم نقلت الى الطريق كله بين البحر الأحمر والبلدة التى اشتهرت باسم قفط فى اقليم قنا ، ولا تزال معروفة به الى اليــوم ، ولا تزال طريق القصير وقنا من الطرق الممهدة للقوافل فى العصر الحاضر ! وليس من التعسف البعيد أن يقال انها أصل التسمية القديمة للبلاد المصرية ، لأن عواصم مصر الكبرى كانت فى الاقليم القنائى ، وظلت فيه قرونا طوالا من العصر القديم . ويتوسع بعض المؤرخين فى دلالة هذه التسمية ، فيردون اليها علاقة مصر العليا بالبلاد العربية القديمة ، ويحسبون أن المهاجرين الأوائل قدموا من طريق البحر الأحمر ثم طريق الصحراء فى زمن مجهول .. ولا يلزم من ذلك أن يكون أصل المصريين جميعا من هؤلاء المهاجرين ، لأن ملامح المصريين الأوائل ولغاتهم لا تنحصر فى أصل واحد ، ولا تنحصر على الخصوص فى السلالة السامية ، بل يوجد فيها مزيج قليل يسهل تعليله بالنسبة الى طريق « قفط » من جانب

البحر الأحمر أو الجانب الذى يقابله على النيل

أما الاسم الآخر من الأسماء الباقية ، فهو اسمها المشهور فى اللغة العربية أو هو اسم « مصر » الذى يحسبه بعضهم مأخوذا من كلمة « المصر » التى تطلق فى العربية على أرض الحواضر أو على الحاضرة الكبرى ، حيث تقام معالم الحكم وأحكام الشريعة

والغالب أن كلمة « مصر » عربية الأصل ، ولكن فى لغة العرب السابقة لهذا الاصطلاح الحديث ، وانما نقول الحديث بالنسبة الى الكلام العربى المتداول على الألسنة من عهد الاسلام وما قبله بأجيال قليلة ! وقبل هذا العهد ، عهد الاسلام ، عرف العرب مصر ، ثم عرفها منهم العبرانيون المنتقلون من أرض العراق . وقد كاد المؤرخون أن يتفقوا على أن العبرانيين قدموا الى مصر فى عهد القبائل العربية من الرعاة وأتباعهم المشهورين باسم الهكسوس ، فهم أول من أطلق على « مصر » هذا الاسم وسموها « مصرايم » ، فزعم بعضهم أن الكلمة من اسم قديم يدعى مصرايم يحسبونه جد المصريين أجمعين ، ولكن الواقع أن « مصرايم » تثنية مصر باللغة العبرية بمعنى المِصرَين ، أى الوجه البحرى والوجه القبلى ولا تزال الكلمة بعد ذلك محتاجة الى تفسير من اللغات السامية الأولى ان لم يكن لها معنى قديم منقول عن الهيروغليفية

والبحث فى العبرية ، واللغات السامية عامة ، هو الذى قاد الباحثين الى مادة « صر » فى جميع هذه اللغات . فمادة « صر » تفيد فى هذه اللغات جميعا معنى الضم والضيق ، والشىء المصرور هو الشىء المضغوط أو المشدود ، ومنه الصَّرَّة والصِرار والاصرار ، وقيل لهذا : ان المصر يراد به الوادى الضيق المصرور بين الجبلين ، وبولغ فى تتبع هذا المعنى ، فقيل ان العبرانيين سموا البلد باسم « مصر » ، بعد ما أصابهم فيها من الضيق ، وبعدما اعتزموه من الفرار بأنفسهم من هذا الضيق ، وهو

اعتساف فى التأويل لا تؤيده كلمة واحدة توجّه اشتقاق الكلمة هذا الاتجاه

أما المصر من « الصر » بمعنى حصر الوادى بين الجبلين ، فيلاحظ أن العبرانيين أطلقوا اسم المصرَين على الوجهين ، ولم يكن الوجه البحرى ــ حيث أقام الأكثرون منهم ــ واديا محصورا بين الجبال ، ولم يعرف قط أنهم أطلقوا على مصر اسما آخر قبل وفودهم اليها ، الا أن يكون اسم النهر أو بلاد حام

ولهذا يذهب بعضهم الى أن كلمة « مصر » هيروغليفية قديمة مركبة من كلمات ثلاث بمعنى « بلد أبناء الشمس » ، والكلمات الثلاث هى « ما » بمعنى موضع ، و« سى » بمعنى ابن ، و « رى » أو « را » ، بمعنى الشمس ، ومنها « راع » التى ينسب اليها بعض الفراعنة . فاذا صح أن « ما سيرى » هى أصل هذه التسمية فلا غرابة فيه ، وانما يعوزه السند الذى يعزز الاستنتاج ، وليس له الآن وجود ، وكل ما هنالك أن أناسا من الثقات يستندون الى اطلاق اسم « مسرى » على شهر الفيضان أو شهر النيل المنتظر ، ويربطون كما فعل العلامة « مسبرو » بين اسم الشهر واسم البلاد

ولا يخفى أن اللغة الهيروغليفية كانت لغة تصوير ، تغلب فيها المقاطع على الحروف ، وأن المصريين استخدموا الأبجدية اليونانية وزادوا عليها بعض الحروف التى لا وجود لها عند اليونان ، حين أرادوا الكتابة باللغة الوطنية ، والاستقلال بها عن كتابة الدول الرومانية ! وقد وجدت صور الأرض والشمس عليها دالة على البلاد المصرية فى الآثار القديمة . أما نطقها بألفاظ تقارب لفظ مسر أو مصر ، فليس له سند معروف بل كان الكتاب المصريون المخضرمون بين عصر اللغة الهيروغليفية وعصر اللغة القبطية يذكرون مصر كما يذكرها اليونان باسم وسط بين «جبت» و « قبت » أو قبط . ويظهر أن كتّاب العربية أنفسهم كانوا يطلقون كلمة « قبط » على البلاد أحيانا ، ولا يقصدون بها السكان كما فعلوا

بعد ذلك ، ولهذا كانوا يذكرون المصريين باسم « القبطيين » . وتكررت هذه النسبة بعد الفتح الاسلامى بزمن غير قصير ، ولم يلجئهم الى التفرقة بين النسبة الى مصر والنسبة الى « قبط » الا الرغبة فى توضيح الفرق بين المصريين بعد الاسلام والمصريين قبل الاسلام . وقد كان المؤرخون المسلمون يذكرون « المصريين » الى عهد « معاوية » ويعنون بهم العرب المسلمين المقيمين فى الديار المصرية ، ولهذا كانوا يقولون ان « المصريين » أيدوا عليًا فى خلافه مع معاوية ، وأنهم لم يبايعوا معاوية الا بعد ولاية عمرو بن العاص الثانية . على أن العرب كانوا يسكنون مدينة « قفط » قبل الاسلام . وقال سترابون ان نصف سكانها منهم ، وربما أخذوا كلمة قبط من النسبة الى هذه المدينة القديمة فى طريق الحجاز

ومن المحقق بعد جميع التأويلات والاحتمالات أن اسم « مصر » كان معروفا فى أرض كنعان قبل وفود العبرانيين ، وأن اليونان عرفوا مصر باسم « ايجبت » قبل عصر الشاعر هوميروس ، وأن ألواح تل العمارنة ذكرت مصر باسم « هكبتاه » الذى يرجع اليه الاسم اليونانى ، وأرادت به أرض منف وعاصمة بتاه أو فتاح ، وأن « مصر » بغير التعريف لم تطلق على قطر غير وادى النيل ، وأن العرب هم أول من تسمى بالمصريين ، ولم يأنفوا من مساواة أبناء البلاد بالانتساب اليها كما أنف الرومان واليونان من قبلهم !! وقد كان المؤرخون قبل الميلاد وبعده يحصون سكان البلاد المصرية فلا يشملونهم باحصاء واحد ، ويفردون كل فريق من السكان بتعداد خاص ، كالروم واليهود وأبناء البلاد الأصلاء ، ومعظمهم كانوا يقيمون فى الصعيد وفيما بين فرعى النيل المعروفين الآن باسم فرع دمياط وفرع رشيد . وكانت الأقاليم التى تقع الى شرق فرع دمياط والى غرب فرع رشيد ، مقاما لقبائل متفرقة تعرف بالأنساب ، ولا تعرف بأسماء المدن والقرى فى أسمائها الشائعة

وقد أحصى ديودورس الصقلى ويوسفيوس اليهودى سكان مصر ،

فلم يجاوزوا بهم ثمانية ملايين ، وأولهم من مؤرخى القرن الأول قبل الميلاد ، والآخر ممن شهدوا عصر الميلاد فى أوائله ، وكلاهما فرّق فى التعداد بين المصريين واليهود والروم !

وكانت هذه الأجناس جميعا فى نزاع دائم بينها ، وفى نزاع دائم مع الدولة الرومانية . وربما تجرد بعض القساوسة لقتال اليهود بجنــود يجمعها من الوطنيين ، ويُغير بها على الأحياء اليهودية فى الاسكندرية . وقد كانت عدتهم فيها وفى عين شمس تزيد على مائتى ألف فى بعض الأوقات

ولما حان عصر الفتح الاسلامى ــ أى القرن السابع للميلاد ــ لم يكن فى مصر كلها من يود بقاءها فى حوزة الدولة الرومانيــة ، حتى الروم ، ولم يكن هؤلاء الروم يثقون بدوام ملك الدولة الرومانية بعد تكرار هزيمتها أمام الفرس وأمام العشائر الهمجية فى أوربة الشرقية وأوربة الوسطى ، ومن كان من الروم يدافع الأجانب عن أرض مصر ، فانما كان يدفعهم ليستبقى له ملك الأرض ، ويتحيّن الفرصة لاقتطاعها من الدولة البيزنطية أو الدولة الرومانية الشرقيــة ، فلم يكن حكم الرومان حكم رضى من المحكومين ، ولا حكم ثقة بالبقاء والدوام

كان القبطيون ، أو أبناء البلاد من غير الروم واليهود ، على أشد السخط من الدولة الرومانية ، لأسباب دينية وأسباب سياسية ، اذ كانت كنيسة بيزنطة قد نازعت كنيسة الاسكندرية سلطانها وأرادت أن تفرض عليها مذهبا فى المسيحية لا تقرّه ، وهو المذهب الذى اشتهر باسم المذهب الملكى ، واعتقد التابعون له أن المسيح ذو طبيعتــين ، خلافا للاسكندريين الذين كانوا يدينون بطبيعة واحدة ، ويطلق عليهم خطأ اسم اليعقوبيين . وقد كان المصريون يثورون على الدولة الرومانية قبل دخولها فى المسيحية ويقابلون اضطهادها بالاضراب أو بالرهبانية والاعتكاف على الصوامع والأديرة فى الصحراء . ثم دان عواهل الرومان منــذ أيام قسطنطين بالمسيحية ، فتغير سبب الاضطهاد ولم يتغــير

طغيانه وبغضاؤه التى شقى بها أبناء البلاد عدة قرون . كان الاضطهاد لاختلاف الدين ، فتحول الى اضطهاد لاختلاف المذهب والنحلة . ولم يزل أتباع الكنيسة الوطنية يرمون أتبـــاع الكنيسة الملكية بالكفر والمروق ، ويقولون عنهم انهم يمزقون طبيعة السيد المسيح ، ويؤمنون بإلهين مختلفين . ومن قبل هــذا كان النزاع السـياسى الوطنى قد بلغ غايته بين المحكومين والحـاكمين ، ولكن المحكومين على الأقل كانوا يستقلون بالعقيدة فى الأمور التى لا تصطدم فعلا بسلطان الدولة ، فلما دان عواهل الروم بالدين المسيحى فرضوا لأنفسهم سلطانا روحياً الى جانب السلطان السياسى ، ولم يتركوا للمحكومين منفساً يشعرون فيه باستقلال الرأى والضمير . وقد تفاقم الخطب فى عهد الامبراطور فوقاس — قبل الفتح الاسلامى مباشرة — فصــدر أمره الى ولاته على مصر بطرد جميع الوطنيين من وظائف الحكومة ، والزامهم طاعة الكنيسة فى القسطنطينية . ويكفى لبيان السخط على الدولة الحاكمة أن الخلاص منها أصبح حلماً من الأحلام التى تساور زعماء الكنيســة الوطنية فى يقظتهم ومنامهم ، فرأى البطرق بنيامين فى منامه أن مصر ستفتح لأناس مختونين ينقذونها من أعدائها المتسلطين عليها ، ورُوِىَ هذا الحلم على روايات مختلفة منسوبا الى أناس غير البطرق بنيامين

ولم تكن عداوة المصريين للدولة القائمة خافية على سكان البـــلاد المصرية من الروم ، بل هم كانوا يعلمون أن كراهة المصريين للسكان « المحليين » من الروم أشد من كراهتهم لرؤسائهم فى القسطنطينية ، لأن هؤلاء الروم المحليين يخالفون الوطنيين فى العقيدة والجنس كما يخالفهم رؤساؤهم فى العاصمة الكبرى ، ويزيدون على رؤسائهم بعداوة أخرى هى عداوة المنافسة الشخصـــية والغطرسة المحسوسة ، ويحيك فى نفوســهم أن كل زيادة فى سلطان الوطنيين نقص فى ســلطان الولاة والموظفين الرسميين ، وبخاصة بعد التجاء الدولة الى استرضاء الوطنيين ببعض مناصب الرئاسة والقيادة ، وتوكيلهم فى تحصـــيل الضرائب

والاشراف على حقوق الالتزام فى الجهات النائية . فهذه العداوة المحلية، تضاف الى العداوة العامة التى تكون على الدوام بين الدولة الغاصبة والأمة المغصوبة . فلا جرم يتخوّف الروم المحليون من أبناء البلاد عند هجوم العرب على تخومها ،ويبلغ من تخوّفهم وسوء ظنهم أنهم يفضلون الانفراد بالدفاع عنها على الاستعانة بجيش من أبنائها ، ولم يكن هذا الجيش قائماً قبل ذلك للاستعانة به فى ساعة الخطر المفاجىء . فلما وجد الروم المحليون أن الأمر يحتاج الى تنظيم جيش جديد مستعد للدفاع فى حالة الاطمئنان اليه ، عظمت عليهم مشقة التنظيم العاجل ، فانفردوا كذلك بشروط الصلح والاتفــاق ، فكانت شروطهم غير الشروط التى اتفق عليها الوطنيون

وينبغى أن تتنبه الى خطأ يتعرض له المؤرخون فى هذا السياق ، لأنهم يقيسون الأمور فى ذلك العصر على أشباهها فى العصر الحديث . فيخطر لهم أن الروم سكان مصر كانوا يشعرون مع الدولة القائمة بوحــــدة الوطنية أو وحدة الجنس والقومية ، وليس لهــذا الخاطر مسوّغ من تكوين الدولة ، ولا من وحدة العنصر ، ولا من شعور الولاء للنظام الحكومى الذى كان قائما فى دولة الرومان شرقا وغربا عند فتح العرب للديار المصرية

لم تكن الدولة الرومانية دولة روم بمعزل عن اللاتين وسائر الأقوام التابعين لرومة القديمة ورومة الجديدة ، أى القسطنطينية ، بل كان الروم اليونانيون قلة فى مناصب الدولة الشرقية ، وكان اللاتين من أهل الغرب يشعرون أن رومة الجديدة قد جارت على مكانة رومة القديمة وعرّضتها للهوان والاهمال . وكان الرعايا فى الشرق والغرب خليطا من الأجناس المتعادية المتنــافرة ، لا تربطهم رابطة غير ســلطان القوة والخوف من الغارات المشتركة والقبائل البربرية . ولم يكن نظام الجلوس علىالعرش قائما على وراثة محترمة أو حقــــوق مرعية ، بل كان باب القصر المالك مفتوحا لكل غالب وغاصب ، وكان فوقاس على عرش القســطنطينية

وحوله أناس يتآمرون مع هرقل حاكم أفريقية الشمالية فى ذلك الحين لاغرائه بالهجوم على العاصمة وانتزاع العرش من صاحبها ، فقتل فوقاس فى هذا الصراع ، وخلفه هرقل بتأييد المنشقّين على العاهل القتيل ، ثم انقلب هؤلاء على هرقل بعد تأييده ، فهمّ بترك العاصمة والانتقال الى أفريقية حيث كان . ولولا أن بطرق العاصمة خاف على مكانته من منافسة كنيسة الاسكندرية وكنيسة رومة القديمة، لانتقل الى أفريقية وترك الدولة الشرقية للمغيرين عليها ، ولكن بطرق العاصمة فتح له كنوز خزائنه ، وحشد له أعوانه ، واستخدم سلطانه الدينى فى تهدئة جأشه وتوهين الدعاوى التى ادعاها عليه أعداؤه ومنازعوه ، وهذا كله يجرى بعلم الولاة الكبار والقادة البارزين ، فيضعف فى نفوسهم ولاء الطاعة والاذعان ، كما يضعف فيها ولاء الاخلاص والوفاء . ولم يكن أحد فى الدولة الرومانية يجهل أنها دولة منهارة تتصدع وتؤذن بالزوال ، ولم يكن قد غاب عن بالهم هزائم هرقل وأسلافه أمام الفرس وأمام القبائل البربرية ، ولا غاب عنهم أن أساطين الدولة يتربصون به الدوائر من الداخل لمنازعته السلطان ، أو لتحويل الدفة مع اتجاه الريح ، وقد كان لها اتجاه مختلف كل الاختلاف ما بين عام وعام

فالمؤرخ الذى يقيس موقف الروم المحليين فى ذلك العصر على مواقف العصر الحاضر يجهل الموقف ويخطىء القياس ، اذ لم يكن هنالك شعور قومية من سلالة اللحم والدم ، ولا شعور وطنية من تقاليد النظام السياسى وقواعد الحكومة ، وكل ما كان هنالك أن آحادا من زعماء الروم المحليين فى مصر كانوا يعتمدون على قوة القسطنطينية للمحافظة على مصالحهم « المحلية » والتغلب على الوطنيين ، وكانوا مع هذا الاعتماد على قوتها يشكون فى دوامها ونجاحها ، ولا يطمئنون الى وعودها ، ولا يأمنون انقلابها ، وخطتهم هذه انما هى خطة مداورة واغتنام فرصة ، قد تتحول من عاهل الى عاهل ، كما تتحول من فريق الى فريق

وقد علمـوا أن العواهل أنفسهم مستيئســون فى قتالهم ، يحارب بعضهم بعضاً محاربة القانط من الغد ، أو الذى لا يهمه أن يكون الغد كيف يكون . وآخـر ما عرفوه من ذلك قبيل الفتح الاســلامى أن « فوقاس » قذف بكنوز الدولة وجواهر القصر الملكى فى البحر ، ضناً بها أن تؤول الى منافسه هرقل بعد غلبته عليه ، فما كان أحد منهم يقاتل يومئذ قتال الرجاء أو الثقة بالعودة الى النصر بعد الهزيمة

أما اليهود فقد كان حسبهم من النقمة على الدولة الرومانية أنهـا هدمت هيكل سليمان ، وشردتهم من بيت المقدس ، وتعقبتهم فى بلادها بالمطاردة والمصادرة ، والاكراه على عبادة الامبراطور تارة والاكراه على العبادة المسيحية تارة أخرى ، ولكنها كانت تغنيهم فى كل عصر عن الذكريات القديمة بما تجدده من صنوف الاضطهاد والتعذيب ، وكانت لهم نكبة يذكرونها لكل من العاهلين اللذين تعاقبا على عرش القسطنطينية فى عصر الفتح الاسلامى ، وهما فوقاس وهرقل . فأما فوقاس فقد أمر بطردهم من وظائف الدولة فى الاسكندرية ، وتعميدهم كرهاً ، وقتل من يخالف أمره فيرفض الاذعان للتعميد . فلما ثار هرقل على فوقاس نصروه ، وانتظـروا خيراً على يديه ، فاذا بهرقل ينكبهم نكبة تنسيهم مظالم سلفه المغضوب عليه . وروى ذلك بطرق هرقل فى الاسكندرية « افتيخوس » حيث قال من تاريخه المشهور :

« فى السنة التاسعة من ملك هرقل خرج من القسطنطينية يريد بيت المقدس . فلما بلغ طبرية ، خرج اليه اليهود الساكنون بطبرية وجبل الجليل والناصرة وكل قرية فى تلك الناحية ، فاستقبلوه بالهدايا ، ودعوا له ، وسألوه أن يعطيهم الأمان ، فكتب لهم بذلك عهداً ، فلما بلغ بيت المقدس استقبله رهبان الصوامع وأهل بيت المقدس ، ومعهم مودستس بالمجامر والبخور ، فلما دخل المدينة ونظر الى ما دمر الفرس وأحرقوه اغتم غماً شديدا ، ثم نظر الى ما بناه مودستس من كنيسة القيـامة وكنيسة مار قسطنطين وغيرها ، فسره ذلك ، وشكر مودستس على

ما فعل . وشكا الرهبان وأهل بيت المقدس له ما فعلته معهم اليهو الذين حول بيت المقدس مع جبل الجليل وقت قدوم الفرس ، وأنهم كانوا معهم يعينونهم ، وقتلوا من النصارى أكثر مما قتله الفرس . وخربوا الكنائس وأحرقوها بالنار ، وأروه القتلى الذين فى ماميلا ، وأعلموه بما فعلوا فى مدينة صور من قتل النصارى وخراب الكنائس . فسألهم هرقل : ماذا تريدون ؟ قالوا له : نقتل كل يهودى حول بيت المقدس وجبل الجليل ، لأننا لا نأمن أن يجيئنا عدو أو قوم مخالفون ، فيكونوا أعواناً لهم ، كما أعانوا الفرس علينا . قال هرقل : وكيف أستحل قتلهم وقد أعطيتهم الأمان ، وكتبت لهم بذلك عهداً كما تعلمون ؟ ومتى نقضت العهد والأمان ، كان ذلك عاراً علىّ وأحدوثة قبيحة ، ولم آمن إن كتبت لغيرهم عهداً أن يأباه . فقالوا له : ان سيدنا يسوع المسيح يعلم أن قتلك لهم غفران لذنوبك ، والناس يعذرونك ، لأنك فى الوقت الذى أعطيتهم الأمان لم تدر ما فعلوا من قتل النصارى وخراب الكنائس ، وانما خرجوا اليك واستقبلوك بالهدايا مكراً منهم ولعنة ، فقتلهم قربان الى الله ! ونحن نحتمل لك وعنك هذا الذنب ونكفر عنك ، ونسأل سيدنا يسوع المسيح ألا يؤاخذك به ، أو نجعل لك جمعة كاملة فى بدء الصوم الكبير ، نصومها لك ، ونترك فيها أكل الجبن والبيض ما دامت النصرانية ، ونجعل فى هذا قانونا وحرما بألا يغير ، ويكتب به الى جميع الآفاق غفراناً لجميع ما سألناك أن تفعل . فأجابهم هرقل الى ذلك ، وقتل من اليهود حول بيت المقدس وجبل الجليل ما لايحصى ممن قدر عليه ، ومنهم من اختفى ، ومنهم من هرب الى الجبال والى مصر »

وجاءت هذه القصة فى تاريخ المقريزى حيث يقول :

« ثم سار هرقل من قسطنطينية ليمهد ممالك الشام ومصر ويجدد ما خربه الفرس منها ، فخرج اليه اليهود من طبرية وغيرها ، وقدموا اليه الهدايا الجليلة ، وطلبوا منه أن يؤمنهم ويحلف لهم على ذلك فأمنهم

وحلف لهم ، ثم دخل القدس وقد تلقاه النصارى بالأناجيل والصلبان والبخور والشموع المشعلة ، فوجد المدينة وكنائسها وقمامتها خرابا ، فساءه ذلك وتوجع له ، وأعلمه النصارى بما كان من ثورة اليهود مع الفرس وايقاعهم بالنصارى وتخريبهم الكنائس ، وأنهم كانوا أشد نكاية لهم من الفرس ، وقاموا قياما كبيرا فى قتلهم عن آخرهم ، وحثوا هرقل على الوقيعة بهم ، وحسنوا له ذلك ، فاحتج عليهم بما كان من تأمينه لهم وحلفه ، فأفتاه رهبانهم وبطاركهم وقسيسوهم بأنه لا حرج عليه فى قتلهم ، فانهم عملوا عليه حيلة حتى أمنهم من غير أن يعلم بما كان منهم وأنهم يقومون عنه بكفارة يمينه بأن يلتزموا ويلزموا النصارى بصوم جمعة فى كل سنة عنه ، على ممر الزمان والدهور ، فمال الى قولهم ، وأوقع باليهود وقيعة شنعاء أبادهم جميعا فيها ، حتى لم يبق فى ممالك الروم بمصر والشام منهم الا من فر واختفى »

وهذه قصة تدل على مكامن الخطر من نقمة اليهود ، وتدل على مكامن الخطر التى هى أبلغ من ذلك وأدهى ، فاذا كان هرقل يجهل ما حدث فى بيت المقدس حتى يراه بعينه ، وكان رعاياه الكبار منقطعين عنه حتى يصل اليهم فى عقر دارهم ، فتلك دولة ممزقة مهملة مفتوحة للأخطار من مكامنها ومما حولها على السواء

وقد كانت لليهود ترات غير تراتهم عند العاهلين ، لأنهم كانوا قبل ذلك يهاجمون أبناء البلاد ويتعرضون لهجومهم فى كل فترة من فترات الثورة والانتفاض . وكانوا اذا سلموا من ضربات الدولة واستهدف لها أبناء البلاد وحدهم ، خامر هؤلاء الظن أنهم يمالئون الدولة عليهم ، وأنها تحابيهم وتستعين بهم سرا وعلانية على اضطهادهم ، فاذا أمنوا طغيان الدولة لم يأمنوا الشبهات والتهم من رعاياها الموتورين !

وكان لليهود موقعان من أهم المواقع فى البلاد المصرية من الوجهة العسكرية ، فكان لهم حيان بين أحياء الاسكندرية الخمسة ، وحى كبير فى عين شمس بجوار منف عاصمة البلاد الداخلية ، وكل من هذه المواقع

له شأنه الخطير فى أوقات الهجوم على البلاد من بحرها وبرها

وكانت للبشموريين فى شرق الدلتا مواقع استطلاع وعبور لا تقل خطراً عن مواقع اليهود فى العاصمتين ، اذ كانوا يسكنون المراعى الواسعة على تخوم الصحراء بين البحيرات الشمالية وأودية الجنوب ، وكانوا عرباً منحدرين ، على أرجح الأقوال ، من سلالة العمالقة الأقدمين، وكانوا يعاونون العرب الفاتحين ، كما عاونهم عرب الصحراء فى الشام على اختلاف العقيدة والمقام ، واذا لاحظنا أن بادية الفيوم كان يسكنها أناس يتكلمون بلهجة بشمورية علمنا أن أقسام البادية العربية لم تتغير كثيرا من قديم الزمن ، وأن عمرو بن العاص قصد الى الفيوم قبل فتح منف على علم بأصول هذه السلالة

وانقضى عهد هرقل كله ومصر تسمع بأخبار الفتوح الاسلامية ، وتتوقع مصيرا كمصير جاراتها فى المشرق القريب ، ولم يكد أعوان هرقل يستعيدون بعض الثقة بدولته بعد خروج الفرس من مصر حتى تبين لهم أن قوة أقوى من الفرس والروم معا قد ظهرت فى ميدان النضال العريق بين الدولتين ، وسمعوا بهزيمة الفرس كما سمعوا بهزيمة الروم فى فلسطين . ومنهم من ذهب الى فلسطين نجدةً لهرقل ، فلم يكد يدخل الأرض باحثا عن العاهل الذى استنجده حتى سمع بفراره وتوديعه البلاد توديعَ اليائس المفارق الى غير رجعة ، كما تناقل عنه الذين قفلوا من ركابه عند تخوم آسيا الصغرى

وأوشك العهد الذى كتبه الخليفة العربى لبطارقة بيت المقدس أن يصبح من محفوظات الساسة ورجال الدين فى منف والاسكندرية بالرواية المتواترة ، وعلموا أن الخليفة حضرته الصلاة وهو فى صحن الكنيسة الكبرى ببيت المقدس ، فخرج منها وصلى على درجها منفرداً لئلا يطلبها المسلمون ذكرى لصلاة الخليفة عليها ، وأنه كتب فى عهده أنه أعطاهم أماناً لأنفسهم وأموالهم وكنائسهم وصلبانهم : لا تسكن كنائسهم ولا تهدم ولا ينتقص منها ولا من صليبهم ولا من شىء من أموالهم ،

ولا يُكرهون على دينهم ، ولا يضار أحد منهم . ومن خرج من الروم فانه آمن على نفسه وماله حتى يبلغــوا مأمنهم • ومن أقام منهم فهو آمن ، وعليه مثل ما على أهل ايليا من الجزية ، ومن أحب من أهل ايليا أن يسير بنفسه وماله مع الروم ، فانهم آمنون على أنفسهم وعلى بِيَعهم وصُلُبهم حتى يبلغوا مأمنهم »

***

وسيرى القارىء فيما يلى كيف خاض المؤرخون فى حديث المقوقس كبير مصر ، وكيف تخيلوا أنه احتال للصلح بشروط غير شروط الروم من جند هرقل فى الاسكندرية ، وسيرى أن هؤلاء المؤرخين نسّاخون يتخبطون فى صناعة النسخ فضلاً عن صناعة التأويل والتخريج ، لأن اتفاق المقوقس بشطريه لم يكن الا نسخة من اتفــاق بيت المقدس بين العرب وأبناء البلاد ، وكانت سياسة العرب أن يتفقوا مع أبناء البلاد ، ثم لا يعنيهم من أمر الدولة الحاكمة الا أن تنجلى بجنودها حيث تشاء ، فاذا قبل أبناء البلاد شرطاً متفقا عليه لم يَكثُر بهم أن يقبله الروم ، ولم يأبوا عليهم الخروج الى ديارهم آمنين مع من يتبعهم من رعاياهم المتعلقين بهم فى موقف الرحيل

المُقَوْقِس

نعرض الآن ببعض التفصيل لسيرة المقوقس وهو ، كما تقدم ، من أكبر الشخوص الخلافية فى تاريخ مصر . ويندر أن توجد فى تاريخ العالم كله سيرة خلافية من هذا القبيل

وشطر من اللوم فى ذلك على المؤرخين النساخين ، وشطر آخر من اللوم على المؤرخين الذين يتدخلون أهواءهم الحديثة فى مسائل التاريخ الخالية ، ويكتبون بخصومات اليوم وأغراضه فى شئون لم يكن فيها محل قط لتلك الخصومات والأغراض !

وقد كان تاريخ المقوقس مبهماً كتواريخ حكام الرومان فى البلاد التى فتحها العرب من فلسطين الى أفريقية الشمالية ، لأن أحوال الدولة الرومانية البيزنطية كانت فى ذلك العصر مبهمة منقلبة . يتولاها الامبراطور اليوم ، فيولى ويعزل ، ويقرب ويبعد ، ويغير المناصب وأصحابها . ولا يستقر على عرشه حتى يثور عليه طامع فى الملك يهدم كل ما أقامه من أركان ملكه ، وقد يُبقى أناساً من أصحاب المناصب كانوا معه سراً أيام ثورته ، وقد ينكل بأناس كان يداريهم ويداورهم الى أن يتمكن منهم ، وقد تنظم الدولة وتجرى حوادثها على وتيرة معقولة بضع سنوات ، ولكنها تصل الى التاريخ فى عصر قد اضطرب فيه التاريخ والمؤرخون ، وحالت فيه الأهواء والمنازعات دون ذكر الحقائق والتبعات ، فيقع اللوم على غير أهله ، ويبذل الثناء لمن لا يستحقه ، وتمسخ الأخبار والحوادث مسخاً لمجاراة المآرب والشهوات !!

وتاريخ المقوقس كان عرضة للمسخ والابهام فى جميع هذه الجوانب :

كان عرضــة للمسخ والابهام من جانب المؤرخين النساخين ، وعرضة للمسخ والابهام من مؤرخى العصور الحديثة الذين نظروا الى أيام الفتح العربى كأنهم ينظرون الى فتح يحدث فى هذه الأيام ، ثم كان قبل ذلك جميعه عرضة للمسخ من تقلقل الأحـــداث وتغير الدول والحكومات والأحزاب الدينية والسياسية ، ويكفى منها اغتيال امبراطور ، وجنون امبراطور بعده ، ودخول مصر فى حوزة الفرس وخروجها منها ، وتنازع الكنائس على العبادات تنازعاً قد استعصى على كل توفيق ، فمن دان بمذهب فخصوم ذلك المذهب عنده كفرة مشركون ، ولا توســط بين الطرفين ، لأن الخصومة تشمل عقيدة الدين وعصــبية الجنس ومطامع السيادة والسياسة ، وتطرأ فى ابانهـــا غارات من الخارج وثورات من الداخل لا تؤذن فى حينها باستقرار !

لهذا اختلف المؤرخون على كل شيء يتعلق بالمقوقس حتى كادوا أن ينكروه !!

اختلفوا على إسمه ، واختلفوا على جنسه ، واختلفوا على منصبه ، فضلاً عن الاختلاف على مقاصده وأغراضه !

وظن بعضهم أن المقوقس اسم الرجل على أصله ، أو مشوباً ببعض التحريف

وظن بعضهم أنه لقب وظيفة ، ثم اختلفوا فى الرجل الذى كانت تطلق عليه . فمنهم من اعتقد أنه « الأجيرج » أو الأعيرج ، الذى جاء فى كلام بعض المؤرخين العرب أنه كان يتحصــن فى قصر بابليون . ومنهم من اعتقد أنه البطرق بنيامين الذى كان على مذهب الكنيسة الوطنية . ومنهم من اعتقد أنه البطرق فيروش الذى كان على مذهب الكنيسة الملكية . ومنهم من قال انه وطنى تمذهب بمذهب أبناء البلاد واعتقــد الكفر فى رؤساء الدين بالقسطنطينية . فأضــمر الكيد لهم ، وأحب أن يستأثر بالحكم دونهم . ولم يتفقوا بعض الاتفاق أخيراً الا فى أمر لقبه باللغة اليونانية ، فليس بين المؤرخين اليوم من يحسب المقوقس اسما للرجل ،

بل ليس فيهم من يحسب أنه لقب سبقه اليه أحد من ولاة الروم على الديار المصرية

وعندنا أن هـذا « اللقب » مفتـاح لبعض الألغاز التى أحاطت بتاريخه ، لأنه يرجح الدلالة على جنسـه ، وعلى علاقته بالدولة التى كانت لها السيادة الاسمية على البلاد

لم تجر عادة الدول الأجنبيـة ان تفخم ألقاب الولاة الا اذا كان الغرض مرضاة البلد المحكوم بمظهر من مظاهر السيادة

وكانت الدولة الرومانية على الخصوص تكتفى بأيسر الألقاب اذا اطلقتها على الولاة من الرومان ، فكانت تسمى الوالى حاكما او قنصلا أو نائب قنصل أو نائبا أو وكيلا ، من أشبـاه هـذه الأسماء التى تؤدى المعنى الرسمى ولا تزيد . وتعمدت الدولة فى أيام العواهل ان تضعف من فى الولايات ، لأنهم كانوا يرشـحون أنفسهم للعرش اذا برزوا بين القادة وملكوا زمام الجيش فى اقليم كبير

انما كانت ألقاب التفخيم مقصورة على الوطنيين ومن هم فى حكمهم من المنتسبين الى البلد ، لأن هـذا اللقب عوض عن التـاج حيث لا منازعة عليه ، فلا خطر على الامبراطور فى القسطنطينية من رئيس وطنى مفخم فى بلده بين أبناء وطنه ، بل فى ذلك دفع لخطر الثورة ، ورضى بالنصيب المقدور من الرئاسة ، واما الخطر كل الخطر فهو من تعظيم قائد رومانى ينازع الامبراطور على عرشه ، ويتخذ من فخامة اللقب ذريعة الى الاقتراب به من مقام الامبراطور وجميـع الأعوان الذين يحيطون به ، كما يحاط بكل حاكم مناظر لصاحب العرش يطمح الى مكانه

وقد وجب تعويض مصر عن بعض ما فقدته من سلطان الملك وسلطان الدين بعد القرن الخامس للميلاد

فقبل ذلك كانت الثورات فى مصر لا تنقطع ، وكان بعض الثائرين من قادة الرومان أنفسهم ، فلما استقرت هـذه الثورات بعض الشىء

كانت الاسكندرية قد تعرضت لمنافسة شديدة أشد عليها من سلطان السيادة السياسية

كان الامبراطور قسطنطين قد دان بالمسيحية فى أواخر أيامه ، فأصبحت عاصمة الدولة تابعة فى العرف الدينى لكنيسة الاسكندرية لأنها أقدم الكنائس وأكبرها فى المشرق والمغرب

ثم جاء جوليان المرتد بعد قسطنطين ، فبقيت للاسكندرية مكانتها الكبرى ، ولم تكن للقسطنطينية مكانة دينية كبيرة أو صغيرة . لأنها عاصمة دولة لم تعترف بالدين ، أو لم تثبت على الاعتراف به ، وانقلبت عليه تحاربه وتقصى أتباعه من مراكزها العليا

وظل مقام الاسكندرية مقامها الى القرن السادس الذى استقرت فيه المسيحية فى عاصمة الدولة وأصبحت كنيستها عاصمة الكنائس على هذا الاعتبار ، وأوشكت هذه الصفة أن تثبت لها بعد تسمية القسطنطينية برومة الجديدة ، تعاليا بها على رومة القديمة ، فلم يبق لبطرق العاصمة مناظر يحسب حسابه غير بطرق الاسكندرية ، واذا كان مذهب الملك هو المذهب السائد فى بلاد الدولة الرومانية ـ فرئيس الكنيسة فى الاسكندرية تابع ولا شك لرئيس الكنيسة التى يصلى فيها الامبراطور ، ويتولى رئاستها الدينية فى عاصمته الكبرى ، وبطرق الاسكندرية مرؤوس لبطرق القسطنطينية على هذا الاعتبار

لقد كان البطرق الاسكندرى رأس الدين المسيحى فى العالم كله قبل رؤسائه فى العاصمة الغربية والعاصمة الشرقية ، وكان من بطارقتها من يقول : « ماذا يعنينى من الامبراطور ؟ اننى هنا الامبراطور ! » وكان صادقا فيما قال ، لأن الناس كانوا يطيعونه ويؤمنون بأن طاعته من طاعة السماء . أما الامبراطور فمهما يكن من أمر طاعته القسرية فهى طاعة أرضية على كل حال !

هنالك وجب تعويض مصر ، ووجب اجتماع اللقب السياسى واللقب الدينى فى كرسى واحد ، وكان هذا هو حكم البداهة الذى

وافقه حكم الواقع ، فكان « المقوقس » جامعا بين صفة الرئاسة الدينية وصفة الرئاسة الادارية ، أو كان هو بمثابة « ولى الأمر » فى مصر بالاصطلاح الحديث ، وقد تكون رئاسته عند الدولة رئاسة شرف يعززها مكانة « عملية » بين أبناء البلاد

واذا كان التاريخ لا يكرر نفسه كل التكرار فى جميع الحوادث ، فهو لا يخلو كل الخلو من التكرار المتجدد حينا بعد حين . ولعل لقب « الخديو » أشبه الأشياء بلقب « المقوقس » فى أواخر عهد الدولة الرومانية ، فهو وال وأكثر من وال فى المنزلة السياسية ، وهو ولى الأمر بالنيابة عن الخليفة أمير المؤمنين ، وباسمه تقام الأحكام الشرعية والادارية فى ظل شاهنشاه ، وخليفة الاسلام

كان لقب المقوقس أو المقوقز كلمة يونانية بمعنى المفخم أو الفاخر ، كالحضرة الخديوية « الفخيمة » أو المفخمة كما صححتها اللغة العربية

وكان اطلاق هذا اللقب على رئيس من المصريين أو المتمصرين معقولا مفهوما فى تلك الفترة على سبيل التعويض والترضية ، ودفع النزاع والتنافس بين سلطان العاصمة الكبرى وسلطان الاسكندرية ، أما الغريب الذى قلما يفهم فهو اطلاقه على قائد رومانى لا يكبر — اذا كبر — الا لينتزع العرش من الامبراطور

وهذه ناحية من نواحى البحث المنتج فى تاريخ المقوقس وتاريخ الفتح العربى على اجماله ، وهناك نواح أخرى تضارعها فى الانتاج أو تزيد عليها ، ومنها خطاب النبى عليه السلام الى المقوقس ، وتلك السمعة « الخارجية » التى جعلت له هذه المكانة ، وجعلته أهلا لأن يخاطبه النبى عليه السلام فى أمر المصريين جميعا ، مع خطابه لهرقل فى الوقت نفسه ، كأنه لا يملك من أمر مصر ما يملكه المقوقس

ومن نواحى البحث المنتج صفة المقوقس التى رشحته للتعاهد باسم مصر ، والتزام الانجاز والتنفيذ بعد ارتحال الجيش الرومانى من البلاد ، ومنها البواعث النفسية التى تحبب اليه أن يبقى فى مصر

الى نتيجة مؤكدة ليس فيها شك ، وهى ان المقوقس لم يكن سوى فيرس ، وانه لا ينبغى لذلك اللقب ان يطلق على سواه من الناس » (١)

***

وأشد من بتلر « بريطانية » فى تصوير التاريخ تلك السيدة الانجليزية « ا . ل . بتشر » التى كتبت تاريخ الأمة القبطية لتأسف أولا على انها انفصلت من الكنائس الغربية ، وتثبت ثانيا ان خروج مصر من حكم الرومان كان خيانة مصرية لا تضارعها خيانة ، وتمثلت صاحب هذه الخيانة كأنه عائش فى زمانها ، فهالت عليه من السباب المقذع ما يستحقه عندها الخارجون على سلطان بريطانيا العظمى ، وهى ـ أى السيدة بتشر ـ على خلاف رأى بتلر فى تحقيق شخصية المقوقس ، لأنها تقول انه هو جورج أو جرجس المصرى ، وتتوجع لما حدث ، كأنه لو لم يحدث كانت سلمت الدولة الرومانية مما أصابها ، وبقيت مصر فى حوزتها !

قالت : « لما طرد هرقل الفرس سنة ٦٣٠ وأعاد حامياته فى مصر كان أعلم باضطراب الموقف ، وتخلخل قبضته على البلاد ، من أن يندفع متهجما ، وجعل ينتظر ريثما تبلغ مقترحاته الدينية مبلغها عند الجانب المصرى ، وكان حكام الأقاليم ـ ومنهم مصريون وطنيون ـ يعلمون أن وقت الحساب غير بعيد لا يقبل التسويف الطويل ، وكثير منهم كانت له أسبابه الخاصة وأسبابه السياسية التى تخيفه من عاقبة استقرار السيطرة البيزنطية

« ولو ان مقترح التوفيق ، الذى عرف بالأوطاخى ، لقى القبول عند البطرق بنيامين لأصبح هؤلاء الحكام عزلا من السلطان ، ولكن هرقل من طريق نائبه فيرس الذى اختاره بطرقا للكنيسة البيزنطية أو كنيسة الدولة ، كان قد أخطأ فهم من شأن البطرق المصرى ، فلما بدا لفيرس ان جمهرة الأمة المصرية رحبت بمقترحه لم يتردد فى

(١) من ترجمة الاستاذ محمد فريد أبى حديد لكتاب « فتح العرب لمصر » الطبعة الثانية

قال : « الى هنا قد بيّنا ما هنالك من أدلة بينها اتفاق عجيب فى بعض الأحايين ، واختلاف واسع فى أحايين أخرى ، وقد استمددنا تلك الأدلة من وثائقها الأصليــة ، ومنها ما تخلف عن العصر الذى نصفه ، وهى من أصــول متباينة : منهــا اليونانى والقبطى والسريانى والعربى ، وكلها تدل على ان المقوقس انما هو « فيرس » بطريق اســكندرية والعامل على الخراج ، والحاكم العام على مصر فى وقت الفتح ، وليس ينقض هــذا الرأى أن يقول إن مؤرخى العرب قــد يطلقون لقب المقوقس أحيانا على شخص يسمونه ليس هو فيرس ، ولسنا ننكر أن الأمر كذلك ، ولكننا ننكر كل الانكار تلك النتيجة التى يذهب اليها أصــحاب ذلك القول ، وهو ان لقب المقــوقس لم يكن علمــا على شخص معين واحــد ، وحجتهم فى ذلك أنه قد أطلق خطــأ فى بعض الأحوال على أشخاص متعددين ، ويلوح لنا ان العلامة كاتيانى من بين من يذهبون هــذا المذهب . وأما الحقيقة التى نراها فهى ان المؤرخين العرب انما كتب أكثرهم وليس عنــده من المقوقس أكثر من صــورة ضئيلة مبهمة ، وانه كان حاكما على مصر ، فليس من العجيب أن نجدهم يصورونه أحيــانا مشتركا فى أعمال أو حوادث لم يكن مشتركا فيهــا بنفسه ، أو لم يحضر حدوثها ، ولا شك انهم قد ضلوا فى أمر اسمه وشخصه ، ولذلك فهم يخطئون فيها ، ولكن المســألة التى نحن بصددها باقية ، وهى ان نكشف خلافهم عن حقيقة شخصيــة المقوقس ، وان نعرف من كان بين الناس ، ولم يذكر مؤرخ عربى ـــ وما كان له ان يذكر ـــ ان ذلك اللقب قد اطلق على ثلاثة اشخاص كلهم حق له أن يلقب به ، وليس فى طاقة المنطق ان يبيح لقــائل ان يقول ان وجود الخلاف يجعل ذلك اللغز متعسرا على العقول لا تستطيع حله ، بل ان واجب النقــد التاريخى ان يصفى ما هناك من خلاف ، وان يزيح ما تراكم منه على الحقيقة فيكشفها ويجلوها . ولعلنا يحق لنا ان نعتقــد أنه اذا عُرضت الأدلة عرضا لا ميل فيه ولا تحيز أمكن أن نصــل

ويخرجها من دولة الروم أبدا ، غير مبال بانتقال سلطان الدولة الى أيدى الفاتحين من أبناء دين غير دينه . فكل هذه النواحى المنتجة تؤدى الى شىء من الترجيح القوى ، ان لم يكن من شأنها أن تؤدى الى القطع والجزم فى جانب الاثبات أو جانب النفى والانكار ، ولكنها على ذلك أهملت أسوأ الاهمال ، ولم يعرها « المؤرخون النساخون » بعض ما أعاروه كعادتهم للمقارنة بين النصوص ، والموازنة بين الأرقام ، وسرد أقوال الشهود على وقائع ليست من وقائع الشهادة والحكاية فى التاريخ ، ولا فى حوادث كل يوم

وهذه نماذج من أقوال المؤرخين فى هذه المسألة ، نحسبها نماذج لأكثر من باب واحد من أبواب التاريخ ، فهى مثال لتاريخ النساخين ، ومثال لتاريخ ذوى الأغراض ، ومثال للتاريخ الذى يكتبه المعاصرون وينظرون فيه الى حوادث الزمن القديم ، فيحكمون عليها كأنها تقع اليوم ، وتنبعث من دواعى السياسة أو الشعور ، التى تدور عليها حوادث القرن التاسع عشر أو القرن العشرين

***

من أكبر المؤرخين لعصر الفتح الاسلامى الدكتور الفريد بتلر الذى أقام فى مصر زمنا قبل الاحتلال البريطانى وبعده ، واجتهد اجتهاده العلمى فى تمحيص الوثائق التى عثر بها فى القصور الخديوية وفى المكتبات العامة والخاصة ، ولكنك تلمح من ثنايا كلامه كأنه يكتب عن خروج مصر من الدولة الرومانية ، وهو يتصورها خارجة من الدولة البريطانية فى العصر الحديث ، ويحسب ان تدبير هذا الخروج « عمل خائن » يحاط بالشبهات ، ويدان بأحكام العلاقات الدولية فى هذه الأيام

فبعد أن أورد الأقوال المتضاربة ليضعفها ويفندها ، اختار منها قولا واحدا لا فضل له على سائرها ، غير انه القول الذى يدين المقوقس ويسفه رأيه ! !

اضطهاد البطرق المصرى ونفيه لرفضه وابائه ، فما كان من أثر ذلك الا ان الرفض والاباء كمنا فى طوايا الأمة المصرية جمعاء ، وأصبح المقترح محتوم الزوال بعد حين ، ومهما يكن من أخطاء الأمة المصرية ، لقد كان من دأبها انها لم تخذل قط بطرقها ، ولعل مقترح الامبراطور كان يبدو كأنه غاية ما ترومه ، لولا أن البطرق لم يقره ، فليس من حق المصرى الصادق أن يباليه ويلتفت اليه ، وشيئا فشيئا تحولت جمهرة الشعب من جانب الامبراطور ، وأخذ فيرس يدرك انه أخفق وخاب فى مسعاه ، فتنفس الموظفون الخونة الصعداء ، ولاح لهم يوم الحساب غير قريب

« من هؤلاء الموظفين والوكلاء واحد ينفرد بارزا بالمكانة الشائنة ، وقد سمع أكثر الناس بالمقوقس الذى تمارى الكثيرون فى اسمه ووظيفته ، بل تماروا فى وجوده ، وتناقشوا طويلا فى أمره ، ولكن مجموعة الورق البردى ، التى فى حوزة الارشيدوق رينر وترجمت أخيرا ، قد يسرت لنا ، ولو بعض التيسير ، ان نزيل بعض المصاعب التى تحف بهذه المسألة

« ومعظم المؤرخين متفقون منذ زمن بعيد على ان المقوقس لم يكن اسم علم ، ولكنهم حاروا فى الجزم بحقيقته بين أن يكون لقبا أو عنوان منصب من مناصب الدولة . أما الواقع فيظهر انه لم يكن هذا ولا ذاك ، وانما كان الرجل صاحب عنوان يمكن أن يسمى بالعمدة ، يخطىء بعض المؤرخين فيسمونه نائب الملك ، واسمه الأصيل جرجس بن مينا بركيوبس ، وقد كان اسم مينا فى مصر عاما شائعا يحتاج الى لقب يونانى لتمييزه ، وليس العمدة أو المدير فى الأقاليم الا الحاكم المصرى الذى يشرف على جميع أعماله الادارية ، كحفظ الأمن ، وجمع الضرائب وتسليمها ، وتدبير شئون الطرق والجداول والسدود والقناطر ، وكل ما يلحق بالنظام الادارى ، حتى سك العملة وتقدير المقاييس والأوزان . ولا يخرج من سلطانه غير الجيش ، وتمثله

فى كل اقليم حامية صغيرة ، والقساوسة ، وهم الاستثناء الأهم من استثناء الحامية . وقد كان عدد الموظفين الذين لا يعرفون أحدا أكبر من العمدة عظيما جدا ، ومن الكشوف الحديثة نعرف أسماء الأقسام الثلاثة التى تولاها العمدة أو المديرون فى عهد الغزوة العربية

« لقد كانت اليونانية لغة البلاد الرسمية ، وكان لقب التمجيد الذى يمنحه المديرون كلمة تقابل عندنا فى الانجليزية كلمة الفخم أو المجيد كما تعودنا فى تقديم سفرائنا بألقاب ذوى السعادة ولكن العرب حسبوا هذه الكلمة اسما شخصيا للعمدة الخائن الذى فاوض عمروا على تسليم البلاد ، وقد أصبح جرجس الخائن من ثم مشهورا خلال القرون بوصف ما أقل انطباقه عليه ، وهو وصف المقوقس أو الفخم المجيد

« كان عمدة الوجه البحرى امون مينا رجلا ، كما وصفه يوحنا النخوى ، مدعيا غبيا ، يمقت المصريين أشد المقت ، بقى فى منصبه بعد دخول مصر فى حوزة العرب . وكان عمدة مصر الوسطى على أحد شواطىء النيل من ناحية المنيا يسمى فيرس ، ولا نعلم عنه شيئا الا انه اشترك فى تسليم البلاد للمسلمين ، وأما عمدة مصر العليا — أو بابلون — فاسمه فى أوراق البردى جورج أو جرجس ، الذى نسميه المقوقس ، وهؤلاء كانوا المديرين على أهم الأقاليم مع الدوق العسكرى والحامية التى تتبعه ، والى جانبهم قديما — أو بعد دخول العرب — مديران آخران أقل شأنا منهم ، وهما فولكسينوس بالفيوم وشنودة بالريف

« وثلاثة من هؤلاء العمد مصريون وطنيون ، بدليل أسمائهم التى لا تقبل الشك ، وان لم يكونوا من أتباع الكنيسة الوطنية ، والا لما أمكن أن يشغلوا هذه المناصب . وان المؤرخين الذين يذكرون المقوقس على انه قبطى مصرى لعلى صواب ، ولكنهم مخطئون فى زعمهم انه تابع للكنيسة الوطنية التى تعرف الآن باسم الكنيسة

القبطية ، ولعله كان فى قلبه يشايع كنيسة آبائه ولا يستطيع أن يصرح بالانتساب اليها . فهو موظف بيزنطى من أبناء مصر ، وهو من ثم خائن لامبراطوره ، وخائن لبلاده ، وخائن لكنيسته

« وكان قد مضى عليه عهد بعيد فى وظيفته على أيام الغزوة العربية ، فأصبح أقوى المديرين جميعا لدخول بابليون فى اقليمه على أقصى حده الشمالى ، وتعود المصريون نحو عشرين سنة أن ينظروا اليه كأنه وحده حاكم وادى النيل ، وقد علمتهم غارات الفرس ان البيزنطيين بغير حول ولا قوة ، ثم ذهب الفرس وعاد البيزنطيون ، واحتلت طائفة من جنودهم حصن بابليون وبعض الأمكنة فى بنى سويف والفيوم ، ولم يشعر أبناء البلاد الى الجنوب بآثار هذا التغيير ، ولا فرقوا بين الجنود فى ملابس الفرس أو الجنود فى ملابس الرومان ، وانما كانوا يؤدون الضرائب بحكم العادة للعمدة أو المدير ، ويكلون اليه أن يسلمها لمن يشاء ، وانقضى زمن طويل والمدير القوى يتصرف فيها على أيسر وسيلة ، فيستبقى له كل ما بقى من الأموال بعد توزيع المرتبات وتكاليف الحكومة فى الاقليم ، ولكنه ما عتم أن رأى هرقل يظن ان مقترحات التوفيق قد جمعت حوله أبناء البلاد ، ويريد الدليل المحسوس على سلطانه ، ويشدد فى استقضاء الأموال ، حتى شهد الخطر فاغرا فمه أمام عينيه ، وكان من قبل قد نظر الى بعيد ، وأرسل الى الشمس الطالعة سفارة ودية تحمل الهدايا من العسل والعبيد الى محمد زعيم القوم ، وها هو ذا محمد قد مات ، وها هى ذى وقائع النصر التى أحرزها هرقل تغمه وتشغل باله ، فاذا نهضت الدولة القديمة وهزمت العرب أمامها كما هزمت الفرس ، فهو أول من يساق لتقديم الحساب وقد التفت جيوش هرقل وعمر خليفة محمد فى فلسطين ، وأيقن جرجس ان مصر ستكون لا محالة نصيب الظافر من الفريقين ، ولاح له من وقائع هرقل الأخيرة انه قد يكون صاحب الكفة الراجحة ، فبادر الى العمل على حسب هذا التقدير ، وكانت له فتاة

حسناء تسمى أرمانوسة ، فخطر له خاطر بارع : أن يزوجها من قسطنطين بن هرقل ووارث عرشه الذى ماتت زوجته ، وأن يزودها بجهاز يغريه باهمال موضوع الأموال المتأخرة ، وكان قسطنطين يومئذ فى قيصرية ، ويظهر انه استراح الى هذه الفكرة ، وعلى هذا خرج من بابلون فى أواخر سنة ٦٣٠ موكب فخم يزف العروس المصرية الى قرينها الملكى ، وقيل إن حراس الموكب بلغوا ألفى فارس عدا الحشم والخدم وحملة الذخائر والتحف المهداة ، وما كاد الموكب يقترب من الحدود المصرية وينحو ناحية القنطرة فالعريش حتى نمى الى أرمانوسة نبأ انتصار العرب ، ومحاصرتهم لقيصرية ، وتأهبهم للهجوم على البلاد المصرية ، فتصرفت المصرية الشابة بالشجاعة والفطنة الجديرتين بأسلافها العريقين ، وقفلت الى بلبيس مستعدة هنالك للدفاع ، فأنفذت على الأثر حراسها الى الفرما للمقاومة فيها اذا قدم العدو من جانبها كما كان مرجحا فى تلك الأحوال ، وأرسلت الى أبيها تنذره ، ولم تبرح بلبيس لتشجيع السكان على الثبات فى وجه الكفار. على أن عمرواً قائد المسلمين تجنب الفرما وتقدم رأسا الى بلبيس ، فضرب حولها الحصار ، فلبثت الفتاة الباسلة شهرا تصد العرب بفرقتها الصغيرة التى لم تدرب على القتال ، وبعد خسارة عظيمة فى الأرواح وقعت المدينة عنوة فى قبضة عمرو ، ومعها ارمانوسة وكل ما لديها من ذخائرها وكنوزها ، فبعث بها الى أبيها معززة مكرمة ، اما لاعجابه ببسالتها ومحاولتها الدفاع والمقاومة ، واما لادراكه جلالة العاقبة من ترك كل عمل يسىء الى العمدة المقتدر فى بابليون . فانحلت مشكلة المقوقس ، وبرح الخفاء فى أمر الشمس الطالعة منذ ذلك الحين »

وعلى هذا المنهج من تشويه الوقائع تمضى المؤرخة « المترومنة » وتتكلف من التحقيق والتمحيص ما يعينها على غرض واحد ، وهو الحسرة على خروج مصر من الدولة الرومانية ، والقاء التبعة فى ذلك على المقوقس ، وتعليل خيانته بجمع الضرائب لنفسه فى الآونة التى

انقضت بين استيلاء الفرس على مصر وخروجهم منها وهي علة لا يعقلها جاهل بظواهر الأحوال ، فضلا عن مؤرخ يتصدى لتفسير التواريخ واستخلاص الحقائق من وراء الشبهات ، فان الفرس لم يفتحوا مصر ليتركوا ضرائبها وخيراتها غنيمة للمقوقس ، يعطى منها ما يعطيه ويستبقى منها ما يستبقيه واذا كانت علة الخيانة خوف المطالبة بالضرائب المتأخرة فأيسر شيء على المقوقس أن يقول ان الفرس نهبوها ولم يعطوه « ايصالا » بما نهبوه بطبيعة الحال ، واذا عز عليه فى دهائه — أو فى بلاهته — أن يعتذر بهذا العذر الواضح ، فقد كان خيرا له أن يبذل المال لهرقل أو لقسطنطين بدلا من ارساله تحفا وهدايا وجهازا وصداقا مع بنته المزعومة ارمانوسة ، وهو لا يأمن أن تخرج مصر من يد هرقل ، فيكون قد قذف بفتاته الى النيران ، ووقع بين شقى الرحى من ناحية المهزومين وناحية المنتصرين ، ولم يستفد من كل ذلك ابقاء المال ولا ابقاء فتاته لديه.

وقد قبلت المؤرخة « المترومنة » قصة ارمانوسة من قصص الواقدى على علاتها ، ولم تبحث فيها أقل بحث يتطلب التعزيز والاسناد ، ولم يحملها على قبول القصة الا انها ذريعة لتهمة من التهم تكال للمقوقس المسكين ، على أن « بتلر » لم يرفض قصة أرمانوسة انصافا للحقيقة ، أو ذهابا مع التمحيص والتدقيق ، بل رفضها لأنه اختار أن يكون المقوقس هو فيرس ، واختار أن يكون فيرس راهبا لا يجوز له الزواج ، وهو فى ذلك لم يبلغ بالتمحيص غايته ، لأن مسألة الزواج لم تكن يومئذ من الحرج والصرامة بحيث انتهت اليه بعد فصل الكنيسة القبطية من سلطان الرومان . وقد كان مستحبا للأسقف ان يكتفى بزوجة واحدة اذا خشى الفتنة على نفسه ولا يزيد عليها . قال ساويرس بن المقفع أسقف الأشمونين ، صاحب « سير البطارقة » أثناء الكلام على ديمتريوس الثانى عشر : « واذا قال قائل كيف يجوز أن يكون بطرك متزوجا تقول له : قد قال التلاميذ فى قوانينهم : اذا كان الأسقف

متزوجا امرأة واحدة فلا يمنع من ذلك ، لأن الزوجة المؤمنة طاهرة وفراشها طاهر ولا ذنب عليه . والبطرك هو أسقف مدينة الاسكندرية ، وله الرئاسة على أساقفة أعمالها ، لأنه خليفة مار مرقس الرسول على اقليم مصر جميعه ، والخمس مدن والنوبة والحبشة كل هذه خرجت من قسم الأب مرقس الرسول البشير ببشرى الانجيل ولهذا أوجب أن يكون حكم أسقف اسكندرية على جميعها »

فليست هناك علل حاسمة تصلح للاستناد اليها فى التثبت من السير والأشخاص على هذه الطريقة التى توخاها بتلر ، أو على تلك الطريقة التى توختها السيدة فيما اختارته أو نبذته من تاريخ تلك الآونة

وكان خليقا بتاريخ هذه السيدة أن يهمل كل الاهمال ، أو يترجم لتصحيحه وابرائه من السخائف والأباطيل ، ولكنه ترجم فبلغ من غباء مترجمه أن يصرف همه فى الترجمة الى توكيد سخائفه ، وتمكين أباطيله ، واختراع القصص لتزييفه وتسويغه ، ونبذة واحدة من الترجمة السقيمة تكفى لتصوير الجرأة على الهزل فى مقام الجد مما يساق للناس فى مقام التاريخ المحفوظ ، وهذه النبذة هى هذه القصة التى اخترعت أو أضيفت الى التاريخ من أساطير الخيال ، وقد نقلها المترجم مما تقدم فقال :

« من مميزات المقوقس انه كان ذا وجهين ، يتلون تلون الحرباء ويتقلب حيث شاء ، ولسان حاله يقول : أنا مع الغالب . فانه لما انتصر هرقل على العرب فى موقعة عند فلسطين ، ظن جرجس ان النصر سيكون لهذا الامبراطور ، ولذلك سعى فى التقرب اليه والتملق له عساه يتناسى عدوانه وطمعه ، فدبر الطريقة الآتية ، وهى انه كانت له ابنة بارعة فى الجمال اسمها ارمانوسة ، فخطر على باله أن يزوجها بقسطنطين بن هرقل الأكبر ووريثه ، وأمهرها بصداق وفير جعل هذا الأمير الذى كان حاكما فى قيصرية أن يقبل طلب جرجس ويتنازل فى المتأخرات الباقية عليه من ضرائب مصر التى لم يدفعها للخزينة

الامبراطورية . ففى سنة ٦٣٩ سارت هذه العروس المصرية من بابيلون ، بأبهة الملكات ، وفخفخة جداتها المصريات ، يحف بها جيش جرار ، ويمشى فى ركابها أمراء وأقيال ، حتى بلغ مقدار الفرسان الذين كانوا فى موكب زفافها ألفى فارس أو يزيدون ، عدا العبيد والهدايا النفيسة والعطايا الفاخرة التى تليق بعروس مصرية لعريس رومانى . ولكن عندما وصلت هذه الحسناء لحدود مصر ، وكادت تعبر القنطرة عند الاسماعيلية الى العريش ، بلغها ان الغلبة كانت حليفة للعرب الذين شددوا الحصار على قيصرية ، وهم يستعدون للهجوم على مصر ، فلما طرق هذا الخبر آذان سليلة رعمسيس ، وابنة فرعون ، وكريمة أولئك الأجداد الكرام الذين دوخوا العالم واجتاحوه قبل أن يوجد العرب ، طرحت حلى العرس وزينة الفرح ، وتقلدت السيف بدل الوشاح ، ولبست الدروع بدل الدمالج ، وتمنطقت بمعدات الهلاك بدل أحزمة الذهب المرصعة باللآلىء ، ونزلت من مركبتها ، وامتطت متن جواد أشهب ، وقالت للذين يسيرون معها ان هيا نخضب أيدينا بدماء الأعداء بدل خضاب الأوانس ، ونشرب بجماجمهم عوضا عن شربنا بكاسات الذهب وطاسات الابريز . تعالوا نشنف آذاننا بصلصلة السيوف وصليل الخيل ، بدل وقع الدف ورنة العود ! سيروا بنا نحو الأعادى ، وهناك اذا وقعت العين على العين ، وحمى وطيس الحرب ، وعلا سعير الطعن والضرب ، وتقابلت مع الفرسان ، تجدوننى أردد ما قاله عنترتهم الأسود ، وأنا فتاة بيضاء بضاء ، وغادة هيفاء .

اذا كشف الزمان لك القناعا
ومد إليك صَرْفُ الدَّهرِ باعَا
فلا تخش المنية والتقيها
ودافعْ ما استطعتَ لها دِفاعَا

ولا تختر فراشـــــا من حـــرير
ولا تبـــك المنـــازل والبقـــاعا

وحينئذ كرت ارمانوســة راجعة الى بلبيس فى نفر من رجالها وأخذت تستعد للدفاع وصد هجمات الأعداء المغيرين

الى أن قال :

« وبعد أن دخل عمرو بلبيس ، وقعت ارمانوســة أسيرة فى يده ، ولكنه أرسلها الى أبيها بكل احترام وتبجيل ، اما لأنه أعجب بشجاعتها وبسالتها ، أو لأنه خاف أن يؤذيها فيسىء الى والدها صديقه الحميم ، الذى ثبت لديه الآن ان العرب هم الذين ســوف يأخذون مصر بلا مجادلة . ولما وصلت ارمانوسة الى أبيها سألها عما فعلت ، فأجابته :

أقمنـــا بالذوابل ســـوق حرب
وصـــيّرت النفـوس لهـا متاعا
حصـــانى كان دلال المنـــايا
فخـــاض غبـابهـا وشرى وباعا
وسيفى كان فى الهيـــجا طبيبـــاً
يداوى رأس من يشـــكو الصـــداعا
اذا الأبطـــــال فرت خوف بأسى
ترى الأقطـــار باعـــا أو ذراعـــا

فكظم أبوها غيظه منها ، لأنها قاومت الذين تعاهــد معهم على أن يعطيهم وطنه لقمة باردة دون حرب أو عناء ، ولم يستطع توبيخها أو تعنيفها ، لأنه كان لا يزال تحت سـلطة الرومانيين ، ولم تصر مصر بعد الى أيدى هؤلاء العتاة المغيرين .. »

***

وعلى غير هــذا الأسلوب أصلا وترجمة ، يتعرض الدكتور جاك تاجر لتحقيــق أمر المقوقس ، وتاريخ الفتح العربى ، وسرد الوقائع والمرويات على نسق يوهم القارىء ان النظر فى الوثائق والمعاهـدات

يعاد من جديد ، فيقول فى الصفحة الرابعة والأربعين من كتاب بعنوان « مسلمون وأقباط » :

« ان الشخص الذى يطلق عليه مؤرخو العرب اسم المقوقس لم يزل غامضاً . هل كان قبطياً ؟ هل كان من أصل يونانى ؟ هل المقوقس الذى سلم القاهرة هو نفسه الذى أبرم اتفـاقية الاسكندرية ؟ لم يصل المستشرقون بعد بحث وتنقيب خلال قرن أو أكثر الى جواب دقيـق عن هذه الأسئلة . نعم اننا اليوم أقرب الى الحقيقة من أمثال شمبليون فيجاك شقيق شامبليون الذى صور لنا فيرس على أنه قس قلق ومفسد — خلف البطريرك جورج عام ٦٣٠ — بينما حكم مصر أحد الأقباط كريم الأصل ومن أغنى أغنياء البلاد اسمه المقوقس . غير أن المستندات التى حصلنا عليها حتى الآن لا تسمح لنا بعد بتفسير هذا اللغز التاريخى تفسيراً تاماً

استعمل المؤرخون كلمة « مقوقس » باعتبارها اسم شخص معين . على أننا متأكدون تقريباً من أصل هذه الكلمة ، ان البطـريرك فيرس الذى عينه الامبراطور هرقل محافظاً على دوقية الاسكندرية كان قبل تعيينه أسقفا لمدينة فاز من مدن القوقاس ، فلقب فى مصر بلقب فوفيوس — القوقاسى — كما يشهد على ذلك أحد المستندات القبطية النادرة التى كشف عنها وأشار اليها اميلينو Amlineau :

... « أما الفوفيوس هذا الأسقف المزعوم ، فقد ترك الحقد يوغر فى صدره الى أن وصل الى مدينة الفيوم ... ولما أدرك الأب صمويل أنه سيفارق الحياة ، قال له — أى للفوفيوس — : أنت أيضاً أيهـا الكلسيدونى المخادع .. »

الى أن قال فى الصفحة الخامسة والأربعين : « ونميل الى الاعتقـاد دون أن نجزم قطعيا بأن المقوقس الذى فاوض فى تسليم بابليون ، هو شخص آخر غير البطريرك فيرس الذى أبرم صلح الاسكندرية ، بل أنه حاكم قبطى ، وأمسك المؤرخون العرب عن التثبت من شخصـية

هذا الحاكم ... على أن المؤرخ الكاثوليكى « ابن بطريق » يشير الى المقوقس على أنه يعقوبى مبغض للروم ، ولم يكن يتهيأ له أن يظهر مقالة اليعقوبيين لئلا يقتلوه ، ويتهمه ابن بطـريق الى جانب ذلك بأنه قد اقتطع أموال مصر من وقت حصار كسرى للقسطنطينية ، فكان يخاف أن يقع فى يد هرقل الملك فيقتله ... والذى يحملنا أيضاً على الاعتقاد بأن حاكم بابليون أيام الحمـلة كان قبطيًا ، هو الفرق الواضـح بين اتفاقيتى القاهرة والاسكندرية : فبينما تعنى اتفاقية الاسكندرية صراحة بمصير اليونانيين ، لم تهتم اتفاقية بابليون الا بمصير الأهلين ، وأبى ابن الحكم أن يترك شكاً فى هذا الموضوع ، فأضاف بعد أن ذكر الاتفاقية الموقع عليها فى بابليون ما يأتى : (هذا كله على القبط خاصة) . ومن جهة أخرى أراد المقوقس أن يخطر عمرواً قبل دخول الاتفاقية فى دور التنفيذ فقال له : انما سلطانى على نفسى ومن أطاعنى ، وقد تم صـلح القبط فيما بينك وبينهم ، ولم يأت من قبلهم نقض" ، وأما الروم فانى برىء منهم وليس دينى دينهم ، ولا مقالتى مقالتهم : انما كنت أخاف منهم القتل ، فلذلك كنت أستر دينى ومقالتى .. وأكتم ذلك »

« أما الأوراق الأثرية التى اسـتند اليها هؤلاء المؤرخون وغيرهم فليس فيها ترجيح لقول من أقوالهم ، وقد يكون فيها ترجيح لما يخالفها ، وهذه أمثلة منها ، أهمها الأوراق التى عثر عليهـا سليمان الشرقاوى مكتوبة بالقبطية الصعيدية ، وأهداها فى شهر يونيو سنة ١٨٩٢ الى « القمص فيلوتاؤوس » ، وفى أول احداها حكاية عن زيارة المقوقس لبعض الأديرة وحواره مع رهبانه :

« ... فقال رئيس الدير : لا أعرف لأى سبب بارحوا .. حينئـذ أمر بضرب رئيس الدير حتى يخبره بكل ما حصل . فأجابه الرئيس بقـوله : لا تضربنى وأنا أخبرك الحقيقة .. هـذا الرجل ، صمويل الناسك ، عمل للرهبان موعظة طويلة لامك فيها ، ودعاك مجدفاً ويهودياً خلقيدونيا ، وكافراً غير مستحق أن تقـدس بطريركا ، وغير مستحق

لشركتك بأى نوع ، ولهذا السبب أصغى الرهبان لكلامه وذهبـوا ..
فلما سمع الكافر هذا الكلام غضب غضبا شديدا ، وصار يعضّ شفتيه من شدة غضبه ، ثم ابتدأ يلعن رئيس الدير والدير والرهبان .. وعقب ذلك رجع من سكة أخرى ، ولم يحضر للجبل لهذا اليوم . وبعد هذه الحادثة رجع الأخوة بسلام الى الدير . أما من جهة المقوقس ، البطريرك الكاذب ، فانه صار حاقداً لحين وصوله لمدينة الفيوم ، ففى الحال حضر خدام ورجال ــ عارفين البلد ــ لكى يأتوا له بالقديس أنبا صمويل مغلول اليدين وراء ظهره ، وفى عنقه طوق حديد ، ويدفعوه أمامهم مثل لص ، فوصلوا الى الدير وأخذوه . أما هو فكان يمشى متهللاً بالرب قائلاً : لعل الله سبحانه وتعالى يجعل دمى يسفك اليوم من أجل اسم المسيح ! ولهذا السبب ابتدأ يشتم المقوقس بحرية قائلاً : بدون شك أنه سيفعل ما وعد به منذ قليل . فلما أحضره العسكر أمام المقوقس ، ورأى الكافر رجل الله ، امتلأ غضباً ، وأمر العسكر أن يضربوه حتى يسيل دمه مثل الماء ، ثم بعـد ذلك قال له : أنت يا صمويل الناسك الكافر ، قل لى : من رسمك ايغومانسا على هذا الدير ؟ ومن أمرك أن تغرى الرهبان على لعنى ولعن ايمانى ؟ فأجابه القديس انبـاصموئيل قائلاً : تصلح الاطاعة لله ولقديسه البطريرك أنبا بنيـامين ، أولى من الاطاعة لك ولتعليمك الشيطانى يا ابن ابليس المسيح الدجال . حينئذ أمر بضرب القديس أنبا صموئيل على فمه قائلاً : ان المجد الذى يعطيه لك الناس بصفة ناسك ينفخك ، لكن أنا الذى سوف أعلمك وأرشدك للتكلم بالباطل ، لأنك لم تكرمنى بصفة كونى بطريركا ، ولم تراعنى أيضاً أنا وقدرتى بصفة كونى عاملاً على خراج بر مصر . فأجابه القديس أنبا صموئيل قائلا : ان الشيطان كان أيضا بوظيفة عامل وله سلطة على الملائكة ، لكن تكبّره وعدم أمانته انما هما اللذان جعلاه غريبا عن مجد الله وملائكته . وأنت أيضا أيها الخلقيدونى الغاش ، ايمانك نجس ، وأنت ملعون أكثر من الشيطان وجنوده . فلمـا سمع المقوقس ذلك امتلأ

رجزاً ضد القديس ، وأشار الى العسكر أن يجلدوه لحد الموت .. »[1]

***

ويبدو لنا أن هذا الحوار مفهوم اذا كان المقوقس مصرياً يحتاج الى التذكير بصفته الحكومية ، وكان منتمياً الى مذهب غير المذهب الذى ينتمى اليه أكثر قومه ، ولكنه غريب فى خطاب يدور بين ناسك مصرى ورئيس رومانى يدين بمذهب المجمع الخلقيدونى ، ولا ينتظر أن ينتمى الى غيره بحكم مولده ومنصبه وانتمائه الى النحلة الملكية . وكذلك المقابلة بين البطرق بنيامين والمقوقس مفهومة اذا كان كلاهما مصرياً ، وكان الاختلاف بينهما فى المذهب . أما أن يكون أحدهما رومانياً ملكى المذهب ، وأن يكون الآخر مصريا يعقوبى المذهب ، فلا وجه للموازنة بينهما فى كفتين متعادلتين

***

ومن المراجع التى جاء فيها ذكر المقوقس كتاب « سير البطاركة » لمؤلفه ساويرس بن المقفع أسقف الأشمونين ، الذى جمع تاريخه من أوراق الأديرة ، وقال عن البطرق بنيامين :

« خرج من الديارات بوادى هبيب — النطرون — ومضى الى الصعيد ، وأقام مختفياً هناك فى دير صغير فى البرية الى كمال العشر سنين ، كما قال له ملك الرب ، وهى السنين التى كان فيها هرقل والمقوقز متسلطين على ديار مصر ... ثم ان هرقل أقام أساقفة فى بلاد مصر كلها الى أنصنا ... فلما تمت عشر سنين من مملكة هرقل والمقوقز ، وهو يطلب بنيامين البطريرك وهو هارب منه من مكان الى آخر ، مختفيا فى البيع الحصينة ، أنفذ ملك المسلمين الخليفة سرية مع أمير من أصحابه يسمى عمرو بن العاص ، فى سنة ثلثمائة وسبع وخمسين لديقلاديانوس قاتل الشهداء ، فنزل عسكر الاسلام بقوة عظيمة فى اليوم الثانى عشر من بؤونة ، وهو الرابع من دتكطس من شهور الروم . وكان الأمير

(1) من صفحة ٤٠٣ الى ٤٠٨ من السنة الثانية للمجلة القبطية

عمرو قد هدم الحصن ، وأحرق المراكب بالنار ، وأذلّ الروم ، وملك بعض البلاد . وكان مجيئه من البرية ، فأخذ الجبل حتى وصلوا الى قصر مبنى بالحجارة بين الصعيد والريف يسمى بابلون فضربوا جميعهم خيامهم هناك حتى ترتبوا لمقاتلة الروم ومحاربتهم ، ثم أنهم أسموا ذلك الموضع بلغتهم الفسطاط ، وهو اسمه الى الآن . وبعد قتالهم ثلاث دفعات غلب المسلمون ، فلما رأى رؤساء المدينة هذه الأمور ، مضوا الى عمرو وأخذوا منه أماناً على المدينة لئلا تنهب . وأهلكوا جنس الروم وبطريركهم المسمى أريانوس ، ومن سلم منهم هرب الى الاسكندرية وأغلقوا أبوابها عليهم وتحصنوا فيها .. فلما ملك عمرو المدينة ورتب أمورها ، خاف الكافر والى الاسكندرية ، وهو كان واليها وبطركها من قبل الروم ، أن يقتله عمرو ، فمص خاتماً مسموماً فمات لوقته . فأما سانوتيوس التكس — أى الدوق المؤمن — فانه عرف عمرواً بسبب اختفاء الأب بنيامين البطريرك ، وانه هارب من الروم خوفاً منهم ، فكتب عمرو بن العاص الى عمال مصر كتاباً يقول فيه هكذا : (ان الموضع الذى يكون فيه بنيامين البطريرك الذى للنصارى القبط له العهد والأمان والسلامة من الله ، فليحضر آمناً مطمئناً ، ويدبر حال بيعه وسياسة طائفته) ، فلما سمع القديس بنيامين هذا ، عاد الى مدينة الاسكندرية بفرح عظيم ، بعد غيبته ثلاث عشرة سنة ، منها عشر سنين لهرقل الرومى الكافر ، وثلاث سنين قبل أن يفتح المسلمون الاسكندرية ، لابسا اكليل الصبر وشدة الجهاد »

وهذا التاريخ الذى كتبه المؤرخ القبطى فى عصر الفاطميين ، يخرج لنا المقوقس فى صورة تناقض جميع الصور التى يظهر فيها خائناً متواطئاً مع العرب ، فانه بخع نفسه خوفاً منهم أن يدمّروا عليه الاسكندرية ، وكان الفرح بهم من جانب الحزب المصرى فى الكنيسة برئاسة البطرق بنيامين الذى عاد الى كرسيه آمناً بعد موت المقوقس وخروج الروم منها

ونقلت المجلة القبطية فى العدد السادس من السنة الثالثة تعليقات من حواش مخطوطة على جداول البطاركة ، جاء فى احداها :

« انه كان فى أيام الأب بنيامين أن ملكت العرب أرض مصر ، وكان دخولهم اليها فى ثانى بؤونة سنة ٣٣٣ ، وكان المقوقز جريج بن مينا الهراطيقى نائب هرطاقة هرقل بالديار المصرية ، يطلب ويضطهد على الموافقة له على أمانة لاوون الفاسدة ، وظفر بأخيه مينا ، وأنزل به عقوبات عظيمة وغرقه »

وهذه الفقرة لا ترجح شيئاً كما ترجح انتماء المقوقس الى مصر ، لأنه نشأ فى بيت يسمى أبناءه باسم مينا ، ويتسمى هو وأخوه بهذا الاسم الواحد ، مع التفرقة بينهما فى اللقب أو الكنية ، وهذه التسمية تقليد وطنى لم يؤثر مثله عن أحد من الرومان الشرقيين أو الغربيين

***

وممن أرخوا هذه الفترة : أبو المكارم سعد الله بن جرجس بن مسعود من أبناء القرن الثانى عشر ، وهو يقول عن اقليم البحيرة : « ان بحيرة الاسكندرية كانت مزروعة كروماً جميعها لامرأة جريج بن مينا مقوقس الروم ، وكانت تستأدى خراجها خمراً ، فكثر عندها ، فطلبت دنانير ذهب ، فلم يحصل لها من الخمر ما طلبت ، لأنه كان موجوداً عند الناس وما يجدون من يشتريه ، فكرهت هذا ، فغرقت البحيرة بالماء ، ولم تزل كذلك حتى استنبطها بنو العباس ، وهم المسودة ، وانهم سدوا جسورها ومنعوا الغرق »

والمهم فى هذه الفقرة هو تسمية المقوقس باسم جريج بن ميناء ، وهى التسمية المصرية التى لم تعهد فى أسماء الرومان أو الروم

وجاء فى تاريخ ابن البطريق ، وهو من الملكيين المعارضين للكنيسة الوطنية : انه فى أول خلافة أبى بكر : « صبر سرجيوس بطريركاً على الاسكندرية أربع سنين ، فلما سمع أن المسلمين غلبوا الروم وفتحوا فلسطين ، وانهم سائرون الى مصر ، ركب البحر وهرب الى القسطنطينية ،

فبقى كرسى الاسكندرية بعده بلا بطريرك ملكى سبعا وتسعين سنة . ولما هرب صير بعده كورش — أى فيرس — بطريركا على الاسكندرية ، وكان مارونياً على دين هرقل ، وكان بالاسكندرية رجل راهب يسمى صفرونيوس ، فأنكر صفرونيوس مقالة كورش ، لأنه كان يقول ان لسيدنا المسيح طبيعتين ، بمشيئة واحدة ، وفعل واحد ، وأقنوم واحد ، وهى مقالة مارون ، فسار صفرونيوس الى كورش فناظره ... فقال له كورش بوقاحة : ان أنوريوس بطريرك رومية وسرجيوس بطريرك القسطنطينية موافقان لى على هذه المقالة .. فخرج صفرونيوس الى القسطنطينية فقبله سرجيوس بطركها ، وقص صفرونيوس عليه ما كان بينه وبين كورش ، فعجب سرجيوس من ذلك . فلما كان بعد مدة قدمت هدايا من كورش الى سرجيوس ، فانصرف عن رأيه ، وصار مخالفاً لصفرونيوس موافقاً لكورش .. ثم ان صفرونيوس صيروه بطريركا على بيت المقدس ، فكتب صفرونيوس كتابا فى الايمان وبعث به الى جميع الآفاق ، فقبله أهل الدنيا فى السنة الثالثة من خلافة عمر بن الخطاب ..»

الى أن قال عن عمرو بن العاص :

« .. ثم سار الى مصر وكان الروم قد تحصنوا فى الحصن ، وخندقوا حول الحصن خندقاً ، وطرحوا فيه سككاً من الحديد ، فقاموا يقاتلونهم قتالا شديداً ستة أشهر . فلما أبطأ الفتح عليه كتب الى عمر بن الخطاب يستمده ، فأمده بأربعة آلاف رجل ، منهم الزبير بن العوام ، وعبادة ابن الصامت ، ومسلمة بن مخلد ، وكان مع عمرو أربعة آلاف ، فصار فى ثمانية آلاف . وكان العامل على الخراج بمصر رجلا يدعى المقوقس من قبل هرقل ، وكان يعقوبياً مبغضاً للروم ، الا أنه لم يكن يتهيأ له أن يظهر مقالته لئلا يقتله الروم ، وكان أيضاً قد اقتطع أموال مصر فى وقت حصار كسرى القسطنطينية ، وكان يحاذر من هرقل الملك أن يقع فى يده فيقتله ، فاحتال على الروم ، وقال لهم : ان العرب قد جاءهم مدد وليس لنا بهم طاقة ، ولا نأمن أن يفتحوا القصر فيقتلونا ، ولكن نسد أبواب

الحصن ونصير عليه مقاتلة ، ونخرج من القصر الى الجزيرة فنقيم فيها ونتحصن بالبحر . فخرج الروم ومعهم المقوقس وجماعة من أكابر القبط من باب القصر القبلى ، ودونهم جماعة يقاتلون العرب ، فركبوا المراكب ولحقوا بالجزيرة موضع الصناعة اليوم ، وقطعوا الجسر ، وكان ذلك فى جرى النيل ... ثم أرسل المقوقس الى عمرو بن العاص يقول له : انكم قوم قدولجتم بلادنا ، ولججتم على قتالنا ، وطال مقامكم بأرضنا ، وقد أحاط بكم هذا النيل ، وانما أنتم أسارى فى أيدينا ... فابعثوا الينا رجلاً منكم لنسمع كلامكم ، فلعل يأتى الأمر فيما بيننا وبينكم على ما تحبون ونحب ، وينقطع عنا وعنكم هذا القتال . فلما أتت رسل المقوقس عمرو بن العاص ، وجه معهم بعبادة بن الصامت ، وكان عبادة أسود ، فلما دخل على المقوقس أدنى مجلسه فقال المقوقس له : ما الذى تريده منا ؟ بَيِّنه لنا . فقال له عبادة : أن ليس بيننا وبينكم الا احدى ثلاث خصال ، فاختر أيها شئت ، وبذلك أمرنى بها الأمير وأمير المؤمنين : إما أن تدخلوا فى الاسلام فكنتم أخوتنا ، وكان لكم ما لنا ، ورجعنا عن قتالكم ، ولم نستحل أذاكم ، فان أبيتم فأدوا لنا الجزية نرضى بها ونحن وأنتم فى كل عام أبداً ما بقينا وبقيتم ، ونقاتل عنكم من ناوأكم وتعرض لكم فى شىء من أراضيكم ودمائكم وأموالكم ، ونقوم بذلك عنكم اذا كنتم فى ذمتنا وكان به عهد علينا ، فان أبيتم فليس بيننا وبينكم غير المحاكمة بالسيف حتى نموت عن آخرنا أو نصيب ما نريد منكم . فقال المقوقس : فأما الدخول فى دينكم فهذا مالا يمكن ، وأما الصلح فقد رضيت أنا ذلك لنفسى ولأصحابى القبط . وامتنع الروم أن يجيبوا الى الصلح وقالوا : لا نفعل ذلك أبداً . وانما فعل المقوقس هذا مكراً منه وخديعة حتى أخرج الروم من الحصن ، ثم رضى بالصلح ليسلم له ما آخذ من المال .. فرجع عبادة بن الصامت فأخبر عمرواً بجميع ما كان ، ثم إن المسلمين لما علموا أن ليس فى الحصن من المقاتلة الا نفر يسير ، ناهضوا القتال من ناحية سوق الحمام اليوم ، فرموا الحصن بالمنجنيقات

والعرادات . ثم ان الزبير وضع سلما الى جانب الحصن من سوق الحمام ، ثم صعد ، فما شعروا الا والزبير على رأس الحصن ، فكبروا ، وتحامل الناس على السلم ، فخلا الروم عن القتـــال ، وركبوا المراكب ولحقوا بالجزيرة الى أصحابهم ، وفتح المسلمون الحصن ، فقتلوا وأسروا وغنموا . فلما نظر الروم ما فعل بهم المقوقس ، وكيف أنه خدعهم وأخرجهم من الحصن وسلمه إلى المسلمين ، خافوا ناحيتــه فتركوه وركبوا البحر وعسكروا بكوم شريك . واجتمع المقوقس مع عمرو بن العاص على عهد بينهما ، واصطلحا على جميع من بمصر أسفلها وأعلاها من القبط ، ديناران ديناران على كل نفس ، شريفهم ووضيعهم ، ممن بلغ الحلم منهم ، وليس على الشيخ الفانى ولا على الصغير الذى لم يبلغ الحلم ولا على النساء شيء . وأحصى عدد القبط يومئذ ، خاصة من بلغ الحلم ، وأخذت منهم الجزية ، وفرض عليهم الديناران ، رفع ذلك بالأيمان المؤكدة . فكان جميع من أحصى بمصر أعلاها وأسفلها من جميع القبــط الذين أحصوا وكتبوا ، فكانت فريضتهم فى ذلك الوقت : اثنى عشر ألف ألف دينار كل سنة

ثم أقبل المقوقس الى عمرو فقال له : اما الروم فانى منهم برىء ، وليس دينهم دينى ، ولا مقالتى مقالتهم ، وانما كنت انا اخاف منهم القتل ، فكنت أستر مقالتى وأكتم دينى ، وانا اطلب اليك ان تعطينى ثلاث خصال . فقال عمرو : وما هى ؟ قال : لا تنقصنى عن القبط ، وأدخلنى معهم ، وألزمنى ما ألزمتهم ، فقد اجتمعت كلمتى وكلمتهم ، وانا متمم لك على نفسى ، والقبــط متممون لك على الصــلح الذى صالحتهم عليه وعاهدتهم . والثانية : ان سألك الروم بعد اليوم الصلح ، فلا تصالحهم حتى تجعلهم عبيدا واماء ، فانهم أهل لذلك . والثالثة : ان أنا مت فأمر أن أدفن فى كنيسة أبى حنس فى الاسكندرية .. فأنعم عليه عمرو بذلك ، على ان ضمنوا له اصلاح الجسرين جميعا ويقيمون الأنزال ، وصاروا لهم أعوانا على ما أرادوا من قتــال الروم . ومضى

عمرو ومن معه ، حتى لقى جميع الروم بكوم شريك (١) ، فاقتتلوا به ثلاثة أيام ، وولى الروم منهزمين ، ثم التقى بسلطيس فاقتتلوا تسعة عشر يوما ، وانهزم الروم فدخلوا الاسكندرية ، وتحصنوا فيها ، واستأسدت العرب عند ذلك ، فلجت بالقتال على أهل الاسكندرية ، فقاتلوهم قتالا شديدا ، وكان الروم يخرجون من الأبواب فى كل يوم يقاتلون ، وكان يقتل من الفريقين فى كل يوم خلق كثير . ففى يوم من الأيام اشتد القتال حتى اقتحم العرب حصن الاسكندرية ، فقاتلوهم فى الحصن قتالا شديدا ، ثم خاشت عليهم الروم حتى أخرجوهم من الحصن ، واستأسروا عمرو بن العاص ومسلمة بن مخلد ووردان مولى عمرو ورجلا آخر ، ولم يدر الروم من هم ! فقال لهم البطريق : انكم صرتم فى أيدينا أسارى ، فعرفونا ما الذى تريدون منا ؟ فقال له عمرو : اما تدخلوا فى ديننا ، واما أن تعطونا الجزية ، واما ألا نزال نقاتلكم ، إما أن تفنونا بالقتل وإما أن نفنيكم ! فقال واحد من الروم للبطريق . أتوهم ان هذا أمير القوم فاضرب عنقه . ففطن لكلامهم وردان ، وكان يحسن الرومية ، فحدث وردان لعمرو حديثا شديدا ، وكلمه وقال له : مالك وللكلام ؟ ما فى المعسكر أدنى منك ولا أقل ، فاترك غيرك يتكلم ! فقال البطريق فى نفسه : لو كان هذا اميرهم لم يتهيأ لهذا ان يكلمه . فقال مسلمة بن مخلد : ان أميرنا كان قد عزم أن ينصرف عنكم ، ويترك حربكم ، وبهذا كتب اليه أمير المؤمنين ، غير انه أراد أن يوجه اليكم بعشرة قواد من أصحابه ، من وجوههم ، ممن لهم الرأى السديد ، حتى تتوافقوا أنتم وهم على شىء تتراضون بينكم وبينهم أيضا ، وننصرف عنكم ، فان أحببتم ذلك فأطلقوا سبيلنا حتى نذهب الى أميرنا ونعلمه ما صنعتم بنا من الجميل حتى يوجه اليكم بالعشرة القواد ، فينقطع الأمر بيننا وبينكم على ما تحبون ، وننصرف عنكم ! فتوهم البطريق ان هذا كلام حق ، فخلاهم رجاء أن يأتوا بالعشرة القواد

---

(١) كل هذه المواقع باقليم البحيرة حول دمنهور

فيقتلهم ويتمكن من العرب .. »

ثم قال ابن البطريق : ان عمرو بن العاص كتب الى الخليفة يصف له فتح الاسكندرية ، فقال : « انى فتحت مدينة لا أقدر أصف ما فيها ، غير انى أصبت فيها أربعة آلاف بنية ، بأربعة آلاف حمام ، وأربعين ألف يهودى عليهم الجزية ، وأربعمائة ملهى للملوك ، واثنى عشر ألف بقال يبيعون البقل الأخضر وما يتلوه من البقولات ! وانى فتحتها عنوة بغير عقد ولا عهد .. وان المسلمين طلبوا قسمتها .. فكتب اليه عمر بن الخطاب يقبح رأيه ويأمره ألا يتجاوزها ولا يقسمها ، ويتركها ليكون خراجها للمسلمين قوة على عدوهم »

***

قال : « فأقرها عمرو وأحصى أهلها ، فرض عليهم الخراج . وكانت مصر فتحت صلحا كلها بفريضة دينارين دينارين كل رجل ، لايزاد على أحد جزية رأسه أكثر من ذلك ، الا انه يلزم مقدار ما يتوسع فيه من الأرض والزرع ، الا الاسكندرية ، فانهم كانوا يؤدون الخراج والجزية على قدر ما يرى واليهم ، لأن الاسكندرية فتحت عنوة بغير عهد ، ولم يكن لهم صلح ولا ذمة .. وفتحت الاسكندرية يوم الجمعة مستهل المحرم سنة عشرين للهجرة ، وعشرين للملك هرقل

وهذه الروايات لسعيد بن البطريق أحجى ان تقارب التاريخ الصحيح ، لأن صاحبها كان أقرب المؤرخين الى مراجع الأخبار جميعا من رومانية وقبطية وعربية ، ولكنها لم تخل من عيب التاريخ فى هذه الفترة ، وهو تخلل الوقائع والروايات بالمنازع والأهواء ، بحيث يظهر لون المؤرخ من كلامه ، وان لم ينسب هذا الكلام الى شخص معلوم ، وقد ترك ابن البطريق متسعا لدعواه أو متسعا لهواه ، كغيره من المؤرخين ، فكان « رومانى المذهب » فى اختيار الأخبار التى توافق منزعه ، وأولها ان الرومان لم يرتبطوا بعهد ولا عقد عند سقوط الاسكندرية ، وان سقوط بابلون كان خديعة من الحاكم اليعقوبى ،

ولم يكن ضعفا اضطرت اليه الحامية بعد اليأس من المدد . وكان تعليله لخديعة الحاكم اليعقوبى الوطنى أسخف من تعليلات غيره ، فانهم زعموا ان الحاكم الوطنى — وهو المقوقس — قد استبقى عنده ضرائب القطر كله أيام استيلاء الفرس على مصر ، فلم يرسلها الى القسطنطينية ، ولم يكن فى نيته ان يرسلها . وقد يكون هذا السبب معقولا بعض الشىء ، لأن ارسال الضرائب الى القسطنطينية مع سيطرة الفرس على البلاد لم يكن بالميسور وان أراده المقوقس . وموضع السخف من القصة ان نتصور المقوقس عاجزا فى هذه الحالة عن الاعتذار باغتصاب الفرس لكل ما أصابوه من الغلات والخيرات واموال الخراج ! فاذا اغضينا بنظرنا عن هذا السخف ، فما عدا ذلك سهل مستساغ ! واما الذى لا يستساغ فهو امتناع المقوقس عن ارسال الضرائب لأن الفرس يحاصرون القسطنطينية ! اذ الواقع ان الطريق بين مصر والقسطنطينية لم تكن مقفلة من جانب البحر ، ولم يكن الرومان ينقطعون عن طلب الأزواد والأمداد من افريقية ، وقد استطاع هرقل مع حصار القسطنطينية من الناحية الآسيوية ان يتركها وينقض على بلاد فارس وراء البحر الأسود ؛ فلم يكن من العسير أن تصل ضرائب مصر الى القسطنطينية فى فترة الحصار ، الا ان يكون المقوقس قد أعلن قطع الصلة بالأمبراطور ووضع يده على أموال البلد جهرة مع وجود الحامية الرومانية فيها . وعلى هذا لا تبقى للرومان ثقة به وهو معهم فى داخل حصن بابلون ، ولا ينتظرون منه ان يخدعهم ويتفق مع عمرو بن العاص من ورائهم حتى يتخوفوه ولا يأمنوه

كذلك يروى ابن البطريق تلك القصة التى رويت عن عمرو وغلامه وردان فى اثناء حصار الاسكندرية ، كما رويت فى حرب فلسطين ، وهى كما يرى ادنى الى الخرافة منها الى التاريخ

ولا تنحصر الخلافات حول المقوقس فيما تقدم ، بل يقول آخرون — كما قال امبلنو — انها مشتقة من « كوكيوت » اسم عملة يونانية ،

لأن المقوقس كان يلى أمر الخراج ، ولا يستبعد «بتلر» أن يكون اللفظ مصحفًا على لسان المصريين من القوقاس ، لأن هرقل نقل فيرس من القوقاس الى الديار المصرية

ولكن المقوقس عرف بهذا اللقب فى الحجاز قبل فتح مصر بأكثر من عشر سنين ، وكتب اليه النبى عليه السلام رسالة بهذا اللقب جاءه الجواب عنها مع هدايا المقوقس التى لا جدال فيها . فما تأويل ذلك عند بتلر وأتباعه فى التحقيق والتصديق والتكذيب ؟ تأويل ذلك يسير على طرف اللسان ، وهو خطأ المؤرخين العرب فى رواية الخبر بعد الفتح الاسلامى بسنين !

الا ان خبر الرسالة النبوية وجوابها من وراء كل شك وكل تردد وتأويل ، فلا شك فى كتابة النبى عليه السلام الى عظيم القبط فى مصر ، ولا فى جواب عظيم القبط عن كتابه ، وقد وصلت السيدة مارية وأختها مع الجواب ، وعرف الرسول الذى جاء مع الهدية ، والبيت الذى نزلت فيه بالحجاز ، ثم ولد للنبى عليه السلام ابنه ابراهيم من مارية القبطية ، وتواترت التواريخ بمولده ووفاته حوالى الثانية من عمره ، وتواترت كذلك بكسوف الشمس يوم وفاته ، وقول النبى عليه السلام : ان الشمس لم تكسف لموته . وجاوز الأمر أخبار التاريخ الى تحقيقات الحساب الفلكى ، فأثبت العالم الكبير محمود الفلكى باشا أن هذا الكسوف حدث فى المدينة المنورة « الساعة الثانية والدقيقة الثلاثين بعد نصف الليل من اليوم السابع والعشرين من شهر يناير سنة ٦٣٢ ميلادية » ويطابق هذا التاريخ تقدير مؤرخى المسلمين عن وقت ولادة ابراهيم ووقت قدوم أمه السيدة مارية الى الحجاز

فليس المهم اذن تصريف اسم المقوقس باليونانية أو الحبشية أو القبطية ، وانما المهم ان هناك عظيما فى مصر كان يملك من أمر شعبها ما لم يملكه عاهل القسطنطينية ، ولذلك كتب النبى إليه ، ولم يكتف بالكتابة الى العاهل فى عاصمة الدولة الكبرى . وقد وصل الكتاب

الى صاحبه المقصود بدليل واضح بسيط ، وهو وصول الجواب عنه ، فاذا كانت منزلة هـذا الرجل حقيقة مقررة لا خلاف عليها ، وكان اسم المقوقس دليلا على هـذه المنزلة لا يتأتى اختراعه لمن يجهله ـ فلمـاذا نلغيه ونبطله ، أو نشك فيه وننفيه ؟ !

ان خروج المؤرخ بتلر أو غيره من ورطة وقعوا فيها ، لا تكفى لتغيير مجرى الحوادث والروايات ، وعلى بتلر وغيره أن يخرجوا من الورطة التى دخلوا فيها كما يشاءون ، ولكن على غير حساب التاريخ . ومهما يكن من اخطاء المؤرخين الأوائل ، فهى لا تكفى للاسعاف من كل ورطة والاحالة عليها فى كل تأويل

***

ليست هذه التخريجات أو هذه التأويلات اذن هى المرجع فى تمحيص القول عن مسألة المقوقس وما لابسها من الأخبار والروايات ، وانما المرجع الى « الموقف » وما يمليه بحكم البداهة وحكم الحوادث التى عرفت بمقدماتها ونتائجها . وأيا كان الرأى فى هذا المقياس ، فهو أصدق بيانا من جميع المقاييس التى رأيناها تضطرب ذلك الاضطراب بين أيدى المؤرخين

***

وهذا هو حكم الموقف على أسلم الوجوه من النقد والريب ، أو من الاختلاق وتوجيه المنازع والأهواء

حكم الموقف اننا أمام « دور » واضح محدود لا يقبل اللبس على وجه من الوجوه ، دور زعيم « أهلى » مسئول له صـفة شعبيـة ، لا تستطيع دولة الرومان أن تنتزعها منه ، سواء رضيت عنه أو غضبت عليه

وليس هو « دور » رئيس رومانى بحال من الأحوال ، ان الرئيس الرومانى اذ بقى فى مصر لم تكن له صفة ولم يكن له سلطان ، واذ خرج من مصر لم تكن للتعاقد معه قيمة ، ولم يكن أهلا للالتزام

وإذا كان الموقف يستلزم « دورا » محدودا واضحا فلا محل فيه للاختلاق ولا للتنازع بين المؤرخين

فهناك « أشخاص » يجوز الشك فى وجودهم ، بل يستدعى العمل المنسوب اليهم أن نشك فى حقيقتهم ، أما اذا كانت المسألة مسألة « أدوار » قائمة لا مسألة أشخاص ، فلا محل للشك ولا للتنازع ، بل الأمر ينعكس من هذا النقيض الى النقيض الذى يقابله ، ويصبح من اللازم تاريخا وعقلا ان نوجد الشخص الذى يمكن أن يؤديه ، لا أن نراه موجودا ثم نشك فيه !

ان الدور الذى نسب الى المقوقس لا يؤديه الا زعيم له صفة المقوقس، كائنا ما كان اسمه ولقبه ، وكائنا ما كان عنوانه فى الدولة وفى البلاد

فهو دور يؤديه « زعيم أهلى » عرف الناس حول بلاده انه يملك منها ما ليس يملكه هرقل فى عاصمته ، ويتعاهد العرب معه فيعلمون انهم يعاهدون البلاد ، وان البلاد مقرة لما تعاهدوا عليه

ومن بقى من الرومان — أو من الروم — بعد وصول عمرو بن العاص الى الفسطاط ، فانما بقى مقاتلا أو منتظرا للمدد من خارج مصر لمواصلة القتال ، ومثل هذا لا يتعاهد معه عمرو بن العاص ، ولا معنى للتعاهد معه قبل انفضاض المعركة بين الدولة الذاهبة والدولة الباقية !

فلا يكون المتعاهد أو المصالح فى الحرب الا زعيما يتكفل بشىء يقدر عليه ، ويعلم معاهدوه انه قادر عليه باسم قومه ، وانه اذا نقضه كانت الخسارة عليه وعليهم ، لا على الرومان فى مصر والاسكندرية ، أو الرومان فى القسطنطينية وبلاد الروم !

فالزعيم المصرى هنا شخص يفرضه التاريخ فرضا ، ويتطلب منه تبعة لا يقوم بها سواه

وهذه التبعة تدل كذلك على حالة محددة واضحة ، لا تلبس بغيرها من الحالات

ان الصلح فى مصر كان نسخة مكررة من الصلح فى فلسطين

ففى العهدين معا أمان للبيع والكنائس ، واتفاق على خروج من يريد الخروج مع الروم من أهل البلاد

وفى عهـد فلسطين أمان من اكراه أهل بيت المقدس على مساكنة اليهود ، يقابله فى عهد مصر أمان من اكراه أهلها على مساكنة النوب ، لأنهم كانوا معهم قبل ذلك فى قتال على الشئون الدنيوية والدينية

فلا موضع هنا لخيانة ابتدعها الزعيم الوطنى فى الديار المصرية ، لأنه لم يقبل شيئا أقل مما قبله أهل فلسطين

وقد تذكر كلمة الخيانة اذا كانت الدولة الرومانية قادرة على حماية مصر عاجزة عن حماية فلسطين ، ولكنه فرض بعيد لا يخطر على بال أحد ينظر الى الموقف اليوم ، أو كان ينظر اليه كما رآه المعاصرون فى تلك الأيام

فالدفاع عن فلسطين أهون من الدفاع عن مصر بكثير ، لأن طريق البر مفتوح بين بلاد الدولة الرومانية فى آسيا الصغرى ، وبين ميادين فلسطين من شمالها الى جنوبها . فاذا كانت الدولة الرومانية لا تستطيع ان تبعث البعوث الى جيرتها القريبة ، فهى أعجز عن ذلك فى الميـادين المصرية . واذا كانت السفن لا تسعفها على شواطىء فلسطين فهى لا تسعفها فى الاسكندرية ودمياط

ولا بد من النظر الى اعتبار آخر فى هذا الموقف ، وهو حالة فلسطين من الوجهة الدينية ، فان هرقل كان خليقا أن يهتم باستبقائها ، لما فيها من الأماكن المقدسة التى تقوم عليها صفته فى عاصمة الدولة الشرقيـة على الخصوص ، وان رعاياه هناك لم يكن عندهم من أسباب النقمة عليه شىء يثنيهم عن تأييده واستبقاء ملكه ، لأنه لم يكرههم على خلاف عقيدتهم كما فعل فى مصر ، ولم تزل ذكرى دخـوله بيت المقـدس ، وحفاوة أهلها به ووعدهم بالكفارة عن يمينه مدى السنين عالقة ، بأذهان القادة والأتباع فى تلك البلاد

وربما وجد من المؤرخين من يصف المقوقس بالخيانة ، اذا كانت دولة

الرومان قادرة على شيء فى الدفاع عن مصر ، فحال بينها وبين المثابرة على الدفاع ، فقد يقال حينئذ انه موظف « رومانى » خذل رؤســاءه وسادته وسلم البلاد لقوم آخرين !

ولكن الواقع ان الدولة الرومانية لم تكن لها ذمة تخان فى البــلاد المصرية ، من الوجهة الشرعية أو من الوجهة الدينية ، أو من الوجهة العملية الواقعية

فمن الوجهة الشرعية ، هى دولة أجنبية غاصبة ، تعتدى على الأرواح والأموال ، وتستنزف ثروة البلاد فى الضرائب والاتاوات ، وتحرمهــا الغلات والثمرات التى هى أحوج اليها فى أيام الشح والغلاء ، وتقحمها فى منازعاتها قبل انقسامها الى دولة شرقية ودولة غربية ، وبعد انقسامها الى دولتين بغير استقرار وبغير انقطاع . وقد ساعدها المصريون على طرد الفرس ، وساعدوا هرقل فى ثورته على خصمه فوقاس حتى قهره واستولى على العرش بعده . فمن قوة مصر وافريقية الشمالية تجمعت قوة هرقل التى انتصر بها على خصمه ، ولكنه لم يلبث ان اطمأن الى مكانه حتى جزى المصريين على معونتهم شر الجزاء ، فلم يكن من حقه عليهم أن يحاربوا له حربه ويمسكوا له سلطانه وهو يشارف الزوال

ومن الوجهة الدينية ، لم تكن على مذهب أهل البــلاد ، ولم تكن سمحة معهم فيما يختارونه لعقيــدتهم ، وكان النزاع الدينى بين مصر والدولة الحاكمة على أشده وأعنفه عند قدوم عمرو بن العاص

وقد قال ميخائيل السورى فى تاريخه : ان « المنتقم الجبار » أتى بأبناء اسماعيل من الصحراء ليخرجوا الأمم من ربقة الروم والرومان

ومن وجهــة الواقع لم تكن دولة الروم قادرة على مهمة الحكومة الأولى ، وهى صد الغارات عنها ، وحفظ الأمن فيها . وكان من عملها ما يخل بالأمن ويغل الأيدى عن الدفاع ، لأنها نزعت سلاح المصريين وقسمت القيــادة العسكرية أقســاما بين الرؤساء الرومانيين ، وتركت للجنة الوطنيين أن يدفعوا غارات اللصوص بسلاحهم ، فتعرضت للسطو

من ناحيــة الصحراء ومن ناحيــة الجنوب ، وما بقى للمصريين من جند مسلح ، فانما كان من قبيــل الشرطة الذين تأمنهم الدولة الحاكمة ، لأنهم لا يستطيعون اجلاءها ، ولا تأمنهم عصــابات اللصوص ، لأنها تتسلح بمثل ســلاحهم ويزيد عددها على عددهم فى بعض الأطراف . وقد كان قائد ليبيا الرومانى على مقربة من المعارك الفاصلة بين العرب والدولة الرومانية ، فلم يتقدم للاشتراك فيها ، لأنها لم تترك فى نفس أحد من جندها غيرة عليهــا ، ولأنه لا يخلى مكانه الا على خطر من العصابات

***

وأيا كان تفصيل الموقف من جهة السيــادة الرومانية على البــلاد فانها لم تكن سيادة ملزمة لأهلها بذمة من الذمم ، ولم يسلبها أبنــاء مصر شيئا كانت قادرة عليه بقوتها الغاصبة ، ومن رآها تعجز عن المقاومة فى فلسطين لن يخطر له أنها تقوى عليها فى بلاده . وليست أمامه حالة « ممكنة » أسلم وأكرم من تصريف الموقف بما يقتضيه ، فهو موقف ضرورة لا موضع فيه للخيانة ولا للاختيار

وهو ـــ بعد ـــ موقف زعيم « أهلى » ينهض بتبعة لا حيلة له فيها ، فاما ان يدع الفاتحين وشأنهم فى بلاد لا يتكلم عنها أحد ولا ينفق باسمها أحد ، واما أن يتكفل بشروط الصلح التى لا يملك خيرا منها . وهــذا هو قضاء الموقف بحرفه ومعناه

والمقوقس الذى يصوره لنا الموقف ، حقيقــة لا يسمع فيهــا جدل المؤرخين ، ولا يزال قول التاريخ فيها أصدق وأوضح من لجاجة كتابه ومدونيه ، أو نساخيه

وهذا الموقف الذى يبسطه لنا التاريخ ، يتممه الموقف كما كان يراه المقوقس فى علاقته بعرش الرومان وغيره من العروش الكبيرة من حوله .

فاذا كر راجعا الى أول أيامه ، لم يكد يرى على العروش شرقا وغربا الا جرائم الغيلة والتعهر: ثار فوقاس فقتل الامبراطور موريس ، وثار هرقل

فقتل الامبراطور فوقاس ، والتاث عقل هرقل فلا يكاد يفيق من احدى لثوثاته حتى تَرين عليه لثوثة أخرى !

وينظر الى المشرق فيرى الشاهنشاه ملك الملوك قتيلا ، ويرى ابنه كسرى الثانى ناجيا بنفسه الى حمى بيزنطة ، يتبناه الامبراطور موريس ويزوجه من احدى الأميرات طمعا فى عرش فارس من طريق الوراثة ، وقيل ان هذه الأميرة كانت بنت الامبراطور ، وان كان قولا مشكوكا فيه

وكان كسرى الثانى قد عاد الى عرشه بمؤازرة الامبراطور الرومانى ، فلما قتل هذا نهض كسرى الثانى للأخذ بثأره ظاهرا ، ولأخذ بلاده باسم الأميرة البيزنطية وحق الفتح والغلب فى باطن الأمر ، واجتاح جيوش الدولة المتداعية أمامه ، ووصل بجيوش فارس الى افريقية الشمالية ، ولم يرجع عن غاراته الا بعد اضطراره الى انقاذ بلاده من حملة هرقل التى أوغلت الى العراق وما وراءه ، ونفذت عنوة الى قلب الديار الفارسية

وبينما الامبراطور هرقل يتقدم الى بيت المقدس لردّ الصليب اليه ، اذا برسالة النبى العربى تدركه فى الطريق ، واذا به قد علم من أخباره من عرب الشام والجزيرة وعرب قريش المتجرين بفلسطين أمورا ذات بال يحسب لها كل حساب ، وتصل الرسالة الى المقوقس من النبى العربى الذى خاطب هرقل ، فلم يجسر هذا على رده والترفع عليه ، فيعلم انه احرى بالحيطة والتقية ، وان المصانعة والانتظار أجدى من الغلظة والاستنكار

ومن الجائز جدا ان يكون المقوقس قد علم بجواب النجاشى عن رسالة النبى العربى ، وانه أيده ولم يحفل برجاء المشركين من قريش ، ثم تمضى فترة قصيرة ، فيتسامع المشرق كله الى أقصى بلاد الصين بغزوات أتباع النبى فى العراق والشام وفلسطين ، وانهم قد هزموا دولة الأكاسرة ودولة القياصرة ، ودخل فى ملتهم وكلاء فارس فى اليمن ،

الذين أمرهم الشاهنشاه باعتقال نبى العرب لاجترائه على دعوته الى الاسلام !

كيف يقع كل هذا من نفس المقوقس فى وطنه المهدد المضطرب بين الغارات والمطامع والمنازعات ؟

ان المؤرخ الحديث قلما يرد على خاطره أن يضع نفسه فى موضع الرجل ، ويفكر مثله تفكير السياسى ، وتفكير الزعيم ، وتفكير المتدين المؤمن بالنبوات ؟ ماذا لو كان صاحب الدعوة هو النبى الموعود من ذرية ابراهيم ؟ وماذا لو كانت رسالته مقدمة لأشراط آخر الزمان ؟ وماذا لو لم يكن هذا وذاك وكان انه قوة لم يغلبها غالب من القياصرة ولا من الأكاسرة ؟

وان المقوقس لينظر يمينا وشمالا بين هذه الزعازع والأعاصير ، ثم ينظر فى داخل البلد فلا يرى أحدا يريد أن يفدى دولة الرومان بحياته وان استطاع ، وانه مع ذلك لغير مستطيع !

والمؤرخ الحديث يركبه غروره فيظن ان الجهل بالوقائع والأسماء أيسر شىء يتهم به أبناء ذلك الزمان ، ويكاد يجزم بغرابة الأمر كله ، لأنه يتوهم ان هذه الحوادث العالمية كانت مجهولة فى بلاد العرب ، ولم يكن عند أهلها علم بها وبما يترتب عليها فى مصر والقسطنطينية وسائر الأقطار

على ان الواقع ان هذه الحوادث العالمية كانت من أخبار بلاد العرب اليومية ، وكان العرب يتلقونها أحزابا وشيعا ، ويعقدون المراهنات على حاضرها ومصيرها ، وقد تراهن المسلمون والمشركون على عاقبة الغزوة الفارسية البيزنطية ، ودخل فى الرهان أبو بكر الصديق رضوان الله عليه : وجاء فى القرآن الكريم من أول سورة الروم : « ألم ، غلبت الروم فى أدنى الأرض وهم من بعد غلبهم سيغلبون فى بضع سنين »

وقد تنزلت هذه الآية بالتاريخ الميلادى فى سنة خمس عشرة بعد

الستمائة ، ولم تمض سبع سنوات حتى كانت النبوءة قد تمت وآذنت بما يليها ، وهو وعد المؤمنين بالنصر وانجاز الأمر الالهى الذى دعاهم أن يسيروا فى الأرض وينظروا عاقبة المشركين : « قل سيروا فى الأرض فانظروا كيف كان عاقبة الذين من قبل كان أكثرهم مشركين »

فبلاد العرب لم تكن خِلْواً ممن يرقب الحوادث العالمية ، ويوازن بين القوى ، ويضع الخطوة فى موضعها وفى أوانها . وأول ما كان من ذلك ان يخاطب النبى عليه السلام هرقل بعد انتصاره المنظور على الفرس ، فلا يخاطبه فى شأن مصر ، ويؤثر عليه المقوقس بالخطاب ، ولا تخفى دلالة ذلك على المقوقس أو على الرجل الذى هو فى موضع المقوقس ، لأنها تنبئه بالكثير من حقيقة صاحب الدعوة وانه يعرف من يعنيه وما يعنيه

فالموقف من أطرافه يوجد لنا المقوقس حيث وجد ، وبالصفة التى من أجلها قد اتجه اليه الخطاب

انه رجل يرتبط مصيره بمصير الأمة القبطية ، ولا يطالب بعهد يلزم الرومان ، ولا كان هذا العهد مطلوبا أو مستحقا لعناء الطلب ، فان الرومان أصحاب دولة تبقى أو تزول ، فان بقيت فلا معنى لمعاهدتها على فتح البلاد ، وان زالت فقد أغنى زوالها عن كل عهد ، ولن يربطها العهد بشىء وراء البلد الذى خرجت منه ، ولم تكن لتخرج منه الا مكرهة على غير وفاق

وهكذا كانت نهاية القتال بين العرب ودولة الرومان الشرقية فى فلسطين ، وقد عادت الى القتال ما استطاعت أيام الخلفاء الراشدين ، وأيام الأمويين ، وأيام العباسيين ، والفاطميين

وقد كانت مهمة المقوقس مهمة أمانة يؤديها على أحسنها لمصلحة بلده ، ولو أراد أن يخون لما استطاع أن يخون ، لأنه لم ينزل عن شىء كان فى وسعه أن يتشبث به ، ولم يترك شيئا كان فى وسعه أن

يبقيه لنفسه أو لقومه ، أو للرومان ان كان من همه أن يخدمهم بحال .

ان الذين كتبوا عن المقوقس وأثبتوا وجوده مجمعون على علاقته بتحصيل الخراج ، وأنه كان يظهر مذهب الروم الملكيين ويبطن مذهب القبط اليعقوبيين ، وعلاقته هذه بالخراج ترشحه دون غيره للاتفاق مع الفاتحين على ضريبة الرؤوس . فيجوز أن تكون علاقته بالخراج توكيلا عاما ، أو أن تكون وكالة خاصة مقصورة على أرضه وثروته . فقد كان الخراج كما سنرى فى باب الادارة مقسوما الى ثلاثة أقسام : قسم تحصله المجالس البلدية ، وقسم يحصله الملتزمون ، وقسم يؤديه أصحاب الضياع الواسعة مباشرة بغير وسطاء . ولا شك ان المقوقس كان من هؤلاء ، ولم يكن من الذين يؤدون ضرائبهم للمجالس البلدية . وربما كان هذا الذى عناه بعضهم بخوفه من تأخير الأموال المطلوبة منه ان كان لهذه المسألة أثر من الصحة . وأيا كان عمله فى تحصيل الخراج فهو صاحب خبرة ترشحه للتعاقد على أعمال الضرائب والتحصيل

أما مذهبه الدينى ، فربما كان للسياسة دخل فيما يعلنه منه وما يخفيه . وفى زماننا هذا الأخير نرى بعض الأسر الكبيرة تخشى على مكانتها ، فتعلن غير ما تبطن من أمر المذهب والعقيدة . ففى مصر طلب الفرنسيون من محمد على الكبير أن يقنع الطائفة القبطية بالانتماء الى الكنيسة الغربية ، فدفعه المعلم غالى « مباشر الدواوين » بحيلة موقوتة تصرفه عن هذه الخطة ، ريثما تهدأ وسائط الفرنسيين ، وقال له انه هو وأسرته سيدينون بالكثلكة ، فيتبعهم أبناء الطائفة بغير حاجة الى الاكراه أو الاقناع ! وفى لبنان حدث مثل ذلك بين الأمراء الشهابيين من المسلمين والمسيحيين ، وبقيت الأسرة كلها على دينها الى اليوم ! وغير بعيد أن يكون المقوقس قد استبقى مكانته بمجاراة الدولة على مذهبها ، فقنعت الدولة منه بذلك ، وحمدت هذا الحل السياسى ، لأنه يعفيها من مشكلة الاحتيال على اختيار رجل غيره فى

مكانته ، وليس الاختيار هنا بالميسور ، اذا كان مركز الرجل من مراكز الوجاهة الموروثة والحسب العريق ، وكان خلفه لا يقدر على قيادة الشعب المصرى طواعية ، كما ينقاد لزعيم من ذوى بيوتاته المعروفين

وحكم « الدور التاريخى » بعد كل فرض وتأويل هو ايجاد رجل بالصفة التى وصف بها المقوقس ، واللقب الذى أطلق عليه : رجل ذو وجاهة لا تتوقف على بقاء دولة الرومان فى البلد ، ورجل يخاطب فى أمر مصر بمعزل عن عاهل القسطنطينية ، ويعرف من أعمال الخراج ما تتولاه الدواوين المصرية قبل أن يتولاها الفاتحون ، ورجل ترضيه الدولة بالألقاب التى لم تتعود أن تخلعها على أبنائها ، ولم يعهد فى التاريخ ان دولة أجنبية منحتها أحدا غير الزعماء الوطنيين تعويضا لهم عن سيادة الحكم والسلطان

وهذا المقوقس قد وجد بصفاته اللازمة عقلا وعملا ، فلماذا نحتال على الشك فيه ؟

ان صفاته هذه تعيننا على تصحيح كل صفة وكل شخصية فى زمانه ، فمن لم يكن صالحا لهذا «الدور» ، فلا يمكن أن يكون هو المقوقس المشهور ، وليكن بعد ذلك من كان !

قال ابن عبد الحكم فى فتوح مصر وأخبارها :

« كان بالاسكندرية أسقف للقبط يقال له أبو ميامين ، فلما بلغه قدوم عمرو بن العاص الى مصر ، كتب الى القبط يعلمهم انه لا تكون للروم دولة ، وان ملكهم قد انقطع ، ويأمرهم بتلقى عمرو ، فيقال ان القبط الذين كانوا بالفرما كانوا يومئذ لعمرو أعوانا .. » يريد ابن عبد الحكم البطرق بنيامين ، ويسميه « أبو ميامين » . وقد بادر البطرق الى الاسكندرية حين استقر الأمر فيها للعرب ، ولم يعد اليها وفيها بقية لسلطان الروم . وهذه خطة من البطرق المختار توافق خطة المقوقس الذى كانت له مكانة الوجاهة الدنيوية ، ولم تكن له فى الدين مكانة البطرق بنيامين

الحَالَةُ الدِّينيَّة

من المأثورات المتواترة ان المسيحية انتشرت فى مصر خلال القرن الأول للميلاد ، وان الرسول مرقس الانجيلى تولى نشرها فى الصعيد ، ثم فى مصر العتيقة والاسكندرية . وتتفق أقوال الأكثرين من الشراح الشرقيين على ان بابل المشار اليها فى أعمال بطرس الأولى من العهد الجديد هى بابلون المعروفة بموضعها الآن الى جوار الفسطاط ومصر العتيقة ، وفى ختام هذه الأعمال يشير بطرس الرسول الى تلميذه مرقس قائلا : « تسلم عليكم التى فى بابل المختارة ومعكم مرقس ابنى .. »

ويؤخذ من سيرة مرقس المتداولة بين أبناء الكنيسة المصرية ان المسيحية سبقته الى مصر ، وانه جلس الى جانب اسكاف بالاسكندرية يصلح نعله ، فشغل الاسكاف بالحديث معه وأخطأ ، فأدخل المخرز فى يده فصاح : أيها الاله الواحد ! فعلم الرسول انه يدين بالإلاهية ، وشرح له عقيدته المثلى فى الدين

والقول الأشهر انه من يهود القيروان أصلا ، ثم قدم مع أهله الى بيت المقدس أيام ظهور المسيح عليه السلام ، فكانوا جميعا من أسرع اليهود الى تلبية الدعوة المسيحية . وكان خاله برنابا وأبوه ارستوبولس من المسيحيين الأوائل ، وفى منزلهم حضر السيد المسيح وليمة الفصح ، والى هذا المنزل كان التلاميذ يترددون قبل انتشارهم فى الأقطار

وقد اختار مرقس وطنه افريقية الشمالية للتبشير فيه ، بعد أن صاحب بولس الرسول ، ثم صاحب بطرس بعد مقتل بولس

وقدم من طريق الصحراء الغربيـــة الى الصعيـــد ومنه الى مصر العتيقة ، حيث كتب انجيله باللغة اليونانية الشعبية ، لأنها كانت أقرب للغات الى فهم الخاصة والعامة من اليهود واليونان وأبنـــاء البـــلاد المصرية . ثم أنشأ بالاسكندرية مدرسة لاهوتية ، وجعل يتردد بينها وبين وطنه الأول بالقيروان ، وينيب عنه أستاذها يستاس أثناء غيابه ، الى أن توفى سنة ثمان وستين للميلاد ، ودفن بالاسكندرية ، وظـــل مدة مدفونا بها ، الى أن سرقه أناس من البحارة البندقيين فى القرن التاسع للميلاد

وليس فى كتابات الفيلســوف المسيحى اوريجين ، ولا فى كتابات كلمنت الاسكندرى ، اشارة الى مرقس الرسول . وقد عاش اوريجين بين أواخر القرن الثانى وأوائل القرن الثالث . ولكن يوسبيوس الذى عاش فى القرن الرابع ، يروى خبر انشـــاء الكنيسة ، ويؤخـــذ من خطـــاب كلوديوس الى الاسكندريين ان طائفة من اليهود الذين دانوا بالمسيحية ، وشجر الخلاف بينهم وبين أبنـــاء ملتهم ، كانوا يقيمون بالاسكندرية فى القرن الأول للميلاد ، ويترددون بينهـــا وبين رومة وفلسطين

ومهما يكن من الرأى فى السجلات التاريخية ، فليس من الجائز عقلا ان يكون الدعاة المسيحيون قد غفلوا عن الاسكندرية منـــذ القرن الأول ، وهى اكبر معاهد الثقافة والبحوث الدينيـــة يومئذ فى عالم الحضارة . وقد ثبت ان أقدم الأســـاقفة الذين لقبوا بلقب « البـــابا » كانوا فى كنيسة الاسكندرية ، واعترف لهم بهذا اللقب أعضـــاء مجمع نيقية الذى انعقد فى منتصف القرن الرابع للميلاد

وقـــد كانت السّمة الغالبـــة على المفكرين الدينيـــين ، منـــذ القرن الثانى قبل الميلاد الى القرن الثانى بعد الميلاد ، شيوع التفرقة بين العقل والهيولى ، أو بين الروح والجسد ، فى جميع المذاهب التى ظهرت بين أرجاء الدولة الرومانية ، ومحور هـــذه المذاهب عامة لا يخرج من

نطاق مدينة الاسكندرية

فقبل الميلاد كانت تقيم فى أطراف الصحراء ، على مقربة من الاسكندرية ، طائفة من المتنسكين المتنطسين ، يتعبدون بالتأمل وترك اللذات الجسدية ، ويعرفون بين الناس باسم المتطببين Thera-peutae ، ومنهم على الأرجح طائفة الآسين أو الأسينيين ، وهى كلمة بالآرامية تفيد معنى الأساة أى المتطببين ، وأتباعها هم ألد أعداء الدولة الرومانية بين اليهود !

وبعد المسيحية ظهرت طائفة المعرفيين Gnostics ، وظهر أتباع افلوطين الفيلسوف ، وظهرت طائفة المشبهين Docetists التى تنكر كل الانكار ان يكون السيد المسيح قد تجسد فى جسد من المادة ، وانما هو كيان شبيه بالمادة فى النظر ، وليس منها فى الحقيقة .

والمهم ان المسيحية حين شاعت وانتشرت فى الشرق وفى مصر خاصة ، كانت بمثابة احتجاج روحانى على السيطرة الرومانية . واننا نستطيع ان نقسم العالم الرومانى يومئذ الى قسمين : قسم توافقه عبادة الامبراطور ، وهم السادة الحاكمون ، وكانت نفوسهم تقبل القول بالخلط بين الطبيعة الانسانية والطبيعة الالهية على صورة من الصور ، وقسم لا توافقه عبادة الامبراطور ، وهم الرعايا الساخطون على السيطرة الأجنبية ، وكانت نفوسهم تنفر غاية النفور من الخلط بين الطبيعتين الانسانية والالهية ، ويرفضون كل فكرة تومىء الى جواز عبادة الامبراطورين ، أو جواز الصفة الالهية على الآدميين

وما استماتت أتباع الأديان الوحدانية فى تمييز العنصر الالهى ، كما استماتوا فى تمييز هذا العنصر بعد طغيان العواهل الرومانيين وطموحهم الى التشبه بالأرباب !

فاليهود كانوا ينزلقون الى عبادة الأرباب الكنعانية والبابلية والمصرية ، قبل خضوعهم لدولة الرومان ، فلما سامهم عواهل الرومان ان يضعوا تماثيلهم فى الهيكل ، أو يعلقوا عليه شارة الامبراطور الاله ،

تمردوا غاية التمرد ، وأقاموا الحاجز الحاسم بين سلطان الأرض وسلطان السماء

والأمة المصرية كانت أشد الأمم سخطا على الدولة الرومانية ، وأشدها تقبلا للديانة المسيحية ، ثم أشدها انكارا بعد ذلك للقول بالطبيعتين ، وهو القول الذى لم ترفضه الكنيسة فى عاصمة الدولة الشرقية ، ولا فى عاصمة الدولة الغربية ، ولم ترفضه كذلك كنيسة انطاكية كل الرفض ، لأنها كانت على البرزخ بين القساوسة الأوربيين والقساوسة الشرقيين . وقد رجع بعض المؤرخين الى تعليل هذا الفارق ، فعللوه بالفارق بين النفس الشرقية والنفس الغربية ، وهو هنا فارق معتسف جد بعيد ، وانما حقيقته أنه الحد الحاسم بين النفور من عبادة الامبراطور ، وبين الترخص فيها أو الاغضاء عنها . ولهذا كان فى آسيا الصغرى اناس يقولون بالطبيعتين ، وهم شرقيون ، وكان فى مصر أناس من الأصل اليونانى يقولون بالطبيعتين ، ومعهم فريق من المصريين الذين لا يتعصبون على الرومان ، بل لهذا كانت قبائل القوط والتيتون تدين بمذهب اريوس وتقبل عليه من ناحية التفرقة بين ربوبية الأب التى لا مثيل لها ، وربوبية الابن التى خلقها الأب ولم تكن قائمة منذ الأزل . فهذه التفرقة كانت تروق عشائر القوطيين والتيتون ، وتدخلهم فى زمرة الثائرين على تقديس الامبراطور من هذا الجانب البعيد

فعند البحث فى الفوارق بين المذاهب ، ينبغى ان نذكر هذا الفارق فى مقدمة الفوارق النفسية والعقلية التى قسمت الدولة الرومانية من حيث التنزيه والتوحيد الى قسمين : قسم السادة الذين لا يسخطون فى قرارة ضمائرهم على الخلط بين الطبيعة الانسانية والطبيعة الالهية ، وقسم الرعايا المضطهدين الذين امتلأت ضمائرهم سخطا على هذه العقيدة ، فلم تغب قط عن أنظارهم ولا عن عقولهم كلما واجهتهم المذاهب والبدع بشىء جديد

ومصدر القوة الكبرى التى اشتهرت بها المسيحية المصرية وجعلتها ندا مصاولا للدولة الرومانية ، هو انها كانت قوة تمتزج فيها العقيدة الدينية والحماسة الوطنية

ثم دانت الدولة الرومانية بالمسيحية ، فلم يمتنع هذا النزاع بين القسطنطينية ورومة من جهة ، وبين الاسكندرية من الجهة الأخرى ، لأن الجانب القومى منه لم يزل على حماسته الأولى ، بل أصبح بعد ذلك أشد وأقوى ، اذ كان طغيان الدولة الرومانية ـ بعد تحولها الى دين رعاياها ـ قد تناول السيطرة على الروحانيات ، بعد ان كان مقصورا على السياسة وشئون المعيشة الدنيوية

وعلى ضوء هذا الفارق أيضا ينبغى ان ننظر الى نتائج المجامع الدينية التى انعقدت فى صدر المسيحية . فكل ما رجع منها الى سلطان القسطنطينية أو رومة قوبل بالمقاومة فى الاسكندرية ومن يدينون بمذهب كنيستها ، وكل مجمع دينى ملك فيه الأساقفة الاسكندريون حريتهم وشرحوا فيه مذهبهم ، لم يجد فى مصر مقاومة بين جمهرة المصريين ، ولم ينظر اليه المصريون نظرتهم الى السيطرة الأجنبية التى تفرض مشيئتها عليهم دينا ودنيا ، ولا تدع لكنيستهم حقها من الرعاية والكرامة

وقد كان سلطان الرأى العام المصرى مخيفا مرهوبا على مخالفيه والمارقين عليه ، فكان الأساقفة المصريون فى مجمع خلقيدونية يرتعدون فرقا من العودة الى بلادهم بغير ما فوضتهم فيه ، وكانوا يصرخون فى وجوه الأعضاء الآخرين قائلين : اقتلونا هنا ان شئتم ، ولا تردونا الى بلادنا بغير ما ترضاه !

ومن التهم التى وجهت الى البابا اثناسيوس السكندرى ٢٩٦ ـ ٣٧٣ ، نعرف مدى المكانة الدينية والدنيوية التى بلغها رؤساء الكنيسة فى مصر أمام مكانة الامبراطور نفسه فى القسطنطينية ، فانه اتهم بمنع تصدير القمح وافتتاح كنيسة بغير اذن الامبراطور ! ونقل

المؤرخ جبون من أخباره انه لم يكف عن مناضلة قسطنطين وقسطنطينيوس ويوليان وفالنس ، وكان يوليان المرتد يسميه بالمشاغب والبغيض ، ويبادله التهم مبادلة الند للند ! وسأله قسطنطينيوس مرة : لم لا تأذن باقامة الكنيسة الآرية فى الاسكندرية ؟ فكان جوابه : اننى سآذن بها يوم تأذن أنت باقامة كنيسة ارثوذكسية فى انطاكية !

وغنى عن القول ان المفكرين الدينيين الذين نشأوا فى صدر المسيحية ، كانوا يعرفون فلسفة اليونان ، وكان منهم من يحاول أن يوفق بين الدين وهذه الفلسفة ، ومن يفهم قدم العالم وقدم الاله المنزه عن المادة أو الهيولى ، على مذهب ارسطو تارة ، وعلى مذهب المعرفيين أو مذهب الأفلاطونية الحديثة تارة أخرى . وكان من هؤلاء المفكرين يونانيون ومصريون ينظرون الى المسائل من جانبها الفلسفى ، ولا يجنحون بها الى فريق الحاكمين أو المحكومين . وهذه الآراء العقلية تنجم فى كل عصر وفى كل أمة ، وتتصل بالسياسة العامة أو لا تتصل بها على حسب الظروف

ولكن اللازمة التى لا فكاك منها تبرز على الأثر كلما اجتمعت الأسباب اللاهوتية والأسباب القومية فى جانب ، وهذه القوة المتجمعة من غيرة الدين وحماسة القومية هى التى اعتصم بها المصريون زمنا فى وجه الدولة الرومانية ، قبل ايمان هذه الدولة بالمسيحية ، وبعد هذا الايمان

وقد اضطهد المصريون قبل ايمان الدولة الرومانية بالمسيحية ، وبعد ايمانها بها فى أيام قسطنطين ، وكان من مضطهديهم قياصرة كالفيلسوف ماركوس اورليوس ، وقياصرة لا يفقهون ولا يفكرون مثل كاراكلا ودقلديانوس . ووقع الاضطهاد فى عهد النقيضين فوقاس وهرقل ، ووقع من العواهل المتدينين وغير المتدينين ! ولم يكن هذا الاضطهاد الدينى قط خلوا من شوائب السياسة وعوامل الثورة القومية ، فلما وجدت للمصريين كنيسة قائمة ، كانت هى الدين والدولة فى وقت

واحـد ، أو كانت هى الزعامة التى تلتف بها الأمة وتثبت فيها كيانها ومشيئتها فى وجه القوة المفاجئة

ولم يسع حكومة القسطنطينية الا ان تعترف بهذه الحقيقة الواقعة ، فأرادت أن تستفيد منها لارضاء الشعب المحكوم واتقاء التمرد من ولاة الرومان الطامحين ، فكانت تفصل أحيانا بين سلطان الادارة وسلطـان الجيش ، وكانت تقسم معسكرات الدفاع بين مصر العليا ومصر السفلى ، وكانت تمنح بعض الزعماء المصريين حقوق الرعاية الدينية والرئاسـة الحكومية ، لأنها بمثابة الاعتـراف بالضرورة التى لا محيد عنها ، وبالحيلة التى تصلح لتفريق القوى ومنعها ان تتجمع فى ناحية واحدة للتمرد عليها . وكانت تستعظم قوة البطرق الوطنى أحيانا ، فترسل الى مصر بطرقا على مذهبها يدير كنيسته الى جانب الكنيسة الوطنيـة ، ويتبعها المسيحيون من اليونان والرومان غير الوطنيين ، كما يتبعها بعض الوطنيين الذين يميلون الى عقيدتها ورأيها ، أو يتزلفون للدولة الحاكمة طمعا فى المناصب والحظوة النافعة

وكان الوضـع الدينى فى أوائل القرن السابع محدودا مقررا بين الكنائس الثلاث فى المشرق والمغرب والاسكندرية

كان الأسـاقفة المصريون قد تمكنوا من بسـط آرائهم فى مجمع نيقية برئاسة البابا الاسكندر وتلميذه الكبير اثناسيوس ، فأقروا العقيدة المسيحية كما اتفق عليها الأساقفة الذين شهدوا المجمع ، وحرصوا على رعايتها فى القطر المصرى وفى بلاد القيروان وماحوله من المدن الافريقية ، ثم نفس عليهم رؤساء القسطنطينية هذا النفوذ ، وأرسلوا آريوس الى الاسكندرية بأمر الامبراطور . فقاطعه الشعب المصرى وأوصد فى وجهه أبواب كنائسه ، وفعل مثل ذلك مع البطرق جريجوريوس الذى أقامه الامبراطور مقام البطرق اثناسيوس المصرى بالاسكندرية ، فلم يحضر صلواته ولم يعترف بوجوده ، وأهمله حتى مات فى عزلة بين رعاياه ! وكان اثناسيوس فى هـذه الأثناء قد استعان بكنيسة رومة على كنيسة

القسطنطينيــة ، فأعانته ، وبرأته من التهم المنسوبة اليه ، فعاد الى الاسكندرية وكاد يقتل فيها غيلة بدسيسة من الامبراطور يوليان !

ثم انعقد مجمع خلقيدونية ، ورجحت فيه كفة رومة والقسطنطينية ، وأهملت فيه كنيسة الاسكندرية أشد الاهمال ، فوقع الانقسام بين الملكيين أى التــابعين لمذهب الامبراطور ، وبين المصريين التــابعين لمذهب كنيستهم ، وقيل عنهم يومئذ انهم « يعقوبيون » ، لأنهم تلقوا من يعقوب البرادعى ، تلميذ البطرق المصرى ، تفصيل العقيدة التى يؤمن بها ويوصى باتباعها ، وكان هذا البطرق المصرى «ديسقورس» قد حكم عليه بالنفى لمقاومته قرارات المجمع الخلقيدونى على الرغم من تزكية الامبراطور!

ولكن التفرقة الصــحيحة بين المذهبــين ، هى التفرقة بين القول بطبيعة واحدة للاله ، وبين القول بطبيعتين احــداهما الهية والأخرى انسانية . ولما استعصى على الدولة ان ترغم المصريين على اتباع مذهبها ، توسط بعض الرؤساء الدينيين فى حسم الشقاق ، بترك الخلاف على الطبيعة والطبيعتين ، ووصف الاله بأنه ذو مشيئة واحدة . وقدروا ان القول بهذا المذهب يرضى المصريين ، لأنه يرادف القول بالطبيعة الواحدة ، ولا يسخط أصحاب القول بالطبيعتين ، لأنهم يقولون ان الطبيعتين تتفقان فى المشيئة الالهية

الا ان هذا التوفيق لم يحسم الشقاق ، ولم تكن له من نتيجة غير تجديد المناقشة فى صورة أخرى ، واثارة الخلاف على الفرق بين الطبيعة والمشيئة ، مما عاد بالمسألة كلها سيرتها الأولى !

ووضح للامبراطور الرومانى ان هذا « العناد » من جانب المصريين ، كما سماه ، يخفى وراءه شيئا غير مجرد الخلاف على العقائد اللاهوتية . والواقع انه كان لاهوتيا قوميا بغير مراء . .وان تهافت المصريين على الرهبانية نفسها لم يكن خلوا من الاحتجاج على المظالم الرومانية ، وقد عبر عنه اثناسيوس هذا التعبير حيث قال فى كتابه « حيــاة القديس انطون » Vita Antonou : « ان رهبان الصحراء كانوا ينشدون

المزامير ، ويحبون المطالعة ، ويصومون ويصلون ، ويفرحون بالرجاء فى المصير ، ويعملون على اسداء الاحسان ، ويحب بعضهم بعضا .. حيث لا يقيم بينهم معتد ولا معتدى عليه ، ولا يقترب منهم جابى الضرائب ، ولا يبصرون هنالك غير جمهرة من النساك على مقصد واحد ، وهو التطلع الى الفضيلة »

لقد كان هرقل مشغولا بحرب الفرس وقبائل البرابرة فى أوائل أيامه على العرش ، فلما انتصر على الفرس وهادن القبائل حول عاصمته فرغ « للمعاندين المنشقين » ، وغره النصر ، فأمعن فى طغيانه ، وغلا فى مطالب الطاعة من رعاياه ، وخيل اليه ان استقرار الأمر له مرهون بتوحيد المذاهب فى المملكة ، وان هؤلاء المعاندين المنشقين يهددونه ويجترئون عليه . فانقسمت الدولة عنده الى « ملكيين » وخارجين على الملك ، وتبادل الفريقان التهم العنيفة ، فكانت كلمة الوثنى الخائن أيسر وصف لمن يخالفون الامبراطور وشيعته ، وكانت كلمة الخلقيدونى مرادفة لوصف الكفر والغشم فى نظر أبناء البلاد ! ولم تكن المسألة يومئذ مسألة مذاهب وطوائف فى ديانة جامعة ، بل كانت مسألة مسيحية أو لا مسيحية ، لأن مهمة المجامع فى القرون الأولى انما كانت تقرير العقيدة التى يدين بها المؤمن وينكرها غير المؤمن . ثم جاء الاضطهاد فأوغر الصدور ، وخرج به الفريقان من الخلاف الى العداء ، وآمن كل متدين مخلص فى عقيدته ان مخالفيه قد استحقوا الغضب والنقمة من الله !

ولم ينحصر النزاع بين الملكيين وجملة المصريين ، بل ظهرت معه الخلافات بين الآريين والنسطوريين والأوطاخيين والشيوبسقيين أتباع بطرس القصار ، وغيرهم من أصحاب النحل المتقاربة أو المتباعدة فى تفسير اللاهوت والناسوت . وغلب الضجر على الكثيرين فاعتزلوا المذاهب ، وساورتهم الشكوك ، وانهارت الأخلاق ، وساءت القدوة بعلية الناس ورؤسائهم ، فمن لم يكن ناقما متوقعا للغضب السماوى

فهو متهاون غير حافل بما تصير اليه الأمور

وقد صور لنا أبناء ذلك العصر شعورهم فى أقوالهم وأخبارهم ، فاتفقوا على شعور واحد مع اختلافهم فى كل ما عداه ، وذلك هو شعورهم بالغضب الالهى وانتظار الجزاء العادل من الله

فلما تقدم المسلمون لحرب الدولة الرومانية ، شاع فى المشرق كله ان هزيمتها حق ، وان غلبة المسلمين عليها عدل ، وان القضاء الالهى ينفذ فى مستحقيه بما قدمت أيديهم من ظلم ومعصية

وربما نفر الخاضعون للدولة الرومانية من هذا القضاء الذى حل بها ، لو انه أصابهم كما أصابها ، وعرضهم للشر الذى كانوا يأمنونه فى ظلها ، ولكنهم وجدوا الفاتحين يؤمنونهم من حيث خافوا ، ويبيحون لهم ما لم يكن مباحا لهم فى أيام الدول الدائلة ، فمن التصدى لعدل الله فى قضائه أن ينصروها لتخذلهم وأن يدافعوا عنها ليدفعوا عنها غضب الله

كانت مدينة غزة أول المدن الكبرى التى استولى عليها العرب من أرض فلسطين ، وقالت مجلة المشرق اليسوعية فى سنتها الثانية : « انه كان يسكن وقتئذ فى جنوب غزة قوم من قبائل العرب المتنصرين ، وكان قد أصابهم من قِبَل ولاة الروم عسف وجور فى المعاملات فالتجأوا الى عساكر المسلمين ، ودعوهم الى فلسطين ، فلبّوا دعوتهم ، وزحفوا على غزة فى اليوم الرابع من شهر شباط لعام ٦٣٤ ، وظفروا بجيش الروم ، وفتحوا المدينة ... وبعد أيام قليلة أتموا فتح بقية مدن فلسطين »

قال ماير Meyer فى تاريخ مدينة غزة ان سكانها المسيحيين خرجوا مع جيش الروم عندما حاصرها العرب ، الا أنهم عادوا اليها بعد اطمئنانهم الى الفاتحين ، ودخل فريق كبير منهم فى الاسلام ، وذهب المتكلمون عنهم الى عمرو بن العاص يطلبون منه قسمة الكنائس بينهم ، فقسمها بينهم على حسب عددهم ، وأعطى الكنيسة الكبرى لأصحاب العدد الأكبر وهم المسلمون ، وأمر بابقاء الكنيسة الأخرى لمن بقى على دينه

من المسيحيين

وكانت غزة على أبواب مصر ، تسرى أنباؤها الى الديار المصرية بين ليلة ونهار ، وكان فيها وفيما حولها طائفة من الجنود المصريين والمتمصرين الذين استنجد بهم هرقل وقائده بميادين فلسطين . وكانت أنباء العهود التى اتفق عليها المسلمون ونصارى العراق والشام تتوالى على كل جانب من جوانب الدولة الرومانية ، فلم يكن فى كل أولئك ما يدعو أبناء البلاد الى مؤازرة الدولة الرومانية ودفع الهزيمة عنها . ولم يكن لانتصار العرب وانهزام الدولتين أمامهم ــ دولة الأكاسرة ودولة القياصرة ــ غير تفسير واحد ، وهو قضاء الله وعدل الله

ولفهم التاريخ كما حدث ينبغى أن ننظر اليه بأعين المعاصرين ، وأن نشعر بحوادثه كما كانوا يشعرون بها ، وأن ندخل فى حسابنا ما دخل فى حسابهم من التقديرات والمعايير ، وأن نعرض العداوات والصداقات على المحك الذى عرضوها عليه ، ومنها ماخطر لهم وهو لايخطر لنا الآن ، ومنها مانستخف به ولم يكن خفيفا قط فى موازينهم للحوادث والأمور

ان العرب أبناء اسماعيل وهاجر .. يعلم ذلك كل من قرأ التوراة واطلع على أصول الديانة المسيحية ، ويعلمونه فى ذلك العصر خاصة ، لأنه كان عصر العداوة القومية بين الرومان الأجانب وشعوب الشرق على الاجمال . وقد كانت وحدة الديانة خليقة أن تنسى الشعوب المحكومة فوارق الوطن واللغة ، ولكنها وحدة لم تنتظم قط بين الحاكمين والمحكومين ، ولم يكن فيها ما يجمع المختلفين ، بل كان فيها على الدوام ما يفرق المجتمعين ، ويمشى بينهم بالعداوة والبغضاء !

فالعرب أبناء اسماعيل وهاجر أقرب من الروم الى أبناء مصر ، بالنسب الذى تحفظه الكتب الدينية ، وقرابة الأمومة والسلالة ، ومثل هذه القرابة لم تكن من المهملات فى ذلك العصر ولا فى العصور التى لحقت به الى عهد غير بعيد من عصرنا الحاضر ، وقد رأينا أنها كانت حجة الفرس فى الزحف على بلاد الدولة الرومانية ، لأن زوجة كسرى

كانت من بنات الروم

ومن مقدمات الفتح الاسلامى تبادل الرسائل بين النبى عليه السلام والمقوقس ، أو عظيم القبط كما سمى فى تلك الرسائل ، وقد حفلت بأخبارها كتب السيرة النبوية وكتب التاريخ عن الفتح وما بعده ، نستخلص منها ما لابد من العلم به وبأمثاله فى بيان الحالة الدينية بمصر كما واجهها الفاتحون وأهل البلاد

قال حاطب بن بَلْتَعة ، حامل رسالة النبى الى المقوقس ، اننى قلت له : « كان قبلك رجل ــ يعنى فرعون ــ زعم أنه الرب الأعلى ، فانتقم الله به ، ثم انتقم منه ! فاعتبر بغيرك ، ولا تعتبر بك ! وان لك دينا لن تدعه الا لما هو خير منه ، وهو الاسلام الكافى الله به فقدَ ما سواه ، وما بشارة موسى بعيسى الا كبشارة عيسى بمحمد ، وما دعاؤنا اياك الى القرآن الا كدعائك أهل التوراة الى الانجيل ، ولسنا ننهاك عن دين المسيح ، ولكننا نأمرك به »

قال حاطب : ثم تناول المقوقس كتاب النبى فقرأ فيه : « بسم الله الرحمن الرحيم . من محمد رسول الله الى المقوقس عظيم القبط . سلام على من اتبع الهدى . أما بعد : فانى أدعوك بدعاية الاسلام ، فأسلم تسلم ، وأسلم يؤتك الله أجرك مرتين . يَا أَهْلَ الكِتَابِ تَعَالَوْا إلى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وبينكم ألا نَعبُدَ الا اللهَ ولا نُشرِكَ به شيئاً ولا يَتَّخِذَ بعضُنا بَعضا أرْبابا مِن دُونِ اللهِ فان تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأنَّا مُسْلمون »

ثم قال المقوقس كلاما عن صفات النبوة ، منها : « أنه يركب الحمار ، ويلبس الشملة ، ويجتزىء بالثمرات والكسر ، ولا يبالى من لاقى من عم ولا ابن عم » . وأنه كان يظن أن مخرجه من الشام ، فمن هنالك كانت تخرج الأنبياء ، وكتب الجواب فجعل عنوانه « لمحمد بن عبد الله من المقوقس عظيم القبط »

وورد فى بعض الأخبار أن المقوقس أراد أن يمتحن دعوى النبوة

بالهدية ، فأرسل هدية معها صدقة ، لأن الأنبياء تقبل الهدايا ولا تقبل الصدقات ، وجعل الهدية جاريتين أختين ليرى هل يجمع بينهما أو يتورع عن الجمع بين الأختين ، فكان أن أهدى النبى احدى الجاريتين وبنى بالأخرى ، وأنه وزع الصدقة على الفقراء

ومثل هذه الأخبار يوجبها فهم التاريخ كما حدث أو كما ينبغى أن يحدث ، ولاترفضها الا الحذلقة التى تداخل المؤرخ العصرى ، فيحسب أن المقوقس يعيش فى هذا القرن العشرين ، ويتلقى دعوة النبوة كما يتلقاها أبناؤه ، فلا ينظر فى امتحانها بما كانت تمتحن به النبوات فى القرون الأولى للميلاد ، وانما الخليق بالتحقيق التاريخى أن يوقن المؤرخ من حصول شىء كالذى نقله رواة السير والأخبار عن تصرف حاطب ابن بلتعة ، وتصرف المقوقس فىجوابه وهديته ، فما كان المقوقس ليتلقى رسالة النبى أو ليجيب عنها الا على ذلك النحو ، مما يحاول المؤرخ أن يتخيل غيره فلا يستطيع !

أما المسلمون فقد جاءوا مصر ومنهم من سمع أحاديث النبى عليه السلام فى التوصية بها ، ومنها : « وانكم ستفتحون مصر ، وهى أرض يسمى فيها القيراط ، فاذا فتحتموها فأحسنوا الى أهلها ، فان لهم ذمة ورحما ، أو قال ذمة وصهرا »

ومن الأحاديث النبوية عن مصر أنه عليه السلام قال : « اذا فتح الله عليكم مصر فاتخذوا فيها جندا كثيفا ، فذلك الجند خير أجناد الأرض» . قال أبو بكر رضى الله عنه : ولم ذلك يا رسول الله ؟ فقال : « لأنهم وأزواجهم فى رباط الى يوم القيامة » وقال « ما كادهم أحد الا كفاهم الله مؤونته »

ومن لم يكن من الجند الفاتح قد سمع الأحاديث النبوية ، كان قد سمع آيات من القرآن الكريم ، وفيها من لعنة فرعون :

« انَّ فِرعَوْنَ عَلاَ فِى الأرضِ وجَعَلَ أهلَها شيَعا » ، وفيها من لعنته : « ان تُرِيدُ إلا أنْ تكونَ جبَّارا في الأرض » وفيها :

« ونريدُ أن نَمُنَّ على الذين استُضعِفوا في الأرضِ ونجعلَهُم أئمةً ونجعلَهُم الوارِثينَ ونمكّنَ لهُم في الأرضِ ونُرِيَ فِرعونَ وهامانَ وجُنُودَهُمَا مِنْهمْ ما كانُوا يَحذَرُونَ »

وعلى ألسنتهم جميعا حكاية عن قوم يوسف : « ادْخُلُوا مِصْرَ انْ شَاءَ اللهُ آمِنِينَ » وقوله تعالى : « كَمْ تَرَكُوا مِنْ جَنَّاتٍ وَعُيُون وَزُرُوع وَمَقامٍ كَرِيمٍ ونعمَةٍ كانُوا فِيها فَاكِهِينَ وأوْرَثْنَاها قَوْماً آخَرِينَ »

وكل هذه الوصايا القرآنية والنبوية فى أذهان الفاتحين تجنح بهم الى المسالمة والمؤامنة فى معاملة أهلها ، وتضع الروم عندهم فى موضع فرعون الذى تجبَّر وفرق رعيته شيعا ، ووجب أن يتركوا الأرض لمستضعفيها ، وأن يورثها الله قوما آخرين

وتوافق هذه المسالمة خطة مثلها من أبناء البلاد توحيها اليهم أحوال كثيرة كانوا يكابدونها على الأحقاب المتوالية ، وأهمها الحالة الدينية كما صارت اليه فى أيام الفتح الاسلامى خاصة ، وهى تلك الحالة التى أزعجت البطرق عن كرسيه ، وألجأت زعيم القوم الى مذهب فى العقيدة غير مذهبه ، فلم تعد الطمأنينة الى المتعبدين لأول مرة فى ثلاثة قرون الا باعلان الأمان لكل متعبد ورعاية الحرمة لكل معبد

ولا خلاف بين المؤرخين فى منهج الدعوة الدينية فى سنوات الفتح الأولى الى أواسط أيام الدولة العباسية ، فلم يقع اكراه على أحد ، بل وقع ما يناقض الاكراه فى رواية الكثيرين من مؤرخى العربية ومؤرخى اللغات الأجنبية ، فقد أدهشهم احجام الفاتحين عن اكراه أبناء البلاد على الدخول فى ملتهم ، حتى التمسوا تأويل ذلك بأنهم كانوا يشفقون من نقص الجزية واقفار خزانة الحكومة وانقطاع أرزاق الجند والعمال ، وهو تأويل مخطىء كما سنرى فى باب الأحوال الادارية وتقسيم الأموال بين الجزية والخراج والزكاة ، ولكنه مهما يكن من خطئه صحيح فى الإبانة عن الواقع فى مسألة الدعوة الدينية ، فاذا بلغ

من احجام الحاكمين عن اكراه الرعية على التدين بدينهم أن يعلل المؤرخون ذلك بنفورهم من فقدان الجزية ، فقد صح على الأقل أنهم أحجموا عن الاكراه ولم يقسروا أحدا على الخروج من دينه

غير أن الحالة الدينية ، كما وصفناها ، تفسر الواقع كما تستدعيه تلك الحالة ، وكما ورد فى التواريخ القبطية كتاريخ يوحنا النخيوى المشهور ، فهو يقول ان المسيحيين الملكيين أسرعوا الى الدخول فى الاسلام لأنهم كرهوا أن يثوبوا فى أحكامهم ومعاملات زواجهم وطلاقهم الى الكنيسة التى يعادونها وتعاديهم ، ويشبه الطائفة الملكية أناس فى حكمها ، كالطائفة النسطورية والآرية . ومن يقول بالمشيئة الواحدة ولا يقول بالطبيعة الواحدة ، كما يقول القبط ، ولا بالطبيعتين على النحو الذى يدين به الملكيون

وقد حدث فى هذه الفترة وما قبلها بقليل أن الطائفة المارونية هجرت أرضها جملة واحدة ، وانتقلت الى جبال لبنان كراهة الخضوع لليعقوبيين ، ولعلها لو اضطرت الى البقاء حيث كانت لدانت بالاسلام ولم تذعن لمن حاربتهم وحاربوها فى المعتقدات والأحكام عشرات السنين

فالذين أسلموا بعد الفتح انما أسلموا طوعا غير مكرهين على ترك مذهب ولا نِحلة ، وهم على رواية يوحنا النخيوي طائفة الملكيين الخلقيدونيين ومن يشبهها من الطوائف التى لا تقول بالطبيعة الواحدة ! ويضاف اليهم أناس من الذين فهموا من انتصار المسلمين على الفرس والروم أنه آية الهية وبرهان من السماء على صحة الدين وسلامة الدعوة . ويضاف اليهم أناس ممن هان عليهم أمر التدين فى محنة الشقاق ومحنة الأخلاق ، فلم يبالوا على أى دين أصبحوا بعد الشك والريبة ، ثم فضلوا الدين الذى يعتقده ولاة الأمر وحكام البلاد !

ولا تفسير للحالة الدينية أيام الفتح أصح من هذا التفسير

الحالة الإدارية والسياسية

عرفت مصر التقسيمات الادارية من أيام الأسر الأولى ، وعد سترابون ستة وثلاثين من هذه الأقسام التى نسميها اليوم بالمديرية أو المحافظة ، وعرفها اليونان باسم النوم Nom ، وزادت بعد عصر سترابون حتى أربت على الأربعين

ويقال انها كانت فى مبدأ الأمر مواطن للعشائر أو القبائل المختلفة التى تسكن الوادى وما يقابله من جانبى الصحراء . وكانت كل عشيرة منها مستقلة برئيسها وعبادتها المحلية ، على حسب الطواطم التى تدين بها ، ومن هنا غلبة العبادة فى كل اقليم لطوطم من الطواطم الحيوانية ، فمنها اقليم الصقر ، واقليم التمساح ، واقليم ابن آوى ، واقليم الهر ، واقليم الحمل ، وغيرها من هـذه المعبودات الطوطمية . ولهذا كبرت بعض الأقاليم أو صغرت لأسباب لا ترجع الى الوضـع الجغرافى أو المصالح الاقتصادية ، وتعذر تغييرها ، والتصرف فى حدودها قبل اتحاد البلاد جميعا فى عبادة قومية عامة

والى جانب هذه التقسيمات كانت هناك أقسام أكبر من هذه الأقسام، فلاحظ فى تخطيطها الدواعى العسكرية والسياسية ، أو دواعى الدفاع واجتناب النزاع بين أصحاب الحقوق المشتركة فى الامارة

وأقدم هذه الأقسام قسمان : مصر العليا ومصر السفلى ، ثم زيدت عليها مصر الوسطى ، وتفرعت مصر السفلى الى فرعين : أحدهما الى شرق الدلتا والآخر الى غربها ، ووجد فى بعض العصور قسم آخر ، يضم اليه الواحات وطرفا من الأرض الليبيـة ، ويتصـل بالفيـوم

والاسكندرية حيث يشرف عليه الوالى الأكبر ، لما له من الخطر فى الدفاع عن حدود مصر الغربية

هذه التقسيمات جميعا تحللت وكادت تندثر أو تختلط بينها التبعات فى عهد الامبراطورية الرومانية الشرقية

ففى عهد الامبراطورية بطلت الحاجة الى الدفاع شرقا وغربا ، لأن مصر كانت محاطة من الجهتين بأملاك الامبراطورية فى فلسطين وفى ليبيا وافريقية الشمالية .. وبطلت الحاجة الى الدفاع جنوبا ، لأن نجاشى الحبشة كان على عهد مع عاهل القسطنطينية أن يتعاونا على حرب فارس واخراجها من اليمن التى كانت تهم الحبشة وتخشى الخطر من جانبها

فلم تبق من حاجة الى الدفاع فى غير الاسكندرية ، ولم يكن دفاع البر هو المقصود بالحامية التى تعسكر فيها ، ولكنه كان دفاعا بحريا تعززه الحاجة الى الأسطول لنقل المحصولات والغلات من القطر المصرى الى بلاد الدولة المترامية الأطراف على سواحل بحر الروم

وجاوز الأمر اهمال الدفاع الى تعجيز الحاميات ، واغراء بعضها ببعض ، خوفا من اتفاقها على الدولة ، واجماع قادتها على رفض المطالب التى تتوالى على القطر من القسطنطينية

فاختلت أحوال الأمن فى داخل البلاد ، ولجأ بعض السراة من أصحاب الضياع الكبيرة الى اتخاذ الجند من أتباعهم وزراعهم وحواشيهم ، فلم يمض غير قليل حتى نجم الخطر من هذه الفرق التى لا تدين بالطاعة لقائد واحد ، فعاثت فى الأرض ، وخيف منها على الوادعين المسالمين ، وأصبحت شرا عليهم من عصابات اللصوص وقطاع الطريق ! وفى تاريخ تاريخ يوحنا النخيوى وقائع شتى من عبث هذه الفرق ، تدل على ما كان من اضطراب الأمن وفزع الأهلين وعجز الحكومة العامة فى الأيام الأخيرة قبل الغزوة العربية

وآل الغرض كله من التقسيمات الادارية الى جمع الضرائب والأزواد المقررة للدولة فى كل سنة زراعية

ولم يكن لهذه الضرائب نظام واحد ولا مقدار معروف لا يتغير مع السنين ، ويظهر هذا الاختلاط فى سياسة الضرائب من تضارب الأقوال بين المؤرخين الذين جمعوا كل ما أتيح لهم جمعه من الوثائق والسجلات وأوراق البردى ورسائل العواهل والولاة ، فاختلفوا فى ضريبة الأرض ، ضريبة الرؤوس ، وذهب بعضهم الى نفى الخبر المتواتر عن وجود ضريبة الرؤوس فى مصر على عهد الدولة الرومانية الشرقية ، لأنهم لم جدوا لها موضعا بين أنواع الضرائب على الأطيان ، ثم اتفق بعضهم لى أن ضريبة الأطيان هى ضريبة الرؤوس التى أصبحت أساسا لتحصيل تجزية بعد فتح العرب ، لأنهم كانوا يلاحظون فى مقدار ضريبة الأرض فاية الزارع الواحد طول العام ، فتحسب الغلات بحساب الرؤوس ، لا يختلف التقدير بين ضريبة الوحدة الأرضية jugum وضريبة الرأس على فرد من أفراد الفلاحين Caput ، فلم يكن خراج الأرض jugatio وضريبة الرؤوس Capitatio الا صورتين مختلفتين لضريبة واحدة (١)

واستوجب هذا النظام أن يعتبر الفلاح أسيرا على الأرض التى يزرعها ، ويعامل معاملة الهارب بحق الدولة اذا فارق قريته ولاذ بقرية أخرى . وحل الزارع المحلى Colonus محل العبد الرقيق بعد تعذر الاعتماد على هذا النظام فى الزراعة

وعلى هذا لم يكن مقدار الخراج محدودا فى كل سنة ، بل كان تحديده على حسب المحصول المنظور فى أيام الفيضان ، فيصدر البيان السنوى من الوالى الرومانى خلال شهر يوليو أو أغسطس (٢) ويبلغ الى الأقاليم فى سبتمبر أو أكتوبر ، ويتولى كل اقليم توزيع المقدار المطلوب منه على القرى والبلاد ، كما يروق صاحب الكلمة العليا فى الاقليم . وأصحاب الكلمة العليا مختلفون بين حكام رومانيين ، أو أصحاب ضياع من الأجانب والوطنيين ، وبين مجالس بلدية أو اقليمية ،

(١) الامبراطورية البيزنطية تاليف نورمان باينز Baynes
(٢) الدخول فى الاسلام وضريبة الرؤوس تاليف دانيل دينته Dennette

ومستأجرين يتولون زرع الأرض فى مساحات واسعة ، ثم يتولون محاسبة المجالس أو أصحاب الضياع

والمطلوب من الأرض كذلك يختلف على حسب الجودة والصنف المزروع ، فمن الأرض ما يسهل ريه بماء النيل ، ومنها ما يصل اليه ماء النيل ولكنه يغمره أياما فى السنة فلا يصلح للزراعة فى غير موسم قصير ، ومنها ما يحتاج الى الآلات لريه ولا يأتى بالغلة الكافية الا مع كثرة الأيدى العاملة فيه

والدولة لا يعنيها الا أن تجمع المقدار المقرر فى حسابها . والموظفون لا يعنيهم الا ارضاء الدولة ، وليس للتقصير فى أداء مطالبها غير نتيجة من نتيجتين ، كلتاهما مكروهة ومحذورة : فاما العزل ، واما العمل بغير مرتب ، لأن المرتبات محسوبة من حصة الضرائب التى تبقى فى مصر بعد استيفاء مطالب الدولة جميعا من المال والمحاصيل

وربما تسابق الملاك الكبار ورؤساء المجالس المحلية والاقليمية فى معاملة الدولة فى تحصيل الضرائب ، طلبا للكسب والنفوذ من وراء هذه المعاملة !

فقد كان النظام المتبع مع كبار الملاك أن يؤدوا ضرائبهم الى خزانة الدولة مباشرة ، بغير واسطة الجباة ورؤساء المجالس ، وكان هذا النظام يرضى الدولة لأنه يغنيها عن استخدام الموظفين والمحصلين ، ويرضى المالك الكبير ، لأنه يكسبه الجاه فى الدواوين ، ويمكنه من تسخير العمال المستأجرين ، فلا يبرحون أرضه أو يستعين عليهم بسلطان الحكومة ويستبقيهم عنده مكرهين . وكان من حقه بهذه المثابة أن يطارد المماطلين لأنهم يماطلون الدولة كما يماطلونه ، وأن يستزيد من الأرض المزروعة لحسابه ما استطاع لأنه يزيد بذلك فى نصيب الخزانة العامة ويعطى الدولة حقها جملة واحدة فى موعد معلوم !

وهناك غاية سياسية وراء هذه « الاجراءات الادارية » ترمى اليها الدولة البيزنطية فى عاصمتها الكبرى ، وهى اثارة الشحناء بين سراة

البلاد وأصحاب المناصب الكبرى ، فتضرب بعضهم ببعض ، وتأمنهم جميعا على سلطانها ، وقد تأمن أن يغتالها أحدهم فى نصيبها من الضرائب حذرا من وشاية الخصوم والنظراء !

ويغلب على اعتقادنا أن سلطان المقوقس فى مصر انما كان من عمله على هذا النحو فى تدبير أمر الخراج ، فلم يكن واليا مفوضا فى أمر الخراج كما خطر لبعض المؤرخين ، ولكنه كان مالكا كبيرا من أبنـاء البلاد ، فكان يتكفل للدولة بحصته وحصة عملائه وأتباعه ، وكانت الدولة الرومانية تعترف بوجاهته وتستفيد منها ، كما كانت الدولة البريطانية تصنع فى الهند مع الراجات وأمراء الولايات

ولكن الطمأنينة شىء وتنازع الوجهاء على السيطرة شىء آخر ، فهذا التنازع صراع دائم لا طمأنينة فيه لأحد من كبار الملاك ولا من كبار العمال والولاة . واذا كان مداره على التزايد فى اعطاء الدولة وابتزاز المال من المحتاجين اليه ، فهو قلق دائم لصـاحب الأرض وزارعها ، والمأجور عليها ، ومن تقوم سيادته على التنكيل بنظرائه ، والعـدوان على من هم دونه من الصغار والمستضعفين

ولم تكن ضريبة الأرض أو ضريبة الرؤوس كل ما تطلبه الدولة من رعاياها المصريين ، بل كانت هنالك ضرائب كثيرة على المقتنيات جميعا بين ثابتة ومتنقلة ، وقد أحصى منها ميلن Milne فى تاريخه لمصر فى ظل الحكم الرومانى أنواعا شتى ، كضريبة الاصلاح والترميم التى تجبى لاقامة الجسور وتسليك الجداول وتنظيف الأحواض ، وضريبة البيوت والمساكن الخاصة والعامة ، وضريبة الحيوانات كالخيل والجمال والحمير ، وضريبة الصناعات والمتاجر ، وضريبة عامة تسمى ضريبة التاج .. وكلهاعلى اختلاط حسابها وحساب مواعيدها والمراجع التى تتولى تقديرها وتحصيلها كانت مصدرا دائما للشكاية والقلق والنزاع ، بين الشعب والموظفين ، وبين الادارة المحلية والادارة العامة ، وبين خزانة مصر وخزانة الدولة الرومانية

واقترنت هــذه الحالة فى القرن السادس بتدهور العملة الرومانية ، واختفاء العملة جملة من الأسواق المصرية ! وقد فسر المؤرخ ميلن هذه الأزمة بالخوف من تقلبات التجارة ، واكتفاء أصحاب الزراعات بلوازمهم من غلات أرضهم ومما يحصلون عليه مقايضة ومبادلة على تلك الغلات ، وقد يكون بعضها راجعا الى عادة الكنز والادخار ، تهريبا للمال من أعين الحكومة ، وحيطة للمستقبل المجهول

وبين هذه الأزمات والشكايات يســمع القوم عن نظام الفاتحين فى البلاد المجاورة ، ويعلمون أنه يقصر الضرائب على ضريبــة الرؤوس للذميين ، وضريبة العشر للمسلمين . ولم يكن هناك خراج يتقاضاه الفاتحون من الفريقين مستقلا عن الضريبتين ، لأن نظام الخراج انما استعير من الدولة الفارسية ، وصحّفت الكلمة من كلمة « خلاك أو خلاج » الآرامية التى دخلت فى تعبيرات الفرس ، لأنهم كانوا يستعيرون الكتابة بالحروف الآرامية ، فلما شرعت الدواوين الاسلامية فى تطبيق نظام الخراج والتوفيق بينه وبين ضريبة الذميين وبين عشور الزكاة ، كان قد مضى وقت غير قصير على أوائل أيام الفتوح

وكان الأمل فى الخلاص من شبكة الضرائب الرومانية سببا آخر من أسباب الرغبة فى الخلاص من حكمها كله ، بما اشتمل عليه من ضروب الارهاق والسيطرة الجائرة على الأرواح والأموال

وقد خلق المؤرخون كعادتهم مشكلة متشعبة من الأقاويل والتقديرات حول نظام الضرائب فى العصر الاسلامى الأول ، وتساءلوا هل كانت ضرائب رؤوس ؟ هل كانت غنائم فَىْء ؟ هل كانت خراجا على الأرض ؟ هل كان تحصيلها على طريقة الدواوين الرومانية أو على طريقة جديدة لم تكن معروفة فى تلك الدواوين ؟

وانما يخلق المؤرخون مشكلاتهم لأنفسهم ، لأنهم يطلبون النصوص والأوراق دائما ، ولا يطالبون أنفسهم بتقدير الموقف كما ينبغى أن يكون ، ثم يستعينون عليه بنصوصهم وأوراقهم على هذا التقدير !

وينبغي أن يقدر المؤرخون شيئا واحدا لا شك فيه ، وهو أن انتقال نظام الضرائب بين ليلة ونهار من الحساب الروماني الى الحساب الاسلامي هو المستحيل ، لأن اشراف القائمين على الدواوين التي يجري فيها الحساب باللغة اليونانية غير ميسور ، وقد يتعسر اشرافهم عليها بأية لغة من اللغات في سنوات الانتقال من نظام الى نظام

كذلك ينبغي أن يقدر المؤرخون أن معاملة القطر كقطعة واحدة من الأرض شيء لم يخطر على بال أحد في ذلك الزمان !

فالمؤرخون الأقدمون كانوا يذكرون مصر في كتبهم ، فيتكلمون عن مصر واسكندرية ، ومصر وطيبة ، ومصر والفيوم ، ومصر والمدن الخمس ، ويفرقون بينها في أحكام الولايات والأبرشيات من الوجهة الادارية والوجهة الدينية

ولما تم الفتح كانت معاملة الأقاليم مختلفة على حسب الولاة والملاك ، وعلى حسب المقاومة والصلح ، وعلى حسب الجنود والقادة الذين أخذوها عَنْوةً ، أو أخذوها بعد حصار ، أو أخذوها بغير مقاومة

فهناك أقاليم كان الملاك فيها من الرومان فهجروها ، وأصبحت من غنائم الدولة التي تستولي عليها وتتولى تقسيمها وتوزيعها

وهناك أقاليم يكثر فيها الملاك الوطنيون ، وهذه داخلة في ضريبة الجزية ، وأقاليم حاربت ، وأقاليم لم تحارب ولم تعقد صلحا ، لأنها كانت متروكة بغير زعامة وبغير رئاسة تنوب عنها في المعاهدة والمصالحة

أما اختلاف المعاملة بالنظر الى الجيش الفاتح فمرجعه الى الفرق بين الغنيمة والفيء في أرزاق الجنود

فالغنائم التي تؤخذ حربا تعزل منها حصة لبيت المال ، وتقسم منها حصة على المقاتلين

والغنائم التي يأخذها الفاتحون بغير حرب هي الفيء الذي يؤول الأمر فيه الى تصرف الامام ولا يصح تقسيمه بين المقاتلين

فلما حصل الفتح جاء الاختلاف من قبَل التمييز بين المحارب

والمسالم ، وبين حقوق الغنيمة وحقوق الفيء ، ولكن لا اختلاف على الاطلاق فى نظام الضرائب كيف يكون فى محاسبة الذميين ومحاسبة الجنود

***

وقد يُختلف فى الأرض الخراجية وغير الخراجية ، ولكن الأمر الذى لم يقع عليه خلاف قط هو ضريبة العشر على المسلم ، لأنها هى فريضة الزكاة التى تلزمه باستحقاقها ولا خلاف عليها . والتنبيه الى ذلك واجب لتصحيح أقوال المؤرخين الذين وهموا أن أناساً من أبناء مصر دخلوا الاسلام فرارا من ضريبة الجزية ، فان نظام الضرائب الجديدة كان يوجب على كل ذمي عامل دينارين فى السنة ، ولا ضريبة على النساء ولا على الأطفال ولا على الشيوخ العجزة « ولا يزاد أحد منهم فى جزية رأسه أكثر من دينارين ، الا أنه يلزم بقدر ما يتوسع فيه من الأرض والزرع ، إلا أهل الاسكندرية فانهم كانوا يؤدون الخراج والجزية على قدر ما يرى مَنْ وَلِيَهم » لأن سكانها من الروم ، ومن والاهم لم يدخلوا فى اتفاق ، وعادوا الى القتال بأمر الدولة الرومانية مرتين

والحكم فى تحصيل الجزية كما أثبته الفقهاء « ألا يضرب أحد من أهل الذمة فى استيدائهم الجزية ، ولا يقدموا فى الشمس ولا غيرها ، ولا يجعل عليهم فى أبدانهم شيء من المكاره ، ولكن يرفق بهم ، ويحبسون حتى يؤدوا ما عليهم ، ولا يخرجون من الحبس حتى تستوفى منهم الجزية »

فاذا أسلم الذمى فرارا من الجزية ، فالاسلام لا يعفيه من الزكاة ، ولا من خراج الأرض بحسب ما يلزم لاصلاحها وريها ، ويوجب عليه « التجنيد » الذى يعفى منه الذميون ، وليس فى هذا تخفيف ولا اعفاء من وجهة التكاليف التي تناط بالأنفس أو الأموال

وليس من غرض هذه الرسالة بسط القول فى النظم الادارية والمالية

الا من جانب واحد ، وهو الجانب الذى له علاقة بمهمة الفتح وعمل عمرو فيه ، فاذ نظرنا الى نظام الضرائب ونظام الادارة عامة فى عهد الرومان ، والتمسنا آثارها فى فتح العرب مصر ، كان أوضح هذه الآثار أنها يسرت مهمة الفتح تيسيرا عظيما ، فاستطاع عمرو ببضعة آلاف من الجند ما لم يكن مستطيعه بأضعاف هذا العدد . اذ كانت هزيمة الروم نكبة على الروم ، وكان انتصارهم نكبة يحذرها أبناء البلاد ، وايذاناً بظلم فوق ظلم لأنه ظلم المنتصر الذى استقر له الأمر فى بلد مغلوب يحس من أهله العداء والمناقضة فى أمر العقيدة وأمر السياسة . وقد وصف ساويرس بن المقفع فرح الجماهير بلقاء رئيسهم بنيامين بعد اختفائه فى منفاه ، فقال انهم كانوا أشبه شيء بصغار النعم خلى بينها وبين ألبان أمهاتها . وقال البطرق نفسه فى جوابه لأسقف نيخو الذى هنأه بزوال عهد الروم : « انني وجدت فى الاسكندرية ما كنت أوده من الطمأنينة بعد ما قاسيناه من الكفرة الظالمين » !

أما السياسة التى اتبعها عمرو فى تحصيل الضرائب ، فكانت فى جانب المصلحة المصرية كلما اختلفت الآراء بين خطتين . فلما أشار عليه زعماء الجند بقسمة الأرض والمال أبى ذلك عليهم ، وراجع الخليفة عمر ابن الخطاب فى ذلك فأقره على رأيه . ثم اقتصد فى تحصيل الضرائب حتى ارتاب الخليفة فى الأمر ، وحاسبه عليه حسابا عسيرا كعادته فى محاسبة العمال ، ابراء لذمته من العبث ببيت المال ، وفى الكتب التى دارت بين الخليفة وعمرو فى هذا الصدد بيان عن سياسة عمرو ، وبيان أوضح من ذلك عن خلقه وقوة شكيمته مع خليفة لم يجترىء عليه أحد من عماله مثل اجترائه . فلما كتب اليه الخليفة « يعجب من أن الارض لا تؤدى نصف ما كانت تؤديه » ، ويعرض له ببعض الشبهات ، أجابه مغضباً ، فقال : « اننا عملنا لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولمن بعده ، فكنا بحمد الله مؤدين لأماناتنا ، حافظين لما عظم الله من حق أئمتنا .. وان الله قد نزهنى عن تلك الطعم الدنيئة والرغبة فيها بعد كتابك

الذى لم تستبْق فيه عرضاً ولم تكرم فيه أخا .. »

الى أن قال ، وهو أشد ما ووجه به خليفة ، وما ووجه به ابن الخطاب خاصة : « والله يا ابن الخطاب لأنا حين يراد ذلك منى أشــــد غضبا لنفسى ، ولها انزاها واكراما ، وما عملت من عمل أرى عليه متعلقاً ، ولكنى حفظت ما لم تحفظ ، ولو كنت من يهود يثرب ما زدت ، يغفر الله لك ولنا .. » !!

وتكررت المعارضة منه فى طلب الزيادة من مال مصر حتى عزله عثمان رضى الله عنه وقال له حين جاءه الخراج زائدا : « أرى أن اللقاح قــد درّت ! » فأجابه : « حين أعْجَفتُمْ فِصالها » .!!

ولم يحاول المؤرخون الغربيون أن ينكروا هذه الخطة من عمرو ، ولكنهم أكدوها واستدلوا منها على نية البقاء فى المنصب أو نية العمل لنفسه فى المستقبل ، وليس هذا بالبعيد فى رأينا ولا بالمستغرب من عمرو أو غيره من الولاة ، ولكنه قول يلقى على عواهنه اذا أريد به أنه كان يقتطع أموال مصر لنفسه بعد الفتح ، فان الخليفة قد حاسبه على مازاد من عطائه — وهو مائتا دينار — فوجده فضلا سأله عنه ، فقال له انه من التجارة ، فلم يتقبل منه هذا العذر ، وأرسل اليه من يقاسمه الزائد من المال كعادته مع الولاة فى كل بلد ، ثم عزله عثمان فلم يتخلف عنده من المال مايغنيه بعد عزله ، ولو تخلفت عنده بقية تحسب من الغنى لما قال عثمان : « ان جبتك قملت منذ عزلناك » !

هذه خطته فى الادارة ونظام الضرائب بعد هزيمــة الرومان ، وهى الخطة التى عاهد عليها من عاهدوه فيها ، ولم يتغير منهــا بعد ولايته الثانية فى أيام معاوية الا أنه كان المسئول عن الحكم كله فى أيام هذه الولاية ، فلم يكن حفظ ما زاد من المال اختلاسا من حق مفروض عليه لبيت المال فى دار الخلافة

قيل ان عثمان رضى الله عنه عزله لأنه أراد أن يجعــله على الحرب ويولى عبد الله بن سعد تدبير أمر الخراج ! ويخيل الينا أن عثمان رضى

الله عنه قد نظر فى ذلك إلى نظام الدواوين كما بقى من عهد الروم وأراد أن يجعل للدفاع وللحرب والياً غير ولاة المال ، وقد كان الخلفاء الأولون يبتدئون هذه النظم على غير سابقة ، فيرجعون الى سوابقها فى البلاد التى حكموها بعد الفرس والرومان . وأيا كان الباعث على معارضة عمرو فى هذا النظام ، لقد كان على طريقته التى انتهجهـا قبل تحويل ادارة الدواوين شيئاً فشيئا الى النظام الذى استلزمه تغيير سياسة مصر ، من ولاية تساس لتدبير طعام الدولة الرومانية وتزويدها بالمدد لخزانتها ، الى قطر يقوم بشؤونه ويرسل من فيضه حصة لا ينفرد بها بين الأقطار التى كانت تشترك فى دولة واحدة

***

ولا تنفصل مسألة الضرائب والاتاوات ومسألة الفتح فى تقدير أحد ممن كتبوا عن هذه الفترة فى تاريخ مصر وتاريخ الدولة الرومانية ، فقد اتفق المؤرخون الاجتماعيون والناقدون العسكريون على أن النظام الادارى — أو نظام الضرائب خاصة — كان له أثر قوى فى تيسير الفتح من جانب المصريين ، وعزز هذا الرأى ناقد عسكرى حديث رجع بالدرس الى معارك الفتح على أحدث المبادىء العصرية ، وهذا الناقد العسكرى هو القائد « فولر » رائد التسـليح الآلى فى تركيب الفرق الحديثة ، فانه راجع فتوح الاسلام وعجب لاتفاق فتح خراسان وفتح مصر فى وقت واحد ، ثم كان من تفسيراته لهذه الفتوح « أنهـا رد فعل على الحكم الرومانى الذى أرهق المصريين بالضرائب الثقيلة ، وحجر على عقيدة القبط الدينية »

بين الإمارتين

أشار عمرو بفتح مصر ..
وقام عمرو بفتح مصر ..
وكل فتح فله تأمين وتمكين ..

وقد قام عمرو بتأمين ذلك الفتح وتمكينه ، على نحو لم يسبقه اليه سابق من فاتحي وادى النيل فى قديم عصوره ، لأنه أبقى لهذا الفتح أثرا خالداً فى لغة البلد ودينه وفنونه ، فصنع ما لم يصنعه فاتح قديم ، وقل أن يصنعه فاتح حديث

فلم يغفل عن حدود البلاد بعد أن سلّمت له الاسكندرية وتتابع تسليم العواصم الأخرى لأعوانه ، ولا سيما الحدود التى يجيء الخطر منها وهى حدود الغرب والجنوب

ولعله علم من مصر — ان لم يعلم قبل ذلك — أن نقتاس القائد الرومانى ، أغار على البلاد من غربيها فأخضعها ، وأن هرقل قد حدثته نفسه مرة بالرجعة الى المغرب ليحكمه ، فراراً من فتن القسطنطينية ودسائسها ، وقد يفعل ذلك خلف من بعده فيصبح المغرب مَنفذاً لغارة رومانية قد يخشى خطرها على « الفتح الجديد » وهو فى أوائل سنواته

فتوجه فى فتح المغرب حتى وقف عند تونس بأمر الخليفة . وعلم أن أهل مصر يخافون من مساكنة النوبة اياهم فى بلادهم . ويسألون حاكمهم أن يقصيهم عنها ولا يأذن لهم بطول المقام فيها ، فوعدهم ألا يأذن بهذا المقام ، وسيّر الكتائب الى مصر الجنوبية يذود عنها النوبة ويحرس مادخل فى حوزته من أرضها

وقد أنصف الخليفة عمر اً وأحسن جزاءه بتوليته على مصر بعد فتحها وتنظيم شئونها ، على أثر الحروب التي أفسدت فيها كل صالح ، وبدلت فيها كل نظام ، فحرص عمرو جهده على مرضاة الخليفة واستبقاء رأيه فيه ، وكان من الولاة القليلين الذين طال عهدهم بالولاية فى خلافة الفاروق

قيل ان الفاروق استوصف عمر اً مصر ، فكتب اليه يقول :

« ان مصر تربة غبراء ، وشجرة خضراء ، طولها شهر ، وعرضها عشر ، يكنفها جبل أغبر ، ورمل أعفر ، يخط وسطها نهر ميمون الغدوات ، مبارك الروحات ، يجرى بالزيادة والنقصان ، كجرى الشمس والقمر ، له أوان ، تظهر به عيون الأرض وينابيعها ، حتى اذا عج عجاجه ، وتعظمت أمواجه ، لم يكن وصول بعض القرى الى بعض الا فى خفاف القوارب ، وصغار المراكب ، فاذا تكامل فى زيادته نكص على عقبه ، كأول ما بدأ فى شدته ، وطما فى حدته ، فعند ذلك يخرج القوم ليحرثوا بطون أوديته وروابيه : يبذرون الحب ، ويرجون الثمار من الرب ، حتى اذا أشرق وأشرف ، سقاه من فوقه الندى ، وغذاه من تحته الثرى ، فعند ذلك يدرّ خلابه ، ويغنّي ذبابه . فبينما هى يا أمير المؤمنين ورقة بيضاء ، اذا هي عنبرة سوداء ، واذا هى زبرجدة خضراء ، فتعالى الله الفعال لما يشاء . والذى يصلح هذه البلاد وينميها ألا يقبل قولها خسيسها فى رئيسها ، وألا يستأذى خراج ثمرة الا فى أوانها ، وأن يصرف ثلث ارتفاعها فى عمل جسورها وترعها . فاذا تقرر الحال مع العمال فى هذه الأحوال ، تضاعف ارتفاع المال ، والله تعالى يوفق فى المبتدأ والمآل »

فان لم يكن هذا الكلام من نص كلامه ، فهو من صميم رأيه وعيانه لا مراء . والذى لا خلاف فيه أن الفاروق تلقى منه وصفاً لمصر يشبه هذا الوصف ، ودليلا على الدراية بها يشبه هذا الدليل ، وأن عمر اً أخلق الناس أن يحذر فى عهد الفاروق « سعى الخسيس بالرئيس »

وهو الذى يعلم أنه مستهدف لمثل هذا السعى ، وأنه ملاق به شيئا من القلق الدائم فى ساحة الفاروق ، وهو العظامى الذى كان يتعصب للنسب تعصبَ المأخوذ بالريب ، ويتقى كلمة السفلة فيقول : « ان ذهاب ألف من العلية أهون ضررا من ارتفاع واحد من السفلة » !

وربما كان من الاغراق فى الرجاء أن يطمع وال من الولاة فى الافلات من حساب الفاروق ، بالغاً ما بلغ نصيبه من الحرص والاحسان . وان أحق الناس أن يعلم ذلك لهو عمرو بن العاص ، الذى يعلم حساب الفاروق للولاة ، ويسمع بمراجعته للمحسن منهم والمسىء ، فما نحسبه ترقى بطمعه فى هوادة « ابن حَنْتَمَة » — كما كان يسميه بلسان الغيظ والاعجاب — الى أبعد من البقاء فى الولاية ، مع الأهبة الدائمة للجواب عن كل جليلة ودقيقة من أعماله التى تنمى الى دار الخلافة . وقد ظفر بما أراد ، وظل فخورا بهذا الظفر بقية حياته ، يقول لمن لايعجبه حكمه : ان الفاروق قد مات وهو عنه راض ! وحمد الله أنه لم يحاسب فى عهده بأكثر مما حوسب عليه . ومن أمثلته — فيما نقلته كتب السير — حسابه على مال الخراج ، وحسابه على غلطة طائشة لابنه محمد ، وحسابه على اعفاء عبد الرحمن بن عمر بن الخطاب من بعض القصاص فى حد الشراب !

كتب اليه الفاروق فى أمر الخراج يعجب من قلته ومن « أن مصر لا تؤدى نصف ما كانت تؤديه من الخراج قبل ذلك ، على غير قحط ولا جدب ! فرد عليه عمرو فى لهجة شديدة وأنفة يعلم موقعها من نفس عمر ، الذى لا يبالى أن يخاطبه الكبار والصغار مخاطبة الأنداد ما حفظوا مع ذلك حق الله وحق المسلمين . وجدد عمر الكتابة اليه يؤنبه على ابطائه مع كثرة الكتب اليه ، ويقول له : « انى لست أرضى منك الا بالحق البين ، ولم أقدمك مصر أجعلها لك طعمة ولا لقومك ، ولكنى وجهتك لما رجوت من توفيرك الخراج وحسن سياستك » !

وطالت المكاتبة بين الخليفة وواليه ، وتسايرت الأنباء بفاشية من

المتاع والرقيق والآنية والحيوان ، فشت لعمرو فى مصر لم تكن له قبل ولايتها ، فعمد الخليفة الى حزمه المعروف ، وأنفذ الى عمرو أمينه على العمال محمد بن مَسْلَمة يعلنه انه قد ساء به ظناً ، وأنه مقاسمه ماعنده من المال . وجعل له مائتى دينار جزاء عمله غير العطاء الذى ربط له أسوة بالمجاهدين من المسلمين

أما حساب الخليفة له على غلطة ابنه محمد ، فخلاصته أن عمر أ أجرى الخيل ، فأقبلت فرس رجل من المصريين ، فحسبها محمد بن عمرو فرسه وصاح : فرسى ورب الكعبة ! ثم اقتربت وعرفها صاحبها ، فغضب محمد ، ووثب على المصرى يضربه بالسوط ويقول له : خذها وأنا ابن الأكرمين ! وبلغ ذلك أباه ، فخشى أن يشكوهما المصرى . فحبسه زمنا حتى أفلت وقدم الى الخليفة يرفع اليه مظلمته .. فاستقدم الخليفة عمر أ وابنه ، وقال للمصرى : دونك الدرّة فاضرب بها ابن الأكرمين ! ثم قال له : أجِلْها على صلعة عمرو ، فوالله ما ضربك الا بفضل سلطانه . ففزع عمرو ، واعتذر المصرى قائلا : قد ضربت من ضربنى ! والتفت الخليفة الى المصرى يقول له : « أما والله لو ضربته ما حلنا بينك وبينه حتى تكون أنت الذى تدعه » ثم التفت الى عمرو بن العاص يقول تلك الكلمة التى تعد من جلائل الأعمال ، ولا تحصى فى جلائل الأقوال وكفى : « أيا عمرو ! متى استعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحرارا » !

ولقد حاسبه على اعفاء ابنه — أى ابن الخليفة — كما حاسبه على اعفاء ابنه هو من الجزاء الذى استحقه بالعدوان على بعض رعاياه . فقد ذهب عبد الرحمن بن عمر بن الخطاب الى عمرو يبلغه أنه شرب مسكرا ، ويطلب اليه أن يقيم الحد عليه . فتغاضى قليلا ، ثم أذن بحده على أن يعفى من حلق رأسه على مشهد من العامة ، فجاءه التأنيب من الخليفة مع البريد يقول فيه : « عجبت لك يا ابن العاص ولجرآتك علىّ وخلاف عهدى .. فما أرانى الا عازلك فمسىء عزلك . تضرب عبد الله

فى بيتك وتحلق رأسه فى بيتك ، وقد عرفت أن هذا يخالفنى ؟ انما عبد الرحمن رجل من رعيتك ، تصنع به ما تصنع بغيره من المسلمين »

وان والياً ينجو من الفاروق بهذا القسط من الحساب على هذه المسائل وأشباهها لمجدود بين الولاة !

قضى عمرو نحو خمس سنوات والياً لمصر فى خلافة عمر بن الخطاب يتولى له ادارتها وخراجها والدفاع عنها ، ويساعده عبد الله بن سعد ابن أبى سرح فى ولاية الصعيد ودفاع النوبة

وقبض عمر ، فقام بالخلافة بعده عثمان بن عفان ، فشخص عمرو الى المدينة يبايعه ويعرض عليه شئون ولايته ، ويتلقى أوامره فيها . وكان أكبر همه أن يسأل الخليفة الجديد عزل عبد الله بن سعد من ولاية الصعيد ، لأنه منافس قوى جسور لا يطيقه رئيس مثله فى القوة والجسارة ! فعز عليه هذا المطلب ، واقترح عليه الخليفة أن يتولى شئون الحرب ويترك لعبد الله شئون الخراج ، فأبى ، ونفرت نفسه من هذه المشاركة ، وقال : « انى إذن كمن يأخذ البقرة بقرنيها ليحلبها غيره » وتعذر التوفيق بين المتنافسين ، فانتهى الخلاف باقالة عمرو واقامة عبد الله على ولاية مصر ، حربها وخراجها ، وكان ذلك حوالى سنة سبع وعشرين للهجرة

والظاهر أن ولاية عمرو فى مصر كانت على خطر منذ مبايعة عثمان ، لأن رأى عثمان فى طمع عمرو وسوء الظن به قديم ، لأن عبد الله بن سعد كان أخاً لعثمان فى الرضاع ، وهو كفؤ ضليع بالرئاسة حرباً وادارة وليس من دأب عثمان أن يعزل أقرباءه وان لم يكن لهم من الكفاية والضلاعة ما كان لعبد الله

ومما لا ريب فيه أن حاشية عثمان كانت تنفس على عمرو مكانه ، وتخشى منه الخطر الأكبر اذا رسخت فى الديار المصرية قدمه ، وظل فيها قائما بالأمر الى أن يمعن الخليفة فى الهرم ويؤذن عهده بانقضاء . فليس ببعيد اذن أن يستقل عمرو بامارة الديار ، أو يطمح الى الخلافة ،

وليس ببعيد كذلك أن يشترك فى التحذير منه أناس كمروان بن الحكم ومعاوية بن أبى سفيان . ولو لم يكن لهؤلاء المقربين شأن فى الكيد لعمرو لكانت محاسبة عمرو على طريقة الفـاروق أجدى وأقرب الى الطمأنينة على الخراج . ولكن مقاسمة الولاة فى أموالهم بعد حين وحين ، شيء يأباه ولاة الدولة الجديدة . فأيسر من مقاسمة عمرو فى الخراج أن ينحى عنه أو ينحى عن الولاية برمتها .. وقد كان

ولعلهم لم يؤجلوا عزل عمرو الى حوالى سنة سبع وعشرين ، الا انتظاراً لمصير الفتنة التى نشبت فى الاسكندرية ، اذ انتقض الروم ، وجاء المدد بحراً بقيادة منويل الخصى من القسطنطينية ، فأهاب أقطاب مصر بالخليفة أن يبقى عمراً على الولاية لدرايته بالقوم وهيبته فى نفوس الأعداء . ثم تبين من كفاية عبد الله بن سعد فى كفاح الروم بأفريقيـة ما عزز مقامه وأبطل تلك الحجة ، فصحت له الولاية ، ورشحه للقيـام على الخراج وفرة المال الذى جمعه من الديار الأفريقية المفتوحة

أما أثر العزل فى نفس عمرو ، فلا يصعب ادراكه ، ولا حاجة به الى الأخبار والأسانيد ، فليس عمرو بالذى يحتمل هذا العزل أو يستكين اليه ! وليس هو بالرجل الذى يثور فى غير موضع للثورة ، أو يأخذ فى انتقام لا يثق بانفاذه وسلامة عقباه عليه ! فقصاراه أن يتربص الدوائر بالعهد كله ، وأن يترقب يومه الذى يعلم أنه آت لا ريب فيه ! وقد ترقب ، واختار لنفسه مرصد الرقبة فأصاب اختيـاره : ترقب فى بيته بفلسطين ، حيث تفترق السبل بين الحجاز ومصر والشام والعراق ، وحيث يحرض من يحرض من عابرى تلك السبل وهو آمن جهد ما يتاح له الأمان . وربما رحل بين الحين والحين الى مكة أو المدينة يستطلع ويستوثق ويدفع الحوادث الى الطريق الذى يرتجيه ، ثم يقفل الى مينائه الأمين كالربان الذى يختبىء بسفينته والرياح عاصفة والأمواج زاخرة جارفة ، ريثما تنجلى الغاشية عن مهب الريح أين يتجه على استقرار ، فيوليه شراعه ويستدير اليه

ووشى به الوشاة الى الخليفة ، فاستدعاه ، وأغلظ فى شتمه ، وراح يؤنبه ويقول له بأحدّ لسان وأشده : « يا ابن النابغة .. أتطعن على وتأتينى بوجه وتذهب عنى بوجه آخر ؟ » فتنصل عمرو وقال : « ان كثيرا مما يقول الناس وينقلون الى ولاتهم باطل ، فاتق الله يا أمير المؤمنين » فعاد الخليفة يقول : « استعملتك على ظلمك وكثرة القالة فيك » . فثار عمرو الى فخره القديم : « لقد كنت عاملا لعمر ابن الخطاب ، ففارقنى وهو عنى راض » . قال عثمان : « لو آخذتك بما آخذك به عمر لاستقمت ، ولكنى لنت عليك فاجترأت »

ومع هذا كان عثمان يبعث اليه فيستشيره كلما أعيته الحيلة وغلبته الحيرة فى حكومته ! فكان ينصحه بما يعلم انه لا يضيره ولا ينفع الخليفة . يقول له : « .. أرى ان تلزم طريقة صاحبك — أى الفاروق — فتشتد فى موضع الشدة وتلين فى موضع اللين . وان الشدة تنبغى لمن لا يألو الناس شرا ، واللين لمن لا يخلص بالنصح ، وقد فرشتهما جميعا باللين » !

وان عمرو بن العاص لأول من يعلم ان طريقة عمر لا يصلح لها غير عمر ، وانه مكلف عثمان شططا حين يركبه متن هذا الطريق ، وهو الذى قال له عثمان يوما : « لقد أمرت عبد الله بن سعد أن يتبع أثرك » فقال : « لقد كلفته شططا » !

وتدرج فى الجرأة على عثمان ، كلما تدرجت الفتنة فى التفاقم والاستفحال . ففى مجلس الشورى الذى جمعه عثمان سأله : « ما رأيك ؟ » فلم يبال ان يجيبه أمام صحبه : « انك قد ركبت الناس بمثل بنى أمية ، فقلت وقالوا ، وزغت وزاغوا ، فاعتدل أو اعتزل ، فان أبيت فاعتزم عزما وامض قدما » .. ولكنه اجترأ هنا وأبقى للحيطة بقية ، فانتظر حتى تفرق المجلس ، وخلا بالخليفة فأقبل يعتذر اليه بينه وبينه : « لا والله يا أمير المؤمنين لأنت أكرم على من ذلك ، ولكنى قد علمت ان بالباب قوما قد علموا انك جمعتنا لنشير عليك ،

فأحببت أن يبلغهم قولى فأقود لك خيرا وأدفع عنك شرا » !

كان يقول هــذا وأشــباهه ، وفى دولة عثمان أمل يضعف يوما بعد يوم ، فلما أوشك هذا الأمل أن ينفد صاح به فى المسجد : « اتق الله ياعثمان ! فانك قــد ركبت أمورا وركبنــاها معك . فتب الى الله نتب » !

ثم ترك الفتنة وأوى الى مينائه بفلسطين ، يتلقى الركبان ويســأل منهم كل عابر ينفعه سؤاله . فمر به راكب من المدينة فاستخبره خبر عثمان فقال : « محصور ! » . ثم أعقبه راكب آخر فقال : « قتــل عثمان » . فيروى رواة الخبر انه صاح يومئذ : « أنا أبو عبد الله ، اذا نكأت قرحــة أدميتهــا » . ثم قال : « والله انى كنت ألقى الراعى فأحرضه على عثمان » !

***

وبويع على بن أبى طالب بالخلافة فلم ينصره ، ولم ينصر أحدا من خصومه ، ولبث يترقب وينتظر ، حتى انحسر الميدان عن خصمين اثنين هما : على ، ومعاوية بن أبى سفيان ، بعد أن زال عنه طلحة بن عبيد الله والزبير بن العوام ، فوجب أن يختار له طريقا من الطريقين ، لأنه لو آثر الاعتزال لم يتركه الفريقان فى عزلته ، ولم يزل به أحدهما حتى يستدنيه اليه

شاور معاوية أصحابه ، فأشار عليه عتبة بن أبى سفيان أن يستعين على أمره بعمرو ، وأن يثمن له بدينه . قال : « فانه من قد عرفت . وقد اعتزل أمر عثمان فى حياته ، وهو لأمرك أشد اعتزالا الا أن يرى فرصة » . فكتب له معاوية بفلسطين : « أما بعد ، فانه كان من أمر على وطلحة والزبير ما قد بلغك . وقد سقط الينا مروان بن الحكم فى رافضــة أهل البصرة ، وقدم الينــا جرير بن عبد الله فى بيعة على ، وحبست نفسى عليك حتى تأتينى . اقبل اذاكرك أمورا لا تعدم صلاح مغبتها ان شاء الله » ..

فاستشار عمرو ولديه عبد الله ومحمدا فيما يصنع ، فقال عبد الله : « قتل عثمان وأنت عنه غائب ، فقر فى منزلك ، فلست مجعولا خليفة ، ولا تريد ان تكون حاشية لمعاوية على دنيا قليلة أوشك أن تهلك فنشقى فيها » وقال محمد : « انك شيخ قريش وصاحب أمرها . وان تصرم هذا الأمر وأنت فيه خامل تصاغر أمرك . فالحق بجماعة أهل الشام فكن يدا من أيديهم .. »

قال عمرو : « أما أنت ياعبد الله فأمرتنى بما هو خير لى فى دينى ، وأما أنت يامحمد فأمرتنى بما هو خير لى فى دنياى ، وأنا ناظر فيه » .

وروى انه قلب رأيه فى الأمرين فقال : « انى ان أتيت عليا قال انما أنت رجل من المسلمين ، وان أتيت معاوية يخلطنى بنفسه ويشركنى فى أمره »

ولكنه ظل يتردد الى ساعة السفر بعدما عنَّ له أن ينضوى الى جانب الشام ، فدعا غلامه وردان فقال : « ارحل يا وردان ! » ثم صاح به : « حط يا وردان » . فقال له وردان ، وكان كما وصفوه داهيا ماردا : « خلطت أبا عبد الله ! أما انك ان شئت أنبأتك بما فى نفسك » قال : « هات ويحك ! » قال : « اعتركت الدنيا والآخرة على قلبك ، فقلت : علىٌّ معه الآخرة فى غير دنيا ، وفى الآخرة عوض من الدنيا . ومعاوية معه الدنيا بغير آخرة وليس فى الدنيا عوض من الآخرة . فأنت واقف بينهما » .. قال : « والله ما أخطأت ، فما ترى يا وردان ؟ » قال : « أرى أن تقيم فى بيتك ، فان ظهر أهل الدين عشت عند دينهم وان ظهر أهل الدنيا لم يستغنوا عنك » .. فتأمل فى قول غلامه مليا ، ولكنه لم يقبل القرار فى بيته بعد دعوته ، وعول على المسير فسار .

***

ومن ثم قصد الى معاوية بالشام ..

ولم تكن بين الرجلين من قبل مودة ولا صحبة ولا مشاركة فى منفعة ، بل ربما كانا الى التنافس والتنافر أقرب منهما الى المودة والصحبة

حـدث أبو حاتم ان معاوية « قدم من الشام ، وعمرو بن العـاص من مصر ، على عمر بن الخطاب ، فأقعدهما بين يديه وجعل يسائلهما عن أعمالهما . الى أن اعترض عمرو فى حديث معاوية ، فقال له معاوية : « أعملى تعيب وإلى تقصد ؟ .. هلم تخبر أمير المؤمنين عن عملى وأخبره عن عملك » . قال عمرو : « فعلمت انه بعملى أبصر منى بعمله ، وان عمر لا يدع أول هذا الحديث حتى يصير الى آخره ! » فأردت ان أفعل شيئا أشغل به عمر عن ذلك ، فرفعت يدى فلطمت معاوية ! فقال عمر : « تالله ما رأيت رجلا أسفه منك » . قم يا معاوية فاقتص منه . قال معاوية : « ان أبى أمرنى ألا أقضى أمرا دونه » ، فأرسل عمر الى أبى سفيان ، فلما أتاه ألقى له وسادة ، وذكر حديث رسول الله : « اذا أتاكم كريم قوم فأكرموه » . ثم قص عليه ما جرى بين عمرو ومعاوية فقال : « لهذا بعثت الى ؟ أخوه وابن عمه ! وقد أتى غير كبير ، وقد وهبت ذلك له ! »

وأقل ما فى هـذه الرواية ومثيلاتها ان المنافسة بين الرجلين كانت ملحوظة لا غرابة فيها ، وهى فى موقعهما من ولاية الشام وولاية مصر أشبه شىء أن يكون

ويؤخـذ من حديث روى عن عبادة بن الصامت ان الاجتماع بين معاوية وعمرو كان من نوادر الأشياء ، وان اجتماعهما كان فى رأى الأخيـار من علامات الأخطـار . فلمـا قدم عبـادة بن الصـامت عليهما وهما بالشام ، جلس بينهما ثم سـألهما : « أتدريان لم جلست بينكما فى مكانكما ؟ » قالا : « نعم ، لفضلك وسابقتك وشرفك » قال : « لا والله .. ما جلست بينـكما لذلك ، وما كنت لأجلس بينكما فى مكانكما ، ولكن بينا نحن نسير مع رسول الله صلى الله عليه وسلم اذ نظر اليكما تسيران وأنتما تتحدثان ، فالتفت الينا فقال : « اذا رأيتموهما اجتمعا ففرقوا بينهما ، فانهما لا يجتمعان على خير أبدا » !

وفى صحة هذا الحديث نظر ، ولكنها أخبـار تدل على مبلغ الصلة

بين معـاوية وعمرو ، وانها لم تكن من الوثاقة والقرب بحيث تمنع مثل هذا المقال

فمعاوية لم يستقدم عمر اً لصداقة وصحبة قديمة !

وعمرو لم يقدم على معاوية لشىء من ذاك .

ولكنهما رجلان طموحان أريبـان ، مثلهما لايعادى اذا كان له فى الصداقة نفع ، ولا يصـادق اذا لم يكن له فى الصداقة أرب ، وان أقرب الناس عندهما لوشيك أن يقصى اذا أقصته المنفعة ، وان أقصاهم لوشيك أن يستدنى اذا كان فى بعده ضرر !

فهما ملتقيان على تفاهم صريح بلسان المقال ، أو صريح بلســان الحال . وقد عرفا ولا جدال على أى وجه يتفاهمان منذ كتب هــذا وأجابه ذاك

زعموا ان المساومة جرت بين الرجلين أول ما التقيا ، فسأل معـاوية عمر اً أن يتبعه ، فأقبل عمرو يسأله : لماذا ؟ أللآخرة ؟ فوالله ما معك آخرة ! انما هى الدنيـا تتكالب عليهـا ، فلا كانت حتى أكون شريكك فيهـا . وأخـذ معـاوية يذكر ممالأة علىّ على قتل عثمـان ، وانه أظهر الفتنــة وفرق الجمـاعة ، فقـال عمرو : انه وان كان كذلك فان المسلمين لا يعدلون به أحدا ، وليست لك مثل سابقته وقرابته . ثم عاد يسـاوم مرة أخرى ، فسـأل معـاوية : ولـكن ما لى ان شايعتك ؟ قال معاوية : حكمك . قال عمرو : اجعل لى مصر طعمة ما دامت لك ولاية . فتلكأ معـاوية ولم يجبه . وحذر عتبة بن أبى سفيان العاقبة ، فحذرها معاوية وقال له لائما : أما ترضى أن تشترى عمر اً بمصر ؟ ان صفت لك فليتك لا تغلب على الشام

فرضى بالصفقة ، واتفقا عليها

وليقل الناقدون التاريخيون ما بدا لهم أن يقولوا فى صـدق هــذا الحوار ، وصحة هــذه الكلمات ، وما ثبت نقله وما لم يثبت منه سنده ولا نصــه ، فالذى لاريب فيه ، ولو اجتمعت التواريخ قاطبة

على نقضه ، ان الاتفاق بين الرجلين كان اتفاق مساومة ومعاونة على الملك والولاية ، وان المساومة بينهما كانت على النصيب الذى آل الى كل منهما ، ولولاه لما كان بينهما اتفاق

فكان معاوية يطمح الى الخلافة يتولاها ويورثها أعقابه من بعده

وكان عمرو يطمح الى ولاية مصر جامعة ، وهى عنده تعدل الخلافة ما لم يكن الى الخلافة سبيل ، ويرجو أن يضم اليها الشام وأن يترك ولايته ميراثا من بعده لولده عبد الله

ومثل هـذا الاتفاق أقوى اتفاق ، ولكنه قد ينقلب فى حالة من حالاته فاذا هو أضعف اتفاق وأقربه الى النقض والانتقاض

فمن سر القوة فيه أن يعمل الرجل لصاحبه كأنه يعمـل لنفسه ، ما دامت وسيـلته من وسـيلته ، وما دامت لهما غاية واحدة يتلاقيان عندها !

ومن سر الضعف فيه ان الشريك هنـا هو أعدى الأعداء وأولى المنافسين بالتخلص منه اذا أمكن وجه الخلاص ؟

وقد أعانت على هذا الاتفاق أمور كثيرة أهمها أمران : وهما ان عمرا لم يكن على أمل فى ناحية أخرى ، فاذا فسـد الأمر على معاوية فسد الأمر عليه . وان معاوية كان يعلم انه يساوم شيخا يدلف الى الثمانين ويوشك أن يودع دنيـاه ، فما ربحه منه فهو دائم له ، وما خسره فى مرضاته صائر اليه

على أن عمرا من جانبه كان رجلا ممتلئـا بالحياة فى شيخوخته ، جرىء المطامع ما بقى فى الدنيا مطمع يتخايل بين عينيه ، فلم يكن ييأس من الخلافة نفسها ، ولم يستبعد قط أن تسنح له سـانحة من طوارىء القدر يغلب فيها معاوية على عرش الدولة التى شـاركه فى تأسيسها ، فربما أخلص معه العمل فى هزيمة على بن أبى طالب رضى الله عنه ، ولكنه لم يخلص معه العمـل فى تمكينه كل التمكين حتى يستغنى عنه ويتغير له ، ويثبت فى الخلافة ثبوتا لا مطمع بعده لطامع .

فقــد كان بعض نصائحه لمعاوية ســديد المرمى قبل هزيمة علي رضى الله عنه ، ولكنه كان متهما فى كل نصيحة أدلى بها الى معـاوية بعد تلك الهزيمة ، وكان ظـاهرا من نصـائحه فى جملتهـا انه أراد أن يثير عليه العداوات وأن يوغر عليه صـدور الصحابة ويتركه مشــغولا بخوف الفتنة أو واقعا فى أوهاقها ، وهو اذن أقرب قريب من الخلافة متى زال معاوية عنهـا ، ولاسيما اذا طال عهــده بولاية مصر وجمع فى يديه الأموال ومن حوله من الأنصار والطامعين فى النوال

فمن نصائحه التى لا يندفع مثله فيها لدافع العنجهية الجاهلية وحدها ، انه حضر مجلس معــاوية وحاجبــه يستأذن لوفود الأنصار . فقال : ما هــذا اللقب يا أمير المؤمنين ؟ اردد القوم الى أنســابهم ! ثم قال للحاجب : اخرج فقل من كان ههنا من ولد عمرو بن عامر فليدخل ، فدخل ولد عمرو بن عامر كلهم الا الأنصــار . فنظر معاوية الى عمرو نظرة منكرة وقال له : باعدت جدا ؟ فقال : اخرج فقل من كان ههنا من الأوس والخزرج فليــدخل ، فخرج فقالها ، فدخلوا يَقْــدُمهم النعمان بن بشير الأنصارى وهو يقول :

يا ســعدُ لا تُجِب الدعاءَ فما لنــا
نسبٌ نُجيبُ بـه ســوى الأنصــار
ان الــذين ثَوَوْا ببــدر منــكم
يومَ القليــب هم وقود النــار

فجعل معاوية يقول : لقد كنا أغنياء عن هذا

وأشــار على معــاوية بقتل أسرى صفّين من جمــاعة علي ، وقد أطلق عليٌّ أسراه من جماعة معاوية . وهى مشــورة لا تنفع معـاوية بشيء ، وتجلب عليه العار لا محالة ، وتنصبــه غرضـا لكل مطالب بترة ، فى أمة لا تنسى بينها الترات !

وعلى ما فى طبع عمرو من الحيلة ، والجنوح الى المصالحة واستلال الأضغان ، لم يكن يصدر عن هــذا الطبع فى مشورته على صاحبه بعد

وقعة صفين . فلما شاوره معاوية فى أمر عبد الله بن هاشم ، أشار عليه بقتله ، وغضب حين خالفه معاوية ، فقال بعد ذلك من أبيات :

أليس أبوه يا معــــــاوية الــذى
أعان عليـًّـا يومَ حــزِّ الغـلاصِـمِ ؟

وأشــار كذلك بقتال قيس بن سعد في جيشه الذى كان معه من بقايا حزب علي ، بعد نزول ابنه الحسن عن الخلافة . وكان قيس رجلا صعب المراس ، مقداما على الخطر ، لا يؤمَن قتاله ، والدولة الأموية فى أوائلها بين الشك واليقين . فأعرض معاوية عن مشــورته ، وبذل الأمان لقيس ومن معه ، وأرضاهم بالمصانعة والعطاء

ولم يكن معاوية يسلك معه غير هــذا المسلك ، أو يضمر له غير هــذا الضمير . فكان يحتفي به ، ويجلسه معه على سريره ، ويظهر له الركون الى رأيه والمشاركة فى أمره ، ثم يقبل منه ما يقبل ، ويمضى على نيته التى انتواها . وقد هم أن يخلف له موعده من ولاية مصر ، لولا انه توقع الشر منه ، وعلم انها ولاية عام أو أعوام قلائل ، ثم تصير اليه يعطيها من يشاء . وقد مات عمرو بعد أعوام ، فضم معاوية خزائن أمواله الى بيت المــال ، وخالف رجاءه فى تولية ابنه عبد الله مكانه ، وأسند الولاية الى أخيه لأبيه ، عتبة بن أبى سفيان

وربما ثقل عليهما وِقْر الرياء ، فتصارحا بما فى الطوايا صراحة هى أشبه بالصراع الذى يجمع فيه الندان بين اللعب والخصومة . ســأله معاوية وهو فى حالة من حالات النقمة والطمع : ما أعجب الأشياء ؟ فقــال : أعجب الأشياء غلبة المبطــل ذا الحق على حقه ، فما أبطــأ معاوية أن ردها عليه قائلا : بل أعجب من هــذا ان تعطى من لا حق له بحق ، من غير غلبة !

وربما داعب معاوية فى أمر آخرته ودنياه مداعبة الرجل الذى يعلم ان المداعبة هنا مقبولة ، لأنهما فى الحظ سواء . قال له يوما : لقد رأيت البارحة فى المنام كأن القيامة قد قامت ، ووضعت الموازين ،

وأحضر الناس للحساب ، فنظرت اليك وانت واقف قد ألجمك العرق ، وبين يديك صحف كأمثال الجبال . فعاجله معاوية ساخرا : وهل رأيت فى الميزان شيئا من دنانير مصر ؟

ودخل على معاوية فى مجلسه ، فضحك معاوية حين رآه . قال عمرو : « ما يضحكك يا أمير المؤمنين ، أضحك الله سنك ؟ » قال : « أضحك من حضور ذهنك عند ابدائك سوءتك يوم ابن أبى طالب . أما والله لقد وافقته منّانا كريما ، ولو شاء أن يقتلك لقتلك » . فلم يبرح عمرو أن أشركه معه فى عاره ، وجعل يقول له ويمعن فى وصف فزعه : « أما والله انى لعن يمينك حين دعاك الى البراز ، فاحتولت عيناك ، وربا سَحْرك — أى صدرك — وبدا منك ما أكره ذكره لك ، فمن نفسك فاضحك أو دع »

فالرجلان كانا فيما بينهما على صراحة وتفاهم واحتراس

وكانا يعلمان ما يريدان ، ويعلمان انهما لا يتعاونان لأنهما على ثقة من اخلاص كل منهما لصاحبه وايثاره لنفعه ، ولكنهما يتعاونان لأن التعاون أنفع لهما من التخاذل والشقاق ، ولن يتعاونا اذا تبدلت الحال وأصبح لهما أو لواحد منهما نفع فى تخاذل أو شقاق !

وكانا يفهمان ان هزيمة علي هى سبيلهما معا الى مايريدان فعملا متفقَين ، ولعلهما عملا مخلصَين لتحقيق هذه الهزيمة . وكانت معونة عمرو لمعاوية فى نضاله مع علىّ كبيرة الخطر ، محسوسة الأثر ، فى مآزق كثيرة ، ومعضلات متوالية ، أهمها حرب صفين ، ومؤتمر التحكيم ، وانتزاع مصر من والى على وأتباعه فيها ، وهم غير قليلين

وكانت جهوده العظمى فى حرب صفين جهود الداعية المحرض ، لا جهود المقاتل المستبسل ، فكان يثير الحفائظ ، ويستدرج الأنصار بالأطماع ، ويمحو الوساوس والشكوك التى تثنى عزائم القوم عن القتال ، ويشيع الفتاوى التى يقبلها من هو مستعد لقبولها ، ومنها — حين قتل عمار بن ياسر — ان أصحاب معاوية تلجلجوا فيما بينهم ،

وساورهم الريب فى حقهم ، لأن النبى عليه السلام كان يقول عن عمار : « تقتله الفئة الباغية » . فكان عمرو بن العاص ، فى أشيع الأقوال ، هو الذى حسم هـذه الشكوك قبل استفحالها ، فقال : انما قتله من أخرجه . فقبلها الأنصار المستعدون لقبول أشباه هذه التأويلات

وكان على بغضه لعثمان أسبق النـاس الى التفجع لمقتله والتحريض باسمه ، فاذا هدأت ثورة النفوس قال لمعاوية : « حرِّك لها حُوارَها (١) تحن » .. أى علق لهم قميص عثمان المخضوب بدمائه ، لأنهم اذا رأوه هاجت أحقادهم ، كما تدر الناقة اذا حركوا لها جلد حوارها !

وجاء كذلك فى أشيع الأقوال انه هو الذى أشار على معاوية برفع المصاحف على الرماح ، ودعوة أنصار على الى تحكيم كتاب الله . فلما عمل بهذه المشورة وقعت الفتنـة فى جيش على ، بين قائل بالمضى فى القتال ، وقائل باجابة القوم الى التحكيم ، وأوشك الفريقان أن يدعا جيش معاوية ويشتبكا بينهما فى حرب ، أو يبطش جماعة منهم بالامام على نفسه ، اذا هو لم يأمر شيعته المقربين بالكف عن الحرب والقـاء السلاح

واذا صح ما يعزى الى هـذه المشورة من الأثر الجسيم فى تمكين معاوية وخذلان على ، فهى كلمة أنفع من جيش ، ومكيدة أمضى من قوة ، وهى خليقة ان تغنيه فى حرب صـفين عن جهـود الشـجاعة والاستبسال . اذ الواقع انه لم يغن فى تلك الحرب بجهد من جهـود الشجاعة والاستبسال ، ولم يذكر أحد من حزبه انه برز فى ميدان قتال ، مع ان الحرب فى تلك المعركة خاصة كانت حرب براز ونزال . أما خصومه فقد ذكروا له تلك الفعلة التى سارت بها الأمثال بعد ذلك ، وأصبح من الأقوال الشائعة عن كل من يرد المكروه بالمهانة انه رده « كما ردها يوما بسوأته عمرو ! »

ويظهر ان خصومه ومنافسيه كانوا يلحظون منه التقاعد عن مخاطر

(١) الحوار ، بضم الحاء وقد تكسر ، ولد الناقة ساعة تضعه ، او الى ان يفصل عن امه

البراز ، فقال الحارث بن نصر الجُشَمى من أبيات :

ليس عمرو بتارك ذكرة الحرب مدى الدهر أو يلاقى عليا
واضعَ السيف فوق مَنكِبه الأيمن لا يَحْسبَ الفوارسَ شيَّا
ليت عمراً يلقاه فى حَمَسِ النَّقع وقد صارت السيوف عِصِيًا

فزعموا ان عمراً تغيظ من قوله ، وأقسم : « لو علمت انى أموت ألف موتة لبارزت عليا فى أول ما ألقاه » !

وكان على رضى الله عنه كثيرا ما يتقدم بين الصفوف داعيا الى المبارزة . فبدا له يوما أن يدعو معاوية لمبارزته ، فأيهما غلب فالأمر له ، وتحقن دماء الناس ، فنادى : يا معاوية ، يا معاوية ، فقال هذا لأصحابه : اسألوه ما شأنه ؟ قال : أحب أن يبرز لى فأكلمه كلمة واحدة . فبرز معاوية ومعه عمرو ، فلما قارباه لم يلتفت الى عمرو وقال لمعاوية ، ويحك ! علام يقتتل الناس بينى وبينك ؟ ابرز الى ، فأينا قتل صاحبه فالأمر له . فالتفت معاوية الى عمرو فقال : ما ترى يا أبا عبد الله ؟ أبارزه ؟ فقال عمرو : لقد أنصفك الرجل ، واعلم انك ان نكلت عنه لم تزل سُبَّة عليك وعلى عَقِبك ما بقى عربى . فقال معاوية : يا عمرو ! ليس مثلى يخدع عن نفسه ، والله ما بارز ابن أبى طالب رجلا قط الا سقى الأرض من دمه . ثم تلاحيا ، وعزم معاوية على عمرو ليخرجن الى على ، ان كان جادا فى نصحه ، ولم يكن مغررا به طمعا فى مآل أمره . فلما خرج للمبارزة مكرَهاً وشد عليه علىٌ شدته المرهوبة ، رمى عمرو بنفسه عن فرسه ، ورفع ثوبه ، وشعر برجله فبدت عورته ! فصرف علىٌ وجهه عنه ، وقام معفرًا بالتراب هاربا على رجليه ، معتصما بصفوفه

وليس فى هذه القصة من موجب للشك فيها الا ان عمرواً كان أشجع من ذلك فى معارك كثيرة قبل هذه المعركة ، ولكنه شك ضعيف غير قاطع فى انكار القصة بحذافيرها ، لأن عمراً لم يبارز قط رجلا فى قوة على وبأسه ، ولم يكن قد دلف الى الثمانين وهو يحارب فى المعارك

الأخرى ، وأهم من ذلك انه كان يحارب فى تلك المعارك ، وله أمل فى الشهادة ونعيم الجنة ، وايمان بحقه وباطل خصمه ، ولكنه لا يحارب عليا وله أمل فى الشهادة قاتلا أو مقتولا ، أو ثقة بالحق تعوضه من خسارة الدنيا ، وليس بالعجيب من طبيعة عمرو أن يلوذ بالحيطة ، غير حافل بمقال الناس اذا خاف على حياته ، وأيقن من ضياع دينه ودنياه

ومهما يكن من مبلغ الصدق فى هذه الرواية ، فالمتفق عليه بين ولاته وعداته انه اشتهر فى صفين بجهاد الحيلة والدعوة ، ولم يشتهر فيهما بجهاد البسالة والبلاء

***

أما جهوده فى مسألة التحكيم (١) بين على ومعاوية ، فقد أفادت معاوية بالمطاولة والمراوغة أضعاف فائدتها اياه بالنتيجة التى انتهى اليها قرار عمرو وقرار أبى موسى الأشعرى ، لأن تطاول الأيام أعان على تفريق جيش على وتبديد شمله ، وشيوع اللغط بين طوائفه وأصحاب المذاهب المغالية من المتمردين عليه ، ولاسيما الخوارج والقائلين بتحريم القتال ، وكل ما أعان على تفريق جيش على فهو معين على تعزيز جيش معاوية ، وتقريب طلاب المغانم وتباع الفرص من دولته وسلطانه

وقد اختار معاوية عمرا للتحكيم وهو لا يأمنه كل الأمان ، وربما كان اطمئنانه الى أبى موسى الأشعرى صاحب على أكبر من اطمئنانه الى صاحبه ووكيله ، لأن أبا موسى كان يجهر باجتناب القتال واعتزال الفريقين ، وكان اختياره على الكره من على ، وعلى هوى الأشعث بن قيس ، الذى كان متهما بالتخذيل عن على ، وترويج كل رأى يرضاه معاوية ، ولاسيما بعد زيارة قيس لمعاوية فى ابان معركة صفين

والذى حدث فى أوائل المفاوضات خليق أن يسوغ قلق معاوية واسترابته فى نيات صاحبه ووكيله ، فانه قال لأبى موسى : ما يمنعك

(١) يشك بعض المؤرخين المحدثين فى مسألة التحكيم ، ويذكرون لذلك أسبابا ليس فيها سبب واحد يعادل الروايات التى تؤيدها

من ابنى عبد الله مع فضله وصلاحه وقديم هجرته وصحبته ؟ فقال أبو موسى : ان ابنك رجل صدق ، ولكنك غمسته فى هذه الحروب غمسا

وطالت المفاوضة ، فأوجس معاوية وعظم خوفه ، وجاءه داهية العرب المغيرة بن شعبة فألفاه قلقا يتسمع ويستطلع . فقال له : قد أتيتك بخبر الرجلين . قال معاوية : وما خبرهما ؟ قال المغيرة : انى خلوت بأبى موسى لأجلو ما عنده ، فسألته : ما تقول فيمن اعتزل عن هذا وجلس فى بيته كراهية للدماء ! فقال : أولئك خيار الناس ، خفت ظهورهم من دماء اخوانهم ، وبطونهم من أموالهم . فخرجت من عنده وأتيت عمرو بن العاص ، فقلت : يا أبا عبد الله ! ما تقول فيمن اعتزل هذه الحروب ؟ فقال : أولئك شرار الناس ، لم يعرفوا حقا ولم ينكروا باطلا

ثم عقب المغيرة قائلا : أنا أحسب أبا موسى خالعا صاحبه وجاعلها لرجل لم يشهد ، وأحسب هواه فى عبد الله بن عمر بن الخطاب ، وأما عمرو بن العاص فهو صاحبك الذى عرفته ، وأحسبه سيطلبها لنفسه أو لابنه عبد الله ، ولا أراه يظن أنك أحق بهذا الأمر منه

والذى نراه نحن كذلك أن عمراً لم يكن ليظن ان معاوية أحق بالخلافة منه ، ولكنه كان أكيس من أن يطلب الخلافة له أو لابنه باتفاق رأيه ورأى أبى موسى الأشعرى ، دون ما يستلزمه طلب الخلافة من الجند والدولة والعصبية . فماذا عساه أن يغنم بالاتفاق مع الأشعرى على المبايعة لابنه عبد الله ؟ انه يخسر عضد معاوية ، ولا يكسب أحدا من أنصار على ، ولا يصل هو ولا ابنه عبد الله الى مأرب . وانما نعتقد انه ذكر اسم عبد الله ليغرر بأبى موسى ، ويلقى فى روعه انه غير جاد فى خدمة معاوية ، وانه يعمل لنفسه ولأعقابه من بعده . وقد أصابت هذه الحيلة محزّها ، فصدّق أبو موسى ان عمراً يخلع معاوية ، وأنه اذا قام على المنبر ليخلع عليا ، قام عمرو من

بعده فخلع معاوية ، وترك الأمر شورى ليظفر به ابنه فيما يرتجيه . فلما اتفقا على خلع الاثنين ، وأن يبدأ أبو موسى بخلع صاحبه ، قبل هذا الاتفاق ولم يتردد فى انفاذه ، وهو يحسب ان خذلان عمرو لمعاوية غير بعيد ، ما دام يطمع فيها لنفسه من طريق الدعوة الى إبنه

وان جهد عمرو فى مسألة التحكيم لجهد يسير عليه ، ولكنه حقيق من معاوية بجزاء غير يسير

ولقد تطلع عمرو لهذا الجزاء الذى طال اشتياقه اليه ، وهو ولاية مصر جامعة موروثة فى عقبه ، فماطله معاوية زمنا ، واستكثر عليه هذه « الطعمة » التى اشتهاها ، وأسر فى نفسه اذا هو رضخ له بشىء منها ان يرجع فيما أعطاه بذريعة من الذرائع التى لا تعييه . فكتب فى وثيقة تصالحا عليها ان ولاية مصر لعمرو « على ألا ينقض شرط" طاعة » ، وهو يريد أن يتعلل له بالخروج عن طاعته فيبطل شرطه ، وفطن عمرو لما وراء هذا « القيد » المقحم فى الوثيقة فأنكره ، وكتب : « على ألا تنقض طاعة شرطا » .. يريد ان الطاعة لن تخول معاوية الرجعة فيما اتفقا عليه

وكان معاوية يتهم عمراً بالعجلة كلما ذكر له مصر وأغراه بالزحف اليها . فجمع خاصته يوما يسألهم : هل تدرون ما أدعوكم اليه ؟ قالوا : لايعلم الغيب الا الله . فقال عمرو : « نعم .. أهمك أمر مصر وخراجها الكثير ، وعدد أهلها ، فتدعونا لنشير عليك . فاعزم وانهض .. فى افتتاحها عزك وعز أصحابك وكبت عدوك » ، فقال له معاوية : يا ابن العاص ! انما أهمك الذى كان بيننا ، يعنى طعمة مصر ، والتفت الى صحبه يستشيرهم : ماترون ؟ فوافقوا عمراً ، وعاد هذا يقول : « ابعث جيشا كثيفا ، عليهم رجل حازم صارم تثق به فيأتى الى مصر ، فانه سيأتيه من كان من أهلها على رأينا ، فيظاهره على من كان بها من أعدائنا » ، فخالفه معاوية وقال له : « انك يا ابن العاص ، بورك لك فى العجلة »

الا أنه لم يلبث أن تلقى من أنصاره بمصر كتابا يستحثه الى غزوها ، ويسأله « أن يتعجل بخيله ورَجِله ، فان أعداءنا قد أصبحوا لنا هائبين »

فعندئذ قبل نصيحة عمرو ، وأشخصه على رأس جيش عدته ستة آلاف رجل ، وخرج يودعه ولا يزال يحذره العجلة ، ويوصيه بالرفق « فانه يُمن ، والعجلة منّ الشيطان »

ولولا الكتاب من أنصاره بمصر لقد كان معاوية يؤثر أن يفتحها له أولئك الأنصار ، وأن يولى عليها زعيما من زعمائهم ، وله الحجة الناهضة فى ذلك ، اذ كان القائد المتغلب على البلد أولى بولايته من الطارق الواغل الذى يقبل عليه لينازعه ثمرة جهاده

على أن مصر لم تكن الى ذلك الحين طعمة سائغة ، ولا طعمة عصيّة ، فقد كان فيها محمد بن أبى بكر لا يزال واليا عليها من قِبَل على بن أبى طالب ، وكان قد ولاّه حكمها بعد عزل قيس بن سعد ، أقدرِ رجاله وأخبرهم بشئون الولاية والسياسة ، فقال قيس وهو يسلمه مقاليد الأمر : « ليس عزله اياى بمانعى أن أنصح لك وله . وأنا من أمركم هذا على بصيرة ، وأنا أدلك على الذى كنت أكايد به معاوية وعمراً وجماعة العثمانية المقيمين بخربتا ، فكايدْهم به » ! .. الا أن محمد بن أبى بكر لم يستمع له ، واستغشّه ، وبطش بالعثمانية بطشة عنيفة ، فثاروا عليه ، وثار معهم من لم يكن على رأيهم ، وأبوْا أن يقيموا على حكمه ، فصالحهم آخر الأمر على أن يلحقوا بمعاوية فى الشام ، فلحق به الغلاة منهم ، وبقيت لهم بقية تنطوى على مضض وتترقب الفرصة ، وتزداد أملاً ، ويزداد الأنصار من حولها كلما تضاءل أمر على وتعاظم ملك معاوية

فلما أقبل عمرو على مصر أقبل عليها فاتحاً قبل أن ينالها واليا مكين الولاية ، وكان « عمرو الفاتح » يعمل لمعاوية كمن يعمل « لعمرو الوالى » اذا تم له الفتح كما اشتهاه

وأوشك الفتح الثانى أن يكون نسخة مكررة من الفتح الأول عمرو يستعجل غزو مصر ويتهم بالعجلة ، ثم يدخل مصر وفيها حكومة وشعب لا يتفقان ، ثم يسلك الطريق الذى سلكه أول مرة ، ثم يلتقى بجيش محمد بن أبى بكر ، كما التقى بجيش الرومان من قبل ، فى جيزة بلبيس ، على مسافة قريبة من الوقعة الأولى عند قرية تسمى المنشاة

أما محمد بن أبى بكر فقد دافع عن مصر دفاع المستميت ، وصمد لأنصار معاوية المقيمين والقادمين صمود الأبطال ، ولكنه أخفق فى دفاعه ، لأنه لم يلبث أن رأى جنوده يتفرقون عنه ، يأساً من الدولة المولية ، وأملاً فى الدولة المقبلة ، ثم تعقبه أعداؤه حتى ظفروا به فمثلوا به شر تمثيل !

ومن الانصاف لعمرو أن يُعلم أنه كان برىء اليد فى هذه المثلة الذميمة ، فقد كان عمرو يشير على معاوية بقتل الأسرى والنقمة من أصحاب علىّ ، حيث كان معاوية هو المسئول عن قتلهم والنقمة منهم . فلما تفرد بالتبعة فى أمثال هذه المشورات أقصاها عنه جهدَه ، ووقف منها موقف من لا يدفع ولا يمنع . فكتب الى محمد بن أبى بكر يقول له « تنحَّ عنى بدمك يا ابن أبى بكر ، فانى لا أحب أن يصيبك منى ظفر » ثم وقع محمد فى أسر معاوية بن حُديج ، وهو من أسفه العثمانية عصبيةً لحزبه ، فأرسل اليهِ عمرو أن يأتيه به كرامةً لأبيه ولأخيه عبد الرحمن بن أبى بكر . وقد كان من عجائب التفرق بين الأحزاب أن محمداً يشايع عليًّا ، وعبد الرحمن يحاربه فى جيش الشام !! فلم تنفع وساطة عمرو ، وأقسم معاوية بن حديج ليقتلنه شر قتلة . وجاء به ، فطلب ماء فقال ابن حديج : لا سقانى الله ان سقيتك قطرة ! انكم منعتم عثمان الماء ، ثم قتلتموه صائما ، فتلقاه الله بالرحيق المختوم . والله لأقتلنك يا ابن أبى بكر ، فليسقك الله من الجحيم !

ولم تفارق محمداً أنفته بين يدى آسريه ، فأغلظ الجواب لهم ، وتلفت قائلا : والله لو كان سيفي بيدي ما بلغتم بى هذا ، فقتلوه ، « وألقوه

فى جيفة حمار ميت ، ثم حرقوه بالنار » !!

ونفض عمرو يده من هذه المثلات وأشباهها ، وجهد فى تهدئة الزعازع بمصر ، وتمهيد الأمر فيها لنفسه ولأعقابه من بعده ، وسرعان ما تمهد له بعد مقتل علىّ ونجاته هو من القتل فى السابع عشر من رمضان (سنة أربعين للهجرة)

وذلك أن ثلاثة من الخوارج تآمروا على قتل على ومعاوية وعمرو فى ليلة واحدة . فأما صاحب علىّ فقد أصابه ، وأما معاوية وعمرو فقد نجوا من صاحبيهما ، وقتل خارجة بن حذافة صاحب الشرطة لأنه خرج للصلاة فى مكان عمرو ، اذ كان هذا يشتكى بطنه فى تلك الليلة . فقال عمرو : أردتنى وأراد الله خارجة ! وأمر بقتله

ولم يعرض له فى ولايته الثانية حادث ذو بال بعد هذا الحادث . فقد هدأت مصر ، واجتمع الناس على مبايعة معاوية فى سنة احدى وأربعين للهجرة ، فسميت « عام الجماعة » .. وحكمت الشيخوخة حكمها ، فوهن جسمه ، وتتابع سقمه ، ودانت له الدنيا ، وهو يقول اذا سئل عن حاله : « إنه حال من يذوب ولا يثوب » !

وانه على هذا لمجدود مسعود

فمن آية الجد أن ينتفع الانسان بما يضير الناس ، وقد انتفع عمرو بوهنه مرتين : مرة حين نجا من الموت لاشتكاء بطنه ، ومرة حين سلمت له الولاية ببركة هذا الوهن الذى لا محيص عنه ، فلولاه لما طابت نفس معاوية له بولاية يملك فيها الأموال والرجال ، ولعله يعيش بعده فيغلب أعقابه على الخلافة ، وأهون شىء أن ينتزع ابن العاص ، فى شبابه أو كهولته ، خلافةً من يزيد

على أن هذا الفؤاد المتوهج بنوازع الحياة ، لم يسأم العيش يوما ، وقد جاوز الثمانين ، أو قارب المائة فى قول آخرين ، فبكى وهو يجود بنفسه أسفاً على الحياة ، وقال لأبنائه : « اذا واريتمونى فاقعدوا عند

قبرى قَدْرَ نحر جزور وتفصيلها(١) ، أستأنس بكم حتى أعلم ما أراجع به رسل ربي »

ورحمه الله ... انه لم يدع الأحوط من الأمرين حيث يدع الحي نفسه ، فكان يقول وهو على سرير الموت : « لو كان ينفعني أن أطلب لطلبت ، ولو كان ينجيني أن أهرب لهربت » . وربما نظر الى أمواله فقال : « من يأخذها بأوزارها ؟ » وقبل ذلك بعام أو عامين كأن يسأله معاوية عما بقي له من لذّات العيش فيقول : « مال أغرسه ، وخبر من ضيعتي ! »

***

وكانت وفاته ليلة عيد الفطر سنة ثلاث وأربعين للهجرة ، فدفن بجوار المقطم عند ضريح الامام الشافعى القائم الآن . وضم معاوية خزائنه الى بيت المال ، وولايةَ مصر الى أخيه عتبة بن أبى سفيان

وكذلك انقضت حياة حافلة ، حياة عاملة ، وحياة طائلة ، وصح فيه ، على تباين الآراء والأقوال ، انه رجل من عظماء الرجال . فمهما يختلف المختلفون فى نيّاته وحسناته أو سيئاته ، فالذى لا خلاف فيه أنه كسب للاسلام قطرين كبيرين : هما فلسطين ومصر ، وأن له سهماً وافراً فى كل ما نحسبه للدولة الأموية من العظائم والمآثر فى تاريخ الأمة العربية والأمم الاسلامية

---

(١) فصل القصاب الجزور تفصيلا : اذا عضاها وقطعها

مِنْ كَلامِه

من تمام القول فى عمرو بن العاص ، بل من تمام العلم به ، أن نلمّ بطرف من كلامه الذى يدل عليه

وقد تنسب اليه كلام كثير نسب الى غيره ، وكان شأنه فى هذا كشأن الجِلَّة من النابهين فى صدر الاسلام فيما ينقل عنهم ، فربما نسبت الكلمة الواحدة الى ثلاثة أو أربعة من أبناء عصر واحد أو عصور متفرقة . بيد أننا نعتمد فى نسبة الكلام اليه مشابهته لمـا أثر عن خلقه ونسق تفكيره ، ثم شيوع الرواية ومكان رواتها من الثقة والدراية

فمما يشبهه فى التعاظم بالنسب ، أو فى الخصلة التى نسميها اليوم بالنزعة الأرستقراطية أنه قال لمعاوية : « يا أمير المؤمنين ! لا تكن بشىء فى أمور رعيَّتك أشد تعمدا منك لخصاصةِ الكريم حتى تعمل فى سدّها ولطغيان اللئيم حتى تعمل فى قمعه ، واستوحِش من الكريم الجائع ، ومن اللئيم الشبعان ، فان الكريم يصول اذا جاع ، واللئيم يصول اذا شبع »

وكان يؤمن بهذا الرأى كثيراً ، ولا يزال يعيده ، فقال فى مناسبة أخرى : « موت ألف من العليـة ، أقل ضرراً من ارتفـاع واحد من السِّفلة »

ويتصل بهذا المعنى ، وقد يكون فيه اعتذار من حربه لعلى بن أبى طالب ، قوله لابنه عن الامامه والحكومة : « يا بنى ! امام عادل خير من مطر وابل ، وأسد خطوم خير من امام ظلوم ، وامام ظلوم غشوم خير من فتنة تدوم . يا بنى ! مزاحمة الأحمق خير من مصافحته . يا بنى !

زلة الرجل عظم يجبر ، وزلة اللسان لا تبقى ولا تذر . يابنى ! استراح من لا عقل له » !

ومن وصفه للرجال : « الرجال ثلاثة : فرجل تام ، ونصف رجل ، ولا شيء . فأما الرجل التام فالذى يكمل دينه وعقله ، فاذا أراد أمراً لم يمضه حتى يستشير أهل الرأى ، فاذا وافقوه حمد الله وأمضى رأيه ، فلا يزال مضيه موثقاً . ونصف الرجل الذى يكمل الله له دينه وعقله ، فاذا أراد أمراً لم يستشر فيه أحداً ، وقال : أى الناس كنت أطيعه أو أترك رأيى لرأيه ؟ فيصيب ويخطىء . والذى لا شيء ، من لا دين ولا عقل له ، ولا يستشير فى الأمر ، فلا يزال مخطئا مدبراً ! ... ووالله انى لأستشير فى الأمر حتى خدمى .. ! »

ووصف عبد الملك بن مروان ، فقال : « آخذ بثلاث ، تارك لثلاث : آخذ بقلوب الرجال اذا حَدَّث ، وبحسن الاستماع اذا حُدِّث ، وبأيسر الأمرين عليه اذا خولف . تارك للمِراء ، تارك لمقاربة اللئيم ، تارك لما يعتذر منه »

ويتعاطى وصف الأمم على رأيه ، كما قال فى أقوام زمانه : « أهل الشام أطوع الناس لمخلوق وأعصاهم للخالق ، وأهل مصر أكيسهم صغاراً وأحمقهم كبارا ، وأهل الحجاز أسرع الناس الى الفتنة ، وأعجزهم عنها ، وأهل العراق أطلبهم للعلم وأبعدهم منه » !

على أنه كان وصّافة لا يجارى فى وصف المناظر الكبيرة بالكلمات القليلة . ومن أبرع صفاته للطبيعة والناس معاً قوله فى البحر : « انه خلق عظيم ، يركبه خلق صغير : دود على عود » !

وكان بليغ البادرة ، سريع الجواب ، سديداً فى توفيق لفظه ومعناه . ولا عجب أن يكون كذلك ، وهو مع ذكائه المتوقد عرضة للمسبة ، مضطر الى افحام من يتعمدونه بالغضّ والازراء !

قال له المنذر بن الجارود العبدى : أى رجل أنت لو لم تكن أمك من هى ! فسرعان ما ردّها عليه قائلاً : « لقد فكرت فيها البارحة ،

فجعلت أنقلها فى قبائل العرب ، فما خطرت لى عبد قيس ببال » !

وقال له رجـل : والله لأتفرغن لك . فقال : « هنـا لك وقعت فى الشغل » ! قال الرجل : كأنك تهددنى ؟ والله لئن قلت لى كلمة لأقولن لك عشرا ، قال : « وأنت والله لئن قلت لى عشراً لم أقل لك واحدة » !

وقال له سـلام بن روح الخزاعى : كان بينكم وبين الفتنـة باب فكسرتموه ، فما حملكم على ذلك ؟ قال « أردنا أن نخرج الحق من حظيرة الباطل ، وأن يكون الناس فى الحق سواء »

ومن أشبه الأجوبة به وقد سئل : ما السرور ؟ فقال : « الغمرات ثم تنجلى .. » فهى كلمة رجل يقدم على المغامرة ، ويحسن جلاء الغمرات .

وشبيه به كذلك قوله : « ما وضعت عند أحد من الناس سرًّا فأفشاه فلمته » .. فسـئل : ولم ؟ قال : « أنا كنت به أضيق صـدراً حين استودعته اياه »

وشبيه به على هذا النحو قوله : ! لا أملّ دابتى ما حملتنى ، ولا زوجتى ما أحسنت عشرتى ، ولا جليسى ما لم يصرف وجهه عنى » لأن الذى يصطنع الناس ، ويشترى الصداقات ، ويتجمل للرئاسة ، لابد له من هذه الخصال

***

وقد اشـتهرت القَبرِيات فى آداب الأمم ، وشاعت الكلمـات التى حفظت عن العظماء فى ساعاتهم الأخيرة ، فلو جمعت كلمات المحتضرين ومن يواجهون الموت ، لما كان فى عظماء المسلمين أحفل من عمرو بن العاص نصيباً من هذا الأدب ، الذى يدل على حظ قائليه من الحياة ، وميزانهم فى الحسنات والسيئات ، ومعظم المنقول عنه فى هذا الصدد يوائمه أن يقوله ، ويشبه ما يستقبل به آخرته ويودع دنياه !

فكان فى أخريات أيامه يدعو الله قائلا : « اللهم آتيت عمراً مالاً ، فان كانَ أحبَّ اليك أن تسلب عمراً ماله ولا تعذبه بالنار ، فاسلبه ماله ! وانك آتيت عمراً أولاداً ، فان كان أحب أن تثكِلَ عمراً ولدَه

ولا تعذبه بالنار ، فأثكله ولده ، وانك آتيت عمر ابن سلطانا ، فان كان أحب اليك أن تنزع منه سلطانه ولا تعذبه بالنار ، فانزع منه سلطانه »

ويرحمه الله ! لقد دخل الاسلام وهو يشترط أن يضمن له اسلامه سقوط العقاب على آثام ماضيه ، وهمّ بمفارقة الدنيا فلم يبال أن يخسر ماله أو ولده أو سلطانه اذا ضمن شيئاً واحداً فى الآخرة : ألا يُعذَّب بالنار !

وكان يقول لبنيه ، كأنه حسب نصيبيه من جانبيه ، ورفع ميزانه بيديه : « انى لست فى الشرك الذى لو مت عليه أدخلت النار ، ولا فى الاسلام الذى لو مت عليه أدخلت الجنة ، فمهما قصرت فيه فانى متمسك بلا اله الا الله »

وكان يقول : « اللهم لا قوى فأنتصر ، ولا برىء فأعتذر ، ولا مستكبر بل مستغفر ، لا اله الا أنت . لا اله الا أنت » . ولم يزل يرددها حتى مات

وردد فى سرير موته استغفاره الذى يقول فيه : « اللهم أمرت بأمور ، ونهيت عن أمور ، فتركنا كثيراً مما أمرت ، ووقعنا فى كثير مما نهيت ... اللهم لا اله الا أنت ، اللهم لا اله الا أنت »

ودخل عليه ابن عباس فى مرض موته ، فسأله : كيف أصبحت ؟ قال : « أصبحت وقد أصلحت من دنياى قليلا ، وأفسدت كثيرا ، فلو كان ما أصلحت هو ما أفسدت لفزت ، ولو كان ينفعنى أن أطلب طلبت ، ولو كان ينجينى أن أهرب لهربت ، فعظنى بموعظة أنتفع بها يا ابن أخى ! » قال ابن عباس : هيهات يا أبا عبد الله .. فأجابه بكلمة يجرى بها لسان من يحضرون السلطان ويردون الوقيعة عنده ، كأنه أراد أن يستجلب رحمة الله بكلمة ابن عباس ، فقال : « اللهم ان ابن عباس يقنطنى من رحمتك . فخذ منى حتى ترضى ! »

وليس بين العظماء فى صدر الاسلام من استقبل الموت بكلام أجزل من هذا الكلام ، وأدل منه على شعور صاحبه فى مفترق الدنيا

والآخرة . وجملة ما يدل عليه انه كلام رجل ملأته الحياة ودوافعها القوية ، فلم يخطر الموت بباله حتى خطر له مرة واحدة ، وهو بين يديه لا منصرف عنه

***

تلك أمثلة عابرة من كلماته المأثورة غير ما تقدمت الاشارة اليه فى سياق الكتاب

وقد رويت له آثار فى الشعر ، والخطب الطوال تسلكه بين الشعراء والخطباء ، فنسب اليه من الشعر هذان البيتان :

معاوىَ لا أعطيك دينى ولم أنل
به منك دنيا فانظرن كيف تصنع
فان تعطنى مصرا فأربح بصفقة
أخذتَ بها شيخا يضر وينفع

ونسبت اليه أبيات قالها لعمارة الذى راود امرأته ، بعد أن أوقع به فى الحبشة :

اذا المرء لم يترك طعاما يحبه
ولم ينه قلبا غاويا حيث يمّما
قضى وطرا منه وغادر سُبة
اذا ذُكرت أمثالها تملأ الفما
من الآن فانزع عن مطاعم جمة
وعالج أمور الموت لا تتندما

ومن الشعر المنسوب اليه وصف فرسه فى قوله :

شبّت الحربُ فأعددت لها
مُفرعَ الحاركِ محبوكَ الثبج (١)
يصل الشد بشدٍ فإذا
ونت الخيل من الشد مَعَجْ (٢)

(١) مفرع الحارك : اى طويل الكاهل من اعلاه ، ومحبوك الثبج : اى متين الظهر
(٢) الشد : العدو والحملة ؛ ومعج الفرس : اسرع سيره

وكل ما نسب اليه من شعر فهو من هــذه الطبقة التى لا تسف ، ولا تعلو الى الذروة بين بدائع الشعراء

أما الخطب المطولة ففى النمــوذج التالى غنى فى الابانة عن قدرته عليها ، وهو شطر من خطبة ألقاها يوم الجمعة قال فيها :

« يا معشر الناس ، اياى وخِلالا أربعا ، فانها تدعو الى النَّصَب بعد الراحة ، والى الضــيق بعد السعة ، والى الذل بعد العز : اياى وكثرة العيال ، وانخفاض الحال ، وتضييع المال ، والقيل بعد القال ، فى غير درك ولا نوال .. انه لابد من فراغ يؤول المرء اليه فى توديع جسمه ، والتدبير لشأنه ، وتخليته بين نفسه وشهواتها ، فمن صار الى ذلك فليأخذ بالقصد والنصيب الأقل . ولا يضيع المرء فى فراغه نصيب نفسه من العلم ، فيكون من الخير عاطلا ، وعن حــلال الله وحرامه عادلا . يا معشر النــاس : قد تدلت الجوزاء ، وارتفعت الشعرى ، وأقلعت السماء ، وارتفع الوباء ، وقل الندى ، وطاب المرعى ، ووضعت الحوامل ، ودرجت السخائل ، وعلى الراعى حسن النظر .. فحىَّ بكم على بركة الله الى ريفكم ، فتنالوا من خيره ولبنه ، وخرافه وصيده ، وأربعوا خيلكم ، وأسمنوها ، وصونوها ، وأكرموها ، فانها جنتكم من عدوكم ، وبها تنالون مغانمكم وأنفالكم ، واستوصوا بمن جاورتم من القبط خيرا . واياكم والمشمومات المعسولات ، فانهن يفسدن الدين ويقصرن الهمم . حدثنى أمير المؤمنين عمر انه سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « ان الله سيفتح عليكم مصرا ، فاستوصوا بقبطهــا خيرا ، فان لهم فيكم صــهرا وذمة » . فكفوا أيديكم وفروجكم ، وغضوا أبصاركم . فلا أعلمن ما أتانى رجل قد أسمن جسمه وأهزل فرسه . واعلموا اننى معترض الخيل كاعتراض الرجال ، فمن أهزل فرســه من غير علة حططته من فريضته قدر ذلك . واعلموا انكم فى رباط الى يوم القيــامة ، لكثرة الأعداء حولكم ، ولاشراف قلوبهم اليكم والى داركم ، معدن الزرع والمــال ، والخير الواسع والبركة

النامية . حدثنى عمر أمير المؤمنين انه سمع رسول الله يقول : « اذا فتح الله عليكم مصر فاتخذوا فيها جندا كثيفا ، فذلك الجند خير أجناد الأرض . فقال له أبو بكر : ولم ذاك يا رسول الله ؟ قال : لأنهم وأزواجهم فى رباط الى يوم القيامة » . فاحمدوا ربكم معشر الناس على ما أولاكم ، وأقيموا فى ريفكم ما بدا لكم . فاذا يبس العود ، وسخن العمود ، وكثر الذباب ، وحمض اللبن ، وصوح البقل ، وانقطع الورد من الشجر ، فحى على فسطاطكم على بركة الله . ولا يقدمن أحد منكم ذو عيال على عياله الا ومعه تحفة لعياله ، على ما أطاق من سعته أو عسرته . أقول قولى هذا وأستحفظ الله عليكم »

وهذا نموذج نادر من الخطب المنبرية التى كان الخطيب فيها يتولى « وظيفة » الوالى والواعظ والوالد والزعيم ، وكان فيها مسحة من البرامج السياسية ، والخطط الادارية ، ونفحة من الشعر ، وقبس من الدين والحكمة

***

ومن لواحق هذا الباب أن يأتى ببعض الأحاديث التى رواها عمرو عن النبى عليه السلام ، لأن عقل الرجل ودينه قد يظهران مما يجرى على لسانه من كلام غيره ، كما يظهران من كلامه

قال رجل من بنى بكر بن وائل : لئن لم تنته قريش ليضيعن هذا الأمر فى جمهور من جماهير العرب سواهم . فقال عمرو بن العاص : كذبت ! سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « قريش ولاة الناس فى الخير والشر الى يوم القيامة »

واختصم رجلان الى النبى عليه السلام ، فقال لعمرو : اقض بينهما . فقال : انت أولى بذاك منى يا رسول الله ! قال وان كان . قال : فاذا قضيت بينهما فمالى ؟ قال : ان أنت قضيت بينهما فأصبت القضاء فلك عشر حسنات ، وان أنت اجتهدت فأخطأت فلك حسنة »

وقال عمرو : « احتلمت فى ليلة باردة شديدة البرد — وكان فى

غزوة ذات السلاسل ـ فأشفقت ان اغتسلت أن أهلك . فتيممت ثم صليت بأصحابى صلاة الصبح ، فلما قدمنا على رسول الله ذكرت ذلك فقال : « يا عمرو ! صليت بأصحابك وأنت جنب ؟ » قلت : نعم يا رسول الله ! انى احتلمت فى ليلة باردة شديدة البرد ، فأشفقت ان اغتسلت أن أهلك ، وذكرت قول الله عز وجل : « ولا تقتلوا أنفسكم ان الله كان بكم رحيما » . فتيممت ثم صليت . فضحك رسول الله صلى الله عليه وسلم ولم يقل شيئا »

***

واستأذن على فاطمة رضى الله عنها ، فأذنت له . فسأل : ثَمَّ على ، قالوا : لا ، فرجع . ثم استأذن عليها مرة أخرى ، فسأل كذلك . ثم على ؟ قالوا : نعم ، فدخل . فقال له على : ما منعك أن تدخل حين لم تجدنى ههنا ؟ قال : ان رسول الله نهانا أن ندخل على المغيَّبات

***

وان الرجل فى حديثه مع النبى ، وحديثه عن النبى ، لهو عمرو بن العاص ، فى كل ما ثبت له من رواية أو عمل أو مقال

خاتمة مفسرة

ظهرت فى السنوات الأخيرة كتب عدة عن تاريخ مصر ، كتب بعضها باللغة العربية ، وكتب أكثرها باللغات الأوربية . ووجهتها جميعا تشويه الماضى ، وتصوير الحاضر على الصورة التى توافق أهواء المؤلفين ، وتخدم مساعيهم التى لا تخفى . ولا تفهم أهواء أولئك المؤلفين الا على وجه واحد . وهو انهم يتمنون لو لم تخرج مصر من حكم الدولة الرومانية ، ومن رعاية كنيستها التى كانت قائمة يومئذ فى القسطنطينية وفى رومة . وكل ما يأتى بعد ذلك من تصويرات أولئك المؤرخين ، فهو مفهوم على هذا الاعتبار

وقد أعددنا هذه الطبعة من هذا الكتاب (١) فوجب علينا جلاء الحقيقة عن وجه التاريخ فى هذه المسألة التى يشوه فيها الماضى ، خدمة لبعض المساعى الأجنبية فى الوقت الحاضر . ولا نحب أن نتوسع فى الشروح والتفصيلات ، ولكننا نحسب ان الصفحات التى عبرها القارىء كافية لنقض تلك الأهواء واجتناب المزالق التى ينحدر اليها من يقرأون التاريخ ، ولا يلتفتون الى تسخيره فى خدمة أصحاب المآرب والسعايات

فمن حقائق التاريخ التى لا تحجبها الأهواء ، أن انتشار المسيحية فى مصر انما كان احتجاجا روحانيا على الدولة الرومانية ، ولهذا لم ينقطع الخلاف بين مصر والدولة الرومانية بعد دخول هذه فى الدين المسيحى ، فقد ظهر سخط المصريين بعد ذلك فى صورة أخرى ، فقاوموا المذهب الملكى الذى فرضته عليهم تلك الدولة ، وفرقوا بينه وبين مذهبهم بهذه التسمية التى جعلت المذهب الحكومى الرومانى فى جانب ،

(١) كان ذلك فى اغسطس سنة ١٩٥٤

وجعلت المذهب القومى المصرى فى الجانب الآخر ، ودار النزاع على هذا المحور الى نهاية عهد الدولة فى الديار المصرية

كذلك ينقض التاريخ كل ما يقال عن التفرقة بين عناصر الوطنية المصرية . فمن الحقائق الواضحة ان المسلمين والمسيحيين سواء فى تكوين السلالة القومية ، ولا فرق بين هؤلاء وهؤلاء فى الاصالة والقدم عند الانتساب الى هذه البلاد ، فاذا كان بين المسلمين المصريين أناس وفدوا من بلاد العرب أو الترك ، فبين المسيحيين المصريين كذلك أناس وفدوا من سورية واليونان والحبشة ، ودانوا بمذهب الكنيسة المصرية أو بغيره من المذاهب المسيحية . ويبقى العديد الأعظم بعد ذلك سلالة مصرية عريقة ، ترجع بآبائها وأجدادها الى أقدم العهود قبل الميلاد المسيحى ، وقبل بعثة موسى عليه السلام

وحديث المظالم التى يلج المؤرخون المغرضون فى التنقيب عنها قد تثبت كل الثبوت أو تثبت المبالغة فيها لغرض من الأغراض ، ولكنها اذا رويت على حقيقتها التاريخية مجردة من تلك الأغراض ، لم تنحصر فى مصر ولا فى بلد واحد من بلاد العالم . فمن أجل هذه المظالم وأشباهها ثارت الأمم فى الغرب والشرق ، ومنها أمم مسيحية تثور على حكام مسيحيين ، أو أمم اسلامية تثور على حكام مسلمين ، وقد يكون الثائرون والطغاة من أبناء نحلة واحدة تنتمى الى دين واحد ، كما حدث منذ القرون الوسطى الى القرن الأخير

وعصمة القارىء والمؤرخ فى تمحيص الحقائق أن يلتمس هوى « الدولة الرومانية » فى كتابة تاريخ هذا البلد بعد زوالها ، فكل من كتب التاريخ كأنه يضع نفسه فى موضع تلك الدولة ، ويتحسر على زوالها ، وزوال سلطانها ، وسلطان عواهلها وأحبارها ، فهو « أجنبى الهوى » يشوه الماضى ، ثم لا يعنيه تشويه الماضى فى الواقع ، بل يريد أن يتسلل من الماضى كما يصوره الى الحاضر كما يشتهيه ، ودون ذلك ، ويعتصم الحق بحمى الوطن وحمى التاريخ

عباس محمود
العقاد

معاوية بن أبي سفيان

دار الكتاب اللبناني - بيروت

تقدير وتسطير

التاريخ عرض الانسانية ..

والعرض مناط الحمد والذم فى الانسان ..

وكذلك التاريخ بالقياس الى الانسانية فى جملتها ، لا يكون شيئا ان لم يكن تقديرا لما هو صادق أو كاذب ، أو ما هو صواب أو خطأ ، وما هو حميد أو ذميم ، من الحوادث والناس

وقد نذكر الحوادث توسعا فى التعبير ، فان الحوادث لا تعنينا لذاتها ان لم يكن معناها تقويما لأعمال وقياما بأعمال ، أو لم يكن معناها فى صيغة أخرى تعريفا بأقدار الناس مما عملوه واستطاعوه ..

وكل شيء فى الحياة الانسانية هين اذا هان الخلل فى موازين الانسانية

وانهـا لأهون من ذلك اذا جاوز الأمر الخلل الى انعكاس الأحكام وانقلابها من النقيض الى النقيض

يهون كل شيء اذا هانت موازين الانسانية ، لأن موازين الانسانية جماع ما عندها من الفكر والخلق والعقيدة والذوق والخيال

ومن هوان الموازين الانسانية أن يختل كل هذا ، فلا يوثق بمحصول الانسانية كافة فى تاريخها القديم والحديث

وأهون من ذلك ألا تختل وكفى .. بل تختل وتنعكس ، فيوضع فيها الذم موضع الحمد ، والكذب موضع الصدق ، والخداع موضع الاخلاص والايمان ..

وقد هان عرض انسان واحد يشتريه المال أو الغرض فى حياته ، فماذا يقال فى عرض الانسانية الذى يشترى فى الحياة وبعد الممات ، ويزيف فيه الواقع للعيان ثم يلازمه الزيف بعد ذلك مدى الأجيـال على صفحات

التاريخ ! ..

ذلك أفدح مصاب تصاب به الانسانية : انه مصاب فى عرضها ، فى صميم أفكارها وأخلاقها وعقائدها وأذواقها وأحلامها . فى موازينها وحسب . وما من شيء يعتز به الانسان لا يدخل فى هذه الموازين

وأوجب واجب على الانسان لضميره أن يحمى نفسه من شر هذا المصاب الفادح ، وألا يتيح لأحد أن يختلس التاريخ فى حاضره ومستقبله . فليس البلاء هنا بلاء منفعة تفوت أو مضرة تحدث ، ولكنه بلاء الزيغ فى البصر والبصيرة ، وعلينا نحن أن نصحح البصر اذا زاغ لأنه نقص وعيب وان لم يحدث منه ضرر عاجل أو آجل . وكذلك نصحح زيغ البصيرة لأنه نقص وعيب ، أو لأنه تشويه فى سواء الخلقة ، وان لم يعجل منه الضرر ولم تذهب به المنفعة ..

ان تاريخ الانسانية من أوائلها الى حواضرها لا يملك للعاملين جزاء غير حسن التقدير وصدق القياس لما عملوه

وكثير على أحد أن يبتذل هذا الجزاء ، لأنه استطاع أن يحشو بعض البطون أو بعض الجيوب ، فيملك — بهذه الرشوة الرخيصة — خير ما تؤتيه الانسانية أحدا من أبنائها فى الحياة وبعد الممات

***

على أن الموازين الانسانية لا تزيفها الرشوة المقصودة دون غيرها ، ولا يختل بها غرض المنتفعين المتواطئين على تبديل الحقيقة ، ذهابا مع الأجر العاجل والعطاء المعروف

بل تصاب هذه الموازين من النهازين أو « الوصوليين » المطبوعين كما تصاب من النهازين المصنوعين أو المصطنعين

فمن الناس من يحب أن تتغلب المنفعة على الفضيلة أو على الحقيقة ، وان لم يكن هو صاحب المنفعة ولا حاضرا لها عند انتفاع المنتفعين بها

من الناس من يحب ذلك لأنه يرجع الى طبيعته فيشعر بحقارتها اذا غلبت مقاييس الفضائل المنزهة والحقائق الصريحة

ومنهم من يحب الناجحين بالمنافع لأنه يتمنى أن ينجح على مثـالهم ولا ينكر النجاح اذا جاءه بوسيلة كوسيلتهم

ومنهم من يبلغ بهذه الخصلة حد التعصب والغيرة العمياء ، لأنه يكره أن يدان الناس أو تقاس الأعمال بمقاييس المثل العليا فيلوم نفسه ولايقدر على التماس المعذرة لها فى نقيصتها ، أو فى طبيعتها التى لا فكاك منها

وليس أبغض الى الانسان من احتقاره لنفسه

وليس أحب اليه من اعتذاره لها عن حقارتها

***

وانك لو بحثت جهدك عن عصبية عمياء تغطى على بصر الانسـان وتملك عليه هواه ، لم تجد لها علة أقوى من هذه العلة التى ينقاد لها ولا يبتغى الشفاء منها

انه يتعصب فى كل شعور يدفع به النقص ويمهد به العذر وينفى عنه الاضطرار الى الاقرار بسبق السابقين له وارتفاع المرتفعين عليه

وانه ليعترف بالجهل اذا استطاع أن يدعى لنفسه تعلة يسمو بها على أهل المعرفة ..

وانه ليعترف بالعجز اذا استطاع أن ينزل بالقادرين الى « مستواه » بخديعة من خدائع النفوس

وانه ليعترف بالرذيلة اذا استطاع أن يلوث الفضيلة التى يمتاز بها عليه ذوو الفضائل البينة

وانه ليتشبث بهذه التعلات كما يتشبث الغريق بأوهام النجاة ، لأنه بغير هذه التعلات غريق فى شعور ثقيل على جميع النفوس ، وهو الشعور بالهوان ..

لهذا يتعصب النهازون المطبوعون على أصحاب المثل العليا ، لأنهم بين اثنتين : اما أن يدينوا أنفسهم بالمثل العليا ويعملوا فى السر والعلانيـة عمل أصحابها ، وذلك مطلب عسير يصطدمون بعقباته كل يوم وكل سـاعة ..

واما أن ينكروا تلك المثل العليا على أصحابها ، ويتعصبوا لمن ينجح بأساليبهم أو يتمنون النجاح بأساليبه ، وذلك مطلب لا يكلفهم تغيير الطباع وان لم يبلغوه بفعالهم كما بلغه ذوو القدرة أمامهم من الناجحين الفعالين ..

***

وقد عرفنا من هؤلاء أناسا فى التاريخ كما عرفناهم فى الحياة الحاضرة عرفناهم فعرفنا عجبا من العصبية العمياء التى تكيل بالكيلين وتزن بالميزانين فى الحادث الواحد والحقبة الواحدة

اذا وقفوا بين خصمين أحدهما من النفعيين والآخر من المثاليين رأيت العجب فى المقياس الذى يلتمسون به المعاذير لهذا وينكرونها على الآخر فى اللحظة الواحدة ..

اذا استسلم أحدهما مع الهوى لمحاباة ولده أو ذوى قرباه لم يعذلوه أو لم يعنفوه فى عذله ، بل اتخذوا من ذلك شريعة يؤتم بها وتجرى الوتيرة عليها ..

وماذا فى هذا الصنيع عندهم مما يستغرب ؟ أكان على الرجل أن ينسى ابنه ليفضل عليه الغرباء عنه ؟ أليس هذا الصنيع صنيع كل انسان فى هذا المكان ؟ ..

يعذرون هنا بل لا يلومون ، ولا ينفرون ممن يلومونه ان جاملوا « الظواهر » فلاموه

أما خصمه المثالى فمعدود عليه أن يحابى نفسه فضلا عن محاباة ولده ، ومعدود عليه أن يهبط من السماوات العلا لحظة واحدة ليشبه سائر الناس فى نقيصة من النقائص أو أمل من الآمال

ولا حاجة الى امعان فى البحث للكشف عن خبيئة الطبيعة النهازة فى هذه التفرقة بين الحكم على النفعيين والحكم على المثاليين

ان الطبيعة النهازة لا تريد هنا أن تحكم وأن تنصف بين خصمين انها تريد أن تعذر نفسها لتقول ان ذلك المثالى ناقص وان هذا النفعى

يجرى على العرف الشائع بين جميع الناس ، ولهذا يتناول النهاز الميزان وهو يتعمد أن يزيد فى ناحية من السيئات ويحط من الحسنات ، ويتعمد فى الناحية الأخرى أن يقلب الكفة فيزيد على الحسنات ويحط من السيئات ..

ويكفى أن ينسب الى العظيم المثالى عمل من الأعمال التى لا يقدر عليها النهاز ولا يسعى اليها ليشعر النهاز بالاختلاف والجفوة بينه وبين ذلك العظيم المثالى ، ثم يشعر بنوع من القرابة والالفة بينه وبين خصمه ، فيميل الى سماع الاحدوثة الحسنة عن هذا ولا يميل الى سماعها عن ذاك ، ويضطره الى ذلك وقوفه بين طريقين : أحدهما غريب يصغره فى نظر نفسه ، والآخر مألوف يطرقه كل يوم أو يحب أن يطرقه غير ملوم بينه وبين دخيلته ..

***

نعم .. يكفى أن ينسب الى العظيم المثالى عمل من الأعمال التى لايقدر عليها النهاز ولا يسعى اليها لتنفرج الهوة بينهما فلا يستريح النهاز الى العظيم المثالي كما يستريح الى النفعيين الناجحين

ونقول « عمل من الاعمال لا يقدر عليه ولا يسعى اليه » لأن هناك أناسا لا يقدرون على العمل المثالي ولكنهم يسعون اليه أو يتمنونه أو يحبون أن يؤمنوا بسعيهم اليه وتمنيه وصبرهم على مشقة هذا السعي وهذه الأمنية ..

وليس هؤلاء بالنفعيين المطبوعين

هؤلاء مثاليون تعوزهم القدرة ولا يعوزهم الأمل فى بلوغها ولا الغبطة بوجودها ، وميولهم الى جانب العظماء المثاليين أقرب وأغلب من ميولهم الى جانب المنفعة الناجحة بالحيلة أو بكل وسيلة ، والأمثلة من هؤلاء وهؤلاء كثيرة بين سواد الناس الذين لا يدخلون الى ساحة التاريخ الا شهودا أو مستمعين

فلو كانت محنة التاريخ كله من النهّاز المأجور لما خفيت حقائقه هذا الخفاء ، ولا طال العهد على الزيف أو الغرض المموه بالأباطيل

وانما المحنة الشائعة من اولئك النهازين المتطوعين الذين يقبلون العملة الزائفة ويرفضون ما عداها ، ويجاهدون مَن يكشف هذا الزيف ويقوّمه بقيمته الصحيحة ، ثم تكثر العملة الزائفة فى الأيدى حتى ليوشك أن تطرد العملة الصحيحة وتحيطها بالريبة والحذر ، ولا ينفع المحك الناقد فى هذه الحالة لأن المحك الناقد لم يسلم قبلها من التزييف ..

***

وفى التاريخ الاسلامى مراحل كثيرة تصحح لنا موازين التاريخ التى يرتبط بها عرض الانسانية ، وربما كانت هذه المراحل أجدى على المؤرخ من غيرها فى تواريخ الأمم ، لأنها حاضرة الأخبار والروايات ، حاضرة الاسباب والبواعث ، ولا يخفى من شأنها غير النيات والمزاعم . وليس بالمؤرخ من تضلله النيات والمزاعم حين تشخص أمامه الأخبار والروايات ولا تتوارى خلفها الأسباب والبواعث بحجاب كثيف ..

وأسبق هذه المراحل وأضخمها مرحلة النزاع بين علي ومعاوية بعد مقتل عثمان ..

فقد اختلفت فيها الأحكام على الرجال والمناقب والأعمال ولم تنقطع عنا أخبارهم وحوادثهم التي اتفقت عليها جميع الأقوال

واذا لم يرجح من أخبار هذه الفترة الا الخبر الراجح عن لعن « علي » على المنابر بأمر معاوية لكان فيه الكفاية لاثبــات ما عداه مما يتم به الترجيح بين كفتي الميزان

فان الذى يعلن لعن خصمه على منابر المساجد لا يكف عن كسب الحمد لنفسه فى كل مكان وبكل لسان ، ولو لم يرد من أخبار تلك الفترة أن معاوية كان يغدق الأموال على الأعوان ومن يرجى منهم العون لكان لعن خصمه على المنابر كافيا للابانة عما صنعه لكسب الثناء عليه واسكات القادحين فيه ، ولكن أخبار الأموال المبذولة لتغيير الحقائق فى هذه الفترة تفيض بها كتب المادحين والقادحين ومن لا يمدحون ولا يقدحون ، ولم يعلم أحد مبلغها من الوفر والجسامة ، ولكنها معلومة بالتقدير وان لم تعلم

بالاحصاء وأرقام الحساب ، لأنها استنفدت خزانة الدولة وجرت الى مضاعفة المكوس والضرائب ومخالفة العهود لأهل الذمة وحسبان الزكاة من حصة الخزانة التى يستولي عليها ولاة الأمور

ويبقى عمل النهازين المطبوعين بعد عمل النهازين المأجورين ، فانهم قد تطوعوا فى ذلك العصر ، وفى العصور التالية ، لترجيح كفة النجاح المنتفع على كفة المثالية العالية ، ولم يخف الأمر على أبناء ذلك العصر كما نشرحه الآن بأساليب علم النفس فى الزمن الأخير . فان الأقدمين لم تفتهم « النفس » بجوهرها وان فاتتهم مصطلحات النفسانيين من أبناء القرن العشرين ، وقد نفذوا الى بواطنها بالنظرة الثابتة لأنهم أصحاب نفوس تعلم ما تنطوي عليه النفوس

جاء فى تاريخ الخلفاء للسيوطى عن الامام ابن حنبل انه سأل أباه عن علي ومعاوية فقال : « اعلم ان عليا كان كثير الاعداء ، ففتش له أعداؤه عيبا فلم يجدوا ، فجاءوا الى رجل قد حاربه وقاتله فأطروه كيادا منهم له »

وهذه دخيلة من دخائل النفس الصغيرة معهودة متكررة فى كل جيل وفى كل خصومة ، فكثير من الثناء لا يصدر عن حب للمثنى عليه كما يصدر عن حقد على غيره ، وكثير من هذا الحقد تبعثه الفضائل ولا تبعثه العيوب ..

***

ان تاريخ معاوية بن أبي سفيان لا يحتاج الى مزيد من تفصيل ، وانما يحتاج تاريخه وتواريخ النابهين جميعا الى تصحيح الموازين وبيان المداخل التى تؤتى من قبلها أحكام الناس على الحوادث والرجال ، فتصاب بالخلل أو تنقلب رأسا على عقب . ويصاب بالخلل معها تفكير المفكر ونظرة الناظر وادراك المدرك لما يحيط به من حوادث زمنه وحوادث سائر الأزمنة

ونحن نفهم تاريخ معاوية ونفهم معه تواريخ الكثيرين من بناة الدول اذا صححنا الموازين وعرفنا ما يعرض لها من الانحراف من قصد أو عن شعور غير مقصود ..

ولكننا لا نعرف تاريخ معاوية ولا تواريخ غيره اذا أخذنا بظواهر الأقوال ولم ننقب وراءها عن بواطن الاهواء والبواعث الخفية ، ولا بد منها فى هذه المرحلة بذاتها : مرحلة الدولة الأموية الأولى على التخصيص

لقد كان قيام الدولة الأموية بعد عصر الخلافة حادثا جللا بالغ الخطر فى تاريخ الاسلام ، وتاريخ العالم

***

وما كان أحد ليطمع فى بقاء عصر الخلافة على سنة الصديق والفاروق أبد الآبدين ودهر الداهرين ، لأن اطراد النسق من ولاة الأمر على هذه الطبقة العليا من الخلق والتقوى أمر تنوء به طاقة بني الانسان

فما كان دوام الخلافة الصديقية أو الفاروقيـة بمستطاع على طول الزمن ، وما كان قيام الملك بعد الخلافة بالأمر الذي يؤجل الى زمن بعيد

ولكن الملك بعد الخلافة كان على مفترق طريقين : كان فى الوسع أن يسير على مشابه الخلافة ملكا بارا نقيا مصونا من بذخ الهرقلية والكسروية وسائر ضروب الملك فى عصوره الخالية

وكان فى الوسع أن يسير على مشابه الملك فى العصور الخالية بذخا ومتاعا وزينة وخيلاء كخيلاء العواهل من القياصرة والشواهين

كان فى الوسع أن يبتدىء الملك فى تاريخ العالم على النهج الصديقي أو الفاروقي وان لم يبلغ هذا المدى من النزاهة والصلاح ، وكان هذا النهج خليقا أن يظل اماما للرعية يتوارثونه ويقتدون به ويحميهم نكسة الأخلاق والآداب قرونا وراء قرون من بقايا الوثنية وأوشاب المادية ، وما شابهها من آداب تدور على النفع العاجل وتقبل المعاذير منه في أخطر الأمور ..

كان في الوسع هذا ، وكان في الوسع ذاك

ونشأة الدولة الأموية على مفترق هذين الطريقين هى الحادث الجلل فى صدر الاسلام ، وهي الحادث الجلل الذى يقرر تبعتها فى التـاريخ الاسلامي بل فى التاريخ العالمي كله

ورأس الدولة الأموية ، معاوية بن أبى سفيان ، هو صاحب هـذه التبعية التى يجب أن تتقرر بأماتتها العظمى فى ميزان لا تلعب به المنافع المقصودة أو المنافع التى هى أخطر منها على الحقيقة ، وهى منافع الطبائع المستسلمة لأيسر المعاذير ، يشق عليها الصعود الى المثل الأعلى ولو بالأمل وحسن المظنة ، ويطيب لها أن تسترسل على هينة مع مألوفاتها فى كل يوم ..

***

والصفحات التالية تتناول النظر فى سيرة معاوية من هذه الوجهـة ، فليست هى سردا لتاريخه ولا سجلا لأعماله ولا معرضا لحوادث عصره ، ولكنها تقدير له وانصاف للحقيقة التاريخية وللحقيقة الانسانية ــ كمـا يراها المجتهد فى طلبها وتمحيصها ، ونكاد نقول كما يراها من لا يجتهد فى البعد عنها واخفاء معالمها والتوفيق بينها وبين دخيلة هواه من حيث يريد أو لا يريد ، وبعض المؤرخين بعد العصر الأموي الى زماننا هـذا يفعلون ذلك حين ينظرون الى هذه الفترة فلا تخطئهم من أسلوبهم ولا من حرصهم على مطاوعة أهوائهم ، كأنهم صنائع الدولة فى ابان سلطانهـا وبين عطاياها المغدقة ونكاياتها المرهوبة ورجالها الذين تنعقد بينهم وبين معاصريهم أواصر المودة والنسب وأواصر المشايعة فى المطالب والمعاذير

ولولا اننا نأبى أن نضرب الأمثلة بالأسماء لذكرنا من هؤلاء المؤرخين المعاصرين من يتكلم فى هذا التاريخ كلاما ينضح بالغرض ويشف عن المحاباة بغير حجة ، فمنهم من ينكر الخلاف بين هاشم وأمية فى الجاهلية ، ومنهم من يحسب من همة معاوية انه تصدى للخلافة مع علي ويحسب من المآخذ على غيره انهم تصدوا للخلافة مع يزيد ، ومنهم من يشـيد بفضل أبى سفيان على العرب لأنه كان تاجرا يعرف الكتابة والحسـاب ويعلمهما من يستخدمهم فى تجارته ، ومنهم من يلوم أهل المدينة لأنهم نكبوا فى أرواحهم وأعراضهم على أيدي المسلطين عليهم من جند يزيد ولا تكاد تسمع منه لوما لأولئك المسلطين ، بل تكاد تسـمعه يعذرهم

ولا يدري ما يصنعون غير ما صنعوه

ولو اننا ذكرنا أسماء هؤلاء المؤرخين المعاصرين لكان تمام البيان عن منهجهم أن نشفعه بأطراف من تراجمهم وألوان من مسالكهم فى طلب المنفعة واللياذ بالقادرين عليها ، وألوان من معاذيرهم التى يرتضونها لأنفسهم ويوجبون على الناس أن يرتضوها لهم أو يلتمسوها لهم ، وان لم يعلنوها ..

***

ولكننا ندع هذا التمثيل لأننا فى غنى عنه بما ثبت من الأمثلة المحفوظة عن زمانها ، ونتخذ الشواهد من حوادثه وأقوال رجاله ، ونتحرى فى ذلك كله أن نصون التاريخ ـ نصون ذمة الانسانية ـ أن يملكها من يملك الجاه والسلطان فى زمن من الأزمان

بين القدرة والعظمة

زبدة الصفحات التالية أن رأس الدولة الأموية كان رجلا قديرا ولكنه لم يكن بالرجل العظيم

والفرق بين القدرة والعظمة يوضحه الاصطلاح ولا توضحه المعجمات اللغوية هذا التوضيح الذى نعنيه . فقد يقال عن العظيم انه قدير ويقال عن القدير انه عظيم ، ولا يخطىء القائل من الوجهة اللغوية فى هذا الترادف المقبول ما لم يقيده الاصطلاح

انما الاصطلاح الذى نعنيه وننظر فيه الى أحوال الطباع ان القدرة غير العظمة فى أشياء

فربما وصف الرجل بالقدرة لأنه مقتدر على بلوغ مقاصده واحتجان منافعه والاضرار بغيره ، ولكنه اذا وصف بالعظمة فانما يوصف بها لفضل يقاس بالمقاييس الانسانية العامة ، وخير تغلب فيه نية العمل للآخرين على نية العمل للعامل وذويه

***

ولعلنا نقترب من توضيح الاصطلاح اذا نقلنا التفرقة من القدرة والعظمة الى التقدير والتعظيم

فنحن نقدر الانسان بمقداره عظيما كان أو غير عظيم ، بل نقدر الأشياء بمقاديرها ولو لم يكن لها عمل ولم تكن من وراء العمل نية ، ولكننا اذا عظّمنا الانسان فانما نوجب له التعظيم علينا لأنه يعنينا ويستحق اكبارنا ويرتفع الى المكانة التى تلحظها الانسانية بأسرها وتعود عليها فى منافعها وخيراتها

فكل عظيم قدير ..

ولكن ليس كل قدير بالعظيم ..
والعظمة قدرة وزيادة ..
أما القدرة فليس من اللازم أن تكون عظمة فضلا عن أن تكون عظمة وزيادة ..
ومعاوية قدير ولا ريب ..
أما انه عظيم فذلك الذى نعرض له فى الصفحات التالية لنبين فيها الفارق بين القدرة والعظمة ، فى ترجمة رجل من أنفع الرجال النابهين لتوضيح هذا الفارق بميزان الحوادث وميزان الأخلاق
ومن سرف القول أن يقال ان معاوية لم يكن يعمل بباعث من الغيرة الدينية أو بباعث من أحكام المروءة والعرف المتبع فى الأخلاق
فليس فى وسعه أن يتجرد من هذه البواعث لو أراد ، وليس فى وسع رجل أسلم على يد النبي عليه السلام وصاحبه وعمل على أيدي الجلة من صحابته أن يغفل عن غيرة دينه وأحكام فرائضه وواجبات المروءة فى عرف زمنه ..

***

الا اننا ، مع العلم بغيرته الدينية فى شعوره وفعاله ، نستطيع أن نعلل جميع أعماله بعلة المصلحة « الذاتية » أو مصلحة الأسرة والعشيرة
ونستطيع أن نعمم القول بغير استثناء على كل مسعى من مساعيه وكل حيلة من حيله وكل مأثرة من مآثره ، فنقول ان المصلحة الذاتية أو مصلحة الأسرة والعشيرة كافية لتعليلها والقيام بها ، وانه لم يعارض المصلحة الذاتية بارادته فى حين واحد ، وعارض المصلحة العامة فى أحيان
كان رجلا قديرا ولكنه لم يكن بالرجل العظيم
ومهمة المؤرخ فى سيرته أن يقدر قدرته وأن يعرف ما اقتدر عليه بسعيه وتدبيره وما اقتدر عليه بمساعدة الزمن وممالأة الحوادث والمصادفات ..
وهذه المهمة تتقاضانا « أولا » أن نجمل القول فى جميع التمهيدات

التى مكنته من الاقتدار على مقاصده ، ومنها ما كان سابقا للاسلام وسابقا لمولده ، ومنها ما تم قبل ملكه وما تم فى أثناء ملكه الى ما بعد موته ..

***

وتتقاضانا هذه المهمة « ثانيا » أن نزن المواهب العقلية والخلقية التى اشتهر بها وأسند اليها ما أسند من أسباب نجاحه

فنبدأ الكلام فى الفصول التالية بالتمهيدات التاريخية من قبل الاسلام الى قيام الدولة الأموية ، ثم نتلوها بتحليل الأخلاق والمواهب التى تعد من وسائل نجاحه ..

ونلاحظ فى ذلك كله أن « نقدر القدرة » التى ثبتت لهذا الرجل القدير من وراء المدائح والاهاجى ووراء الدعاية له والدعاية عليه

ونحسب اننا وفينا بهذه الأمانة اذا انتهينا من هذه الصفحات الى الوزن الصحيح الذى يوزن به رأس الدولة الأموية ويوزن به غيره من أعلام التاريخ ..

تمهيدات الحوادث

بدأ التمهيد لبني أمية فى الشام قبل الاسلام بجيلين متعاقبين ، وكانت الشام قبل ذلك سوقا عامة لقريش ، تأتيها قوافل الصيف بتجارة الحجاز فى حراسة الرؤساء من بيت مناف على الأكثر ، وأظهرهم فى الجيل الذى سبق الدعوة النبوية هاشم بن عبد مناف

ولم يكن رجحان هاشم بالرئاسة والثروة حائلا بين الأمويين وغشيان الشام للتجارة والاقامة بين المدن والبادية فيها ، بل كان هذا الرجحان — فيما اتفقت عليه الأخبار — سببا لهجرة أمية من مكة واقامته بالشام عشر سنين ، اذ تنافر هاشم وأمية وتنافسا على الرئاسة ، واحتكما الى الكهان كعادتهم على أن يكون للغالب اجلاء المغلوب عن مكة عشر سنين ، فقضى المحكمون لهاشم على أمية ، وخرج أمية الى الشام فاختارها مقاما له خلال هذه السنين ، وربما كان ضيقه بالزعامة المعقودة لهاشم فى مكة من دواعى الهجرة قبل الحكم عليه فى قضية المنافرة المشهورة ، وهى قضية قد تصح بتفصيلاتها أو لا تصح الا بجزء منها ، ولكن هجرة أمية الى الشام لم تكن مما اختلف عليه المختلفون

ولما مات هاشم شغل أبناؤه بالرئاسة الدينية الى جوار الكعبة ، وآل اللواء الى بني أمية ، وهو عمل ينوط بصاحبه حراسة القوافل الى الشام واليها ، اذ لم يكن من حاجة قريش فى الجيل السابق للاسلام عقد اللواء لجيش يغزو القبائل أو يدفع غزوتها لمكة ، وانما كان العمل الأكبر لصاحب اللواء حراسة طريق التجارة بين مكة والشام على الأكثر ، وبين مكة واليمن فى قليل من الأوقات . وكان عملا يحتاج فى الواقع الى جيش صغير وقائد يحمل لواءه ، لأن القافلة التى تخرج للتجارة تجمع أموال

قريش وتسير بها المئات من الابل ، ولا ينتظم سيرها بغير قيادة تتو تنظيم المخافر وتوزيع المؤنة والتعرف الى رؤساء القبائل التي تقيم على الطريق أو تقيم على مقربة من أسواق الشام فى البادية ، فهى عمل متصل لا ينتهي بانتهاء رحلة القافلة ولا تزال له روابطه وعلاقاته بين صاحب اللواء وأعوانه وبين ذوي الشأن فى مراحل الطريق وفى منازل المقام

ومن المشهور المتواتر أن عثمان بن عفان رضي الله عنه كان معروف المكانة بين رؤساء الدولة البيزنطية على حدود بلاد العرب كما كان معروف المكانة بين الوجوه من قبائل البادية ، وخلعت عليه الدولة البيزنطية لقبا من ألقاب الرئاسة ليسفر بينها وبين قومه ويعينها فى خلافها مع العرب الغساسنة بالشام ، وكانوا يجنحون أحيانا الى جانب فارس فى حربها لبيزنطة ، ويرى البيزنطيون انهم لا يستغنون عن قوة من العرب لمقاومة هذا الخطر من البادية ، ولو بتهديد الغساسنة وتشكيكهم فيمن يجاورهم أو يعاملهم من العرب الحجازيين

وقد كان بنو أمية على شبه محالفة بينهم وبين بني كلب أقوى القبائل ببادية الشام وأشدها خطرا على الغساسنة ، ومنها من تنصر منافسة للغساسنة فى حظوة الدولة مع ارتقابهم للفرص بين الدولتين وبين القبائل العربية ، وقدعرفنا بعد الاسلام ثلاثة من كبار الأمويين أصهروا الى بنى كلب فى عصر واحد ، وهم سعيد بن العاص والي الكوفة والخليفة عثمان بن عفان ومعاوية بن أبى سفيان ، ولا تكون هذه المصاهرات أول العهد بالصلة بين الفريقين ، فهى بقية لما تقدمها من الصلات

ومن المشهور أيضا أن أبا سفيان كان على صلة بولاة الأمر من البيزنطيين ، وكان يلقى هرقل وأمراء بيته فى رحلاته ، ويعول عليه هؤلاء فيما يعنيهم من أحوال العرب وأخبارهم ، فقيل انهم سألوه عن النبي عليه السلام عند مبعثه ، وان السائل جعل يستنبئه عن صفاته عليه السلام على مسمع من قوم حجازيين فى المجلس ، ويحذره أن يكذب فيكذبه من سمع كلامه من قومه . قال أبو سفيان : وعلمت انهم لا يكذبونني ان

كذبت ، ولكنني صدقت الصفة ضنا بمروءتي أن أقول ما يعلم السامعون انه نبأ مكذوب ..

الى المقريزي « انه ما فتحت بالشام كورة الا وجد فيها رجل من بني سعيد بن العاص ميتا » ..

وكان النبى صلوات الله عليه يتحرى فى اختيار الولاة أن يندبهم للولاية حيث يتيسر لهم العمل بموافقة الرعية ، فاختار عمر بن سعيد بن العاص واليا لتيماء وخيبر وتبوك وفدك ، وكلها على طريق التجارة الأموية ، وسار أبو بكر على هذه السنة فاختار يزيد بن أبى سفيان قائدا لجيش من جيوش الحملة على الشام وولاه بعض أقاليمها بقية حياته ، وكانت وفاته فى عهد الفاروق فجرى على هذه السنة وعهد بالولاية الى أخيه معاوية حيث بقي الى ما بعد خلافة الفاروق ، وكان يعمل برئاسة أخيه قبل موته ويحمل اللواء بين يديه

ومن بني أمية من كاد يصرح بالطمع فى الملك بعد رسول الله على عهد الصديق . اذ كان من أبناء عمرو بن سعيد بن العاص خلف على الولاية التى ولاها اياه النبى صلوات الله عليه ، فلما بويع أبو بكر بالخلافة أنفوا أن يعملوا له وقالوا : « نحن أبناء بني أحيحة لا نعمل لأحد بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم أبدا » ..

ولا يقول هذا القول الا من يطلب الرئاسة لنفسه ولا يقر بالرئاسة لغير ذي نبوة أو رسالة إلٓهية ، وينظر الى الخلافة نظرة دنيوية لا تفاضل فيها بصفة من صفات الدين وسابقة من سوابق الهداية

وكان الفاروق قد ولى معاوية ولاية من الشام فضم اليه عثمان سائر الشام وألحق به أقاليمها من الجزيرة الى شواطىء بحر الروم ، فلما قتل عثمان كان قد مضى لمعاوية فى ولاية الشام عشرون سنة ، لم يبق فيها من ينازعه أو يعصيه ، ولم يكن من عمالها وحكامها المرؤوسين له أحد من غير صنائعه وأشياعه والمستقرين فى كنفه ، لأنه حرص فى ولايته على استبقاء من يواليه واقصاء من يشغب عليه ، وجعل همه الأكبر أن يخرج

أهل الفتنة من الشام ولا يبالي بعد ذلك ما صنعوا فى سائر الولايات ، فتفرقوا كلهم بين الكوفة ومصر والحجاز

كان عثمان يسمع الأقاويل عن ولاية الشـــام ويتلقى الشكايات ممن يطلبون منه عزل ولاته وأولهم معاوية ، فيعتذر لهؤلاء الشاكين بعذره المعهود ويقول لهم انه انما ولى على الشام من ارتضاه قبـــله عمر بن الخطاب .. وقال ذلك مرة لعلي بن أبى طالب فقال له علي : نعم . ولكن معاوية كان أطوع لعمر من غلامه يرفأ ، وصدق الامام فيما قال

فقد كان معاوية يصطنع الأبهة فى امارته ويقتصد فيها جهده بعيدا عن أعين الفاروق ، فاذا لامه الفاروق على شيء منها رآه بعينه اعتذر له بمقامه بين أعداء ألفوا الأبهة واتخذوها آية من آيات القوة والمنعة ، وكان يؤدي حساب ولايته لعمر كلما سأله الحساب ويقنع منها برزقه من بيت المال ألف دينار فى العام ، وانفال مما يجمعه من تجارة أهله أو مما وراء الحساب ..

فلما بويع عثمان بالخلافة تركه فى مكانه وضم اليه سائر الشام كمـــا تقدم ، وطلب منه معـــاوية أن يرخص له فى زرع الأرض التى تركها أصحابها وهاجروا الى بلاد الروم فأجابه الى طلبه ، ووضع معاوية يديه على موارد من المال تقوم بأعباء دولة ، ولم يكن يخشى عليها من الحساب ما كان يخشاه على عهد عمر بن الخطاب ، وأوشكت الشـــام أن تقوم وحدها مملكة مستقلة يتولاها ملك مستقل فيما عدا الأوامر التى كانت تأتيه من المدينة بتحصين الثغور وامداد الغزاة وتسيير الجيوش الى الأطراف بقيادة الاعلام من الصحابة

وقتل عثمان فانقسمت الرقعة الاسلامية قسمين ، أحدهما لا خلاف فيه وهو الشام حصة معاوية ، والآخر لا وفاق فيه وهو حصة على من الحجاز والعراق ، وقد تدخل مصر فيها حينا وتخرج منها أكثر الأحايين

وتولى معاوية بلادا لا ينازعه فيها منازع ولا يود أحد فيها أن تخرج من يديه وتؤول الى غيره

وتولى علي بلادا كلها نزاع من أمر الخلافة الى أصغر الأمور . فنازعه الخلافة طلحة والزبير ، وأحاط به رهط من المتزمتين المتفقهين يسألونه عن الكبيرة والصغيرة ويجتهدون اجتهادهم فى كل شأن من شؤون السياسة

وهذا الى الفارق بين وفرة المال من جانب وندرته من الجانب الآخر

وهذا الى فارق آخر أكبر وأعسر وأعضل على الحل والمحاولة ، وهو الفارق بين الملك والخـلافة ، وقد افترقت طريقاهما منـذ سنين ، وتم افتراقهما بعد أيام عثمان

فكانت أعباء الخلافة كلها على علي ، وكانت أحوال الملك كلها مع معاوية مواتية له محيطة به فيما يريد وفيما لا يريد

كان الناس مع علي ينظرون الى سنة النبي وسنة الصديق والفاروق من بعـده ، وكان الناس مع معـاوية ينظرون الى هرقل وكسرى ، ولا يسومونه أن يحكم كما حكم النبي أو كما حكم من بعده الخليفتان الأولان

وكان لا بد لعلي ــ كما قلنا فى عبقرية الامام ــ من ملك أو خلافة .. ولن يكون ملكا بأدوات خليفة ، ولا خليفة بأدوات ملك ، ولن تبلغ به الحيلة أن يحارب رجلا يريد العصر والعصر يريده . لأنه عصر ملك تهيأت له دواعيه الاجتماعية وتهيأ له الرجل بخلائقه ونياته ومعاونة أمثاله ، ولم يكن معاوية زاهدا فى الخلافة على عهد أبي بكر أو عمر أو عثمان ، ولكن الخلافة كانت زاهدة فيه . فلما جاء عصر الملك طلب الملك والملك يطلبه »

وهذه حالة لم تطرأ دفعة واحدة فى أيام النزاع بين علي ومعاوية . بل ظهرت بوادرها فى أيام الصديق وازدادت ظهورا فى أيام الفاروق ، وحدث كما أجملنا ذلك فى كتاب ذي النورين ان الصديق « اتخذ الحيطة للفتنة واستبقى عنده كبار الصحابة ليجمع بين معونتهم له فى الرأي وبين تجنيبهم الفتنة ومآزق الولاية ، وكان يتذمر من ترخص بعض الصحابة فى أمور تؤذن بما بعدها فقال لعبد الرحمن بن عوف وهو على سرير الموت : « ما لقيت منكم أيها المهاجرون .. رأيتم الدنيا قد أقبلت ولما تقبل ، وهي

مقبلة حتى تتخذوا ستور الحرير ونضائد الديباج وحتى يألم أحدكم بالاضطجاع على الصوف الاذربي كما يألم أحدكم اذا نام على حسك السعدان » ..

وانقضى عهد الصديق ثم انقضى عهد الفاروق « والمجتمع الاسلامي مجتمعان : أحدهما ماض ولما يمض بأجمعه ، والآخر مقبل ولما يقبل بأجمعه ، وأوشك عمر على قوته أن يحار فى تدبيره ، وقال الشعبي انه قضى وأوشكت قريش أن تمله لشدته ووقوفه لها بحيث وقف حائلا بينها وبين نزعاتها ومطامحها فى دنياها الجديدة »

***

وتتابعت السنون على أيام عثمان. وهذان المجتمعان يلجان فى الافتراق حتى افترقا غاية افتراقهما فى النزاع بين علي ومعاوية . فكان علي يكبح تيارا جارفا لا حيلة له فى السير معه ولا فى دفعه ، وكان معاوية يركب ذلك التيار رخاء سخاء بغير مدافعة وبغير حيرة ، ويركبه معه من لا يدافعه ولا يحار فيه ..

وكأنما بقيت بقية من التيسير هنا والتعسير هناك ، فجاءت حصة علي حيث جاء الموالي من كل جنس يطلبون الحق الذي يطلبه كل مسلم ممن لا ينكر على أحد حقاً من الحقوق ، وخلت الحصة الأخرى من هؤلاء الموالي وخلصت للعرب يوم كان العرب وحدهم قوام الدولة فى دمشق بين القرشيين واليمانيين

أحاط الموالي بالامام حتى قال له بعض أنصاره من العرب : « لقد غلبتنا هذه الحمراء عليك » وسار الامام فى العدل بينهم وبين العرب سيرة من يعلم انه لا فضل لعربي على أعجمي ولا لقرشي على حبشي الا بالتقوى

أما فى الشام فقد كان معاوية لا يباليهم لأنهم قلة هناك لا يحسب لها حساب ، ومرضاة العرب أولى من مرضاة الموالي فى دمشق حيث قامت الدولة الأموية ، وحيث هان خطبهم بعد ذلك حتى قيل انه هم بقتلهم والبطش بهم على غير عادته ، وقال لهم غير مرة انكم عجم وعلوج !

وما كان من قبيل المصادفات ان الدولة الأموية قامت فى دمشق وان الدولة التى قوضتها — وهى دولة بنى العباس — قامت فى بغداد . فان دمشق ما كانت لتصلح مقاما للدولة بعد اتساعها للعرب والفرس والترك والديلم وموالي الأمم من كل قبيل

وقد كانت العصبية العربية قوة للدولة الأموية فى نشأتها ، وكان اختلاط الموالي ضعفا للدولة القائمة فى الجزيرة ، لأنهم أشتات متفرقون لم يكن منهم أحد يقبض على زمام من أزمتها ..

ونجمت ناجمة الخوارج فلم تكن لهم جرثومة فى الشام ينجمون منها ، ولكنهم أصبحوا شعبة جديدة من شعب الشقاق بين الموالى والشيعة من العرب وأصحاب التزمت والزهد من أدعياء الاجتهاد وأدعياء الحق فى محاسبة ولي الأمر على ما شرعه الكتاب ..

***

ثم قتل علي دون صاحبيه المقصودين بالقتل معه معاوية وابن العاص ، فانتفع معاوية بعمله فى حياته كأنه أعفاه من جهاد منافسيه بالحجاز والعراق ، وانتفع بعده بالشقاق بين الشيعة والخوارج والموالي والعرب فى رقعة الجزيرة ، فاذا هم يضرب بعضهم بعضا ويغلبهم جميعا بأيديهم كلما تفرقوا وتقاتلوا ، وما كان فى وسعهم أن يتفقوا أو يكفوا عن القتال

وان القدرة التى خلصت بها الخلافة لمعاوية بين هذه الحوادث لتوزن بميزانها الصادق اذا شاء المؤرخ أن يخالف بين الكفتين .. فماذا كان معاوية صانعا لو أنه بويع بالخلافة فى المدينة ولم تكن له سابقة ولاية على الشام ؟ وماذا كان صانعا لو كان على الشام يومئذ منافس يسوسها على سنة الملك ويرتكن فيها الى قواعد راسخة من عهد الفاروق وقواعد راسخة من قبل الاسلام ؟

ثم انفرد معاوية بالخلافة ولزمته تبعة الدفاع عن الدولة فى وجه أعدائها فوضع المؤرخون فى كفته هذه المأثرة غير مقدورة ولا محدودة ، ولا منظور فيها الى التمهيدات التي من قبيل ما قدمناه أو تربي عليها

ولا شك أن رأس الدولة الأموية قد عمل على حمايتها ولا بد له من العمل على هذه الحماية . ولسنا نعني هنا انه حمى الدولة ليحمي ملكه ويحمي نفسه فهذا قد يدخل فى بيان النيات ولا يدخل فى بيان القدرة التى أعانته على عمله ، ولكننا نعني اننا لا نزن هذه القدرة بميزانها الصحيح الا اذا عرفنا ما اضطلعت به وكان لها يد فيه وعرفنا ما جرى فى مجراه بحكم الحوادث وليست فيه لها يد عاملة أو تدبير مقصود

فالفتح الاسلامي قد ضعضع دولة الروم الشرقية وفت فى أعضادها وترك فيها رجال الدين والدنيا معا يائسين من رجعة الشام الى حوزتها مؤمنين بتأييد الله للعرب الفاتحين عقابا للرعاة والرعية على خطاياهم وخطاياها ..

***

وقد سمع هرقل صيحة الوعاظ بهذا النكير بأذنيه فى مؤتمر أنطاكية ، وغادر سورية وهو يودعها ذلك الوداع الذى كاد الرواة أن يحفظوه بكلماته اللاتينية كما يحفظون كلمات سليمان الحكيم عن باطل الأباطيل فقبل أن يفارق الارض السورية صاح كأنه ينشج بالبكاء : « الوداع يا سورية . الوداع الأخير » Vale Syria et Ultimatum vale

ورسخت هذه العقيدة فى قلوب خلفائه فلم تغن فيها وفرة العدة وكثرة الجند وأسلحة البر والبحر التى كانوا يجمعونها ولا تكاد تجتمع حتى تتفرق لأول صدمة أو تتفرق قبل اللقاء من أجل منام أو عيافة أوهام . وقد روى جيبون ان حفيد هرقل خنع للتسليم لأنه رأى فى المنام انه فى سالونيكا وهى كلمة تجانسها كلمة باليونانية معناها « اعط النصر لغيرك ! » ..

وفى تاريخ ميخائيل السوري « ان المنتقم الجبار أتى بأبناء اسماعيل من الصحراء ليخرجوا الأمم من ربقة الروم » ..

وقد روى ابن الاثير من حوادث سنة خمس وعشرين هجرية « ان معاوية غزا الروم فبلغ عمورية فوجد الحصون التى بين أنطاكية وطرطوس

خالية فجعل عندها جماعة كثيرة من أهل الشام والجزيرة »

ولم ييأس العواهل الضعفاء من سورية وما جاورها من آسيا الصغرى بل يئسوا من القسطنطينية نفسها وهموا مرات بنقل العاصمة منها الى صقلية ، وتركها العاهل قنستانز فعلا (سنة ٦٦٨ م) ليقيم له عاصمة فى صقلية فأوشك أن يقيمها لولا انه قتل فى سرقسطة !

واقترنت بهزيمة الروم فى سورية هزائم شتى وشواغل متفرقة أيأستهم من الغلبة على الدولة الاسلامية ، ومن هذه الشواغل حرب الشعوب السلافية ومحالفتهم للمسلمين فى بعض الوقائع بآسيا الصغرى ، ومنها الشقاق بين الكنيستين الشرقية والغربية ، ومنها انقسام الاسطول بين قيادتين احداهما للعاصمة والأخرى للولايات المتفرقة

***

وربما كان اسم الدولة الاسلامية فى ابان الفتح حماية لها تقوم فى ترويع خصومها مقام العدد والحصون ، ولا أدل على ذلك من سلامة هذه الدولة فى عهد معاوية الثاني الذى اعتزل الحكومة ولزم داره كما جاء فى تاريخ الخلفاء للسيوطي « أربعين يوما وقيل شهرين وقيل ثلاثة أشهر » ..

قال السيوطي : « ولم يخرج الى الباب ولا فعل شيئا من الأمور ولا صلى بالناس »

ولما خلع نفسه قال : « أيها الناس ضعفت عن أمركم فاختاروا من أحببتم ، ثم احتضر وهو فى نحو العشرين فسألوه أن يستخلف أخاه خالدا فقال : ما أصبت من حلاوتها فلم أتحمل مرارتها ؟ » .

ولم يتفق المسلمون على خليفة بعد معاوية الثاني حتى قام عبدالملك بن مروان بالأمر سنة ثلاث وسبعين ... أي بعد تسع سنين

ودولة تسلم من بيزنطة تسع سنين وهي بغير خليفة متفق عليه لايبلغ من خطر عدوها أن يحتاج الدفاع عنها الى قدرة خارقة من ولي الأمر فيها ، وقد سلمت من ذلك العدو سنين قبل ذلك بين مقتل عثمان ومقتل

علي ، ولم يكن بين المقتلين يوم سلام واستقرار من الحجاز الى الجزيرة الى الشام الى مصر وما يليها من افريقية الاسلامية

والثابت المعروف أن الدفاع عن الشـــام انما استحصد وتوطد قبل استقلال معاوية بولايتها فى أيام عثمان ، وان الدفاع الأكبر عنها بعد ذلك انما كان يتولاه من قبل الشرق ولاة الجزيرة ، ومن قبل الغرب ولاة مصر وافريقية ، وعندهم الجند والسفن ولهم الصلة الدائمة بالحجاز يسألون الخليفة المدد فيأمر من يشاء من الولاة أن يمدوهم به ، ومنهم معاوية فى الشام

وهذه الفترة فى تاريخ الدولة الاسلامية هى التى جعلت لها تلك المهابة التي أيأست بيزنطة من جدوى الهجوم عليها وصرفتها الي غير هـــذه الوجهة من حدودها ، مع ادبار القوة وانقسام الأولياء والأعوان وضياع الثقة بالنصر ، بل باستحقاق النصر من الله

***

وبعد ..

فالمحصل من هذه الحوادث والتمهيدات أن المؤرخ الأمين مسئول أن يحضرها جميعا فى حسابه والا كان كلامه عن « قدرة » معاوية كلاما جزافا لايؤخذ به فى تمييز أقدار الرجال وخصائص الطباع ، ولا يفيدنا شيئا فى التعريف بالوسائل التى مهد بها معاوية لنجاحه والوسائل التى تمهدت له قبل مولده ، وقبل الاسلام

وتتلخص قدرة معاوية فى خلائق مشـــهورة مترادفة أشـــهرها الدهاء والحلم وعلو الهمة أو الطموح

وهذه الخلائق هى موضوع البحث فيما يلى من الفصول قبل الكلام على نشأته وعمله وموجز تاريخه وصفوة الرأى فيه

الدّهَــاء

اذا تحدث الراوية العربي عن صفة من الصفات العامة بلغ بهـا حد الاستقصاء ، فأثبت فى روايته كل مايقع عليه الحس من أخبار تلك الصفة وذكر لنا الاعلام المشهورين بها والحوادث التي دلت عليهـا والأقوال التي قالوها أو قيلت عنهم بصددها ، والفوارق التى يختلفون بها فيما بينهم،والألقاب التى أطلقت عليهم من جرائها ولم يتركوا مرجعا من مراجع الدراسة التى يحتاج اليها الباحث العصري في استقصائه الحديث بعـد استقصائهم القديم ، الا تحليل الصفات على حسب عواملها النفسية ، فانه باب لم يطرقوه ولم يطرقه أحد غيرهم من الأقدمين فى الأمم ، وعذرهم فى ذلك واضح لاتلزمهم بعـده حجة : عذرهم أن التحليل النفسي كله دراسـة حديثة تركبت على دراسـات علمية أو فكرية أخرى لم يكن للأقدمين عهد بها الى ماقبل بضعة قرون

كذلك تحدث لنا الراوية العربي عن شجعان العرب،وفرسان العرب، وأجواد العرب وصعاليك العرب،ودهاة العرب فى الاسلام،ودهاة العرب فى الجاهلية،وكل ذوي الشهرة فى صفة من الصفات العامة التى تتعلق بها الروايات وتتناقل بها الأخبار

ويبدو لنـا ــ ونحن نقرأ كلامهم عن دهاة العـرب ــ أنهم كانوا « مولعين » بتلك الصفة خاصة ، يتحـدثون بها ويسـتطيبون حديثها ويتزيدون فيه كلما استطاعوا ، كأنهم يجاوزون بالدهاء حد الاعجاب الى حد التمني والعطف والمشاركة فى الشعور ، وعذرهم فى هذا أيضا واضح من تاريخهم وتواريخ منازعاتهم ومصـالحاتهم . فانهم كانوا يتفقدون فيها الدهاء جميعا فيجدونه حينا ولا يجدونه حينا آخر ، ولكنهم كانوا

يجدون الشجاعة والفروسية فى كل حين

وسبب آخر من أسباب الولع بالحديث عن الدهاء انه أصبح كفؤا للشجاعة أو راجحا عليها فى موازين الصفات الاجتماعية ، فاذا عيب رجل من رجالهم بقلة الشجاعة وجد العزاء ــ وفوق العزاء ــ بشهرة الدهاء أو دعواه ان لم يكن قد بلغ بدهائه مبلغ الشهرة الذائعة الصيت

فالدهاء عندهم كان مزية وضرورة وعزاء وغطاء للخوف والجبن ودعوى سهلة لمن يدّعيها بغير برهان .. أما الشجاعة فبرهانها حاضر لا سبيل للمغالطة فيه ..

ولهذا يتزيد الرواة كثيرا فى أحاديث الدهاء ، ويوشك أن يجعلوه صفة من الصفات « السلبية » التى تقترن بنقص الشجاعة حيث نقصت فى مجال الغضب أو مجال الصولة والقتال ، وكاد القارىء أن يفهم ــ بداهة ــ من وصف رجل بالدهاء أنه رجل لاصولة له ولا خوف من غضبه وبأسه ، وانما الخوف مما يحتال به أو يكيد

وكثير من أحاديثهم عن الدهاء يدخل فى عداد هذه المعاذير أو هذه الخلال المتشابهات ، ولكنهم اذا اتفقوا على دهاء رجل فى سيرة حياته بحذافيرها فالغالب أن يكون على شىء من الدهاء ، وان لم يكن دهاتهم كلهم من نوع واحد عند تحليل الأعمال والصفات ، ولم يكن مصدر ذلك الدهاء ملكة واحدة فى العقل أو فى الطباع

لقد كانوا يطلقون الدهاء على كل وسيلة « غير صريحة » يبلغ بها صاحبها مأربه وينتهي بها الى منفعته ... فكل حيلة « غير صريحة » فهي دهاء على سواء ..

الا أن الواقع أن الوسائل « غير الصريحة » لاتتفق فى مصادرها العقلية ..

فقد يعتمد الرجل فى دهائه على قدرة عقلية فائقة يتسلط بها على الناس فيسخرهم فى مطامعه ويقودهم كما يقاد المسخر « بالتنويم المغناطيسي » لخدمته فيما يستفيدون منه أو فيما لافائدة لهم فيه على

الاطلاق ... وقد يكون فيه الضرر لهم كل الضرر وهم لايفقهون ، ويغشاهم السحر بغشاوته فلا يستمعون لما يقال لهم غير مايقوله ذلك الداهية أو يوحيه الى شعورهم بغير مقال

هذا هو الدهاء من الطراز الأول

ويليه الدهاء الذى لايعتمد على قدرة عقلية فائقة ولكنه يعتمد على قدرة « مادية » يستطيع بها صاحبها قضاء المصالح والتعامل مع غيره على أساس « التبادل » فى المنفعة المعروفة التى يفهمها المتبادلون جميعا بغير حاجة الى تغرير أو خداع أو اقناع

رجل يملك السلطان أو المال ، وأناس يحتاجون الى سلطانه وماله ، ولا يقدرون على بلوغ تلك الحاجة من غيره .. فلا هو يخدعهم ولا هم يخدعونه ، لأنهم كلهم يعرفون مايطلبونه ويعرفون وسيلتهم اليه ، فلا خادع فيهم ولا مخدوع ، وان لم يكونوا جميعا صرحاء فيما يتوسلون به أو يتوسلون اليه

من أي هذين الطرازين دهاء معاوية ؟

أمن طراز القدرة العقلية الفائقة التى تسخر الأعوان منقادين مستسلمين مغمضي الأبصار والبصائر ، أم من طراز القدرة المادية التى تعطى وتأخذ ويعاملها طلاب الحاجات لأنهم يعرفون مايحتاجون اليه ولا يعرفون طريقا الى حاجاتهم تلك غير هذه الطريق ؟

بأي الدهاءين تمكن معاوية من اجتذاب عمرو بن العاص والمغيرة بن شعبة وزياد بن أبيه وغيرهم من الدهاة الذين سارت بدهائهم الأمثال فى صدر الاسلام ؟

لعلنا نستطيع أن نقول ان هؤلاء الدهاة ومن جرى مجراهم قد خدعوه وسخروه لقضاء مآربهم ، كما نستطيع أن نقول انه هو قد خدعهم وسخرهم لقضاء مآربه ... فانهم جميعا قد أخذوا ناجزا مضمونا حيث يأخذ منهم العوض مقدرا غير مضمون ، وأياً ما كان القول فليس دهاء معاوية هنا دهاء القدرة العقلية الفائقة التى أوقعت فى روع أعوانه زعما

تخفى عليهم حقيقته وينقادون به اليه وهم لايفقهون . وانما أخذ منهم وأخذوا منه على حد سـواء ، وانما أعطـاهم المصـلحة التى يريدونها ولا ينتظرون قضاها عند غيره ، ولم يتمكن من اعطائهم تلك المصلحة الا لأنه سبقهم الى ولاية الشام عشرين سنة ووضع أيديه على المرافق التى لم يكن فى وسع واحد منهم أن يضع عليها يدا من أيديه

ان رواة التاريخ العربى يحدثوننا كعادتهم فى التوصيف والتقسيم ، عن دهاتهم فى صدر الاسلام فيقولون انهم أربعة : عمرو بن العاص والمغيرة بن شعبة ، وزياد بن أبيه ، ومعاوية بن أبى سفيان ، ويقولون ان ابن العاص للبديهة ، والمغيرة للمعضلات ، وزياد لكل كبيرة وصغيرة ، ومعاوية للروّية

وهذا تقسيم صحيح فى جملته على الايجـاز ، وقد يعرض له بعض التعديل عند الاسهاب والتفصيل ، ولكن الرأي الذى لاشك فيه انهم جميعا من الدهاة على اختلاف نوع الدهاء ، وان دهاء الثلاثة الأولين هو الذى قادهم الى معاوية ولم يكن دهاء معاوية هو الذى قادهم اليه . فقد عرفوا مطالبهم وعرفوا أنهم يجدونها عند معاوية حيث لايجدونها عند غيره ، ولو انهم استطاعوا أن ينازعوه الخلافة لما سلّموها له طوعا ولما قنعوا منه بالنصيب الذي ارتضوه فى خلافته ، ولكن الخلافة كانت مطلبا بعيدا عليهم فلم يضيعوا فيه جهودهم ونظروا الى غاية المطالب دونه فبلغوه بجهد يسير

لم تكن لأحد منهم ولاية تمتد فتشمل سائر الولايات وتنتهى بذلك الى الخلافة الا زيادا بن ابيه فانه كان واليا على أقاليم من فارس يخشى بأسه لما عنده من المال والجند ، ولكنه مغمور النسب يدعونه بابن أبيه قبل أن ينسبه معاوية الى أبى سفيان ، ولن يسلس زمام الخلافة لرجل مثله الى جانب طالب من طلابها كمعاوية أو من دون معاوية فى النسب والمكانة ..

أما ابن العاص والمغيرة بن شعبة فقد كانا من آحاد الرعية يوم نشب

النزاع على الخلافة بين عميد بنى هاشم علي بن أبى طالب وعميد بنى امية معاوية بن أبى سفيان ، ولم يكن لأحدهما جند ولا مال ولا عصبة تنافس العصبة الهاشمية أو العصبة الأموية ، فهما خليقان أن ينظرا الى المطلب الميسور حيث تيسر ، وقد نظرا اليه فلم يعرفا له طريقا أقرب من طريق معاوية وبخاصة بعد مقتل على رضوان الله عليه

وقصـــة كل رجل من هؤلاء الدهاه الثلاثة لاتدع محـــلا للظن بأنهم سيقوا الى نصرة معاوية مخدوعين أو منقادين بحيلة من حيل الدهاء ، بل هى جرية أن تنبئنا بغلبتهم على معاوية فى المبادلة ، وانهم أخذوا منه فوق ما أعطوه ، وانه هو قد أعطاهم شيئا فى اليد حين كان عطاؤهم كله شيئا فى التقدير ، اما من قبيل الأمل المنظور أو من قبيل الخوف المحذور ..

دعا عمرو بن العاص ولديه عبد الله ومحمدا فقال لهما : انى قد رأيت رأيا ولستما باللذين تردانى عن رأيي ، ولكن تشيران علي ... اني رأيت العرب صاروا عنزين يضطربان وأنا طارح نفسي بين جزاري مكة ولست أرضى بهذه المنزلة ، فالى أي الفريقين أعمد ؟

قال عبد الله ـــ وهو من أهل التقـــوى ـــ ان كنت لابد فاعلا فالى علي ..

قال عمرو : اني ان أتيت عليا يقول لي انما أنت رجل من المسلمين ، وان أتيت معاوية يخلطني بنفسه ويشركني فى أمره ، وكان محمد ابنه الآخر على هذا الرأي فقال لهما عمرو : أما أنت يا عبد الله فقد اخترت لآخرتي ، وأما أنت يامحمد فقد اخترت لدنياي

ويروى انه لما استشارهما قال له عبد الله : ان النبي عليه الســـلام قد توفي والشـــيخان بعده وهم راضـــون عنك ، فأرى أن تكف يدك وتجلس في بيتك حتى يجتمع الناس ، وقال له محمد : انت ناب من أنياب العرب فكيف يجتمع هذا الأمر وليس لك فيه صوت ؟ فأجابهما بما تقدم،وأتى معاوية فوجدهم يطلبون دم عثمان فمضى معهم يقول : اطلبوا دم الخليفة المقتول..

والمشهور فى رواية صاحب الامامة والسياسة ابن قتيبة أن معاوية كان غافلا عن شأن عمرو وعن خطره فى معونة أي الفريقين فأعرض عنه حتى نبهه عتبة بن أبي سفيان الى شأنه وخطره فكتب اليه يقول : « أما بعد فقد كان من أمر علي وطلحة والزبير ماقد بلغك وقد سقط علينا مروان بن الحكم في رافضة من أهل البصرة وقدم علي جرير بن عبد الله فى بيعة علي وقد حسبت نفسي عليك فأقدم على بركة الله »

وتردد عمرو قليلا بين شد الرحال وحط الرحال فقال له غلامه وردان ــ وهو من الموصوفين معه بالدهاء : اما انك ان شئت بدأتك فى نفسك : اعترضت الدنيا والآخرة على قلبك فقلت مع علي الآخرة بلا دنيا ، ومع معاوية الدنيا بلا آخرة ، فأنت واقف بينهما . فقال عمرو : ما أخطأت ما في نفسي ، فما ترى يا وردان ! فقال : أرى أن تقيم فى منزلك فان ظهر أهل الدين عشت فى دينهم ، وان ظهر أهل الدنيا لم يستغنوا عنك ، فقال عمرو : الآن حين شهرتني العرب بمسيري الى معاوية ؟

وقدم عمرو على معاوية فساومه على رضاه ، فلم يقنع بما دون ولاية مصر مدى الحياة ، وهذه صفقة كأنها صفقة المنتصر الذى يملي شروطه في حومة الحرب ، لأن ابن العاص كان واليا على مصر فعزله عثمان ولم يزل واجدا على عثمان لذلك، حتى قيل انه كان يحرض عليه ويخاذل بين أنصاره ، فاذا جاء الرجل قوما يطلبون دم عثمان فأخذ منهم ما أباه عثمان عليه فانما هو الرغم ولا مبالاة بما يقولون وبما يقال !

وشق على معاوية أن يجيبه الى هذا المطلب الضخم « فتلكأ معاوية ــ كما جاء فى الامامة والسياسة ــ وقال : ألم تعلم أن مصر كالشام ؟ قال : بلى ، ولكنها انما تكون لي اذا كانت لك ، وانما تكون لك اذا طلبت علياً على العراق .. فدخل عتبة بن أبى سفيان على معاوية فقال : اما ترضى أن تشتري عمرا بمصر ؟ ان هي صفت لك ليتك لاتغلب على الشام . فلما سمع معاوية قول عتبة بعث الى عمرو فأعطاه مصر وكتب فى أسفل الكتاب : ولا ينقض شرط طاعة ، فكتب عمرو : ولا تنقض طاعة شرطا »

وعلى هذا خرج عمرو من الصفقة غالبا غير مغلوب ، وفهم مايبتغيه فقصد اليه ولم يكن معاوية يفهم مايبتغيه الا بعد ممانعة واستعصاء .. وقد عقد معاوية لعمرو بعد ذلك أربعة ألوية : لواء له ولواء لكل من ولديه ولواء لغلامه وردان

يقال في مصطلحات عصرنا عن الحيلة التى لا تخفى ولا حاجة بها الى اخفاء انها « لعب على المكشوف » .. كأنها هى لعبة تلعب نفسها بنفسها ولا محل فيها لتدبير اللاعبين لظهوره واتباعه فى اللعب منهجا لا محيد عنه

وهكذا كانت الحيلة بين عمرو ومعاوية

قال عمرو لمعاوية : « أترى أننا خالفنا عليا لفضل منا علينا ؟ ... لا والله . ان هي الا الدنيا نتكالب عليها . وايم الله لتقطعن لي قطعة من دنياك والا نابذتك »

وعلى هذه الخطة « المكشوفة » بدأت المعاملة بين الرجلين ، وكان حظ عمرو فيها أكبر من حظ معاوية ، بالقياس الى مابذل فيه

***

أما المغيرة بن شعبة فقد كان يبيع سمكا فى البحر ويشتري به سمكا مطبوخا شهيا على المائدة

عزله الفاروق عن ولاية الكوفة لأن قوما شهدوا عليه أنهم وجدوه على ريبة مع امرأة غير امرأته ، وقال هو انها امرأته وان الأمر إلتبس على الناظرين لشبه بين المرأتين ، ولم تثبت التهمة عليه ثبوتا يوجب اقامة الحد ، ولم تسقط عنه سقوطا يزيل الشبهة ، فعزله الفاروق وأبقاه زمنا بغير عمل كأنه يؤدبه ويستتيبه ، ثم بدا له أن يعيده الى ولايته فدعاه اليه وشدد عليه ليجتنبن الشبهات حتى الظنة ، وولاه الكوفة مرة أخرى ، فلما قام عثمان بالخلافة عزله فاعتزل السياسة حتى قتل عثمان وبويع علي بالخلافة فى المدينة ، فذهب اليه يمهد فى العهد الجديد للزلفى عند الامام وعند صاحب الأمر بالشام — معاوية — فى وقت واحد ، وأشار على الامام باقرار معاوية فى ولايته ليدين له بالولاء ثم يعزله متى شاء . فلما أبى

الامام أن يقره عاد اليه فى اليوم التالى فقال : « اني أشرت عليك أول مرة بالذي أشرت وخالفتني فيه ، ثم علمت أن الصواب فيما رأيت ، فأعزلهم ـ أي ولاة عثمان ـ واستعن بمن تثق به ، فانهم أهون شوكة مما كان » ..

وعاد المغيرة الى عزلته يترقب ، ثم قصد الى معاوية بعد رجحان كفته فى أمر الحكمين غير مجازف بشيء بعد استقرار أمر الشام ـ على الاقل ـ لمعاوية وحزبه ، فولاه معاوية امرة الحج بعد انفراده بالدولة ، وكان المغيرة ينظر الى ولايته الأولى على الكوفة كما نظر ابن العاص الى ولايته الأولى على مصر ، فلما أراد معاوية أن يعهد بهذه الولاية الى عبد الله بن عمرو بن العاص ذهب اليه يبذل النصيحة التى يأخذ منها أكثر مما يهب وقال له : أتستعمل عبد الله على الكوفة وأباه على مصر ؟ .. انك بين نابي الأسد ! فاستمع له معاوية وعزل عبد الله وولاه فى مكانه ، وسمع عمرو بخبر هذه المكيدة فردها بمثلها ، ولم يطلب اعادة عبدالله الى ولايته بل قنع بحرمان المغيرة من ولاية الخراج واصطنع النصيحة للخليفة الجديد فجاءه يقول : انك تستعمل المغيرة على الخراج فيأخذه ولاتستطيع أن تنتزعه منه ، والرأي أن تولي على الخراج رجلا يخافك ولا تبالي أن تعزله متى شئت ، وأن تستعمل المغيرة على الصلاة والامارة ، فلا يقوى عليك بغير مال ، فاتبع معاوية مشورته غير كاره . لأنها أكسبته المال والعداوة بين الداهيتين

ثم استقر الأمر لمعاوية فهان عليه خطب المغيرة وهم بعزله ، فنمي الخبر الى المغيرة من عيونه حول معاوية وأشفق من غضاضة العزل، فآثر أن يذهب اليه معتزلا وأن يحتال مع ذلك حيلته التى يرغم بها معاوية على استبقائه وهو عزيز الجانب مرغوب فيه

شخص الى دمشق فاختلى بيزيد كأنه يلقاه عرضا ، ووسوس له أن يطلب الى أبيه تسميته لولاية العهد ، وزين له الأمر قائلا : « ان أصحاب النبي وكبراء قريش قد ذهبوا وبقي الأبناء وأنت من أفضلهم فلا أدري مايمنع

أمير المؤمنين أن يعقد لك البيعة ؟ قال : أوترى ذلك يتم ؟ قال : نعم .. فدخل يزيد على أبيه وأخبره بمقالة المغيرة ، فتعجل معاوية لقاءه واستدعاه ليطمئن الى حقيقة الخبر ، وابتدره سائلا : ماهذا الذي يقوله يزيد ؟.. قال : اني يا أمير المؤمنين قد رأيت مارأيت من سفك الدماء بعد عثمان ، وفى يزيد منك خلف فأعقد له البيعة بعدك ، فان حدث بك حدث كان كهفا للناس وخلفا منك ولا تسفك دماء ولا تكون فتنة .. قال معاوية : ومن لي بهذا ؟.. قال : أكفيك أنا أهل الكوفة ويكفيك زياد أهل البصرة ، وليس بين هذين المصرين أحد يخالف .. فأمره معاوية أن يرجع الى الكوفة وأن يتحدث مع ثقاته فى ذلك ، ثم يرى مايرى

قال المغيرة لبعض هؤلاء الثقات : لقد وضعت رجل معاوية فى غرز بعيد الغاية وفتقت عليهم فتقا لايرتق أبدا . ثم أجابه ناس من قبيله الى بيعة يزيد فأرسل منهم عشرة الى دمشق ولم يرسل سائرهم ليمد فى حبل المساومة ، وكان من حكمة معاوية أنه استمهلهم وطلب اليهم ألا يعجلوا باعلان رأيهم ، ولم يكن اعلان هذا الرأي من ارب المغيرة لأنه باق فى ولايته ما احتاج الأمر الى بقائه قبل اعلان البيعة والاتفاق عليها ، وفى كل أولئك كان المغيرة كاسبا لايفقد شيئا يقدر على استبقائه ، فان خرج مستعفيا فذلك خير من خروجه معزولا ، وان كانت المساومة على ولاية يزيد للعهد مجدية له فيما أراد فقد ربح ولم يخسر ، وباع السمك فى البحر والشبكة من عند غيره ، وان أعرض معاوية عن المساومة ولم يقبل عقد البيعة لابنه — وهو أبعد الفروض — فقد كسب الوالى المعزول ولاء يزيد ولم يفقد ولاء معاوية لأنه مفقود قبل ذلك .. ولعله يرمي من هذا التلويح بولاية العهد الى استثارة الأمير المحزوم واغرائه بأبيه وانتقامه منه بالكيد له فى حجاب الحرم ان لم يقدر على الانتقام منه بالثورة والعصيان ، ويقال بحق فى جميع هذه الأحوال ان المخدوع من الرجلين — معاوية والمغيرة — لم يكن هو المغيرة ان كان لابد بينهما من مخدوع

وكان زياد بن أبيه آخر المبايعين من الدهاة الثلاثة ، فلم يستطع معاوية أن يقنعه بترك فرصة من الفرص التى كان يترقبها ويؤثرها على مبايعة معاوية بالخلافة ، ولم يقبل على معاوية وله رجاء قط فى الاعراض عنه ، مع أنه كان أول المنظور الى بيعتهم فى تقدير بنى أمية ، لأنه كان ــ كما نقول فى عرف هذه الأيام ــ ولدا شرعيا لأبى سفيان ، وأخا لمعاوية من أبيه ..

ولاه علي بن أبي طالب فارس وكرمان ، فأرسل اليه معاوية يتوعده فقام زياد فى الناس خطيبا يغلظ الجواب ويرد الوعيد بمثله ، وجعل يقول فى خطبته على رؤوس أتباعه ومسمع من أعوان معاوية : « العجب كل العجب من ابن آكلة الاكباد ورأس النفاق ! يخوفني بقصده اياي وبيني وبينه ابن عم رسول الله فى المهاجرين والأنصار . أما والله لو أذن لي فى لقائه لوجدني أحمر مخشيا ضرّابا بالسيف » فكتب اليه معاوية يترضاه ويلين القول ودعاه بزياد بن أبى سفيان ، ثم قال : « كأنك لست أخي ، وليس صخر ابن حرب أباك وأبي ، وشتان مابيني وبينك . أطلب بدم ابن أبى العاص وأنت تقاتلني ، ولكن أدركك عرق الرخاوة من قبل النساء فكنت كتاركة بيضها بالعراء وملحفة بيض أخرى جناحها ، وقد رأيت ... ألّا أؤاخذك بسوء سعيك وان أصل رحمك وابتغي الثواب من أمرك . فاعلم ــ أبا المغيرة ــ انك لو خضت البحر فى طاعة القوم فتضرب بالسيف حتى ينقطع متنه لما ازددت منهم الا بعدا ، فان بنى عبد شمس أبغض الى بنى هاشم من الشفرة الى الثور الصريع وقد أوثق للذبح . فأرجع ــ رحمك الله ــ الى أصلك واتصل بقومك ، ولا تكن كالموصول يطير بريش غيره . فقد أصبحت ضال النسب ، ولعمري مافعل بك ذلك الا اللجاج . فان أحببت جانبي ووثقت بي فامرة بامرة ، وان كرهت جانبي ولم تثق بقولي ففعل جميل ، ولا علي ولا لي . والسلام »

على أن زيادا لم يستجب لدعوته حتى قتل الامام وصالح ابنه الحسن معاوية على شروط تسلمه زمام الأمر كله فى حياته ، ولبث معاوية قلقا من

جانبه لايأمن مكره وجرأته ، يقول لخاصته : مايؤمنني أن يبايع لرجل من أهل البيت فاذا هو قد أعاد علي الحرب جذعة ؟.. فتقدم المغيرة يتوسط بينهما ليشد ساعده بزياد فى كيده لابن العاص ، واستأذن معاوية فى اتيانه فأذن له أن يلقاه ويتلطف فى خطابه وجاءه المغيرة على يأس من خلافة بني هاشم وأمل مبسوط مع المواعيد وتصحيح النسب فى خلافة بني امية ، واستجاب زياد للمغيرة فى أمر البيعة لمعاوية وتمنع بعد ذلك فى أمر البيعة ليزيد بولاية العهد ، وأنفذ رجلا من ثقاته الى الخليفة ليوصيه بالاناة « فان دركا في تأخير خير من أناة فى عجلة » ولولا أنه مات قبل البيعة بولاية العهد لما استقر الأمر على قرار

هؤلاء هم الدهاة الثلاثة ، لم يغلب أحد منهم على رأيه بدهاء من معاوية وانما أفادوا منه جميعا فوق ما أفادوه

وتذكر فى هذا المعرض بيعة الحسن فلا يقول قائل من المطنبين فى دهاء معاوية أو من المقتصدين فى أمره أنه كان عملا من أعمال الدهاء دخلت فيه الحيلة على الحسن وصحابته . فانما بايع الحسن بعد أن ثار به جنده واجترأوا على نهب معسكره حتى امتدت أيديهم الى البساط الذى يجلس عليه وجرحوه فى فخذه ... وقيل فى أسباب تلك الفتنة ماقيل من مختلف الأسباب والاشاعات، فزعم بعضهم أنها نشبت فى المعسكر بعد أن شاع فيه مقتل القائد الأكبر قيس بن سعد ، وزعم بعضهم أنها نشبت فيه بعد اشاعة التسليم وقبول المصالحة بين الحسن ومعاوية ... ولا أمان على كل حال لأنصار يجترئون على امامهم بالنهب والسطو لسبب من الأسباب كائنا ماكان ، بعد ماتقدم من عنت هؤلاء الأنصار للامام فى حياته وشقاقهم فيما بينهم واستبداد كل منهم بفتواه فى أمر الدين وأمر السياسة والولاية . فلو لم يكن معاوية على حظ من الدهاء ــ قل أو كثر ــ لما استعصى عليه أن يظفر من الحسن بالمصالحة على شروطه، فضلا عن المصالحة على الشروط التى أمليت عليه

وما يذكر أحد غير هؤلاء من النابهين المعدودين الذين قصدوا الى

معاوية بالبيعة أو المؤازرة الا كان على علم بما يقصده قبل لقاء معاوية ، فلا خداع فى شأن واحد من هؤلاء المعدودين ولا انخداع

جاءه عبيد الله بن عمر ففرح به فرحا شديدا وقال لعمرو بن العاص : مايمنع عبد الله أن يجيئنا كما جاءنا أخوه ؟ قال عمرو : انما جاءك عبيد الله لأنه يخشى قصاص ابن أبي طالب منه لقتله الهرمزان بغير قضاء ، وكان عبيد الله قد قتل الهرمزان لأنه شوهد مع أبى لؤلؤة قبل مقتل أبيه وشوهد معه الخنجر الذى حمله أبو لؤلؤة ووجد معه بعد مقتل الفاروق ، فأشار الامام بالقصاص منه وأبى عثمان ذلك لكيلا يقال : قتل عمر بالأمس ويقتل ابنه اليوم . فلما بويع الامام بالخلافة فى الحجاز خرج عبيد الله الى معاوية ونادى مع المنادين بثأر عثمان ، وقال للامام فى بعض المواقف بين الجيشين : الحمد لله الذي جعلك تطلبني بدم الهرمزان وجعلني أطلبك بدم عثمان ..

***

وذهب عقيل بن أبي طالب الى أخيه يطلب منه مالا لسداد ديون عليه فأنظره موعد العطاء له ولسائر أصحاب الأعطية ، فتركه وذهب الى معاوية فقضى له جميع ديونه وقال له بعد أيام : أنا خير لك من أخيك .. قال عقيل : صدقت ! ان أخي آثر دينه على دنياه ، وأنت آثرت دنياك على دينك ، فأنت خير لي من أخي وأخي خير لنفسك منك !

فكل دهاء يذكر لمعاوية فانما يذكر الى جانبه رفد أو عطاء وولاية يستفيد منها من ينصره ولا ينخدع عنها فى مبادلة النفع بينه وبينه ، ولا جرم كان العطاء عماد هذا الدهاء ، وكان نقش الخاتم الذى تختم به بعد ولايته : « لكل عمل ثواب »

ولهذا أعياه كل الاعياء أمر المخالفين الذين لا تعمل فيهم رقية المال والولاية .. فامتنع عليه عبد الله بن عمر لأنه لم ينخدع بالدرهم والدينار « وانما ينخدع الرجال بهما » كما قال ، وامتنع عليه قيس بن سعد ذلك البطل القوي الأمين الذي حفظ عهده لعلي بن أبي طالب قبل عزله اياه

وبعد عزله ، وظل حافظا لهذا العهد بعد مقتله رضوان الله عليه ومصالحة الحسن لمعاوية وانفضاض الولايات واحدة بعد أخرى عن أعوان بني هاشم ، وقد دانت الدنيا للخليفة الجديد فأرسل الى قيس صحيفة بيضاء موقعة بتوقيعه مختومة بخاتم الخليفة يكتب فيها ما يشاء فلم يكتب فيها الا عهدا بالأمان لأصحابه الذين نصروا عليا والحسن بقيادته ، وجلس الخليفة بالكوفة يتلقى البيعة من مخالفيه القدماء فقال قيس : ان كنت لأكره مثل هذا اليوم يا معاوية ! فقال له : مه رحمك الله . عسى أن تكرهوا شيئا وهو خير لكم . قال قيس : لقد حرصت أن أفرق بين روحك وجسدك قبل ذلك فأبى الله يا ابن أبى سفيان الا ما أحب قال معاوية : فلا يرد أمر الله ! فأقبل قيس على الناس بوجهه فقال : معشر الناس ! لقد اعتضتم الشر من الخير ، واستبدلتم الذل من العز والكفر من الايمان فأصبحتم بعد ولاية أمير المؤمنين وسيد المسلمين وابن عم رسول رب العالمين وقد وليكم الطليق ابن الطليق ، يسومكم الخسف ويسير فيكم بالعسف ، فكيف تجهل ذلك أنفسكم ، أم طبع الله على قلوبكم وأنتم لا تعقلون ؟! .. فجثا معاوية على ركبتيه ثم أخذ بيده وقال : اقسمت عليك .. ثم صفق على يده ونادى الناس : بايع قيس ! فقال : كذبتم والله ما بايعت ... وضاع صوته بين الصياح والضجيج

ولم يزل أمثال عبد الله بن عمرو وقيس بن سعد بمعزل عن حزب الدولة الجديدة الا من آثر الجهاد فى غزو الأعداء ولم يجد علما للجهاد غير علم الخليفة القائم بتجنيد الجند وتجريد السرايا على أطراف الدولة من بلاد القياصرة والأكاسرة وبطلت كل حيلة من حيل « الثواب » بالمال والولاية مع أمثال هؤلاء القروم الذين كانوا بحق عند المسلمين « بقية الناس »

***

الا أن معاوية كان يصطنع الحيلة التى تجديه فى كفاح خصومه ، وان لم تكن من قبيل الغلبة بقوة العقل وصولة « الشخصية » الطاغية على من دونها فى البأس والمضاء ..

كانت له حيلته التى كررها وأتقنها وبرع فيها واستخدمها مع خصومه فى الدولة من المسلمين وغير المسلمين ، وكان قوام تلك الحيلة العمل الدائم على التفرقة والتخذيل بين خصومه بالقاء الشبهات بينهم واثارة الأحن فيهم ، ومنهم من كانوا من أهل بيته وذوى قرباه

كان لا يطيق أن يرى رجلين ذوى خطر على وفاق ، وكان التنافس « الفطري » بين ذوي الأخطار مما يعينه على الايقاع بينهم كما كان يحدث بين المغيرة بن شعبة وعمرو بن العاص بغير تدبير منه أو بتدبير هين لا تخفى خبيئته على الرجلين ، فكان يسمع لكل منهما فى الآخر ويطيع كليهما فى دسه واغرائه ليعلما بعد ذلك بما صنعه كل منهما من الكيد لصاحبه ، فلا يتفقا عليه : وما هما بمتفقين ولا مأرب لهما فى الاتفاق ، بل المأرب الذى يحرصان عليه معا أن يقوم بينهما حجاز يعطيهما ما يسألان ويكيد بكيدهما كما يحبان

ودأبه فى الوقيعة بين أهل بيته كدأبه فى الوقيعة بين النظراء من أعوانه. فلم يكن يطيق أن يتفق بنو أمية من غير بيت أبى سفيان ، ولم يكن ليهدأ ويستريح أو يوقع بين آل عمومته من بنى العاص .. قال ابن الأثير فى أخبار سنة أربع وخمسين : « وفيها عزل معاوية سعيد بن العاص عن المدينة واستعمل مروان ، وكان سبب ذلك إن معاوية كتب الى سعيد بن العاص أن يهدم دار مروان ويقبض أمواله كلها ليجعلها صافية ويقبض منه فدك وكان وهبها له ، فراجعه سعيد بن العاص فى ذلك فأعاد معاوية الكتاب بذلك فلم يفعل سعيد ، ووضع الكتابين عنده فعزله معاوية وولى مروان وكتب اليه يأمره بقبض أموال سعيد بن العاص وهدم داره ، فأخذ الفعلة وسار الى دار سعيد ليهدمها فقال له سعيد : يا أبا عبد الملك اتهدم داري ؟ قال : نعم . كتب الى أمير المؤمنين ولو كتب اليك فى هدم داري لفعلت .. فقال : ما كنت لأفعل . قال : بلى والله .. ! قال : كلا .. وقال لغلامه :ائتنى بكتاب معاوية ، فجاءه بالكتابين فلما رآهما مروان قال : كتب اليك فلم تفعل ولم تعلمني ؟ . قال سعيد : ما كنت لأمن عليك

وانما أراد معاوية أن يحرض بيننا ، فقال مروان : انت والله خير مني . وعاد ولم يهدم دار سعيد . وكتب سعيد الى معاوية : العجب مما صنع أمير المؤمنين بنا فى قرابتنا أن يضغن بعضنا على بعض .. فوالله لو لم نكن أولاد أب واحد لما جمعنا الله عليه من نصرة أمير المؤمنين الخليفة المظلوم وباجتماع كلمتنا لكان حقا على أمير المؤمنين أن يرعى ذلك .. فكتب اليه معاوية يعتذر ويتنصل وانه عائد الى أحسن ما يعهده . وقدم سعيد على معاوية فأثنى عليه خيرا فقال له معاوية : ما باعد بينه وبينك ؟ قال : خافني على شرفه وخفته على شرفه . قال : فماذا له عندك ؟ قال : اسره شاهدا وغائبا » ..

ومضى معاوية على هذه الخطة التى لا تتطلب من صاحبها حظا كبيرا من الحيلة والروية ، ولعلها تناقض الدهاء فيما ينكشف من عللها التى لا تدق على فهم أحد ، فلو انه استطاع أن يجعل من كل رجل فى دولته حزبا منابذا لغيره من رجال الدولة كافة لفعل ، ولو حاسبه التاريخ حسابه الصحيح لما وصفه بغير مفرق الجماعات ، ولكن العبرة لقارىء التاريخ فى زنة الأعمال والرجال أن تجد من المؤرخين من يسمي عامه حين انفرد بالدولة عام الجماعة ، لأنه فرّق الأمة شيعا شيعا فلا تعرف كيف تتفق اذا حاولت الاتفاق ، وما لبث أن تركها بعده تختلف فى عهد كل خليفة شيعا شيعا بين ولاة العهود !

وكانت خطة التفرقة عامة عنده لا يقصرها على الخصوم ليضرب بعضهم ببعض ويتقى شر فريق منهم بشر فريق ، بل كان يتوخى هذه الخطة مقدما ومؤخرا وبين كل فريقين وعلى كل حال وفى كل موقف كأنها غرض مقصود لذاته أو كأنها خير « مطلق » لا شرّ فيه ..

وبدأ بهذه الخطة فى السياسة العامة على عهد عثمان فخص المهاجرين بدعوته قبل مرجعه الى الشام وقام بينهم يقول بعد أن دعاه عثمان للمقال : « اما بعد يامعشر المهاجرين وبقية الشورى فاياكم أعني واياكم أريد » ... ثم اتبع ذلك بكلام طويل في معناه يقول فيه : « يا معشر

المهاجرين وولاة هذا الأمر ولاكم الله اياه فأنتم أهله ، وهذان البلدان مكة والمدينة مأوى الحق ومنتهاه وانما ينظر التابعون الى السابقين والبلدان الى البلدين فان استقاموا استقاموا وايم الله الذى لا اله الا هو .. لئن صفقت احدى اليدين على الأخرى لا يقوم السابقون للتابعين ولا البلدان للبلدين ، وليسلبن أمركم ولينقلن الملك من بين أظهركم ، وما أنتم فى الناس الا كالشامة السوداء فى الثور الأبيض .. »

ويروي بعض المؤرخين انه لما استقر له الأمر وبويع له بالخلافة وجاءه وفد الأنصار أمر أن يدعى كل منهم باسمه الى حضرته بمشورة عمرو بن العاص الذى كره أن يدعى الجمع كله باسم الأنصار ، ولكن عمرو بن العاص لم يكن معه يوحي اليه حين خصَّ المهاجرين بتلك الدعوة قبل أن يتفقا على شيء فى أمر الدولة ، ولم يكن سلطان عمرو هو الذي احتمى به الأخطل حين اجترأ على هجاء الأنصار فقال :

ذهبت قريش بالمكارم كلها ... واللؤم تحت عمائم الأنصار

فانما اجترأ الشاعر هذه الجرأة بما علم من رضى الخليفة وامانه أن يصيبه مكروه من جراء ذلك الهجاء

ولم تقف خطة التفرقة عند هذه التفرقة بين مكة والمدينة لأنه عمد الى أهل مكة والطائف فى بقعة واحدة ففرّق بينهما حين آثر الثقفيين — وهم أهل الطائف — بزلفاه،وسنّ لمن بعده سنة هذا الايثار ، فكان من رجال بني أمية المغيرة وزياد والحجاج ومحمد بن القاسم ورهط من الأقربين والصنائع ، وكانت الطائف على عهد معاوية وخلفائه كالحرس على أهل مكة ممن بقي فيها غير الأمويين السفيانيين ، وقد أوقع بين هؤلاء الأمويين كما تقدم فقسمهم بين بني حرب وبني العاص ، وقسم بني العاص بين بيت سعيد وبيت مروان

* * *

ومن خطط التفرقة التي حسنت لديه في حينها ، وساءت عقباها بعد حين ، وبعد كل حين — ذلك النزاع المشئوم بين اليمانية والمضرية ، أو بين

الكنيين والقيسيين على اختلاف النسب والعناوين ، وقد خبط الأكثرون من مؤرخي العصر في تعليله بمختلف العلل ، الا العلة المقصودة التي دبرت في ذلك العصر أسوأ تدبير ، ولعل المدبرين كانوا يحسبونه يومئذ أحسن تدبير ..

فالعصبية في القبــائل العــربية خليقة لا تهمل في حساب المنــازعات والمناظرات في زمن من الأزمان ، ولكنه من السخف أن يقال ان العصبية كانت علة انتصار اليمانية لبنى أمية على بني هاشم ، وان اعتزاز الهاشميين بالنبوة هو الذي أحفظ عليهم صدور القبــائل من غير المضريين الذين ينتمي اليهم بيت النبوة من بنى هاشم

فقد كان بنو هاشم وبنو أمية جميعا من قريش ، وكان اعتزاز بنى أمية بالنسبة القرشية أظهر وأجهر من اعتزاز الهاشميين عند قيام دولتهم ـــ دولة الأمويين ـــ اذ كانت هذه النسبة حجتها من جانب النسب في استحقاق الخلافة وقد كانت اليمن هي القطر الوحيد الذي رحب بوالي الامام علي في أول بيعته ، وكان الأنصار أهل المدينة من حزبه وهم ـــ بين أوس وخزرج ـــ ينتمون الى اليمانية ، وكانت كندة تنصره وظلت على نصرته ونصرة أبنائه زمنا طويلا بعد قيــام الدولة الأموية والدولة العباسية ، وكان أشد أعوان الفاطميين بعد ذلك من اليمانية في المشرق وفي المغرب ولما تلاقى جيش علي وجيش معاوية في وقعة صفين كانت القبيلة العربية الواحدة تقاتل في كلا الجيشين .. قال ابن الأثير : « وسأل علي عن القبائل من أهل الشام فعرف مواقفهم فقال للازد : اكفونا الازد ، وقال لخثعم : اكفونا خثعم ، وأمر كل قبيلة أن تكفيه أختها من الشام الا أن تكون قبيلة ليس منها بالشام أحد فيصرفها الى قبيلة أخرى من الشام ليس بالعراق منهم أحد مثل بجيلة لم يكن بالشام منهم الا القليل صرفهم الى لخم ... »

فالنزاع بين اليمانية والمضرية لم يكن نزاعا على فخر النبوة ولا على فخر الخلافة عند بداءة أمره ، وانما كان نزاعا بين سلاحين أو بين جيشين

افسين فى مكان واحد عدا ما هنالك من النزاع بين الفكرتين . ونحن
ى فى عصرنا ــ وفى كل عصر ــ أمثال هذا التنافس بين الأسلحة كلما
ح ولاة الأمر الى فريق منهم دون فريق ، وقد رأينا هذا التنافس بين
لاح البر وسلاح البحر وسلاح الهواء فى الجمهورية الفضية وكلهم من
نس واحد أو قومية واحدة لأن ولاة الأمر هناك يؤثرون سلاحا على
لاح فى التنازل بينهم على السند الذى يستندون اليه

لقد كانت عصبية النسب عنوانا من عناوين الخلاف بين قبائل اليمن
قبائل مضر فى دولة بنى أمية بالشام ، ولكن هذه العصبية لم تكن لازمة
ل اللزوم لاثارة الخلاف حينما أريد لغرض من أغراض السياسة ، وقد
دث مثله بين قبائل اليمن وحدث مثله بين قبائل مضر على حسب
لطوارىء والمناسبات ، ولو كان الجند كلهم من قبيلة واحدة وأراد ولى
الأمر أن يثير المنافسة بينهم لما أعياه ذلك كما حدث فى هذا العصر بين
الشعوب الامريكية فى الجنوب على ما قدمناه .

ومعاوية كان يريد النزاع بين اليمانية والمضرية ولم تكن له من خطة
ثابتة فيه غير التفرقة بينهم تارة الى هؤلاء وتارة الى هؤلاء ، وقد كان
هو نفسه من المضريين ولكنه كان يبدو فى بعض الأحايين كأنه من أبناء
اليمن عدو لأبناء مضر ، وطابت له هذه السياسة فاستمرأ مرعاهم الوخيم
حتى كانت عقباها ضياع الدولة الأموية كلها بعد جيلين .

***

وأبرع ما برع فيه من ألوان الدهاء القاء الشبهة بين خصومه فى زمن
كانت فيه هذه الشبهات من أيسر الأمور ، لكثرة التقلب والتحول فى
الدول والممالك بين أنصار اليوم وخصوم الأمس أو أنصار الأمس
وخصوم اليوم ..

كان اذا أراد أن يستميل أحد البطارقة من دولة الروم فاستعصى عليه
كتب له رسالة مودة وثناء وأنفذها مع رسول يحمل اليه الهدايا والرشى
كأنها جواب على طلب منه يساوم فيه على المصالحة والغدر برؤسائه من

دولة الروم ، ويخرج الرسول العربى من طريق متباعد كأنه يتعمد الروغان من العيون والجواسيس ، فاذا اعتقله الروم ــ ولابد أن يعتقلوه لأنه يتعرض للاعتقال ويسعى اليه ــ وقعت الشبهة على البطريق المقصود وتعذر الاطمئنان اليه من قومه بعد ذلك ، وعزلوه وأبعدوه ان لم ينكلوا به أشد النكال ..

وقد احتال بمثل هذه الحيلة على قيس بن سعد حتى أوقع الريبة منه فى نفس الامام وساعدته الحوادث على خلق هذه الريبة كما أجملنا ذلك فى كتابنا عن عبقرية الامام « فشبهاته لم تكن بالقليلة ولا بالضعيفة . فان قيس بن سعد لم يدخل مصر الا بعد أن مر بجماعة من حزب معاوية فأجازوه ولم يحاربوه وهو فى سبعة نفر لا يحمونه من بطشهم ، فحسبوه حين أجازوه من العثمانيين الهاربين الى مصر من دولة علي فى الحجاز ، ولما بايع المصريون عليا بقي العثمانيون لا يبايعون ولا يثورون وقالوا لسعد : امهلنا حتى يتبين لنا الأمر ، فأمهلهم وتركهم وادعين حيث طاب لهم المقام بجوار الاسكندرية .. وأراد الامام أن يستوثق من الخصومة بين قيس ومعاوية فأمر قيسا أن يحارب المتخلفين عن البيعة فلم يفعل وكتب اليه يقول : اننا متى قاتلنا ساعدوا عليك عدوك وهم الآن معتزلون ، والرأى تركهم ... »

وتعاظمت بعد ذلك الظنون فى زمن صدقت فيه أكثر هذه الظنون . فاما معاوية فلم يكن يكربه الظن ولا الشبه بالظن لأنه يعلم المنفعة التى يعطيها والمنفعة التى يريده أعوانه من أجلها ، واما الامام فلم تكن له عصمة من الظن غير الحيطة وغير التجربة ، ولم تكن للتجربة سابقة مقطوع بها بل كانت كلها مما سينجلي عنه مستقبل مجهول

فهذه الحيلة ــ حيلة الشبهة ــ كانت من أنجح الحيل فى سياسة معاوية مع خصومه ، لأنه زمن الشبهات وهى كثيرة فيما ابتلاه أولئك الخصوم ، وقد نجحت ونجعت بفضلين لا بفضل واحد : أحدهما فضل التدبير والآخر فضل الحوادث بغير تدبير

وحيلة أخرى لا نجزم بها ولكننا نشير اليها فى مكانها مما رواه الرواة عن الوسـائل « الخفية » التى توسل بها معـاوية للغلبة على خصومه ومنافسيه ، وحسبت يومئذ من ضروب دهائه ، أو من ضروب كيده وهو مرادف عند عامة القوم لمعنى الدهاء

مات الحسن ومات مالك بن الأشتر الذي ولاه الامام مصر بعد عزل قيس ، ومات عبد الرحمن بن خالد بن الوليد وعوجلوا جميعا بغير علة ظاهرة فسبق الى الناس ظن كاليقين انها غيلة مدبرة ، وان صاحب الغيلة من كان له نفع عاجل بتدبيرها ، وهو معاوية

***

ونقل عن ابن العاص بعد موت الأشتر انه قال : « ان لله جنودا من عسل » ... وكان موت الأشتر بعد شربة من العسل لم تمهله غير ساعات

ونقل الخبر عن دس السم للحسن رضوان الله عليه مؤرخ من الأمويين هو أبو الفرج الأصفهاني صاحب الأغاني المشهور

قال في كتابه مقاتل الطالبيين : « ارسل معاوية الى ابنة الأشعث اني مزوجك بيزيد ابني على أن تسمِّي الحسن بن علي ... وبعث اليها بمائة ألف درهم فقبلت وسمَّت الحسن فسوغها المال ولم يزوجها من يزيد — فخلف عليها رجل من أهل طلحة فأولدها ، فكان اذا وقع بينهم وبين بطون قريش كلام عيَّروهم وقالوا : يا بني مسمّة الأزواج » ..

وقال ابن الكلبي عن أبيه في سبب موت الأشتر : « انه لما سار الأشتر الى مصر أخذ فى طريق الحجاز فقدم المدينة فجاءه مولى لعثمان بن عفان يقال له نافع وأظهر له الود وقال له : انا مولى عمر بن الخطاب . فأدناه الأشتر وقربه ووثق به وولاه أمره ، فلم يزل معه الى عين شمس فلمـا وصل الى عين شمس تلقاه أهل مصر بالهدايا وأسقاه نافع المذكور العسل فمات منه ... وقال ابن سعد انه سم بالعريش ، وقال الصوري صوابه القلزم .. »

وجاء في أخبار سنة ثمان وثلاثين لابن الأثير : « خرج الأشتر يتجهز الى مصر وأتت معاوية عيونه بذلك فعظم عليه وكان قد طمع في مصر فعلم أن الأشتر ان قدمها كان أشد عليه من محمد بن أبي بكر فبعث معاوية الى المقدم على أهل الخراج بالقلزم وقال له : ان الأشتر قد ولي مصر فان كفيتنيه لم آخذ منك خراجا ما بقيت وبقيت . فخرج الجايسات — وفي رواية الطبري الجايستار — حتى أتى القلزم وأقام به وخرج الأشتر من العراق الى مصر فلما انتهى الى القلزم استقبله ذلك الرجل فعرض عليه النزول فنزل عنده فأتاه بطعام فلما أكل أتاه بشربة من عسل قد جعل فيه سما فسقاه اياه فلما شربها مات ... وقام معاوية خطيبا ثم قال : « اما بعد فانه كانت لعلي يمينان فقطعت احداهما بصفين — يعني عمار بن ياسر — وقطعت الأخرى اليوم — يعني الأشتر »

***

واتفق ابن الأثير والطبري على رواية واحـدة في الجملة عن موت عبد الرحمن بن خالد بن الوليد « وكان سبب موته — كما جاء في ابن الأثير — انه كان قد عظم شأنه عند أهل الشام ومالوا اليه لما عندهم من آثار أبيه ولغنائه في بلاد الروم ولشدة بأسه ، فخافه معاوية وخشي منه ، وأمر ابن اثال النصراني أن يحتال في قتله وضمن له أن يضع عنه خراجه ما عاش وأن يوليه خراج حمص ، فلما قدم عبد الرحمن من الروم دس له ابن اثال شربة مسمومة مع بعض مماليكه فشربها فمات بحمص فوفى له معاوية بما ضمن له ، وقدم خالد بن عبد الرحمن المدينة فجلس يوما الى عروة بن الزبير فقال له عروة : ما فعل ابن اثال ؟ فقام من عنده وسار الى حمص فقتل ابن اثال فحمل الى معاوية فحبسه أياما ثم غرمه ديته ، ورجع خالد الى المدينة فأتى عروة،فقال عروة : ما فعل ابن اثال ؟ فقال : قد كفيتك ابن اثال ولكن ما فعل ابن جرموز ؟ يعني قاتل الزبير . فسكت عروة ! » ..

وسبق الطبري فقال : « ذكر ابن جرير وغيره ان رجلا يقال له ابن اثال

ـ وكان رئيس الذمة ـ سقاه شربة فيها سم فمات ، وزعم بعضهم أن ذلك عن أمر معاوية له في ذلك ولا يصح ، ورثاه بعضهم فقال :

أبوك الذى قاد الجيوش مغـربا
الى الروم لما أعطت الخرج فارس
وكم من فتى نبَّهته بعد هجعـة
بقرع لجـام وهـو أكتع ناعس
وما يستوي الصفان صف لخالد
وصف عليه من دمشق البرانس

وقد ذكروا انخالد بن عبد الرحمن بنخالد قدم المدينة فقال عروة بن الزبير : « ما فعل ابن اثال ؟ » فسكت . ثم رجع الى حمص فثار على ابن أثال فقتله فقال : « قد كفيتك اياه . ولكن ما فعل ابن جرموز ؟ فسكت عروة . ومحمد بن مسلمة فى قول »

***

وشاعت الشوائع بمثل ذلك عن آخرين من أعداء معاوية ومنافسيه ، يملى للناس فى تصديقها ان هؤلاء الأعداء ماتوا بغير علة موصوفة فى الموعد الذي يبغيه معـاوية وتترتب عليـه سياسته التى كان يرجئها الى مواعدها ... فالحسن يموت قبل بيعة يزيد كي لا يخرج معاوية على شرطه المكتوب للحسن ، ومالك بن الأشتر يموت على أبواب مصر ، وعبد الرحمن بن خالد يموت وهو فى أوج سمعته بين قوم أعجبوا من قبله بأبيه ، وبوشك أن يتجمع حوله النـاقمون من أهل الشـام وأهل الكوفة والحجاز ... وكله مما يذكر ولا يعجل بنفيه ولكنه لا يقوم عليه دليل قاطع ، وأضعف ما فى هذه الروايات تكرار المكافأة باسقاط الخراج وهى مكافأة لا توافق جنايات الغدر والغيلة لأنها تتجدد فى كل موعد خراج ولا يزال السؤال عن سبب اسقاطه متجددا بين العمال وأصحاب الأمر حتى تنكشف المكيدة كلها مع الأيام ، وما كان معاوية بعاجز عن المكافأة على دس السم للأعداء ببذل المال المعجل والمؤجل فى الخفاء ، فلا

يسع المؤرخ أن يقبل هذه التهم جازما ولا أن يرفضها جازما ، ولكن الشبهات والأقاويل وحدها تحدثنا بالشيء الكثير عن ظنون الناس بمعاوية ووسائله الى قضاء ما يبغيه

***

ونحسب أننا فى هذا الفصل قد ألممنا بأفانين الدهاء التى نسبت الى رأس الدولة الأموية ، ويتبين منها جميعا أن دهاءه من قبيل الدهاء الذى يعول على قضاء المصالح وتبادل المنافع،ويتساوى فيه دهاء الطرفين أو يكون الرجحان من قبل الطرف الآخر . فليس دهاء معاوية من قبيل ذلك الدهاء الذي يسوق الأعوان سوقا الى خدمة مقاصده بسلطان القدرة العقلية الخارقة وغلبة الاقناع الذي لا برهان فيه على الحقيقة ولكنه ضرب من «التنويم المغناطيسي» تعمل فيه المشيئتان بمشيئة واحدة

وانما استطاع معاوية أن يستهوي الناس اليه بقضاء المصالح لقيامه على ولاية الشام عشرين سنة واستئثاره بأقطارها جميعا على أيام عثمان ابن عفان ، واحتجازه لما شاء من أموالها وخيراتها وولاء أعوانها بغير رقابة عليه بعد أيام الفاروق ..

فالرجل على نصيب متوسط من العقل يملي له طبع مفطور على الاناة لم تتعجله الحوادث قط كما تعجلت منافسيه فى الحجاز والعراق ، وكان ذلك النصيب حسبه من العدة في ذلك النزاع الذى لا سواء فيه بين المصاعب والعقبات من الجانبين

***

ولو أنه قورن بينه وبين زملائه فى سعة الدهاء لكان آخر الأربعة صفا،أو لم يكن على اليقين أول الأربعة قبل عمرو بن العاص على الخصوص فان الفارق بينهما كالفارق بين العبقرية والدربة أو بين العقل المشبع بالقوة الحيوية والعقل الذى قصاراه من الرأي أن يحذر ويتربص ويتجنب حيثما كان ...

كان دهاء عمرو سلاح هجوم ودفاع ، وكان دهاء معاوية سلاح دفاع

دائم على أحسن الأحوال ، وكان هو يجهل موازين الرجحان بين الدهاءين ويحسب أن اتقاء العواقب هو كل ما يطلبه الداهية من دهائه ، كأنما الدهاء سلاح يعمل عمل الدرع ولا يعمل عمل السيف أو السهم فى وقت من الأوقات ..

سأل معاوية عمرو بن العاص : ما بلغ من عقلك ؟ قال : ما دخلت فى شيء قط الا خرجت منه . قال معاوية : لكنني ما دخلت فى شيء قط وأردت الخروج منه !

ولم يكن عمرو ليقتحم المخاطر على الرغم منه ثم يبحث عن مخارج النجاة منها ، ولكنه كان يقتحم الخطر ويقول غير مرة : « عليكم بكل مزلقة مهلكة » ... لأنه كان على ثقة بدهائه كلما ثاب اليه ، وعلى وفاء لطبيعة الاقدام والاقتحام التى تقترن بالعبقرية ودوافع القوة والحيوية ، وليس من عزم الأمور دهاء لا يندفع بصاحبه فى المضمار ولا يرجى من نفعه قط الا انه لجام

***

ولا نكران — بعد — لدهاء معاوية على هذا التقدير ، وانما قصاراه من هذا التقدير انه لم يضيع الفرصة التى سنحت له وانه صبر فى انتظارها وأطال الصبر غير متعجل لها قبل أوانها . وقد كان ذلك حسبه فيما توخاه

الحِلم

اشتهر معاوية بعد الدهاء بالحلم ، وأجمع مؤرخوه من مادحيه على وصفه بهاتين الصفتين . وقد أفرد ابن أبى الدنيا وأبو بكر بن عاصم تصنيفا فى حلمه ، وقال قبيصة بن جابر : « صحبت معاوية فما رأيت رجلا أثقل حلما ولا أبطأ جهلا ولا أبعد أناة منه » وردد المؤرخون كلمة قبيصة هذه وزادوا عليها كلمات بمعناه لغيره من عشرائه ورواة أخباره

ولم يفخر معاوية بصفة كما كان يفخر بحلمه . كان يفاخر خاصته بالدهاء بينه وبينهم ، ولكنه لم يفخر قط بالدهاء علانية كما كان يفخر بالحلم والاناة ، ولا غرابة فى ذلك من جميع الوجوه . فما من رجل على نصيب من الدهاء يعلن دهاءه ويفخر به وهو يستطيع أن يخفيه ويموهه بالنصيحة والصراحة . ومن صنع ذلك فهو كالصائد الذى يكشف حبالته للقنيصة وهى خليقة ألا تقع فيها اذا انكشفت لعينها

ووجه آخر من وجوه الجهر بالحلم وتذكير الناس به عند معاوية انه كان حريصا على التحبب الى الناس لأنه ينتزع سلطانه ويعلم أن الناس لا ينطوون على الحب لمن ينتزع السلطان . ان لم يكن نخوة وانفة فحسدا وغيرة ، أو اعراضا عن الغاصب الى من هو أولي بالسلطان في رأي أصحاب هذا الرأي واقبالا على مستحقه عندهم بغير نزاع

سئل : أي الناس أحب اليك ؟ قال : أشدهم تحببا لي الى الناس »

وغني عن القول ان الصفح عن المسيء مع القدرة على البطش به من أقرب الوسائل الى كسب ولائه وكسب ولاء غيره ممن يسمع بالخبر ويحمده ، ولم يكن معاوية ولا شيعته يقصرون فى اذاعة كل خبر فيه مأثرة من مآثر العفو والاناة والبر بكل مسيء من أولئك الذين كانوا يتطاولون

عليه بالمساءة فى أول عهده بالملك على الخصوص ، ولم يكن عدد هؤلاء المسيئين بالقليل ..

كان يقول : اني لأرفع نفسي أن يكون ذنب أعظم من عفوي ، وجهل أكبر من حلمي ، وعورة لا أواريها بستري ، واساءة أكثر من احساني

وكان يقول فى مجالسه : « لو أن بيني وبين الناس شعرة ما انقطعت »، وسأله بعضهم : كيف ذلك ؟ فقال : « كنت اذا شدوها أرخيتها واذا أرخوها شددتها » ..

وخطب يوما فقال : « والله لا أحمل السيف على من لا سيف له ، وان لم يكن منكم الا ما يستشفي به القائل بلسانه فقد جعلت ذلك دبر أذني وتحت قدمي » ..

وحدّ الحلم عنده ألا يكون فى العدوان والتطاول مساس بملكه وسلطانه : اغلظ له رجل فأكثر فقيل له : أتحلم عن هذا ؟ فقال : اني لا أحول بين الناس وبين ألسنتهم مالم يحولوا بيننا وبين ملكنا »

ووجه آخر غير هذه الوجوه كان من دواعي اللهج عند معاوية بفضيلة الحلم قبل غيرها من الفضائل التى كان فى وسعه أن يلهج بها كالعطاء والتدبير وعلو الهمة وما الى ذلك من المناقب التى يسلمها له الأنصار ولا يجحدها كثير من الخصوم

كان الحلم دعاية سياسية فى خصومته مع علي بن أبي طالب بما اشتهر به من فضائل الشجاعة والأمانة والتقوى

كان الحلم صفة من أعز صفات الرئاسة عند الأمة العربية ، وما نحسبها غالت قط بمحمدة من محامد الرئاسة مغالاتها بالحلم وقرينه «الحكمة» ..

وربما مدحوا الكرم والشجاعة فأكثروا فى مديحهما اكثارهم فى القول المعاد من قبيل تحصيل الحاصل ..

فأما الحلم فقد كانوا يغالون فى الثناء عليه لأنه محمدة يطلبونها فى الرؤساء ولا تجرى مجرى الصفات المبذولة لسائر المتصفين ، ولما اختلفه

علي ومعاوية لم يكن أحد ينكر على عليّ شجاعته وتقواه وسابقته الى الاسلام وقرابته من رسول الله ، فاذا شاء معاوية أن يوازيه بصفة من صفات الرئاسة فتلك هي الحلم دون غيره ، ودعواه فيها أنه هو صاحب الرأي والحلم والحزم ، وان عليا صاحب الشجاعة والصلاح ، وقد شاعت الموازنة بينهما بهذا المعنى على ألسنة الدعاة من حزب معاوية وكاد أن يقبلها الناقدون لعلي من حزبه لاشتداده فى الحق الذى لامثنوية فيه ، وأمسك معاوية عن كل لجاجة فى أمر التقوى والصلاح ليقول كلما نافس عليا وابنه الحسن : ان لم أكن خيركم فأنا خيركم لدنياكم

فالحلم عند معاوية وسيلة من وسائل التحبب الى الناس ، ووسيلة من وسائل الدعاية السياسية يعزز بها حجته ولا يستطيع أن يفخر بصفة غيرها فى مقام المفاضلة بينه وبين الرجل الذى سلم له المنصف والمكابر بفضيلة الشجاعة وفضيلة التقوى

***

لا جرم كان فى أخبار حلمه افراط ومجاوزة للمألوف من أمثاله ، وكان من أهله من يثور لافراطه هذا ويحس الهوان فى عزته لما يحتمله صاحب الأمر كله فى دولتهم من الجرأة عليه وعليهم ، وكان يزيد ــ ابنه وولي عهده ــ أشد هؤلاء الثائرين سخطا على أبيه ، يقول له كلما راجعه : « أخاف أن يعد ذلك منك ضعفا وجبنا » .. فيقول له : « أي بني ! انه لا يكون مع الحلم ندامة ولا مذمة . فامض لشأنك ودعني ورأيي »

وقد يعزى غضب يزيد من ذلك الحلم « المفرط » الى سورة الشباب وحب الاستطالة بالعزة والسؤدد على عادة أترابه وأنداده ، ولكن الرأى بين آل بيته « المحنكين » أنه كان يبالغ فى احتمال الأذى والصبر على المساءة ، وكان رجل فى حنكة عبد الملك بن مروان يسمى ذلك منه دهانا كما قال فى بعض خطبه : « ما أنا بالخليفة المستضعف يعنى عثمان ، وما أنا بالخليفة المداهن يعنى معاوية ، وما أنا بالخليفة المأفون ــ يعنى يزيد »

ومما يدل على أن الفخر بالحلم دخل فى دعاية الخصومة بين معاوية وعلي خاصة أننا لا نسمع به بعد تأسيس الدولة ولا يفخر به أحـد من الأمويين غير الفــرع المؤسس لدولتهم فى ابان النزاع الأول على الخلافة ..

فالمعلوم ان بنى أمية فرعان : فرع حرب وفرع أبى العاص ، والى حرب ينتمى أبو سفيان وابنه معاوية ، والى أبى العاص ينتمى مروان بن الحكم ومن خلفه من ذريته ، وفى مقدمتهم ابنه عبد الملك وحفيده سليمان ابن عبد الملك ..

***

فالمفاخرة بالحلم انما كانت تجرى على لسان معاوية ولم تجـر بعده على لسان المروانيين حين تأسست الدولة الأموية واستغنى القائمون بها عن مقابلة فضائل علي بن أبى طالب بفضائل « سياسية » يرجحون بها أنفسهم فى ميزان الخصومة

كان معاوية يقول : اذا لم يكن الأموي حليما فقد فارق أصله وخالف آباءه ..

وكان يقول : « يابنى أمية ! فارقوا قريشا بالحلم . فوالله لقد كنت ألقى الرجل فى الجاهلية فيوسعنى شتما وأوسعه حلما فأرجع وهو لى صديق ، ان استنجدته أنجدنى وأثور به فيثور معى ، وما وضع الحلم عن شريف شرفه ولا راده الا كرما »

وكان المتقربون اليه يذكرونه حلم أبى سفيان اذا أنكروا منه سورة النقمة والغضب . وقيل له بعد مقتل حجر بن عدى : أين غاب عنكم حلم أبى سفيان ؟ فكان يقول : حيث غاب عنى حلماء قومى وحملنى ابن سمية فاحتملت . وقال للسيدة عائشة حين سألته مثل هذا السؤال : لم يــكن معى رشيد ..

ولا شك ان معاوية قد أقام فخره بالحلم على سمعة قديمة فى بيته بين بيوت بنى أمية ، لأن هذا الفخر لا يخلق بين يوم وليلة فى البلاد العربية

التى تذكر وراثاتها وتعيدها ولا تخاطب بها من يجهلها ، ومن المشهور أن حرب بن أمية أصلح بين قريش وهوازن فى حرب الفجار الثانية بعد اقتتال يسير ، وان ابنه سفيان كان يتأنى ولا يتهجم فى خصومات الجاهلية وخصومات الاسلام ، ولا يمتنع مع هذا كله أن يكون الفخر بالحلم من دعايته السياسية عند تأسيس الدولة والحاجة اليه فى المفاضلة بين المتنازعين بمناقب الحكم والرئاسة ، وقد سكت عنه الأمويون على عهد الفرع الآخر منهم ـ وهو فرع المروانية ـ لأنهم لم يحتاجوا اليه فى منازعاتهم ، بل كان منهم من يفخر بالفتك ويسرع الى الغضب ويرهب المخالفين له بسرعة البادرة اليه

***

والوقائع ـ بعد ـ أصدق من اطراء المادح وغمز القادح ، فانها قد تمتزج بالكذب عمدا أو على غير عمد ، ولكنها فى كثير من الأحوال تنقض كلام قائلها اذا عرضت على التمحيص والتحليل فيسوقها للمدح وهى منطوية على دخيلة تبطل مديحه المقصود ، أو يسوقها للقدح وما تنطوى عليه آية من آيات الثناء والمديح

والوقائع التى رويت عن حلم معاوية متواترة متكررة ، تتفق فيها الكلمات أحيانا ويختلف فيها القائلون والرواة ، أو يتفق فيها هؤلاء جميعا بغير اختلاف كبير ، وهكذا معظم الوقائع التى رويت عن أعلام ذلك الجيل وما بعده ، فلابد فيها من حساب للمبالغة وحساب للترجيح والتصحيح بالمقارنة والمضاهاة

وليست كل هذه الوقائع ـ مع ذلك ـ بصالحة للاستدلال بها على حلم معاوية ولو بعد ثبوتها باختلاف أو بغير اختلاف

فمنها ماتعرض فيه للاساءة مستدعيا لها مستعدا لها فى مجال التبسط والمزاح ، والعالم الاسلامى لم يتعود بعد طغيان الملك ولم يتعود ملوكه أن يسوموا الناس الصبر على ما يكرهون ولا يترقبوا منهم رد الكلام بمثله فى كل مقام ..

قدم جارية بن قدامة السعدى عليه فقال : من أنت ؟ قال : جارية بن قدامة . قال : وما عسيت أن تكون ؟ هل أنت الا نحلة ؟ قال : لا قل . فانما شبهتنى بها حامية اللسعة حلوة البصاق . ووالله ما معاوية الا كلبة تعاوى الكلاب وما أمية الا تصغير أمة !

ور ويت هذه القصة على رواية أخرى ، فقيل ان معاوية بادره قائلا : « أنت الساعى مع على بن أبى طالب والموقد النار فى شعلل ـ جمع شعلة ـ تجوس قرى عربية لتسفك دماءهم ؟ فقال جارية : يا معاوية . دع عنك عليا فما أبغضنا عليا منذ أحببناه ولا غششناه منذ صحبناه . فقال له معاوية : ويحك يا جارية ! ماكان أهونك على أهلك اذ سموك جارية لا أم لك ! . قال جارية : أم ما ولدتنى . ان قوائم السيوف التى لقيناك بها بصفين فى أيدينا .. انك لم تملكنا قسرة ولم تفتتحنا عنـوة ، ولكن أعطيتنا عهودا ومواثيق فان وفيت لنا وفينا وان ترغب الى غير ذلك فقد تركنا وراءنا رجالا مدادا وأذرعا شدادا وأسنة حدادا . فان بسطت الينا فترا من غدر دلفنا اليك بباع من ختر ... قال معاوية : لا أكثر الله فى الناس من أمثالك

وما نظن معاوية كان مخاطبا بذلك الخطاب رجلا يوصف فى عصرنا هذا بأنه من « آكلي النار » ثم لا يترقب منه جوابا كجوابه ، ولعـله كان يرضيه أن يسمع منه تسليما واستكانة فيطمئن الى غلبته ورسوخ سلطانه ولكنه ـ ولا ريب ـ لم يغب عن ذهنه أن جارية أهل لأن يسمعه ماسمع وان يطرفه بتلك الطرافة اللاذعة التى لا يأباها كثير من الناس ، وهى طرافة الجواب السريع المتوقع ممن يحسن رد الـكلام بمثله فى هذا المقام ..

ومن الجواب المستدعى ـ أو المستثار ـ قول خريم بن فاتك وقد دخل على معاوية مشمرا مئزره فقال له : « لو كانت هاتان السـاقان لامرأة ؟ » وكان معاوية عظيم الاليتين يهجى فيقال فيه انه « الجاحظ

العين العظيم الحاوية » فما عتم خريم ان أجابه قائلا : « فى مثل عجيزتك يا أمير المؤمنين » ! ...

وأشبه بهذا المقام حواره مع الزرقاء بنت عدى خطيبة صفين حين ذكرت فى مجلسه بعد سنوات فارسل اليها يستدعيها . فقالت للرسول : ان كان أمير المؤمنين جعل الخيار لى فانى لا أذهب ، فلما شدوا عليها فى الذهاب دخلت المجلس وفيه عتبة بن أبى سفيان ، والوليد ، وسعيد ابن العاص وعمرو بن العاص ، فهش لها ورحب بها ، ثم سألها : أتدرين فيم بعثت اليك ؟ ..

قالت : وانّى لى بعلم مالم أعلم .. لا يعلم الغيب الا الله ..

فسكت هنيهة ثم قال : ألست أنت الراكبة الجمل الأحمر فى صفين تحضين الناس بين الصفين على القتال ؟

قالت : نعم !..

قال : فما حملك على ذلك ؟

قالت : يا أمير المؤمنين . مات الرأس وبتر الذنب ولن يعود ما ذهب والدهر ذو غير ، ومن تفكر أبصر ، والأمر يحدث بعده الأمر

قال : صدقت . أتحفظين كلامك يومئذ ؟

قالت : لا والله : أنسيته

قال : لكنى أحفظه ، ولله أبوك حين تقولين : « أيها الناس ! ارعووا وارجعوا . انكم أصبحتم فى فتنة ، غشيتكم جلابيب الظلم ، وجارت بكم عن قصد المحجة ، فيالها فتنة عمياء ، صماء ، بكماء ، لا تسمع لناعقها ، ولا تسلس لقائدها ، ان المصباح لايضىء فى الشمس والكواكب لا تنير مع القمر ، ولا يقطع الحديد الا الحديد

واسترسل فى قول الرواة يعيد عليها كلامها الى أن قال :

ــ والله يا زرقاء .. لقد شركت عليا فى كل دم سفكه

قالت : أحسن الله بشارتك وادام سلامتك ، فمثلك بشر بخير وسر جليسه ..

قال : أو يسرك ذلك ؟
قالت : نعم
قال معاوية : والله لوفاؤكم بعد موته أعجب الىّ من حبكم فى حياته اذكرى حاجتك ..
قالت : يا أمير المؤمنين آليت على نفسى لا أسألن أميرا أعنت عليه أبدا ولكنه على هذا أجزل لها العطاء وأرضاها
وجاءته بكارة الهلالية بالمدينة ، وقد أسنت وغشى بصرها ، فسلمت وجلست ، فرد عليها السلام وقال : كيف أنت يا خالة ؟
فقالت : بخير يا أمير المؤمنين . قال : غيّرك الدهر . قالت : كذلك هو ذو غير ، ومن عاش كبر ، ومن مات قبر
قال عمرو بن العاص : هى والله القائلة ياأمير المؤمنين :

يا زيد دونك فاحتضر من دارنا
سيفا حساما فى التراب دفينا
قد كنت أذخره ليوم كريهة
فاليوم أبرزه الزمان مصونا

وقال مروان : هى والله القائلة يا أمير المؤمنين :

أترى ابن هند للخلافة مالكا
هيهات ! ذاك وان أراد بعيد
منتك نفسك فى الخلاء ضلالة
أغراك عمرو ـ للشقا ـ وسعيد

وقال سعيد بن العاص : هى والله القائلة :

فالله أخر مدتى فتطاولت
حتى رأيت من الزمان عجائبا
فى كل يوم للزمان خطيبهم
بين الجميع لآل أحمد عاتبا

فقالت بكارة : نبحتنى كلابك يا أمير المؤمين .. وأنا والله قائلة ماقالوا ،

لا أدفع ذلك بتكذيب ، وماخفى عليك منى أكثر ، فامض لشأنك ، فلا خير فى العيش بعد أمير المؤمنين ...

فضحك معاوية وقال : ليس يمنعنا ذلك من برك . اذكرى حاجتك ، قالت : أما الآن فلا ...

ويتم الرواة روايتهم فيقولون انه قضى حوائجها وردها الى بلدها ..

***

ولا مخالفة للمعهود فى ازدلاف المزدلفين لصاحب الأمر بالوقوع فى خصمه بمحضر ممن يكره ذلك من خاصة أهله . فان نجا المزدلف بزلفاه فقد رضى وأرضى ، وان أصيب كما أصاب فليست كل كلمة يزجيها الملقى فى مجلس الأمير مستحقة من ذلك الأمير أن يشتريها بالثمن الذى يعنته ولا تطيقه دولته فى مطلعها . وقد ازدلف اليه الكثيرون فسلموا ، وازدلف اليه غيرهم فأصيبوا بحق لايمترى فيه عربيان يؤمنان بحق الجواب كما يؤمن به سائر العرب ، ولا يمترى فيه مسلمان يؤمنان بالحق حيث كان ، وأظهره رد العدوان فى غير داعية للعدوان

كان عنده زيد بن عمر بن الخطاب ، وأمه بنت على أم كلثوم . فنال بسر بن ارطأة من الامام ، فما أمهله زيد أن قام اليه فعلاه بالعصا وشج رأسه . فلم يزد معاوية على أن قال لزيد : عمدت الى شيخ قريش وسيد أهل الشام فضربته ؟ ثم التفت الى بسر فقال : تشتم عليا على رؤوس الناس وهو جده وابن الفاروق ثم تراه يصبر على ذلك

وكل أولئك شبيه أن يكون : بسر بن أرطاة قاتل طفلين باليمن لعبيد الله ابن عباس ينال من على فى حضرة معاوية ، وزيد بن الفاروق لا يشبه أباه ان صبر على ثلب جده فى مكان حيث كان ، ومعاوية يرضى عن سفاهة بسر ان مضت فى سبيلها ، ولكنه لا يبطش بزيد ان غضب لجده وأصاب السفيه بجريرة سفاهته ، ولا تساوى تلك السفاهة ان يشتريها بالنكال الذى تعود عليه اللائمة فيه ولا تعود عليه منه زيادة فى ملكه ، وكل أولئك ــ كما أسلفنا ــ شبيه أن يكون ، فلا يحسبه أحد فى ذلك العصر من حلم

معاوية ، بل يحسبه من جبن زيد ان لم يصنع ماصنع بابن أرطاة

وان الأشبه بالصدق فى جملة تلك الروايات أن معاوية كان يحب هذا الملق ويحب هــذه الاستثارة لأنها تمتعه بذكرى الشدائد التى تخطاها بعد فوات الغاشية ، وتريحه الى لقاء خصومه وهم فى كنفه ينظرون اليه فى مستقر نجاحه وظفره ، ولا يضيرونه بقولة يقولونها لا تحول بينه وبين ملكه كما قال..

وغير بعيد أنه كان يترك جلساءه يتحرشون بذوى اللسن من العلويين ليضحك مما ينالهم كما يفعل ذوو السلطان فى كل زمن وكل أمة ، فربما كانت سخريتهم بالانصار أمتع لهم من صد الخصوم ، وقد يطلقــون بعضهم على بعض ليسخروا منهم جميعا ان لم يكن لهم خصوم يعرضونهم للسخرية طائعين أو كارهين

***

وقد اجتمع من سجال بنى هاشم وخصومهم فى مجلسه ماينعقد به سجل خاص فى مأثورات الحوار فى كل مقام ، ويصحح وقوعه فى رأينا أنه لو حدث لما أمكن حدوثه على غير ذلك النمط الذى تناقله الرواة

أناس من ذوى السلطان المحدث يعلمون هوان أقدارهم مع بنى هاشم وآل النبى وصفوة قريش ، ويلذ لهم أن ينعموا بالسلطان وأن «يجتروا» تلك النعمة حيثما وسعهم اجترارها فى حضرة وليهم وعلى مســمع من السادة الأعلين الذين غلبوا على ذلك السلطان ، وأن ولي الأمر نفســه ليحب ذلك ولكنه يعلم أنه مركب غير مأمون ، وأن الموتورين اذا سمعوا مايكرهون فردوه بمثله فما فى وسعه أن يواجه العالم الاسلامى كل يوم بشهيد من آل البيت ... فسبيله أن يصطنع المخالفة لجلسائه وأن يحذرهم مغبة اللهو بهذه الملهاة ولا أمان فيها من لسن القوم وأنفتهم التى لم تخذلهم قط فى مقام المناظرة والتحدى من زمن قديم . فان أصــيب جلساؤه فعليهم وزر عملهم وليس لهم أن يطالبوه بالاقتصاص لهم من

أمر قد اختاروه على خلاف رأيه ، وان سلم أولئك الجلساء فقد شفوا صدره من أولئك الموتورين

وتكاد القصص مع بنى هاشم فى مجلس معاوية تجرى كلها على وتيرة واحدة : رجل من آل البيت يدعى الى المجلس أو يأتى اليه فى أمر من أموره فيغرى به جليس من الحاشية يتحرش به ويستثيره فيجاب بما هو أهله ، ويتغاضب معاوية على الجليس فيلومه اذا بلغ الجدال والمحال فصل المقال ، وما نرى أن الملهاة كلها كانت مدبرة لكى تنتهى الى خاتمة أخطر من هذه الخاتمة . وماذا عليهم اذا استطال الموتورون بالمقال وهم يستطيلون بالسلطان ؟

***

الا أن حديثا واحدا من أحاديث بنى هاشم يخالف هذا النمط ولا يستقيم مع سائر هذه الأحاديث . فلم يكن البادئون به من جلساء معاوية ولا من آل البيت ، ولكن البادىء به معاوية نفسه على نحو لا يشبه طريقته المأثورة من التقية والمداراة ، وليس فيه نفع له فى شأن من شئون الملك أو خاصة من خواص أمره تستوجب ذلك الحديث

قيل انه تحدث الى ابن عباس فقال له : ان فى نفسى منكم لحزازات يابنى هاشم . وانى لخليق أن أدرك فيكم الثار وأنفى العار . فان دماءنا قبلكم وظلامتنا فيكم ، فقال له ابن عباس : والله ان رمت ذلك يا معاوية لتثيرن عليك أسدا مخدرة وأفاعى مطرقة ، لايفثأها كثرة السلاح ولا تعضها نكاية الجراح ، يضعون أسيافهم على عواتقهم ويضربون قدما قدما من ناوأهم ...

الى أن قال فى رواية الرواة : « فلتكونن منهم بحيث أعددت ليلة الهرير للهرب فرسك ، وكان أكبر همك سلامة حشاشة نفسك ، ولولا طغام من أهل الشام وقوك بأنفسهم وبذلوا دونك مهجهم ... ورفعوا المصاحف مستجيرين بها وعائذين بعصمتها لكنت شلوا مطروحا بالعراء .. وما أقول هذا لأصرفك عن عزيمتك ولا لازيلك عن معقود نيتك ، ولكنها

الرحم تعطف عليك ، والأواصر توجب صرف النصيحة اليك » . فقال معاوية : لله درك يا ابن عباس . ما تكشفت الأيام منك الا عن سيف صقيل ورأي أصيل . والله لو لم يلد بنو هاشم غيرك لما نقص عددهم ولو لم يكن لأهلك سواك لكان الله قد كثرهم

وان دواعى الشك فى مثل هذا الحديث لكثير ، لولا أن التلفيق فيه أعسر من أن يتاح لكل راوية يضع الكلام على كل لسان ، ولا يبالى أين موضعه من القائل والمجيب

فان كان معاوية قائلا مثل ذلك المقال لأحد من بنى هاشم فانما يقوله لعبد الله بن عباس دون غيره ، فانه حديث داهية يسبر به غور داهية يقارنه من بيت خصومه ، وانه مع ذلك قرين تجمعه آصرة القرابة بآل على ولا تجمعه بهم آصرة المودة والموافقة جد الموافقة على الوجهة . وقد تخلى ابن عباس عن ولاية ابن أبى طالب ووقعت بينهما الجفوة التى لم تصلحها حوادث الأيام بعد ذلك . ولا منافسة بين على وأبنائه فى حياته ولا بعد مماته ، وانما المنافسة بينه وبين أعمامه وبنى عمومته : انما المنافسة بين اثنين أحدهما ابن عم للنبى هو أبو طالب والآخر ابن عم للنبى هو العباس . فهاهنا على كل حال طلع يستطلع بتلف الكلمة المفاجئة ، ولا بعد مماته ، وانما المنافسة بينه وبين أعمامه وبنى عمومته : انما التحذير والتنبيه ..

***

وأى فائدة كبرى كان يفيدها معاوية لو سمع من ابن عباس كلمة تفتح الباب للتفرقة بينه وبين سائر الهاشميين العلويين ؟ أى فائدة كان يفيدها لو رأى من دهاء ابن عباس أنه يمهد لنفسه عند السلطان الجديد ولا يزيد على التشفع لغيره من سائر أهل البيت ؟

ان غرابة هذه القصة هى التى ترجحها وتضعف الشك فيها ، فانها ان وقعت لن تقع الا على غرابتها ..

انها غريبة من معاوية الا أن تكون مقصودة لغير ظاهرها مع رجل له

ظاهر وباطن يستطلع بهذه المفاجئة ولا يستطلع بغيرها ، وقد يبدو منه ماتنكشف به جلية الموقف بينه وبين سائر بنى هاشم ، وكل بنى هاشم غير عبد الله بن عباس فظاهرهم وباطنهم لايختلفان اذا سمعوا مثل ذلك النذير ..

هذا أو تكون نفثة من نفثات الكظم تنطلق منه حيث يقدر الأمان مع رجل يخفي باللسان مالا يضمره الجنان

وأمثال هذه الردود الخشنة جميعا لم تكن فى ذلك العصر مما يستكثر فى مناسباتها ، وقد سمعها معاوية ـ أو سمعها جلساؤه معه ـ متوقعة مستثارة ، ولم يتعود الناس يومئذ أبهة الملك وطاعة العبيد للسادة ، ولم يتعود الأمير كذلك أن يسوم الناس سكوتا فى موضع القول ، واغضاء فى موضع الأنفة ، وانما كان الأمير خليفة يتشبه بالخلفاء الراشدين فى حق الطاعة ، ولم يعد أحد من هؤلاء الخلفاء أن يخاطب انسانا بما يسوءه ثم يستكثر عليه أن يجيبه بمثل خطابه ، فهذه « هرقلية » لم يتعودها الرعاة ولا الرعايا ، ولم يكن فى طاقة معاوية أن يروّض رعاياه عليها دفعة واحدة . فاذا تمهل فيها آونة بعد آونة فانما يكون التمهيل بمثل ذلك الصبر على كره أو على اختيار

***

ومن الوقائع التى رويت عنه وقائع يلتبس فيها الحلم ببطء الغضب وطول الروية والأناة ، ومنها مايتلقي فيه الاساءة أو الوعيد على البعد ويتسع له الوقت قبل الاجابة عنها بما يروى فيه النظر ويرتضيه ..

عدا عبيد لمعاوية على أرض ابن الزبير فكتب اليه ابن الزبير : « أما بعد يا معاوية . ان لم تمنع عبيدك من دخول أرضى والا كان لى ولك شأن » ..

وقيل ان معاوية أطلع ابنه يزيد على كتاب ابن الزبير وسأله : ما ترى ؟ فقال له يزيد : لتنفذن اليه جيشا أوله عنده وآخره عندك يأتونك برأسه . فقال : بل عندى يابنى خير من ذلك ، وكتب الى ابن الزبير :

« وقفت على كتابك يا ابن حوارى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وساءنى والله ماساءك ، والدنيا هينة عندى فى جنب رضاك ، وقد كتبت على نفسى رقيما بالأرض والعبيد وأشهدت على فيه ، ولتضف الأرض الى أرضك والعبيد الى عبيدك والسلام »

فجاءه الجواب من ابن الزبير يقول فيه : « وقفت على كتاب أمير المؤمنين أطال الله بقاءه فلا عدم الرأى الذى أحله من قريش هـذا المحل والسلام » ..

وأطلع معاوية ابنه على الكتاب الثانى كما أطلعه على الكتاب الأول فاسفر وجهه ، وأبوه يقول : اذا رميت بهذا الداء فداوه بهذا الدواء

ومن الاساءات مالا خطر له لأنه من غير ذى شأن كشأن ابن الزبير ، ولكنه يغضب العربى لأنه يمس الحرمات كتشبيب عبد الرحمن بن حسان برملة بنت معاوية اذ قال :

رمـل هـــل تذكرين يوم غـزال
اذ قطعنـــا مســـيرنا بالتمـــني !
اذ تقولين : عمــــــرك الله هل شـ
ىء ، وان جل ، سوف يسليك عني ؟

فغضب يزيد وأغرى كعب بن جعيل بهجاء الانصار فأبى ودله على الاخطل فنظم قصيدته التى يقول منها :

ذهبت قريش بالمـكارم كلهـــــــا
واللؤم تحت عمائم الانصــــــــار

وأوشكت أن تكون فتنة ، اذ دخل النعمان بن بشير على معاوية محنقا وحسر عن رأسه وهو يقول له : هل ترى يا معاوية لؤما ؟.. فقال : بل كرما وخيرا ، فما بالك ؟ .. فأعاد عليه أبيات الاخطل وتوعده بأبيـات يقول منها :

معـــاوى الا تعطنـــا الحق تعترف
لحى الازد مشـــدودا عليهـــا العمائم

أيشتمنا عبد الاراقم ضلة
وماذا الذى يجدى عليك الاراقم
فما لى ثأر دون قطع لسانه
فدونك من يرضيه عنك الدراهم

وتتم القصة بما قيل عن طلب معاوية للأخطل وتهديده اياه بقطع لسانه لولا شفاعة يزيد الذى أغراه بالهجاء

وفى رواية من هذه الروايات الكثيرة ان التشبيب انما كان بأخت معاوية وان يزيد دخل على أبيه فذكر له قول عبد الرحمن بن حسان :

طال ليلى وبت كالمجنون ومللت الثواء فى جيرون

فقال له : وما علينا يابنى من طول ليله وحزنه أبعده الله ...

قال يزيد : وانه ليقول :

فلذاك اغتربت بالشام حتى
ظن أهلى مرجمات الظنون

فقال أبوه : وما علينا من ظن أهله ؟

قال يزيد : وانه ليقول :

هى زهراء مثل لؤلؤة الغو
اص ميزت من جوهر مكنون

قال معاوية : صدق يابنى . هى كذاك

قال يزيد : وانه ليقول :

ثم خاصرتها الى القبة الخضر
اء تمشى فى مرمر مسنون
عن يسارى اذا دخلت اليها
واذا ما تركتها عن يمينى

فضحك معاوية وقال : ولا كل ذاك .. ثم حذر ابنه قائلا : ليس يجب القتل فى هذا ولكننا نكفه بالصلة ..

وزعموا فى بعض روايات القصتين ان معاوية أرسل فى طلب الشاعر

وأبلغه ان هندا أخت رملة تعتب عليه لأنه لا يسويها بأختها ، وأراد بذلك أن يشبب الشاعر بهند فيعلم الناس انه كاذب فى كل ما نظم ، وانها أقاويل الشعراء الذين يقولون ما لا يفعلون

والثابت من كل هذا الحديث بيت الاخطل فى هجاء الانصار ، وربما ثبت مثله هجاء الاراقم قوم الاخطــل من تغلب ، فاذا كان قد دخل فى الأمر تشبيب بأخت يزيد أو بعمته فربما هون خطره غضب الانصــار وغضب المسلمين جميعا ان يهجو أنصار النبى شاعر من غير المسلمين ، ولو ان المسألة خلصت من هذا الحرج لما جاز قتل الشاعر من جراء لغوه كما قال معاوية ، فما كان سفك الدم لمثل هذا القول بالأمر المستباح فى صدر الاسلام ، وقد مضي بعد هذا الجيل أجيال على سنة الملك العضوض ولم يخطر للمهدى فى دولة بنى العباس ان يقتــل بشــارا وهو القائل فى أبى جعفر المنصور :

أبا جعـــــــفر ما طــول عيش بدائم ... ولا ســالم عمــا قليــل بســالم

كأنك لم تســـمع بقتــــل متوج ... عظيــتم ولم تســمع بفتــك الأعاجم

***

بل هو الذى أفحش فى هجاء المهدى وهجاء نساء بيته وذهب يخبط بالمهايجة والتحريض بين بنى أمية وبنى العباس ، وما استبــاح المهدى عقابه الا بتهمة الزندقة والالحاد ، وما أمر الا بأن يضرب ضرب التلف ليقال فى ذلك انه انما أريد به الضرب فمات

وهذا بشار وذاك عبد الرحمن بن حسان

ففى وزن الرجال وتمحيص الأخلاق وفهم الطبيعة الانسانية ــ أى فهم الانسان ــ لا جدوى من التعويل على ألفاظ الصفات ولا بد من الرجوع الى الوقائع وما لها من الأثر الطبيعى فى الضمير وما ينم عليه هذا الأثر من خليقة نفسية أو ملكة عقلية

وهذه الوقائع التى رويت عن معاوية تبدى لنا منه صفة لاشك فيها وهى طول الاناة وبطء الغضب ، وليست هى بالصفة التى ترادف الحلم كما يفهم لأول وهلة . اذ كثيرا ما يكون بطء الغضب شيئا « سلبيا » يدل على امتناع الغضب طبعا أو قلة الاستعداد له فى الخلقة ، ولا تكون الفضيلة أبدا « شيئا سلبيا » قوامه غياب أثر من الآثار النفسية وكفى

فليس معنى الشجاعة ــ مثلا ــ تجرد الطبع من الشعور بالخوف ، لأن الانسان الذى يقدم على الخطر وهو لا يشعر به يندفع اندفاع الجماد ولا فضل له فى اندفاع لا يكلفه الغلبة على خوف يساوره فى ضميره ..

وليس معنى الكرم تجرد الطبع من الشعور بقيمة المال أو قيمة المنحة المبذولة ، لأن من يتصرف فى شىء لا قيمة له عنده كمن يتصرف فى التراب والهواء وما اليهما من مبذول العطاء

وليس معنى العفة تجرد الطبع من الشعور بالشهوات ، لأن من لا شتهى لا يطلب ولا يقاوم الاغراء ولا تحسب له عفة

وليس معنى الحلم تجرد الطبع من الشعور بالغضب ، لأن التجرد من هذا الشعور قد يأتى من بلادة فى الطبع وركود فى حركة النفس ومقابلة العوامل الطبيعية بما يناسبها من الانفعال

وانما الحلم أن يغضب الانسان وأن يحكم غضبه بارادته ايثارا لأمر يفوق الغضب فى قيم الأخلاق ..

***

فمن الحلم أن يأنف الانسان من الاستسلام للغضب ، لأنه يرتفع بكرامته أن تصيبها اساءة المسىء

ومن الحلم أن يصفح الانسان عن الاساءة ايثارا للخير وعطفا على المسىء كما يعطف الأب الرحيم على الولد الجاهل بما يصنع فى حق أبيه

ومن الحلم أن يقمع الانسان غضبه لأنه يملك زمام نفسه ويوازن بين العواقب فيختار أسلمها للناس عامة ، وان لم يكن أسلمها له فى ذات

شأنه وشئون ذريه ..

ولا بد من التفرقة هنا بين الحلم ايثارا للنفع الانسانى أو النفع القومى ، وبين الحلم ايثارا للسلامة وعملا بطبيعة «الأنانية» وحب الذات

فليس من الحلم أن يضرب الضعيف فلا يرد الضربة بمثلها لأنه يعلم انه سيتلقى أضعافها ممن هو أقدر منه وأقوى على ايذائه ، وانما يقال عن هذا انه جبن أو رضى من المعتدى عليه بأهون الشرين

ولا يكون الحلم أبدا عجزا عن مجاراة الغضب أو امتناعا للشعور به ، لأن الفضيلة لا تقوم على عجز أو امتناع ، ولكنها تقوم على ارادة تملك الاختيار بين الخطتين ..

وجملة القول فى هذه الصفة ان الحليم هو الذى يملك الغضب ولا يملكه الغضب ، وكلما اشتد الغضب واشتدت القدرة عليه كان ذلك أبين عن الحلم وأدل عليه ، وكلما ارتفع السبب الذى من أجله يتغلب الحليم على غضبه كان ذلك أرفع لقدره وأرجح لوزنه فى ميزان الفضيلة ، فمن يحسم الغضب حرصا على منافع الناس أحلم وأكرم ممن يحسم الغضب حرصا على منافعه العاجلة أو الآجلة ، ومن يحسم الغضب لأنه يشمل الناس بحبه وعطفه أحلم وأكرم ممن يحسم الغضب لأنه يحب نفسه ويقدم حبها على كل حب لغيره

***

ومن كلام حكماء العرب وبلغائهم نستشف فطنتهم لحقيقة هذه الفضيلة ، فهى فضيلة المريد المختار المالك لزمام الأمرين كما قال ابن خليفة مولى قيس بن ثعلبة يمدح قوما من آل شيبان :

عليهم وقار الحلم حتى كأنما
وليدهم من أجل هيبته كهل
ان استجهلوا لم يعزب الحلم عنهم
وان آثروا أن يجهلوا عظم الجهل

أو كما قال النابغة الجعدى :

ولا خـــير فى حلم اذا لم يكن له
بوادر تحمى صـــــفوه أن يكدرا
ولا خـــير فى جهل اذا لم يكن له
حليـــم متى ما أورد الأمر أصـــدرا

ومن كلام الاحنف بن قيس ــ أحد مشاهيرهم بالحلم ــ « رب غيظ قد تجرعته مخافة ما هو أشد منه » ...

وكان من حلمه انه يصفح عن المسىء وان ظن به الذل ويقول : « ما أحب ان لى بنصيبى من الذل حمر النعم » .. فلما قيل له : كيف وانت أعز العرب ؟.. قال : « ان الناس يرون الحلم ذلا » ...

وهو القائل : « لا تكونن على الاساءة أقوى منك على الاحسان » ..

وسألوه : ما الحلم ؟.. فقال : « قول ان لم يكن فعل ، وصمت ان ضر قول » ..

***

وروى العقد الفريد ان هشاما بن عبد الملك سأل خالد بن صفوان : بم بلغ فيكم الأحنف مابلغ ؟.. فقال : ان شئت أخبرتك بخلة ، وان شئت بخلتين ، وان شئت بثلاث ..

قال : فما الخلة ؟

قال : كان أقوى الناس على نفسه

ثم قال عن الخلتين إنه كان موقى الشر ملقى الخير ، وعن الثلاث انه كان لا يجهل ولا يبغى ولا يبخل

وأســتاذ الاحنف فى الحلم قيس بن عاصم المنقرى كان مشــهورا بالاقدام كشهرته بالحلم والاغضاء عن الذنب كبيره وصغيره ، وبلغ من حلمه انه صفح عن ابن أخيه الذى قتل ابنه ، وقد أوثقه من ود أن يبطش به لساعته فما زاد على أن قال له مؤنبا : « بئس ما فعلت . نقصت عددك وخنت عشيرتك وأسقطت مروءتك وأشمت عدوك وأسأت قومك ... وانت الذى كنا نرجو لعظائم الأمور » ثم واسى زوجته أم القتيل وأجزل

لها الدية من ماله ، وحسم بذلك شرا مستطيرا فى القبيلة لا يجعله عند أخطر من شر الشكل الا الحلم الراجح والقلب الكبير والنظر البعيد

***

ويمر بنا مثل من الأمثلة الصالحة لتقويم الروايات ورواتها بصدد الأخبار التى نقلها صاحب العقد الفريد عن الحلم والحلماء ، ومنهم الاحنف ومعاوية ..

فابن عبد ربه ينقل لنا ان الاحنف سئل : من أحلم .. أنت أم معاوية ؟ فقال : تالله ما رأيت أجهل منكم . ان معاوية يقدر فيحلم وأنا أحلم ولا أقدر ، فكيف أقاس عليه أو أدانيه ؟

فاذا سمع السامع المتعجل هذا فحرى أن يتقرر لديه رجحان معاوية فى الحلم بشهادة الرجل الذى يضرب به المثل فى حلمه ، وأى شهادة عسى ان تكون أصدق من هذه الشهادة .. !

وما هى الا معاودة لحظة فى السؤال والجواب حتى يتقرر على خلاف ما تقدم ان السؤال كان لا يحتمل جوابا غير ذلك الجواب ، لو انه سؤال ما كان ينبغى أن يتوجه للأحنف ويترقب سائله ان يقول له : بل أنا أحلم من معاوية !.. وقد كان الاحنف خاصة يرى من عرف الحلم أن يستصغره وأن يقول عن نفسه كما نقل صاحب العقد قبل ذلك بسطر واحد : لست حليما ولكننى أتحالم

***

ولو ان الاحنف قال برأيه ذاك اعتقادا ولم يقل به تواضعا أو تحالما لكان على خطأ لا يخفى عند النظرة اليسيرة فى أسباب تفضيله معاوية على نفسه ... فما هى القدرة التى كانت مطلوبة من الاحنف فى مقامه ؟ لقد كان يكفيه ان يقدر على كلمة لا يعجز عنها أحد ، وكان يكفيه ان يمسك تلك الكلمة فيكون أقوى الناس على نفسه كما وصفه خالد بن صفوان ، وأما الملوك فالمطلوب منهم أعمال لا يقدرون عليها فى كل وقت ولا مع كل أحد . الا أن يكون المقصود بالقدرة طياشة جامحة تخبط

ما تشاء بغير مبالاة ، وليس قصارى الحليم انه غير الطياش وغير الخابط الذى لا ينظر الى عقباه

ويوزن الراوى فى روايته هذه فلا نجهل موقع الهوى فيما يشاع عن حلم معاوية ويسر انتقال الاشاعة من قائل الى قائل ومن ناقل الى ناقل . فما فى هوى الاندلسيين لبنى أمية من خفــاء ودولتهم الأولى أموية فى أساسها ، وابن عبد ربه نفسه حفيد لسالم القرطبى مولى هشام بن عبد الرحمن الداخل بن معاوية بن هشــام بن عبد الملك بن مروان ، وأقل ما يقال فى نقل ابن عبــد ربه لكلمة الاحنف انها تزكية لرأس الدولة الأموية رحب بها ووافقت هواه

***

ونعود الى تاريخ معاوية فيما قاله وفيما سكت عن قوله منذ نشأته الأولى فلا نجد فيه أثرا واحدا لطبيعة الغضب التى تمتحن بها فضيلة الحلم كما امتحنت فى نفس الرجل الحزين فى صدمة الثكل وهو المقتحم المغوار فى الجاهلية والاسلام

ونخال ان التاريخ لم يحفظ لنا غير حادث واحد يفتح لنا مغاليق هذه الخليقة فى طوية الرجل ، فانها فى الحق لغز لا يكفى لحله مجرد القول بالحلم أو بالغضب المكبوت أو بطول الاناة ، وانما يحله علم النفس الحديث على النحو الوحيد الذى يعطينا منه معنى مفهوما على وجه من الوجوه ..

ذلك الحادث هو مقتل حجر بن عدى وأصحابه لغير ضرورة عاجلة ولا مصلحة آجلة ، فما كان له من خطب غير انه واحد من أولئك الذين قال فيهم معاوية انه لا يحول بينهم وبين ألسنتهم لأنهم لا يحولون بين بنى أمية وملكهم ، فان كان لابد من اسكاته فقد يسكته ان يحملوه الى مكان لا يلقى فيه من يستمع اليه

***

قال ابن الأثير بعد أقاويل شتى : « ان زيادا خطب يوم جمعة فأطال

الخطبة وأخر الصلاة فقال له حجر بن عدى : الصـلاة !.. فمضى فى خطبته .. فقال : الصلاة !.. فمضى فى خطبته .. فلما خشى حجر بن عدى فوت الصلاة ضرب بيده الى كف من حصى وقام الى الصلاة وقام الناس معه ، فلما رأى زياد ذلك نزل فصلى بالناس وكتب الى معاوية وكثر عليه ، فكتب اليه معاوية ليشده بالحديد ويرسله اليه . فلما أراد أخذه قام قومه ليمنعوه فقال حجر : لا ، ولكن سمعا وطاعة . فشد فى الحديد وحمل الى معاوية فلما دخل عليه قال : السلام عليك يا أمير المؤمنين . فقال معـاوية : أأمير المؤمنين أنا ؟ .. والله لا اقيلك ولا استقيلك .. اخرجوه فاضربوا عنقه ، فقال حجر للذين يلون أمره : دعونى حتى أصلى ركعتين ، فقالوا : صل .. فصل ركعتين خفف فيهما ثم قال : لولا ان تظنوا بى غير الذى أردت لأطلتهما ، وقال لمن حضر من قومه : والله لا تطلقوا عنى حديدا ولا تغسلوا عنى دما . فانى لاق معاوية غدا على الجادة . وضربت عنقه »

ودهش الناس لهذه المقتلة الجزاف واهتز لها العالم الاسـلامى هزة عنيفة أورثته مبغضة لدولة بنى أمية من تلك المبغضات التى كمنت وطالت حتى نسيت أسبابها وبقيت نوازعها ، وظل شبح الشهيد الوقور يساور معاوية الى يوم وفاته ، فجاء فى رواية ابن سيرين : « ان معاوية لمـا حضرته الوفاة جعل يقول : يومى منك يا حجر طويل »

ولا يحاط بعوارض الفزع التى ألمت بالعالم الاسلامى من جراء هذه المقتلة الباغية ولكنها قد تتمثل فى عارض واحد يدل على كثير . فان الخبر الذى ذاع عن تسيير حجر وأصحابه الى دمشق لم يكد يصل الى السيدة عائشـة بالحجاز حتى أوفدت عبد الرحمن بن الحارث يتشفع فيه وفى صحبه ، وهى لا تنسى ان أعوان معاوية قتلوا أخاها محمدا شر قتلة ولا يخفى عليها غلو حجر وأصحابه فى حب على وشيعته وبينها وبين العلويين من الجفوة ما هو معلوم

وقد فات معاوية كل عذر فى هـذه المقتلة حتى ما كان من عذر واه

كعذر ابنه يزيد فى مقتلة الحسين . فان يزيد قد احال الذنب على عبيد الله ابن زياد ، وانعكست الآية فى أمر معاوية وحجر فكان زياد هو الذى نفض يديه من وزر هؤلاء الشهداء وألقاه على مولاه ، وضـاق مولاه بانتحال المعذرة بعد حين فكان جوابه لسـائليه مما يخجل الطفـل بين الصغار فضلا عن العـاهل بين الساسة وفى ذمة التاريخ .. قال له عبد الرحمن بن الحارث : أين غاب عنك حلم أبى سفيان ؟.. فقال : حين غاب عنى مثلك من حلماء قومى .. وحملنى ابن سمية فاحتملت .. وسـألته السيدة عائشة مثل هذا السؤال فقال : لم يكن حولى رشيد ، وكانت السيدة عائشة تقول : لولا انا لم نغير شيئا الا صارت بنا الأمور الى ما هو أشد منه لغيرنا مقتل حجر .. أما والله ان كان لمسـلما حجاجا معتمرا ، وكان الحسن البصرى الزاهد المعروف يقول : أربع خصـال كنّ فى معاوية لو لم تكن فيه الا واحدة لكانت موبقة ، ثم أحصـاها وذكر منها مقتل حجر : « فيا ويلا له من حجر . ياويلا له من حجر . ياويلا له من أصحاب حجر »

وفى رثاء حجر تقول هند بنت زيد الانصارية :

تجبرت الجبـابر بعـد حـجر
وطـاب لها الخورنق والسـدير
فان يهـلك فـكل زعيـم قوم
من الدنيـا الى هـلك يصـير

***

ومعذرة معاوية هذه خليقة ان تدعونا الى تصديق الوصية التى أوصاه بها أبوه حين سافر الى الشام . فقد يستكثر على معاوية أن يؤمر بمراجعة أبيه فى كل كبيرة وصغيرة قبل أن يحدث بينه وبين أحد أمرا فى خصومة أو قطيعة وقد يستكثر عليه أن يصفعه صـافح فلا يقتص لنفسه حتى يسأل أباه ويترقب الجواب منه ، فاذا كان الرجل يرتضى من معاذيره ان يقوده ابن سمية فينقاد لأنه لم يجد حوله رجلا رشيدا فليس بالكثير أن

يؤمر بمراجعة أبيه فى شتم شاتم وضرب ضارب ، وهو فى مقتبل الشباب قبل الولاية وقبل الخلافة

ولسنا نفهم من ذلك ان معاوية كان فىحكم القاصر فى شبابه وكهولته ، ولكننا نفهم ان أباه كان يعرفه وكان يعرف انه لا يحتكم الى طبيعة تغضب من الأمور بمقاديرها

حدث صاحب العقد الفريد فى الجزء الأول عن أبى حاتم عن العتبى قال : « قدم معاوية من الشام وعمرو بن العاص من مصر على عمر بن الخطاب ، فأقعدهما بين يديه وجعل يسائلهما عن أعمالهما الى أن اعترض عمر فى حديث معاوية فقال له معاوية : أعملى تعيب والى تقصد ؟ هلم تخبر أمير المؤمنين عن عملى وأخبره عن عملك . قال عمرو : فعلمت انه بعملى أبصر منى بعمله ، وان عمر لايدع أول هذا الحديث حتى يصير الى آخره . فأردت أن أفعل شيئا أشغل به عمر عن ذلك ، فرفعت يدى فلطمت معاوية . فقال عمر : تالله ما رأيت رجلا أسفه منك . قم يا معاوية فاقتص منه . قال معاوية : ان أبى أمرنى ألا أقضى أمرا دونه . فأرسل عمر الى ابى سفيان فلما أتاه ألقى له وسادة وقال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : اذا أتاكم كريم قوم فاكرموه . ثم قص عليه ما جرى بين عمرو ومعاوية فقال : لهذا بعثت الى ؟ أخوه وابن عمه ، وقد أتى غير كبير . وقد وهبت ذلك له »

وصاحب العقد ــ على هواه الأموى ــ يسوق هذه القصة فى سياق الثناء ، ولسنا نفهم من ذلك ان معاوية كان فى حكم القاصر فى شبابه وكهولته ، ولكننا نفهم ان أباه كان يعرفه وكان يعرف انه لا يحتكم الى طبيعة تغضب من الأمور بمقاديرها وانه اذا غضب يتغاضب بالرأى والاختيار فيخطئه التقدير

***

وموقفه مع حجر وأصحابه ظاهرة نفسية معهودة فى الطبائع التى تصدم فتقبل الصدمة وتحذر من الاندفاع ، ولكنها اذا تركت بلا صدمة تردها

ام تعرف حدود الارتداد ولا تأبى أن تستسلم للاندفاع

تلك الظاهرة من موروثات طبيعة المطاردة فى الانسان وفى الحيوان أو السبع من قبله .. فقد علم المراقبون لطبائع الحيوان ان المطاردة عنده تقوم على حركات متتابعة ولا تقوم على حركة واحدة . فاذا لمح الحيوان من خصمه انه يجفل منه أخذ فى الهجوم ، واذا عدا خصمه أمامه أخذ فى العدو وراءه ، واذا أدركه ولم يجد منه مقاومة تمادى فى صرعه وافتراسه ، ولعله لو وقف أمامه رابط الجأش من مبدأ الأمر لم تتنبه فيه حركة الهجوم فحركة المطاردة فحركة اللحاق والافتراس ، وعرف صادة الأسود — وهى أخطر السباع — انها تتردد اذا واجهها الانسان ثابت النظر راسخ القدمين

وقد دخل حجر على معاوية ، ومعاوية ينتظر منه صدمة يتبعها حذر فانتباه لواجب الحلم والاناة ، فلما دخل حجر محييا له بالامارة وزال الحاجز الأول زالت معه الحواجز الأخريات ، ولم يعلم الرجل أين يكون الوقوف ..

ونظن ان هذه الخليقة قد أوشكت أن تبرز فى طوية معاوية من وعيه الباطن الى وعيه الظاهر ، ومن ذلك قوله : « اذا شد الناس شعرة أرخيتها واذا أرخوها شددتها » . أو قوله : « اذا طرتم وقعنا ، واذا وقعتم طرنا » . أو قوله لزياد : « كن انت للشدة ولأكن أنا للين » .. فهو يتلقى وحى طبيعته من الصدمة التى تلقاه ، فان لم تكن صدمة فهناك الحيرة التى لا تخرجه منها طبيعة تلوذ بالغضب على قدره فلا تقف حيث ينبغى لها الوقوف ، ولو كان للغضب عنده أثره المطبوع لانتظر الناس حلمه حيث يغضبون وانتظروا غضبه حيث يحلمون . وكثير من أمثال هذه الخليقة تلقاه بيننا كل يوم فيقول القائل عن الرجل من أصحابها : لو انك شددت عليه لأرضاك وحمدت أثر الشدة عليه !

***

ويستدعينا ختام هذا الفصل تفرقة أخرى كالتفرقة بين الحلم وامتناع

الغضب ، وهى التفرقة بين الطموح الى الزعامة والصولة والطموح الى الشرف الاجتماعى والوجاهة السياسية

فالطموح الى الزعامة والصولة مزاج حيوى يدخل فى تركيب البنية ويدفع صاحبه كما تدفعه وظـائف الجسد فلا يستريح أو يقود الأمم قيادة الزعامة ويصول بعظمة الرئاسة والعلو على الأقران والأتباع

والطموح الى الشرف الاجتماعى تقليد من تقاليد المجتمع يحرص عليه من توارثوه حرصهم على الحطام وبسطة العيش ووجاهة الأسرة والبيت ، ويغلب عليه ان يكون تراثا متخلفا من الآباء للأبناء يغض من الأبناء ان تخلوا عنه ويروا غيرهم فى مكانه

ولا يلزم من الطموح الى الشرف الاجتماعى ان يكون صاحبه مطبوعا على الصولة والعلو وطلب الطاعة والخضوع ، وقد يلجأ صـاحبه الى المداورة واللين والخضوع لهذا والمصانعة لذاك ليحتفظ بالتراث الذى صار اليه أو يرجو أن يصير اليه

ونحن فى قرانا نشهد المثال على كل من النموذجين فى كل قرية وكل اقليم . فبينا يستميت « بيت العمدة » فى استبقاء وجاهته ويلين من أجل ذلك للحاكم وصاحب الأمر وأعوانه على المكانة الموروثة ينهض رجل آخر مطبوع على الانفة والصولة فيستطيل على تلك المكانة وينازع فى تلك الوجاهة ولايستريح الا اذا أمر وتحدى وملك زمام العزة بالمقال والفعال

وبنو أمية عامة ، ومعاوية خاصة ، من أصحاب « المظهر الاجتماعى » وليس فيهم غير القليل النادر من أصحاب الطموح الى الزعامة والصولة كما تكون فى بنية المزاج وتركيب الخلق والجسد ، وقد صبر معـاوية على ألوان من الخضوع فى طلب وجاهته السياسية لا يصبر عليها كثير من عامة الناس ، لأنه يطلب تلك الوجاهة بتقليد وراثى ولا يطلبهـا بنزعة غلابة فى الطبيعة والتكوين

***

واحتاج أن يقول مرة كما جاء فى الطبرى مسندا الى سعيد بن سويد :

« ما قاتلتكم لتصوموا ولا لتصلوا ولا لتحجوا ولا لتزكوا . قد عرفت انكم تفعلون ذلك ، ولكن انما قاتلتكم لأتأمر عليكم »

وهى قولة لم يقلها أحد غيره من المطبوعين على الصولة والزعامة لأنهم لا يحتاجون اليها ، ولكنه قالها لأنها جثمت على صدره لطول ما صبر على مجابهة هذا ومصانعة ذاك ، وتذكير المذكرين اياه انه لم يملكهم عنوة ولا فتحا ، بل ملكهم المشارطة والاتفاق .. فنفّس عن صدره بتلك الكلمة ولم يحدث من غيره انه شعر بالحاجة الى تنفيس كذلك التنفيس

لقد كان فى الرجل مشابهة للجمل الصبور ولم تكن فيه مشابهة للأسد الهصور ..

كان يصفح لأنه لا يغضب ، وكان يحمل على كاهله وفى طوايا نفسه ما ينوء غيره بحمله ، وكان يصبر الصبر الطويل على بلوغ الجاه حيث لا يطاق هذا الصبر مع نزوع الطبيعة السوارة الى الزعامة والصولة

كان حلمه امتناع غضب ، وكانت همّته تقليد وراثة وحلية وجاهة ..

وقد قال مرة أو مرات : « ان السلطان يغضب غضب الصبى ويأخذ أخذ الأسد » ..

ولكنه حين غضب غضبته الآبدة فى مقتل حجر وصحبه لم يغضب غضب الصبى وحسب ، بل التمس العذر ، مجفلا من غضبته ، فلم يفتح عليه بغير عذر الصبى بين يدى الفقيه !

خَلِيقَةٌ أُمَوِيَّة

تميزت لبنى أمية فى الجاهلية وصدر الاسلام خلائق عامة يوشك أن تسمى ـ لعمومها بينهم ـ خلائق أموية ، وهى تقابل ما نسميه فى عصرنا بالخلائق الدنيوية أو النفعية ويراد بهـا أن المرء يؤثر لنفسـه ولذويه ولا يؤثر عليها وعليهم فى مواطن الايثار

وهذه الخلائق أعون لنا على التعريف بمعاوية من الخلائق التى ينسبها اليه المادحون والقادحون ، لأن المادحين والقادحين قد يصـدرون عن غرض ، وقد ينوون الصدق ولكنهم يخطئون فى أمر الرجل الواحد ، أما الأخلاق التى تعم قبيلا بأسره فى أجيال متتابعة فهى أصعب تلفيقا على الملفقين وأصعب خطأ على المخطئين ، فان الاجماع على الخطأ نادر فى أخبار الناس كالاجماع على الصواب

وهذه الخلائق الأموية دنيوية نفعية كما قدمنا ، تميل بالمتخلقين بها الى مناعم الحياة وتحبب اليهم العيش الرغد والمنزل الوثير وتغريهم بالنعم واللذات يغدقونها على أنفسهم وعلى الأقربين ، فهى عندهم قسطاس البر بمن يحبون كما يحبون

وقد عرف خيارهم ، دينا وصلاحا ، بهذه الخلائق الأموية كما عرف بها كثيرون منهم لم يشتهروا بدين ولا صلاح

فما عرف من بنى أمية أحد أصلح من عثمان بن عفان وعمر بن عبـد العزيز رضى الله عنهما ، وما تكلم متكلم عن هذين العلمين الرفيعين من بنى أمية فاستطاع أن يسكت عما طبعا عليه من حب النعمة ووجاهة الدنيا على أحسن ما يروى عن الأمويين

كان عثمان رضى الله عنه يقول عن نفسه كما جاء فى كتاب الرياض

النضرة : « كنت رجلا مستهترا بالنساء » وكان استهتاره بهن أن يكثر من الزواج ..

وحب عثمان لاتخاذ المباني والعمائر مشهور ، وحبه لاختصاص ذوى قرباه واغداق النعمة عليهم مشهور كذلك ، وكله مما أحصاه عليه الثائرون ووجدوا فيه متسعا للتزيد والادعاء

***

وعاش بعد الاسلام محبا للطعام الدسم والصحاف المنتقاة فحدث عمرو ابن أمية الضمرى عنه قال : « انى كنت أتعشى مع عثمان خزيرة من طبخ من أجود ما رأيت ، فيها بطون الغنم وادمها اللبن والسمن ، فقال عثمان : كيف ترى هذا الطعام ؟ فقلت : هذا أطيب ما أكلت قط . فقال : يرحم الله ابن الخطاب . أكلت معه هذه الخزيرة قط . قلت : نعم فكادت اللقمة تفرث من يدى حين أهوى بها الى فمى وليس فيها لحم ، وكان ادمها السمن ولا لبن فيها . فقال عثمان : صدقت ! ان عمر رضى الله عنه أتعب والله من اتبع أثره ، وانه كان يطلب بثنيه ــ أى منعه ــ عن هذه الأمور ظلفا ــ أى غلظة ــ فى المعيشة . ثم قال : اما والله ما آكله من مال المسلمين ولكنى آكله من مالى . وانت تعلم انى كنت أكثر قريش مالا وأجدهم فى التجارة ، ولم أزل آكل الطعام ما لان منه . وقد بلغت سنا ، فأحب الطعام الي ألينه »

وقد كان عثمان أسرع قومه الى الاسلام لاسباب بيناها فى كتابنا « ذى النورين » .. وانما حسب له الاسراع الى الاسلام حيث حسب الابطاء والتقاعد عنه للأكثرين من بنى أمية ، على ديدنهم فى كل دعوة من دعوات المثل العليا أو دعوات الاريحية والايثار ، ولا موضع هنا للاطالة فى نقل أخبار المنافرات والمفاخرات التى تلم بهذا المعنى ولكننا نجملها جميعا فى موقف القوم من حلف الفضول وهو مشروح بتفصيلاته التى لا يشك فيها من يشكون فى تلك المنافرات والمفاخرات ، فقد ظلم رجل فى جوار الحرم وباع بضاعة لواه بحقها من اشتراها فاستغاث بذوى

المروءة وقام على شرف من الأرض يعلن شكواه ، فاجتمع بنو هاشم وبنو أسد وبنو زهرة وبنو تيم على انصافه وانصاف كل مظلوم مثله ، فلا يظلم بمكة غريب ولا قريب ولا حر ولا عبد الا كانوا معه حتى يأخذوا له بحقه من أنفسهم ومن غيرهم ، وعمدوا الى ماء من زمزم فجعلوه فى جفنه وبعثوا به الى البيت فغسلت به أركانه وشربوه ، ولم يدخل فى هذا الحلف أحد من أمية وبنى عبد شمس ، بل كان الرجل منهم يود أن يدخله فيخشى أن يحسب خارجا على قومه ، وقال أحدهم عتبة بن ربيعة : لو ان رجلا وحده خرج على قومه لخرجت من عبد شمس حتى أدخل حلف الفضول

***

وهذه الخلائق الأموية وضحت فى الجاهلية وصدر الاسلام وضوحا لا لبس فيه قبل أن تلتبس الانساب ويكثر الزواج من غير العشيرة ، والبناء بالجوارى من الروم والفرس والترك والبربر ، ولكنها ظلت أموية حيث تغلب الأموية فى الدم والنشأة والقدوة والجوار

فعمر بن عبد العزيز ــ أشبه الملوك فى دولة بنى أمية بالخلفاء الراشدين ــ كان كما جاء فى أسانيد ابن الجوزى : « رأيته فى المدينة وهو أحسن الناس لباسا ومن أطيب الناس ريحا ومن أخيل الناس فى مشيته ، ثم رأيته بعد ذلك يمشى مشية الرهبان »

واتفق الرواة ، كابن عبد الحكم والاصفهانى وابن الجوزى فى أطراف من أسانيده ، انه كان يتطيب فى شبابه فينتظر الناس ثيابه عند الغسال ليغسلها لهم فى موضعها ، وانه كان يرجل شعره ويتبختر فى مشيته حتى عرفت له مشية عمرية يحكيها الفتيان والفتيات ، وكان يتختم بالجواهر ويلبس الازار بمائة دينار ، ولا يرى مرتين فى كساء واحد ، وربما تأخر فى صباه عن موعد الصلاة لاشتغاله بترجيل شعره ، وسأله مؤدبه صالح ابن كيسان مرة عن تأخره وهو ينتظره لاقامة الصلاة ، فاعتذر له بابطاء مرجلته ــ أى الجارية التى تعنى بترجيل شعره ــ فغضب المؤدب الصارم

ولامه أن يغفل عن موعد صلاته ليعنى بتسكين شعره

وما برح الخليفة الصالح فى نصب من أمر عاداته هذه حتى أقلع عنها بعد جهد ، وآب من ترف المسرفين الى نسك المتزمتين ، وقيل انه ترف من بنى أمية ، ونسك من الفاروق ، لأنه ينتمى من ناحية أمّه اليه ..

وعلى هذا الجهد بقيت معه تلك المشية تعاوده ولا يأمن أن يسهو عن نفسه فيثوب اليها فى طريقه ، فجعل له قرينا يلازمه ويصفقه بيده كلما همّ أن يثوب اليها ..

***

ولا ننسى أن بنى أمية عشيرة عربية كبيرة قد تتميز بخلائقها الأموية ولكنها لا تنفصل عن المجتمع العربى ولا تشذ عن عرفه التقليدى الذى ترعاه جميع العشائر الكبرى ولو من قبيل المحافظة على المراسم والأشكال ، ومن تقاليد هذا العرف أن تروض بيوت الرئاسة أبناءها على نظام كالنظام العسكرى فى صباهم وبعد بلوغهم مبلغ الشباب الذى يندب للقتال أو لتصريف الأمور ، وسواء اختاروا البادية لتدريب الأبناء على هذه الرياضة أو عهدوا بها الى المربيّن فى المدن والدور فلا ينشأ الناشىء منهم الا على رياضة من هاتين الرياضتين ، وكذلك فعل عبد العزيز بن مروان فى تربية ابنه عمر فاختار له المؤدب الذى يثقفه ويأخذه بفرائض دينه ودنياه ، ولما بلغه من هذا المؤدب ـ صالح بن كيسان ـ ان الفتى الصغير يتأخر عن موعد الصلاة لاشتغاله بترجيل شعره أرسل اليه من قبله رسولا خاصا فأمره ألا يكلمه حتى يقص شعره ويبلغه غضب أبيه ، ولا نحسب ان أحدا من رؤساء البيت غفل عن مثل هذه الرياضة فى تنشئة بنيه ، ولكنها رياضة تنتهى الى القدوة البيتية فلا يبقى لها من أثر أو لا يبقى لها الا الأثر الضعيف . وكان عبد العزيز يعاقب عمر ذلك العقاب وهو ينزع فى الترف منزعا لا يستطيع ابنه ـ وان أسرف ـ أن يذهب الى مدى أبعد من مداه ، فاقتنى الدور فى مصر وجملها بالأثاث الفاخر وجعل يهديها الى أبنائه وذويه ، واشترى أرض حلوان بعشرة آلاف دينار ليقيم

عليها قصره المنيف الذى موه جدرانه بالذهب وأنفق على فراشه وأثاثه عشرات الألوف ، وكان له كل يوم ألف جفنة للقرى بدار الضيفان وكانت أيامه كلها كأنها أيام أعياد كما جاء فى معجم البلدان :

كل يوم كأنه عيـــد أضـحى   عند عبـد العزيز أو يوم فطر
وله ألف جفنـــة متـــرعات   كل يوم يمـــدها الف قدر

***

وشهد هذا البذخ كله عمر وتقلب بين أعطافه ، فلولا عرق من الفاروق أدركه لما تحول من هذا البذخ الى النسك الذى ضارع به أزهد الخلفاء الراشدين ..

وليس عبد العزيز ـ على هذا ـ بالمثل الذى يقال عنه انه « نموذج » للخليقة الأموية فى الكلف بالنعمة الدنيوية والعجب بالزينة والشـارة وبالقسامة والوسامة ، بل كانت هذه الخليقة على أتمها فى سليمان بن عبد الملك أكلفهم بنعمة العيش حيث كانت فى طعام أو كساء أو ترف أو سرف أو خيلاء ..

كان نهما لا يشبع ولا يرجع الخوان من بين يديه وعليه بقية ، وكان يلبس الوشى على أفخر حلية وزينة ويحضر الطهاة بين يديه بالسفافيد عليها الدجاج والطير فلا يتمهل بها حتى تنضج بل يلف يده فى كمه ويتناولها من النار ويأتى عليها قبل أن تنقل الى الصحاف ، وربما صحبه عمر فى السفر وهو صائم فلا يجد على المائدة فضل طعام اذا حان موعد الافطار ، وقد مات بالتخمة مع اصابته بالحمى وهو فى الأربعين وأبناؤه الصغار لا يصلحون لولاية العهد ، فجعل ينظر اليهم وينشد :

ان بنى صـبية صـــغار   أفلح من كان له كبـــار

وأمر وزيره رجاء بن حياة أن يعرضهم عليه فى الخوذات والدروع لعله يخدع نفسه بمنظر صبى منهم يصلح لولاية الملك فلم يجد منهم من يروعه أو يروقه فى تلك الأزياء . وأوصى بولاية العهد على كره لعمر بن عبد العزيز ..

قال ابن الجوزى فى سيرة عمر باسناده : « ان سليمان بن عبد الملك كان ربما نظر فى المرآة فيقول : أنا الملك الشاب .. وكان جالسا فنظر فى المرآة الى وجهه فأعجبه ما رأى من جماله فقال : أنا الملك الشاب ، وكانت على رأسه وصيفة فقالت :

أنت نعم المتـــاع لو كنت تبقى — غير ان لا بقـــاء للانســـان

ويروى هذا البيت فى أسانيد أخرى ومعه البيت التالى :

ليس فيما بدا لنـــا منك عيب — عابه النـــــاس غير انك فان

ودخل عليه المفضل بن المهلب يوم جمعة فرآه يدعو بالثياب ويلبس منها حلة بعد حلة ويتخايل بها أمام المرآة ثم يخلعها ويأتى بغيرها حتى ارتضى حلة منها فالتفت الى المفضل سائلا : يا ابن المهلب .. أعجبتك ؟ قال المفضل : نعم . فحسر عن ذراعيه وهو يقول : أنا الملك الفتى

هذا هو الأموى من الأمويين ، وغيره منهم يشبهه فى كل خصلة من هذه الخصال على درجات ، ومنهم معاوية رأس الدولة وأقربهم الى أرومة الميراث ..

***

كان فى معاوية كل خصلة من خصال سليمان بن عبد الملك ولكنه لم يسترسل فيها كما استرسل سليمان مع تطاول الزمن بعد قدوة النبوة والخلافة الأولى خلافة الراشدين

جاء فى الطبرى انه كان يأكل فى اليوم سبع مرات بلحم ويقول : « والله ما أشبع وانما أعيا »

ولم يروها الطبرى وهو يشهر بها ، بل رواها وقال بعدها : « وهذه نعمة ومعدة يرغب فيها كل الملوك »

وسبق الطبرى هذا الخبر بتعليل لهذه النهمة من دعوة رسول الله عليه فى صباه ..

فمن أخبار الامام أحمد المسندة الى ابن عباس انه قال : « كنت ألعب مع الغلمان فاذا رسول الله قد جاء فقلت : ما جاء الا الى . فاختبأت على

باب فجاءنى فخطانى خطاة أو خطاتين ثم قال : اذهب فادع لى معاوية ، وكان يكتب الوحى . فذهبت فدعوته له فقيل : انه يأكل ! فأتيت رسول الله فقلت : انه يأكل . فقال : اذهب فادعه . فأتيته الثانية فقيل انه يأكل ، فأخبرته . فقال فى الثالثة : لا أشبع الله بطنه .. فما شبع بعدها »

ولم يزل بعد الامارة يفرط فى مأكله من اللحوم والحلوى والفاكهة حتى ترهل وعجز عن القيام طويلا فكان يخطب على المنبر وهو جالس ، وكان أول من جلس فى خطبة منبرية

***

وشغف بالاكسية كما شغف بالأطعمة ، فلبس الحرير وتختم بالذهب والجوهر وولع بالثياب المزخرفة والموشاة وتزين بالزينة التى كرهها الاسلام لعامة الرجال فضلا عن الخلفاء والأمراء ، وكان لا يملك أن يترك الزينة بالكساء فى صدر الدعوة والخلافة وفى الزمن الذى كان يتحرج فيه من اغضاب ولى الأمر ، وهو عمر بن الخطاب

قال عبدالله بن المبارك فى كتاب الزهد كما رواه الطبرى : « قدم علينا معاوية وهو أبيض بض وباص ، أبض الناس وأجملهم ، فخرج الى الحج مع عمر ، فكان عمر ينظر اليه فيعجب منه ، ثم يضع أصبعه على متن معاوية ثم يرفعها عن مثل الشراك فيقول : « بخ بخ . نحن اذن خير الناس ان جمع لنا خير الدنيا والآخرة » . فقال معاوية : « يا أمير المؤمنين ! سأحدثك . انا بأرض الحمامات والريف والشهوات » فقال عمر : « سأحدثك أنا .. ما بك الا ألطافك نفسك بألطف الطعام وتصبحك حتى تضرب الشمس متنيك وذوو الحاجات وراء الباب » ، فقال معاوية : يا أمير المؤمنين . علمنى أمتثل قال راوى الخبر : فلما جئنا ذا طوى أخرج معاوية حلة فلبسها ، فوجد عمر منها ريحا كأنه ريح طيب ، فقال : يعمد أحدكم فيخرج حاجا مقلا حتى اذا جاء أعظم بلدان الله حرمة أخرج ثوبيه كأنهما كانا فى الطيب فلبسهما ؟ فقال معاوية : انما لبستهما لأدخل بهما على عشيرتى وقومى . قال عمر : والله لقد بلغنى أذاك هنا وفى الشام »

وزاد راوى الخبر فقال : « والله يعلم انى لقد عرفت الحياء فيه ، ثم نزع معاوية ثوبيه ولبس ثوبيه اللذين أحرم فيهما »

وروى عمرو بن يحيى بن سعيد الأموى عن جده قال : « دخل معاوية على عمر وعليه حلة خضراء . فنظر اليها الصحابة ، فلما رأى ذلك عمر وثب اليه بالدرة فجعل يضربه بها ، وجعل معاوية يقول : الله الله فى يا أمير المؤمنين . فرجع عمر الى مجلسه فقال له القوم : لم ضربته يا أمير المؤمنين وما فى قومك مثله ؟ فقال : والله ما رأيت الا خيرا وما بلغنى الا خير ، ولو بلغنى غير ذلك لكان منى اليه غير ما رأيتم . ولكن رأيته ـ وأشار بيده ـ فأحببت أن أضع منه ما شمخ »

ولم يكن زهوه بسمته وسماته دون زهو سليمان ، فكان يصفر لحيته كأنها الذهب .. وقد أصابته لوقة فى آخر عمره ـ وهى كأثر الضربة فى الجلد ـ فكان يستر وجهه ويقول : « رحم الله عبدا دعا لى بالعافية فقد رميت فى أحسنى ولولا هواى فى يزيد لأبصرت رشدى »

***

وهواه فى يزيد لون من ألوان هذه الخلة الأموية ، فكل الآباء يحبون الأبناء .. ولكن القوم لا يحسبون الأب بارا بابنه الا اذا « نعمه » أو شغل بتنعيمه فيما ينظر فيه الآباء من رغد أبنائهم وفيما يتركونه لهم ويتغاضون عنه كأنهم يجهلونه . وقد أرسل معاوية ابنه يزيد الى بادية بنى كلب ـ أخواله ـ ليتربى بينهم على الفروسية والبلاغة العربية ، ولكنه فعل ذلك كأنما يفعله قياما بما تقتضيه مراسم السلف ولم يتبعه بما هو ألزم ليزيد من ضروب التربية والرياضة على كبح الأهواء ولا سيما الهوى الذى ينظر الى حرمات الناس وأعراض الرعية ، فقد علق يزيد بزوجة عبدالله بن سلام زينب بنت اسحاق ، ومرض بحبها مرضا ادنفه فاحتال أبوه حتى عرف سر مرضه من خصيان القصر ، فأرسل فى طلب أبى هريرة وأبى الدرداء فقال لهما : ان لى ابنة أريد زواجها ولا أرضى لها حليلا غير ابن سلام لدينه وفضله وشرفه ، فانخدع ابن سلام وذهب الى معاوية يخطب بنته وقيل

ان معاوية وكل الأمر الى أبى هريرة ليبلغها ويستمع جوابها ، فأجابته بما اتفقت عليه مع أبيها وقالت له انها لا تكره ما اختاروه ، ولكنها تخشى الضر وتشفق أن يسوقها الى ما يغضب الله ، فطلق ابن سلام زوجته واستنجز معاوية وعده فلواه به ونقل اليه عن ابنته انها لا تأمن رجلا يطلق ابنة عمه وأجمل نساء عصره ! ..

وكأنما كان معاوية مهموما بشهوات ولده فى زواج أو غير زواج ، فقد حدث ابن عساكر من ترجمة خديج الخصى ان معاوية اشترى جارية بيضاء جميلة فأدخلها الخصى عليه مجردة ، وبيده قضيب . فجعل يهوى به على جسدها ويقول : هذا المتاع لو كان لنا متاع . اذهب بها الى يزيد ثم قال : ادع لى ربيعة بن عمر الجرشى ــ وكان فقيها ــ فلما دخل عليه قال : ان هذه أتيت بها مجردة فرأيت منها ذاك وذاك ، وانى أردت أن أبعث بها الى يزيد ، فقال الجرشى : لا تفعل يا أمير المؤمنين فانها لا تصلح له ، فقال معاوية : نعم ما رأيت ! ثم وهبها لعبدالله بن مسعدة الفزارى مولى فاطمة بنت رسول الله ، وكان أسود ، فقال له : بيضُ بها ولدك » ..

***

ونعود فنقول ان الطبرى يسند هذه الأخبار الى أصحابها ولا يسوقها مساق التشهير ، لأنه اتخذ من هذا الخبر دليلا على فقه معاوية فقال : « وهذا من فقه معاوية وتحريه ، حيث كان نظر اليها بشهوة ولكنه استضعف نفسه عنها فتحرج أن يهبها لولده يزيد لقوله تعالى : ولا تنكحوا ما نكح آباؤكم من النساء . وقد وافقه على ذلك الفقيه ربيعة بن عمر الجرشى الدمشقى .. »

وما من تربية ليزيد تصلحه للخلافة بعد هذا « التنعيم » الذى يملى له فى شهواته وهو مقدم على رئاسة قريبة عهد بابن الخطاب بل بابن عفان ، فان الخليفة الثالث رضى الله عنه قد اجاز لنفسه من المتعة الدنيوية ما لم يجزه الفاروق ولكنه لم يحدث نفسه قط باقتناء الخصيان والجوارى

على سنة القياصرة والشواهين ، ولولا تلك الخليقة الأموية التى تمادى بها اتساع الملك فى أهوائها وغواياتها لما فات رجلا ـ وسط الذكاء ـ ان هذه التربية لا تعد انسانا لحياطة الملك المنتزع بالحيلة والحول قبل استقرار الأمور بين مطامع الأقرباء من العشيرة فضلا عن الغرباء

وكان معاوية ينازع طبعه بين الخليفة الأموية وبين آداب الدين الذى يتولى خلافته ، فينزل بنفسه درجات دون منزلة الخلفاء الراشدين لافتتانه بالدنيا واستسلامه لغوايتها ، وله أكثر من كلمة فى هذا المعنى يقول فى بعضها : « ان أبا بكر سلم من الدنيا وسلمت منه ، وعمر عالجها وعالجته ، وعثمان نال منها ونالت منه . أما أنا فقد تضجعتها ظهرا لبطن وانقطعت اليها فانقطعت الى » .. ويقول فى بعضها من خطبة بالمدينة : « ان أبا بكر رضى الله عنه لم يرد الدنيا ولم ترده ، وأما عمر فأرادته الدنيا ولم يردها ، وأما عثمان فنال منها ونالت منه ، وأما أنا فمالت بى وملت بها ، وأنا ابنها فهى أمى وأنا ابنها ، فان لم تجدونى خيركم فأنا خير لكم »

وكأنما كان يشهد على نفسه هذه الشهادة تواضعا من جهة وتزكية لقدرته على الملك الدنيوى من جهة أخرى . فان كان الرعية لا يرتضونه قدوة للصلاح والتقوى ، فهم مرتضوه مدبرا لشئونهم وقائما على مصالح دنياهم ..

***

ويشعر معاوية بالمنازعة بين الخليقة الأموية وآداب المروءة العربية كما يشعر بالمنازعة بينها وبين آداب الدين . فان طالب السيادة يكره أن ينزل فى منزلة دون منازل الشرف والكرامة بين قومه ، فان لم يكره ذلك حبا للخلق المأثور فلعله يكرهه حبا لنفسه وغيرة على سيادته وعلوه فى نظر المكبرين لآداب المروءة سواء تحلوا بها أو تجردوا منها

ومن نوادر معاوية فى هذه المنازعة المتكررة بين خلائق عشيرته وآداب العرب عامة انه جلس يوما مع خاصته يسألهم فيما بقى له ولهم من لذات الحياة بعد ذهاب الشباب ، فاذا هى عنده لذات لا تعدو مذاق الشراب

السائغ وسروره بالنظر الى بنيه ، ثم نبهه منبه الى اسفافه هذا فانتبه ولم يكابر طبعه ، لأن الأمر وراء المكابرة باجماع العرف واجماع الدين

روى الواقدى أن عمرو بن العاص « دخل يوما على معاوية بعد ماكبر ودق ومعه مولاه وردان ، فأخذا فى الحديث وليس معهما أحد غير وردان ، قال عمرو : يا أمير المؤمنين ! ما بقى مما تستلذه ؟ فقال : أما النساء فلا أرب لى فيهن ، وأما الثياب فقد لبست من لينها وجيدها حتى وهى بها جلدى فما أدرى أيها ألين ، واما الطعام فقد أكلت من لذيذه وطيبه حتى ما أدرى ايه ألذ وأطيب ، وذكر مثل ذلك عن الطيب وغيره من مناعم الحياة . ثم قال : فما شيء ألذ عندى من شراب بارد فى يوم صائف ، ومن أن أنظر الى بنى وبنى بنى يدورون حولى »

« وعطف معاوية سائلا : فما بقى منك يا عمرو ؟

« قال عمرو : مال أغرسه فأصيب من ثمرته ومن غلته

« فالتفت معاوية الى وردان فقال : ما بقى منك يا وردان ؟

قال وردان : صنيعة كريمة سنية أعلقها فى أعناق قوم ذوى فضل واصطبار لا يكافئوننى بها حتى ألقى الله تعالى ، وتكون لعقبى فى أعقابهم بعدى ..

« فقال معاوية : تبا لمجلسنا سائر اليوم .. ان هذا العبد غلبنى وغلبك .. ! »

خليقة أموية عربية . مضى الرجل على سجيته فلم يخطر له أن يستبقى من متاع الدنيا الذى عجز عنه الا شيئا يذاق وشيئا يسره من النظر الى ذريته ، ثم نبه المنبه الى المكرمات المأثورة فلم يجحدها ولم يعزب عنه حميد أثرها ..

وان شئت فقل خليقة أموية وكفى .. فان من اثرة ما يوحى الى صاحبه ألا ينزل طواعية عن مأثرة يرتفع بها غيره ، ولا يسعه أن ينكرها وهكذا كانت الخليقة الأموية مع المروءة العربية فى كل مأثرة محمودة بين عشائر العرب الكبرى وبين العرب خاصة وعامة ، وأولها مناقب

الشجاعة والكرم والنخوة ، فما كان فى وسع بنى أمية أن يغمضوا أعينهم عن هذه المناقب ولا أن يصغروا من حقها ، ولكن التسليم للمنقبة شىء والجهد فى تحصيلها شىء آخر .. ولهذا مضى تاريخ بنى أمية فى الجاهلية وليس بينهم واحد معدود حين يعد العرب فرسانهم المقدمين وأجوادهم المشهورين وذوى النجدة من صفوة عشائرهم ونخبة ساداتهم ، وظهر فيهم الشجعان فى صدر الاسلام كيزيد بن أبى سفيان — وهو أخ غير شقيق لمعاوية ولكنه لا يحسب عندهم ولا عند غيرهم من فرسان هاشم فى جيل واحد ، كعلى وحمزة

وسئل معاوية نفسه — وسائله عمرو بن العاص — : والله ما أدرى يا أمير المؤمنين أشجاع أنت أم جبان ؟ فقال :

شجاع اذا ما أمكنتنى فرصة
فان لم تكن لى فرصة فجبان

ولم يؤثر لمعاوية موقف واحد يحسب من مواقف الشجاعة البينة ، بل حسب عليه أنه كان يأوى الى قبة يحيط بها الحراس فى معارك صفين ، وانه أسرع الى فرسه فى ليلة الهرير لينجو بحياته ، ثم هدأ الخطر بعض الشىء فراجع نفسه وتراجع الى مكانه وهو آمن من عاقبة هذه الرجعة ، بعد أن خفت الهجمة على موضعه من ميدان القتال

***

وليس من أخبار بنى أمية فى الجاهلية وصدر الاسلام خبر واحد ينفى عنهم هذه الخليقة الغالبة عليهم جميعا من الاثرة والكلف بالمناعم الدنيوية وتقديمها على غيرها من مناقب الايثار والمثل العليا

وبهذه الخليقة يفسر كل عمل من أعمـــال معاوية على انفراده بينهم بصفات من الحزم لم يشتهروا جميعا بمثلها ، وهو مع حزمه « الدنيوى » هذا لم يصطدم بالخليقة الأموية الا وهن منه الحزم فى هذا المصطدم . فكان من الحزم ألا يتوسع فى ابهة الملك أو ابهة « الهرقلية والكسروية » كما كان المسلمون يسمونها فى صدر الاسلام ، ولكنه لم يكد يملك حتى

صنع مايصنع القياصرة والأكاسرة من اقتناء الخصيان والجوارى والتوسع فى بذخ القصور والقدور ، وكان من الحزم أن يروض يزيد على كبح الشهوات فلم يكد يسمع أنه اشتهى امرأة فى عصمة رجل حتى احتال حيلته لامتاعه بما اشتهى ، وان النهازين من مؤرخى العصر القديم ليفسرون صلاته الجامعة فى المقاصير بخوفه من الغيلة بعد مؤامرة الثلاثة التى قتل فيها على رضوان الله عليه . ولئن صح هذا لما نفى عنه تلك الخليقة الأموية التى تلوذ بالحيطة حيث لايلوذ بها المبرأون منها ، فقد قتل عمر وعلى ولم يلجأ الحسن أو الحسين الى المقاصير أو الى الحرس الميسر لهما وهو غير قليل ، وقد كانت ابهة المواكب من دأب معاوية اذ كان — بعد — على ولاية الشام من قبل الفاروق . فلما رآه الفاروق فى موكبه أعرض عنه ثم عنفه وسأله عن اتخاذ المواكب مع احتجابه عن ذوى الحاجات ، فاعتذر له بموقعه من بلاد العدو ، ودأب على اتخاذ المواكب وتسيير الجند بين يديه قبل أن يخشى غيلة من مغتال

عند هذه الخليقة الأموية تفسير الكثير مما جهله المؤرخون الأقدمون أو تجاهلوه ، ولا سيما المؤرخين النهازين من المنتفعين أو المتطوعين

مَوْقِفُ مُعَاوِيَةِ فِي قَضِيَّةِ عُثْمَان

كل خبر من أخبار العصر لازم مطلوب لفهم تاريخه وأعمال رجاله ، ولكن الأخبار المقدمة على غيرها فى حوادث العالم الاسلامى التى أفضت الى قيام الخلافة الأموية انما هى الأخبار التي لها مساس بموقف معاوية من عثمان قبل مقتله وبعد مقتله والمبايعة لعلى بالخلافة فى الحجاز

فبغير هذه الأخبار التى تكشف عن موقف معاوية لا يستطيع المؤرخ أن يتثبت من حقيقة البواعث التى كمنت وراء الحوادث والحروب والخصومات ، ولا يستطيع أن يعرف ماهو صحيح منها وما هو مصطنع من تدبير السواس والدعاة

فما هى حقيقة المسائل التى أثارت معاوية على علىّ وجنحت به الى سلوك المسلك الذى اختاره هو ومعاونوه ؟ ماذا منها قد حدث فعلا وماذا منها لم يحدث وقيل انه حدث للانتفاع به فى الادعاء ورد الادعاء .. وفى الاتهام ورد الاتهام ؟ أو ماذا منها قد حدث فعلا وحرفه الدعاة الى غير وجهته وأولوه بغير معناه ؟ وماذا من تلك الحوادث جميعا كان خليقا أن يتغير لو تغير الموقف وتغيرت النيات والمساعى ؟

كل أولئك مرهون بالنفاذ الى حقيقة موقف معاوية من عثمان قبل مقتله وبعد مقتله ومبايعة على بالحجاز

وكل ماوصل الينا من أخبار ذلك الموقف يدل على شيء واحد لا محل فيه للخلاف الطويل بين الناظرين اليه من الوجهة التاريخية الخالصة ، وهو عمل معاوية لنفسه فى كل مطلب طلبه من عثمان وكل نصيحة أسداها اليه وكل مشورة أشار بها عليه ، فليس فى هذه المطالب والنصائح أو المشورات شيء قط تجرد من منفعة ينظر اليها معاوية فى حاضره أو

مصيره ، وكل ماعدا ذلك فقد يكثر فيه الخلاف ويؤول فيه التأويل

كان معاوية فى عهد الفاروق قانعا بعطائه السنوى وهو ألف دينار ، وكان الولاة والرعية لايشكون اجحافا ولا محاباة فيما يرجع الى أرزاق العمال الكبار والصغار ومنهم الولاة . فلما انقضى عهد الفاروق كثرت الشكوى من تقسيم هذه الأرزاق ومن ايثار بعض الولاة بالولايات لقرابتهم من الخليفة ، وكانت هذه الشكوى احدى الدعايات التى تذرع بها المشاغبون للثورة التى تفاقمت حتى ذهبت بحياة عثمان

***

ولم يكن معاوية يجهل هذه النقمة الفاشية فى الولايات ، ولكنه على ذلك كتب الى عثمان يطلب زيادة عطائه ، ويطلب غير ذلك أن يقطعه الأرض التى قتل أصحابها من الروم أو تركوها وهاجروا الى بلاد غير البلاد المفتوحة من أرض الدولة البيزنطية ، وتعلل له بكثرة وفود الأمصار والرسل وان هذه الضياع المتروكة لايؤخذ عليها الخراج ولا تحسب من أموال أهل الذمة كما جاء فى تاريخ ابن عساكر ، وكانت هذه الضياع وأمثالها تلحق ببيت المال وينفق منها على المصالح العامة ومعونة المعوزين وذوى الحاجات ، فلما أذن له عثمان بزرعها والانتفاع بثمراتها حبسها على نفسه وعلى آل بيته وخدامه وأعوانه فى سياسته ، وعمد الى كل معترض عليه وعلى انفاقه لهذه الأموال فى غير وجوهها فأقصاه عن الشام وأرسله الى حيث يشاء من البلاد الاسلامية الأخرى لايعنيه أن يصنع الشاغبون ما يصنعون فى غير ولايته ، وهو يعلم أنهم سيشغبون على عثمان حيث ذهبوا وأن عثمان يلقى من الفتنة ماهو حسبه فى جواره

وحديث أبى ذر فى الشام معروف ننقل منه مايدور حول موقف معاوية من عثمان كما جاء فى ابن الأثير :

« كان أبو ذر يذهب الى أن المسلم لاينبغى أن يكون فى ملكه أكثر من قوت يومه وليلته أو شىء ينفقه فى سبيل الله أو يعده لكريم ويأخذ بظاهر القرآن .. « الذين يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها فى سبيل

الله فبشرهم بعذاب أليم » ... فكان يقوم بالشام ويقول : يامعشر الأغنياء واسوا الفقراء .. بشّر الذين يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها فى سبيل الله بمكاو من نار تكوى بها جباههم وجنوبهم وظهورهم ، فمازال حتى ولع الفقراء بمثل ذلك وأوجبوه على الأغنيـاء ، وشكا الأغنياء مايلقون منهم فأرسل اليه معاوية بألف دينار فى جنح الليل فأنفقها . فلما صلى معاوية الصبح دعا رسوله الذى أرسله اليه فقال : اذهب الى أبى ذر فقل له : انقذ جسدى من عذاب معاوية ! فانه أرسلنى الى غيرك وانى أخطأت بك . ففعل ذلك ، فقال له أبو ذر : يابنى قل له : والله ما أصبح عندنا من دنانيرك دينار ، ولكن أخرنا ثلاثة أيام حتى نجمعها ، فلما رأى معاوية أن فعله يصدق قوله كتب الى عثمان : ان أبا ذر قد ضيق على ، وقد كان كذا وكذا للذى يقوله للفقراء . فكتب اليه عثمان : ان الفتنة قد أخرجت خطمها وعينيها ولم يبق الا أن تثب ، فلا تنكأ القرح وجهز أبا ذر الى وأبعث معه دليلا وزوده وأرفق به ، وكفكف الناس ونفسك ما استطعت » ..

***

ولما خرج الشاغبون بالفتنة من الكوفة الى الشام بأمر عثمان كتب عثمان الى معاوية كما جاء فى ابن الأثير : « ان نفرا قد خلقوا للفتنة فأقم عليهم وانههم فان آنست منهم رشدا فأقبل وان أعيوك فارددهم علي »

فلقيهم معاوية وزجرهم واغلظ لهم ، ثم اتاهم بعد ذلك فقال لهم : انى قد اذنت لكم فاذهبوا حيث شئتم لا ينفع الله بكم احدا ولا يضره ، ولا انتم برجال منفعة ولا مضرة . فان اردتم النجاة فالزموا جماعتكم ولا يبطرنكم الانعام فان البطر لا يعترى الخيار ، اذهبوا الى حيث شئتم فسأكتب الى امير المؤمنين فيكم »

وكتب الى امير المؤمنين يهون له من شأنهم ويقول عنهم انهم « ليسوا لاكثر من شغب ونكير »

ولم يكن أمرهم ليعييه ، فانهم ذهبوا حين سرحهم يقصدون الجزيرة

فعلم بهم عبد الرحمن بن خالد فما اعياه امرهم ودعاهم اليه ولم يذهب اليهم كما فعل معاوية فتوعدهم عبد الرحمن وعيدا لا يشكون فيه وقال لهم : « يا آلة الشيطان ! لا مرحبا بكم ولا اهلا . قد رجع الشيطان محسورا وانتم ــ بعد ــ نشاط . خسر الله عبد الرحمن ان لم يؤدبكم .. يا معشر من لا ادرى أعرب هم أم عجم . لا تقولوا لى ما بلغنى انكم قلتم لمعاوية . انا ابن خالد بن الوليد . انا ابن من قد عجمته العاجمات . انا ابن فاقىء الردة . والله لئن بلغنى يا صعصعة ان احدا ممن معى دق انفك ثم امصكه ــ اى جعلك تمصه ــ لأطيرن بك طيرة بعيدة المهوى . فأقامهم شهرا كلما ركب مشاهم ، فاذا مر به صعصعة قال : يا ابن الخطيئة !.. أعلمت ان من لم يصلحه الخير أصلحه الشر . ما لك لا تقول كما بلغنى انك قلت لسعيد ومعاوية ؟.. فيقولون : نتوب الى الله . أقلنا أقالك الله . فما زالوا به حتى قال : تاب الله عليكم ، وسرح الاشتر الى عثمان . فقدم اليه ثانيا ، فقال له عثمان : احلل حيث شئت . فقال : مع عبد الرحمن بن خالد . فقال : ذلك اليك ، فرجع اليه »

***

وعلى اختلاف الروايات فى تنقل هذه الفئة بين الكوفة والشام ، وفيما قالوه وقيل لهم ، لم يتغير موقف معاوية فى جميع هذه الروايات ، وهو موقف الرجل الذى لا يبالى بعد امانه على ولايته ان تنجم الفتنة حيث نجمت وان يبتلى بها الخليفة بنجوة منه

وقد تفاقم الخطب ونظر الخليفة المحصور حوله يطلب الرأى من ذوى الرأى بين خاصته وخاصة المسلمين . واجتمع عنــده رهط منهم يوما اشاروا عليه بما بدا لهم ثم خرجوا فأمسك عثمان بابن عباس فقال له : يا ابن عمى ويا ابن خالتى . انه لم يبلغنى عنك فى أمرى شىء أحبه ولا اكرهه ، وقد علمت انك رأيت بعض ما رأى الناس فمنعك عقلك وحلمك من ان تظهر ما اظهروا ، وقد احببت ان تعلمنى رأيك فيما بينى وبينك فاعتذر ... قال ابن عباس : يا امير المؤمنين انك قد ابتليتنى بعد العافية

وادخلتنى فى الضيق بعد السعة . ووالله ان رأيى لك رأى من يجل سنك ويعرف قدرك وسابقتك . ووالله لوددت انك لم تفعل ما فعلت مما ترك الخليفتان قبلك . فان كان شيئا تركاه لانه ليس لهما علمت انه ليس لك كما لم يكن لهما ، وان كان ذلك لهما فتركاه خيفة ان ينال منهما مثل الذى نيل منك تركته لما تركاه له ولم يكونا أحق باكرام أنفسهما منك باكرام نفسك ..

قال عثمان : فما منعك أن تشير على بهـذا قبل أن أفعل ما فعلت ؟ قال ابن عباس : وما علمى انك تفعل ذلك قبل ان تفعله ؟ قال : فهب لى صمتا حتى ترى رأيى

وخرج ابن عباس وبقى معاوية فسأله عثمان فأجاب كما جاء فى الامامة والسياسة : « الرأى ان تأذن لى بضرب اعناق هؤلاء القوم . قال : من ؟ قال : على وطلحة والزبير .. قال عثمان : سبحان الله !.. أقتل أصحاب رسول الله بلا حدث احدثوه ولا ذنب ركبوه ؟ قال معـاوية : فان لم تقتلهم فانهم سيقتلونك .. قال عثمان : لا أكون أول من خلف رسول الله فى أمته باهراق الدماء

« قال معاوية : فاختر منى احدى ثلاث خصال

« قال عثمان : ما هى ؟

« قال معاوية : ارتب لك ها هنا اربعة آلاف من خيل اهل الشام يكونون لك ردءا وبين يديك يدا

« قال عثمان : أرزقهم من أين ؟

« قال : من بيت المال

« قال عثمان : ارزق اربعة آلاف من الجند من بيت مال المسلمين لحرز دمى ؟ لا فعلت هذا

! قال : فثانية

« قال : وما هى ؟

« قال : فرقهم عنك فلا يجتمع منهم اثنان فى مصر واحد واضرب

عليهم البعوث والندب حتى يكون دبر بعير منهم أهم عليه من صلاته

« قال عثمان : سبحان الله ! شيوخ المهاجرين وكبار أصحاب رسول الله وبقية الشـــــورى اخرجهم من ديارهم وأفرق بينهم وبين أهليهم وأبنائهم ؟ .. لا أفعل هذا ..

« قال معاوية : فثالثة !

« قال : وما هى ؟

« قال . اجعل لى الطلب بدمك ان قتلت

« قال عثمان : نعم هذه لك . ان قتلت فلا يطل دمى »

هذه رواية الامامة والسياسة ، وفى سائر الروايات ان معاوية قال له غير ذلك : اخرج معى الى الشام قبل ان يهجم عليك ما لا تطيقه . قال : لا ابتغى بجوار رسول الله بدلا »

***

تلك جملة الاراء التى اشار بها معاوية على الخليفة ، وما من رأى منها الا والنفع فيه ثابت لمعاوية غير ثابت لعثمان ، وربما كان فى معظمها ما يضره ولا يجديه ..

فليس قتـــل على وطلحة والزبير بالامر الهين الذى يدفع الشر عن الخليفة ، وليس هو بالخطة التي يختارها معاوية لنفسه لو كان فى موضع عثمان . وقد اعفى معاوية نفسه من التضييق على صعصعة ورهطه كما ضيق عليهم عبد الرحمن بن خالد فليس من خطته التى يختارها لنفســـه ويحمل تبعتها علي عاتقه ان يقتل ثلاثة من اقطاب الصحابة كعلى وطلحة والزبير كما أشار على عثمان ، وانما يبوء عثمان بتبعتها ويترك الامر من بعده لمعاوية بغير منافس ينافسه عليها ، بعد مقتل الثـــلاثة الذين كانوا مرشحين لها عند أهل الحجاز وأهل الكوفة وأهل مصر . اما أهل الشام فهم فى ولايته لايعرفون احدا غيره ينافسه باسمهم عند اختلاف المختلفين ، وليس ثمة مختلفون اذا نفذ القضاء فى الاقطاب المقتولين

واما الاشارة على عثمان باقامة اربعة آلاف من خيل الشام يحرسونه

فهو تسليم للحجاز الى يدى معاويه فى حياة الخليفة وبعد حياته ، فلا يقدر أحد على بيعة فيه غير البيعة التى يرضاها ، ولا تقع هذه البيعة اصلا لمن يستجيب لها او لا يستجيب

والخروج من المدينة الى الشام مع معاوية ينقل العاصمة الى دمشق ويجعل القول الفصل بعد موت الخليفة لصاحب القول الفصل فيها ، وما من أحد قط ينتفع من العمل بهذه النصائح غير معاوية فى جميع الحالات

وقد نقل الرواة والمؤرخون عن كل ناصح انه اشار على عثمان بترك خطة من خططه فى السياسة العامة ، ولم ينقل مثل ذلك عن معاوية فى جليل من الامر ولا يسير ، ولم يقف مثل موقفه غير مروان بن الحكم الذى لايملك ان ينهى عثمان عن شيء ، لأنه كان سبب الشكوى وصاحب التبعات جميعا فى كل مأخذ من مآخذ الثوار على العهد كله والسياسة بجملتها . فاذا كان سكوت مروان عن النصح بالتغيير مفهوما متوقعا فمثل هذا السكوت من معاوية لا يفهم الا على وجه واحد . وهو انه يعفى نفسه من تبعة النصيحة ليملى للخليفة فيما يرضاه ، ويعلم ان التغيير النافع يصيبه فى مقدمة الولاة المحسوبين على العهد كله ، وقد كان يتعهد للخليفة بكفايته أمر الشام ويسأله ان يفرض على الولاة الآخرين مثل ذلك اليوم .. فان لم يقدروا مثل قدرته كان حقا له أن يخلفهم أو ينفض يديه من العمل والمشورة ..

***

وأثبت ما ثبت من منفعة معاوية بتلك المطالب التى عرضها على الخليفة فى شدته ــ مطلبه ان تكون له ولاية الدم بعد مقتله ، فانه بمثابة ولاية العهد باذن صاحب الامر . اذ كان القصاص انما يتولاه القائم بالشريعة حيث تقام حدود الدين ، ولم يكن عثمان ليخشى عليه القتل من فرد يعتدى عليه غيلة فيكون عمل ولى الدم ان يقتاده الى الحاكم القائم بالشريعة ، ولكنه خشى عليه القتل من جماعات ثائرة لا يتولى ادانتها والقصاص منها غير صاحب سلطان اقوى من سلطانها وسلطان من تؤيده

وتطيعه على شرطها . فاذا كان معاوية قد طلب ولاية الدم بعد مقتل عثمان فقد طلب ولاية العهد وفارقه وهو يعلم انه مقتول

واوشك الخليفة ان يقتل ، فاذا نظرنا فى ارجاء العالم الاسلامى يومئذ لم نجد أحدا أقدر على نجدته من معاوية ، لأنه الوالى المستقر فى ولايته منذ عشرين سنة يقصى عنها كل من يعاديه ويبقى فيها كل من يواليه ، وغيره من الولاة فى ذلك العهد بين معزول او معتزل او مهدد فى سلطانه كما هدد الخليفة فى عاصمته ، ومن كان حول الخليفة من سروات المدينة فليس فى وسعه ان ينصره بقوة اقوى من الدولة وحراسها واشياعها ، فاذا جمح السفهاء جماحهم الذى يغلب الدولة على قوتها وهيبتها فحرى ان لا يصده زاجر ولا ناصح ممن لا يملكون غير الزجر والنصيحة

***

وأيا كان القول فى السروات الاخرين فواجب معاوية واضح لا لبس فيه ، وليس مما يقيله من هذا الواجب ان الخليفة أبى عليه اقامة جيش دائم الى جواره يرزقه من بيت المال ، فان عمل الجيش الدائم غير عمل النجدة العاجلة ، ولا يلام والى الشام على نجدة عاجلة بعد ان طلب الخليفة النجدة من الولاة ، ولو انه كان يلام على ذلك لكان اللوم أهون عليه من ترك الخليفة لقاتليه يسفكون دمه وهو معتذر بأمر صدر اليه فى حال غير هذه الحال

لقد كان ذوو الجرأة من المعارضين لعثمان يلقون معاوية بهذا اللوم كلما اخذهم باللوم لأنهم لم ينصروه ، ومن هؤلاء ابو الطفيل عامر بن واثلة الصحابى كما جاء فى تاريخ الخلفاء للسيوطى :

قال له معاوية : ألست من قتلة عثمان ؟ قال ابو الطفيل : لا . ولكننى ممن حضره فلم ينصره

قال : وما منعك من نصره ؟

قال : لم تنصره المهاجرون والانصار

فقال معاوية : اما لقد كان حقه واجبا عليهم ان ينصروه

فقال ابو الطفيـل : فما منعك يا امير المؤمنين من نصره ومعك أهل الشام ؟ ..

فقال معاوية : اما طلبي بدمه نصرة له ؟

فضحك ابو الطفيل ثم قال : انت وعثمان كما قال الشاعر :

لا الفينك بعد الموت تندبني　　وفى حياتي ما زودتني زادي

ووقعت الواقعة ومات الخليفة قتيلا وذهب معاوية يطالب بدمه وينكر على علي بيعته لأنه لايسلمه قتلة عثمان ، ممن يذكرهم اجمالا أو يسميهم بأسمائهم ، وآل الأمر كله بعد حين الى معاوية يصنع بهؤلاء ما يشاء ، فلم يأخذ واحدا منهم بجريرة مشهودة ولم يحاسب احدا على جريرة مستورة تتطلب الاشهاد ، وكان يلقى الرجل منهم فلا يزيد على ان يسأله كما سأل ابا الطفيل : ألست من قتلة عثمان ؟ ثم يصرفه فى أمان ، وقد يسكت عن سؤاله ويصرفه مزودا بالعطاء

***

وظهر من مبدأ الخصومة ان الغيرة على عثمان لم تكن تلك الغيرة اللاعجة التى تثير الثائرة وتضرم الحروب ، فان معاوية قد حالف عمرو ابن العاص وكافأه بولاية مصر ، وهى ولاية عزله منها عثمان وبكته بذكرها يوم صاح به بين الجموع المتذمرة يسأله التوبة والاستغفار ، وكاد الرواة يجمعون على كلمة نقلت عن لسان ابن العاص فحواها انه كان يلقى الاعرابى فى البادية فيحرضه على عثمان ، فان لم يصح عن ابن العاص انه قائل تلك الكلمة فموقفه من فتنة عثمان كموقف ذوى الرأى جميعا ممن كان معاوية يحاسبهم على تركهم عثمان بغير نصير ، وكان فى وسعهم كما قال ان ينصروه

ولم يخف هذا الموقف الذى لا خفاء به على أبناء عثمان وبناته ، فانهم كانوا يرون معاوية فيلقونه بالبكاء ويذكرون أباهم ليذكروه بدمه المطلول ووعده بالثأر له ثم سكوته عن الثأر بعد أن أمكنه منه ما لم يكن فى امكان أحد من المطلوبين به فى رأيه

قال ابن عبد ربه فى العقد الفريد ، وقال غيره مع اختلاف قليل فى السياق : « قدم معاوية المدينة بعد عام الجماعة فدخل دار عثمان بن عفان فصاحت عائشة ابنة عثمان وبكت ونادت أباها ، فقال معاوية : يا ابنة أخى . ان الناس اعطونا طاعة وأعطيناهم أمانا . وأظهرنا لهم حلما تحته غضب ، وأظهروا لنا ذلا تحته حقد . ومع كل انسان سيفه ويرى موضع أصحابه ، فان نكثناهم نكثوا بنا ، ولا ندرى أعلينا تكون أم لنا ، ولان تكونى ابنة عم أمير المؤمنين خير من ان تكونى امرأة من عرض الناس »

فالمطالبة بدم عثمان انما كانت قضية قائمة حين كانت لازمة للتحريض على علىّ وبثّ الدعوة والتمكين لمعاوية ، فلما تمكن واستطاع ما لم يكن فى وسع على ان يفعله سكت عن الثأر وحديثه الا ما كان من قبيل الحوار العقيم فى المجالس ، وقبل من نفسه العذر ضعيفا هزيلا ولم يكن يقبله قويا معززا بالواقع والبينة ممن لا لوم عليه

***

ذلك أيسر ما يقال عن حقيقة الموقف من قضية عثمان ومطالبة معاوية بدمه ، وكل ما فعله معاوية من نصرة عثمان قبل مقتله وبعده فهو ثابت النفع لمعاوية غير ثابت النفع لعثمان ، ولا نجرى وراء النيات وان كان للمؤرخ حق فى النظر اليها قد يحمد منه حيث لا يحمد من القضاء . فان المؤرخ مطالب بتقويم أقدار الرجال وتفسير أسرار الحوادث والتعريف بالأخلاق والضمائر ، ولا ضرر من استقصائه لما وراء الظواهر والدعوات بل الضرر كل الضرر أن يأخذ بالظواهر والدعوات دون استقصاء

وقضاء التاريخ فى موقف معاوية من عثمان انه موقف يسقط كثيرا من التهم التى كان يكيلها لخصومه ، ويسقط كثيرا من الأعذار التى كان ينتحلها لنفسه ، ويوجب على المؤرخ ان ينفذ من وراء التهم والمعاذير الى تفسير واحد لوقائع الثورة التى ثارها معاوية باسم عثمان ، فان اصدق البواعث لها انها ثورة فى طلب الملك أعوزتها الحجة فالتمستها من مقتل الخليفة الشهيد

النشأة والتكوين

ولد معاوية لأبوين عريقين قويين ، أخبارهما عندنا قليلة متقطعة ، ولكنها من نوع الأخبار التي تدل باللمحة العارضة ، ويغنى القليل منها عن الكثير فى وصف الطبائع والأخلاق ، فنعرف منها أى رجل وأى امرأة كان ابواه من الرجال والنساء

من انباء الجاهلية عن النساء ان هند بنت عتبة ام معاوية كانت من نساء الاسر التى تعودت ان تستشير بناتها فى أمر زواجهن ، وقد خطبها اثنان فقال لها ابوها : « اما احدهما ففى ثروة وسعة من العيش ، ان تابعته تابعك ، وان ملت عنه حط اليك ، تحكمين عليه فى أهله وماله . واما الاخر فموسع عليه منظور اليه فى الحسب والنسب والرأى الاريب ، مدره ارومته وعز عشيرته ، شديد الغيرة لا ينام على ضعة ولا يرفع عصاه عن اهله

« فقالت : يا ابت : الاول سيد مضياع للحرة ، فما عست ان تلين بعد ابائها وتضيع تحت جناحه اذا تابعها بعلها فأشرت وخافها اهلها فامنت ؟ ساء عند ذلك حالها وقبح عند ذلك دلالها . فان جاءت بولد احمقت ، وان انجبت فمن خطأ ما انجبت . فاطو ذكر هذا عنى ولا تسمه علي بعد . واما الاخر فبعل الفتاة الخريدة الحرة العقلة ، وانى لاخلاق مثل هذا لموافقة ، مزوجنيه »

ونعلم من كلام هند هنا انها امرأة قوية الانوثة يرضيها ان تكون زوجة لرجل جدير بالمهابة والطاعة ولا يرضيها ان يكون زوجها لعبة فى يديها مطواعا لأمرها

ولم يرد فى اخبار هند خبر غير هذا الا كان فيه ابانة عن جانب من

جوانب هذه الانوثة القوية ، ربما بلغ فى بعض احوالها مبلغ الوحشية ولكنه على هذا يظل وحشية انثوية تشاهد من ضراوة الانسان كما تشاهد من ضراوة الحيوان

كانت تلقب بآكلة الاكباد لانها اكلت كبد حمزة عم النبى عليه السلام بعد ان قتل رجالها فى وقعة بدر . وحزن المرأة على رجالها شديد يشتد مع اشتداد انوثتها ، فاذا كانت فى هذه المثلة وحشية بغيضة فهى وحشية انثوية ، تشتفى بها المرأة اذا جمح بها حزنها وأذهلها عن صوابها ، وليست مما يشتفى به اقوياء الرجال

***

ولم تنس هند حزنها على رجالها فى حضرة النبى عليه السلام اذ جاءته مع غيرها من النساء يأخذ عليهن عهد البيعة

قال صلوات الله عليه : تبايعننى على ألا تشركن بالله شيئا ، ولا تسرقن الى ان قال : ولا تزنين

قالت : يارسول الله .. هل تزنى الحرة ؟

ثم قال : ولا تقتلن اولادكن ..

فقالت : اما الاولاد فقد ربيناهم صغارا وقتلتهم يوم بدر كبارا ، فأنت بهم اعلم ..

وان سؤالها : « هل تزنى الحرة ؟ » لمن تلك الاخبار التى قلنا انها تدل باللمحة العارضة ويغنى القليل منها عن الكثير

انه سؤال يدل على الانفة من الزنى لانها ــ كرامة جاه ــ ولان الزنى خلة من خلال الاماء والسبايا لا تعهد فى الحرائر الكريمات ، فالانفة من الضعة هنا أنبر من الاعراض عن الرذيلة ، وقصتها مع زوجها الاول الفاكه بن المغيرة تنبىء عن هذه الانفة وعن هذه العزة ، فكانت اهانتها بتهمة الزنى لا تقبل عندها الغفران ولا تقنعها البراءة منها ، وان شهد بها من تقبل شهادته فى الجاهلية ولا يطلبون على البراءة حجة اقوى عندهم من تلك الشهادة

« اخرج الخرائطى فى الهواتف عن حميد بن وهب قال :

كانت هند بنت عتبة بن ربيعة عند الفاكه بن المغيرة ، وكان من فتيان قريش ، وكان له بيت للضيافة يغشاه الناس من غير اذن . فخلا البيت ذات يوم ، فقام الفاكه وهند فيه ، ثم خرج الفاكه لبعض حاجاته واقبل رجل ممن كان يغشى البيت فولجه ، فلما رأى المرأة ولى هاربا ، فأبصره الفاكه فانتهى اليها فضربها برجله وقال : من هـذا الذى كان عندك ؟ قالت : ما رأيت احدا ولا انتبهت حتى انبهتنى . فقال لها : الحقى بأهلك .. وتكلم فيها الناس . فخلا بها ابوها فقال لها : يا بنيـة : ان الناس قد أكثروا فيك فانبئينى بذاك ، فان يكن الرجل صادقا دسست اليه من يقتله فتنقطع عنا المقالة ، وان يكن كاذبا حاكمته الى بعض كهان اليمن ، فحلفت له بما كانوا يحلفون به فى الجاهلية انه كاذب عليها . فقال عتبة للفاكه : انك قد رميت ابنتى بأمر عظيم فحاكمنى الى بعض كهان اليمن . فخرج الفاكه فى جماعة من بنى مخزوم ، وخرج عتبة فى جماعة من بنى عبد مناف ومعهم هند ونسوة معها تأنس بهن ، فلما شارفوا البلاد تنكرت حال هند وتغير وجهها ، فقال لها أبوها : يا بنيّة ، انى قد أرى ما بك من تغير الحال ، وما ذاك الا لمكروه عندك . قالت : لا والله يا ابتاه .. ما ذاك لمكروه . ولكنى اعرف انكم تأتون بشرا يخطىء ويصيب ، فلا آمنه ان يسمني بسيماء تكون علي سبة فى العرب ، فقال لها : انى سوف اختبره لك قبل ان ينظر فى امرك ، فصفر بفرسه حتى ادلى . ثم ادخل فى احليله حبة من الحنطة ، وأوكأ عليها بسير . وصبحوا الكاهن فنحر لهم واكرمهم ، فلما تغدوا قال له عتبة : انا قد جئناك فى امر ، وقد خبأت لك خبيئا اختبرك به فانظر ما هو ؟ قال : برة فى كمرة . قال : اريد ابين من هذا . قال : حبة من بر فى احليل مهر ، فقال عتبة : صدقت .. انظر فى امر هؤلاء النسوة . فجعل يدنو من احداهن ويضرب كتفها ويقول : انهضى . حتى دنا من هند فضرب كتفها وقال : انهضى غير رسحاء ولا زانية ، ولتلدين ملكا يقال له معاوية . فنظر اليها الفاكه

فأخذ بيدها فنثرت يدها من يده وقالت : اليك .. والله لاحرصن ان يكون ذلك من غيرك ، فتزوجها ابو سفيان فجاءت بمعاوية »

وقصة الكاهن هنا تسقط بحذافيرها ويبقى من خبر هند مع زوجها انه اتهمها فأنفت ان تعود اليه بعد ان اراد هو ان يعيدها ، لانها تغضب لكرامتها ان تعيش مع رجل ينزلها دون منزلتها من حرائر النساء

وينقل عنها فى اسانيد متعددة انها بشرت بسيادة معاوية على قومه فقالت : ثكلته ان لم يسد الا قومه

***

قال الشافعى فيما رواه الطبرى : « قال ابو هريرة : رأيت هندا بمكة كأن وجهها فلقة قمر وخلفها من عجيزتها مثل الرجل الجالس ، ومعها صبى يلعب ، فمر رجل فنظر اليه فقال : انى لأرى غلاما ان عاش ليسودن قومه . فقالت هند : ان لم يسد الا قومه فأماته الله ... وقال محمد بن سعد : انبأنا على بن محمد بن عبد الله بن ابى سيف ، قال : نظر أبو سفيان يوما الى معاوية وهو غلام فقال لهند : ان ابنى هذا لعظيم الرأس ، وانه لخليق ان يسود قومه . فقالت هند : قومه فقط ؟ ثكلته ان لم يسد العرب قاطبة .. فلما ولى عمر بن يزيد بن أبى سفيان ما ولاه من امر الشام خرج اليه معاوية فقال ابو سفيان لهند : كيف رأيت ؟ صار ابنك تابعا لابنى .. فقالت : ان اضطربت خيل العرب فستعلم اين يقع ابنك .. »

وربما تناثرت الاخبار فى كتب الادب والتاريخ بغير هذه الاحاديث عن هند بنت عتبة زوج ابى سفيان وأم معاوية ، ولا حاجة الى نقلها او تلخيصها جميعا لانها تتفق فى صفة هند بالوسامة والجسامة والاعتداد بالنفس والحسب ، وانما توافق ما نسميه اليوم « بالشخصية » الملحوظة بين ذويها وقومها وليست من عداد الزوجات والامهات المنسيات فى الغمار كما كان سائر النساء فى بيئتها

والقصة التى بدأنا بها هذا الفصل تبدى لنا ابا سفيان فى حياته

البيتية على صورة لم تذكر فى قصة اخرى ، فنعلم انه سيد بيته كما كان سيد عشيرته « وانه شديد الغيرة لا يرفع عصاه عن اهله »

وبقية القصة الاخرى تبدى لنا ابا سفيان فى صورة من صور الحياة البيتية ، يقول من شاء انها حياة تقدير ويقول من شاء انها حياة تقتير

فقد وصفته هند بأنه رجل « مسيك » وانها « كانت تصيب من ماله الهنة والهنة ولا تدرى أكان ذلك حلالا لها أم حراما »

وكان أبو سفيان شاهدا فقال : اما ما اصبت منه فيما مضى فأنت منه فى حل ..

أما كلام عتبة فى غير ما تقدم من صفات أبى سفيان فهو من المشهور المتردد فى أنباء الجاهلية والاسلام ، فقد كان سيدا « موسعا عليه منظورا اليه فى الحسب الحسيب والرأى الاريب ، مدره ارومته وعز عشيرته ..» كما قال عتبة فى تخييره لبنته بين الرجلين

***

فمعاوية اذن ينتمى الى ابوين قويين فى عشيرة قوية ، ولعله ورث من جانب أمه اكثر مما ورث من جانب أبيه ، فهو أشبه بها فى تكوين جسمه ، وأشبه بها فى وسامة ملامحه ، وأشبه بأصولها المعروفة فى خلق الاناة وبطء الغضب وايثار المطاولة والمراوغة على المعارك والحروب

فأبوها عتبة كان قائد قريش فى وقعة بدر ، وكان رأيه الذى أصر عليه ولم يثنه عنه غير اجماع مخالفيه أن تنصرف قريش من غير قتال ، وان يتركوا كل رجل منهم ومن المسلمين يرجع الى عشيرته ، وينظروا ما عسى ان يكون من شأنهم جميعا بعد ذلك

وقد يرى بعض الناظرين فى الوراثة ان المرأة التى اشتهرت باسم « آكلة الاكباد » لم ترث الاناة وبطء الغضب من أبيها ، ولم تورث ابنها هذه الخليقة فيما أورثته من خلائقها

وانه لرأى فيه نظر ، أو هو جدير بالنظر ، فان هذه الضراوة ليست من تلك الاناة ..

ولكننا حريون ان نذكر ان « الغيظ » غير الغضب فى دخيلته وفى مدته وأجله ..

فقد يشتهر الانسان بأنه من أهل « الغيظ » ولا يشتهر بأنه من أهل الغضب ، وقد يزول الغضب لساعته ويبقى الغيظ سنوات فى طوية صاحبه ..

هذا فيما ينطوى عليه الشعوران ..

وغير هذا ان لوعة المرأة على رجالها تخالف لوعة الرجل على أقرانه ، وان شفاء الغل بأكل كبد القتيل جماح انثوى لا يضارعه جماح مثله فى الرجال ... فلعلها فى طول الاناة كأبيها أو كابنها ، ولكنها فى مثل هذه اللوعة لا تشبه هذا ولا ذاك ولا يشبهها هذا ولا ذاك

***

ويجوز مع هذا كله ان يكون معاوية وارثا بعض الخلق من جده لأمه وغير وارث هذا الخلق منها ، لأن الوراثة قد تنقطع بين الجنسين فتكون الخليقة الموروثة فى الجدود ولا تكون فى الأمهات ..

أما الوراثة التى لاشك فيها فهى وراثة تكوينه الجسدى من أمه ، وهى وراثة طالما أشار اليها معاصروه وذكروا فيها اسم أمه ، ولم يذكروا اسم أبيه ، وقد ترهل من فرط الجسامة فى كهولته ولم يكن لأحد من السفيانيين مثل هذا الترهل فى الكهولة أو الشباب

وعلاقة هذا التكوين بأخلاقه وأعماله تتضح من سياسته كلها فى أيام الخلافة وأيام الولاية من قبلها ، فاذا صدق عليها وصف غالب عليها فوصف السياسة « الجالسة » التى تدبر وتدير وتترك المساعى والزحوف للعاملين المأمورين ..

كان معاوية « أبيض جميلا طويلا أجلح ... وقد أصابته لوقة فى آخر عمره فكان يستر وجهه »

وروى الطبرى باسناده عن ابن عمرو انه قال : ما رأيت أحدا أسود من معاوية . وسئل : ولا عمر ؟.. فقال : كان عمر خيرا منه وكان معاوية

أسود منه ..

ونقل عن العوام بن حوشب انه كان يقول : « ما رأيت احدا بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم أسود من معاوية . قيل : ولا ابو بكر ؟ فقال : كان ابو بكر وعمر وعثمان خيرا منه وهو أسود »

وهذا السؤدد ليس بالغريب من سمات رجل ورث السيادة من أبويه ، وناط بها حقه وحق عشيرته فى الرئاسة ، ودارت مساعيهم وظواهرهم وبواطنهم كلها على هذا السؤدد وعلى الغيرة عليه جيلا بعد جيل

***

وقدمنا ان هندا كانت تعاف الزنى انفة ولا تعافه ورعا ونزاهة ، ولا نخطىء اذا فهمنا من بعض كلام ابى سفيان انه كان يتورع عن الكذب بين من يعلم كذبه لأنه يأبى لمروءته ان يصغره احد لكذبه وان لم يعلن ذلك بلسانه . وهكذا قال حين سئل فى بلاد الروم عن النبى عليه السلام . فانه سمع سائله يحذره من الكذب فأنف ان يكذب على مسمع من شهود سكوت ! ..

ومدار الطموح كله فى نفس معاوية على هذه الخصلة التى جعلت تراث القوم كله رهينا بمزاياهم الاجتماعية وجعلت هـذه المزايا كلها رهينة بمظاهر الرئاسة والسيادة ..

ونحن نعرف ما تعلمه فى صغره مما كان يعلمه فى كبره . اذ لم تجر عادة الرواة والمؤرخين فى الجاهلية بالتحدث عن الأطفال الصغار الا ما جاء عرضا فى أثناء الكلام عن آبائهم وكبارهم ، ولا استثناء فى ذلك لأبناء الأسر والبيوتات ومن ترشحهم احسابهم لمكان الرئاسة بعد بلوغهم مبلغ الرجال . ولعله لم يكن اهمالا من الرواة والمؤرخين واستصغارا لأمر أولئك الاطفال ، وانما كان سكوتا منهم عن أمر معلوم على وجه التعميم يشترك فيه الناشئة من ابناء البيوتات جميعا ولا ينفرد فيه احد منهم بتعليم خاص لوظيفة خاصة

وقد تعلم معاوية القراءة والكتابة والحساب ، وتتفق الاخبـار على

كتابته للنبى عليه السلام ولا تتفق على كتابته للوحى ولا على حفظه لآيات من القرآن تلقاها من النبى كما كان كتّاب الوحى يتلقون الآيات لساعتها ، والأرجح انه لم يكن معروفا بحفظ شيء من كتابة الوحى فى أيام جمع القرآن الكريم ، ولو علم عثمان ـ وهو من ذوى قرابته ـ ان عنده مرجعا من المراجع يثوب اليه لرجع اليه كما رجع الى غيره

وتعليم معاوية فيما عدا ذلك من سماع أشعار العرب وأمثالهم والالمام بأخبار أيامهم كتعليم غيره من علية قومه . الا انه كان على شغف خاص بالاستماع الى سير الملوك ووقائع الأمم وأطوار الدول الغابرة ، وربما قرئت له هـذه السير من كتب يونانية أو فارسية يقرأها له من يعرف لغاتها ، وقد سمع بعبيد بن شرية الجرهمى وعلم انه يعي تواريخ التبابعة والأكاسرة فأرسـل يستقدمه من صنعاء وأمره بكتابة ما وعاه من تلك التواريخ ، فألف له كتاب الملوك وأخبـار الماضين ، وهو أول كتاب التواريخ ، فألّف له كتاب الملوك وأخبـار الماضين .. وهو أول كتـاب يحدّث عن فحواه ..

***

وبلاغة معاوية فى كلامه بلاغة سوية لا تعلو ولا تسف عن بلاغة أمثاله ونظرائه : يبين عما يقصد ويحتفل بالقول فينقاد له طبعه الميسر للعربى الفصيح من أبناء عصره ، ومن رسائله المحفوظة رسالة الى زياد بن أبيه يتوعده فيها ، ويدعوه الى الطاعة وأخذ البيعة ممن يليه ، ويقول منها : « ... انك عبد كفرت النعمة واستدعيت النقمة ، ولقد كان الشكر أولى بك من الكفر ، وان الشجرة لتضرب بعرقها وتتفرع من أصلها ، لا أم لك ، بل لا أب لك ، قـد هلكت وأهلكت وظننت انك تخرج من قبضتى ولا ينالك سلطانى ، هيهات !.. ما كل ذى لب يصيب رأيه ، ولا كل ذى رأى ينصح فى مشورته . أمس عبـد واليوم أمير ... خطة ما ارتقاها مثلك يا ابن سمية . واذا أتاك كتابى هذا فخذ الناس بالطاعة والبيعة واسرع الاجابة ، فانك ان تفعل فدمك حقنت ونفسك تداركت ،

والا اختطفتك بأضعف ريش ونلتك بأهون سعى . وأقسم قسما مبرورا الا اوتى بك الا فى زمارة تمشى حافيا من أرض فارس الى الشام ، حتى أقيمك فى السوق وأبيعك عبدا وأردك الى حيث كنت فيه وخرجت منه والسلام .. »

ومن ردوده المحفوظة رده على الامام على حين دعاه الى البيعة يقول فيه : « ... لعمرى لو بايعك القوم الذين بايعوك وأنت برىء من دم عثمان كنت كأبى بكر وعمر وعثمان رضى الله عنهم أجمعين ، ولكنك أغريت بعثمان المهاجرين وخذلت عنه الأنصار ، فأطاعك الجاهل وقوى بك الضعيف ، وقد أبى أهل الشام الا قتالك حتى تدفع اليهم قتلة عثمان ، فان فعلت كانت شورى بين المسلمين ، ولعمرى ما حجتك على كحجتك على طلحة والزبير لأنهما بايعاك ولم أبايعك ، وما حجتك على أهل الشام كحجتك على أهل العراق ، لأن أهل العراق أطاعوك ولم يطعك أهل الشام .. وأما شرفك فى الاسلام وقرابتك من رسول الله صلى الله عليه وسلم وموضعك من قريش فلست أدفعه .. »

***

وكان يتكلم مرتجلا فيحسن الجواب فى مقامه ، ومنه جوابه لعدى بن حاتم حين أتاه يدعوه الى بيعة على ، فسمع منه دعوته على ملأ من صحبه ، وأجابه قائلا :

« .. كأنما جئت مهددا ولم تأت مصلحا . هيهات يا عدى ! كلا والله . انى لابن حرب ما يقعقع لى بالشنان . وانك والله لمن المجلبين على ابن عفان رضى الله عنه وانك لمن قتلته وأرجو أن تكون ممن يقتل الله عز وجل به . هيهات ياعدى بن حاتم . لقد حلبت بالساعد الأشد .. »

وكان يحتفل بتحضير الكلام فيقول كما قال فى صفين : « الحمد لله الذى دنا فى علوه وعلا فى دنوه ، وظهر وبطن ، وارتفع فوق كل ذى منظر . هو الأول والآخر . والظاهر والباطن . يقضى فيفصل ويقدر فيغفر ويفعل ما يشاء اذا أراد أمرا أمضاه واذا عزم على شىء قضاه ،

لا يؤامر أحدا فيما يملك ولا يسأل عما يفعل وهم يسألون . والحمد لله رب العالمين على ما أحببنا وكرهنا . وقد كان فيما قضاه الله ان ساقتنا المقادير الى هذه البقعة من الأرض ولفت بيننا وبين أهل العراق فنحن من الله بمنظر . وقد قال الله سبحانه وتعالى : ولو شاء الله ما اقتتلوا ولكن الله يفعل ما يريد .. أنظروا يا أهل الشام ! انكم غدا تلقون أهل العراق فكونوا على احدى خصال ثلاث : اما أن تكونوا طلبتم ما عند الله فى قتال قوم بغوا عليكم فأقبلوا من بلادكم حتى نزلوا بيضتكم ، واما أن تكونوا قوما تطلبون بدم خليفتكم وصهر نبيكم ، واما أن تكونوا قوما تذبون عن نسائكم وأبنائكم . فعليكم بتقوى الله والصبر الجميل ، واسألوا الله لنا ولكم النصر وأن يفتح بيننا وبين قومنا بالحق ، وهو خير الفاتحين » ..

***

وهذه خطبة ربما أضيف اليها بعض العبارات المستحدثة بعد عصرها ، كالمقابلة بين العلو والدنو وبين القضاء والقدر ، ولكنها فيما عدا ذلك لا تستغرب من زمانها ولا موضعها ، وقد خطب معاوية لا شك فى ذلك ، وما بقى من خطبه غير مستغرب من زمانه وموضعه فهو فى طبقة هذه الخطبة وعلى نهجها . ومنه آخر كلامه قبل موته حيث قال :

« أيها الناس . ان من زرع قد استحصد . وقد طالت عليكم امرتى حتى مللتكم ومللتمونى ، وتمنيت فراقكم وتمنيتم فراقى ، وانه لا يأتيكم بعدى الا من هو شر منى ، كما لم يأتكم قبلى الا من كان خيرا منى ؛ وان مَن أحبَّ لقاء الله أحبَّ الله لقاءه .. اللهم انى أحببت لقاءك فأحبب لقائى » ..

وتحفظ له الكلمات من جوامع الكلم ومن التعبير الموثق الجميل ، ولكنها غير كثير . فمنها قوله : « ان السلطان يغضب غضب الصبى ويبطش بطش الأسد » وقوله : « لو كان بينى وبين الناس شعرة ما انقطعت . أرخيها اذا شدوها وأشدها اذا أرخوها »

ودخل عليه عمرو بن العاص فرآه يرقص احدى بناته ، وكأنه لمح منه تعجبا لفعله فنظر اليه وهو يقول : هذه تفاحة القلب

فلم يكن من المفحمين ولا من ذوى السجية فى القول ، وقد سمع غير مرة يقول ما معناه : انما شيبنى حذر الخطأ فى الجواب

وندر بين معاصريه من النابهين من لم تنسب اليه أبيات من الشعر تصح أو لا تصح فى النقل والرواية

وقد نسب الى الحسن بن على رضى الله عنه انه عيره أبياتا كتب بها الى أبيه يحذره من الاسلام ، وهى :

يا صخر لا تسلمن يوما فتفضحنا | بعد الذين ببدر أصبحوا مزقا
خـالى وعمى وعم الأم ثالثهـم | وحنظل الخير قد أهدى لنا الأرقا
لا تركنن الى أمر تكلفنـــا | والراقصات به فى أمرنا الخرقا
فالموت أهون من قول العداة لقد | حاد ابن حرب عن العزى اذا فرقا

والحسن أحق أن يتحرى ما يحفظه وما ينسبه ، وما كان معاوية على مبعدة من أبيه فيكتب اليه ، ولا كان من دأب معاوية أن ينصح أباه وقد عاش الى آخر أيامه يشاوره ولا يبرم أمرا دونه ، وهى ــ بعد ــ أبيات ليست من نفس الشعر فى صدر الاسلام ولكنها تشبه المقطوعات التى فاضت بها الكتب الموضوعة فى حرب صفين وتكاد تلقى فى روع القارىء انهم فى ذلك العهد لم يفوهوا بسطر من النثر الا ومعه سطر منظوم

***

ومن قبيل هذه الأبيات أبياته التى قيل انه بعث بها الى ابن الزبير مع رسالة يدعوه فيها الى مبايعة يزيد بولاية العهد ، وهى :

رأيت كرام النـاس ان كف عنهمو | بحلم رأوا فضـلا لمن قد تحلما
ولا سيما ان كان عفوا بقـــدرة | فذلك أحرى أن يجل ويعظمـا
ولست بذى لؤم فتعـــذر بالذى | أتاه من الأخـلاق ما كان ألأما
ولكن غشـــا لست تعـرف غيره | وقد غش قبل اليوم ابليس آدما
فما غش الا نفســـه فى فعـــاله | فأصبح ملعونا وقد كان مكرما

وانى لأخشى أن أنالك بالـــذى أردت فيخزى الله من كان أظلما

فليس هذا الشعر من نسق عصره ولا من عادات رجاله فى مقام كهذا المقام ، ولكن الأمر الذى يعهـد فيهم مع روايتهم للشـعر والمثل انهم يستشهدون بالأبيات فى موضعها ويتأسون بها فى موقعها ، وكذلك قيل ان معاوية ذكر أبيات ابن الأطنابة ساعة فراره من المعركة ليـلة الهرير فعاوده الثبات وجعل يترنم بها ويسمعه من حوله يعيد منها :

وقولى كلمـا جشأت وجاشت مكانك تحمدى أو تستريحى

وقيل انه تمثل شعرا وهو يجود بنفسه ، فقال :

وتجلدى للشـــامتين أريهمو انى لريب الدهر لا أتضعضع

ثم قال :

واذا المنيـــة أنشبت أظفارها ألفيت كل تميمـة لا تنفـع

وقيل غير ذلك مما لا داعى للشك فيه اذا كان محصوله كله انه كان يحفظ الأشعار والأمثال ويستشهد بها فى مواطنها على سنة نظرائه من العرب أجمعين ..

ولنا ــ بعد ــ أن نفهم أنه نشأ فى الجاهلية نشأة أبناء الأسر وأصحاب الرئاسة الموروثة ، وتعلم ما يتعلمونه وتدرب على دربتهم التى ألفوها . الا أنه كان الى تربية التجارة والتدبير أدنى منـه الى تربية الفروسـية والنضال ، فلم يؤثر عنه من فعال الفروسية بعد بلوغه مبلغ الرجال فعل يميزه بدربة خاصة على فنونها المعهودة فى زمنه كالمسايفة واصابة الهدف والسبق على متون الخيل والصمود للأقران فى المبـارزة ، ولعل تربيته للفروسية لم تزد على القدر الضرورى الذى يعاب الجهل به ولا يبرز الى مكان التنويه والتمييز .

***

وهذا القسط من التربية كاف لسروات الجاهلية من العاملين فى مثـل عمله وعمل أبيه ، وهو تدبير التجارة القرشية وحمـل اللواء لحمايتهـا

والاستعانة بمن يصلحون لحراستها ويذبون عنها بالسلاح اذا وجب الذب عنها ..

أما بعد الاسلام فهذه التربية ، أو هذه النشأة ، تقترن بسؤال آخر عن نصيبه من فقه الدين والثقافة الاسلامية ، ويكاد يدعو الأمر هنا الى سؤال غير هذا السؤال فى أمر الدين من أساسه ، فان أناسا من الغلاة قد شككوا فى اسلامه ، بل جزموا باسلامه على دخلة ومداهنة ، فهل كان لهذا الشك من مسوغ فى عمله أو كلامه بعد اسلامه مع أبيه فى عام الفتح كما هو معلوم ؟ ..

لقد تأخر اسلامه كما تأخر اسلام أبيه ، فأسلما معا فى عام الفتح وهو فى نحو الثالثة والعشرين ، وليس هذا التأخر بموجب للشك فى عقيدته ، لأنه يحدث فى كل دين وفى كل دعوة ، وينقسم الناس فى جميع الدعوات الدينية والفكرية الى مبادرين ومترددين ومتلبثين متلكئين لا يستجيبون لها الا مع آخر مستجيب ، ولا يندر بعد ذلك أن يكون المتأخر أصدق ايمانا وأثبت عقيدة من المبادر المتقدم ، وليس من الجائز أن تتخذ العادة المطردة فى الاستجابة للدعوات حجة على نقيضها . فما كانت الدعوات قط الا هكذا أو لا تكون ..

***

ومعاوية بعد اسلامه لم تثبت عليه كلمة ولا فعلة تنقض تصديقه بدينه ورعايته لفروضه وشعائره : كان يصلى ويصوم ويزكى ويحج ويقرأ القرآن ويستمع اليه ، وكانت كل لفظة فاه بها وأحصيت عليه فى مرض الوفاة تدل على الايمان بلقاء الله وعلى الايمان بالجزاء فى العالم الآخر ، ومما تواتر من أحاديث الملازمين له فى ساعاته الأخيرة انه كان يحتفظ بقلامة من ظفر رسول الله وشعرات من لحيته الشريفة أخذها من وضوئه وما زال محتفظا بها حتى أوصى بأن تدفن فى كفنه ، وكل أولئك قد يسرى اليه الظن ممن تغالبه الظنون . الا المعيشة بين الأهل والبنين حيث ينطلق المرء على سجيته وتبدر الفلتات على الرغم من طول الحذر والمراوغة ممن لهم

باطن غير ظاهرهم فى العقيدة الدينية ، ولا نتصور أن رجلا له باطن وظاهر فى أمر العقيدة ينشأ من بيته مؤمنان تقيان كخالد ومعاوية الثانى حفيدته.. فان اخفاء البواطن عشرات السنين حيث يعيش المرء على رسلته أمر يفوق طاقة الانسان ..

قلنا فى عقيدة صاحبه عمرو بن العاص انه « مسلم لا شك فى اسلامه ولا شك فى طبعه ولا شك فى اختلاف الطبائع بين المعتقدين جميعا فى كل دين من الأديان ورأى من الآراء ، فلما فتحت له الحيطة باب التفكير فى الاسلام أقبل عليه وود لو يغنمه بريئا من عقابيل الجاهلية ، لأنه نفض يديه منها وأيقن بضلالها

« قال وقد اعتزم لقاء النبى عليه السلام ما فحواه : فلقيت خالدا فقلت : ما رأيك ! قد استقام المنسم والرجل نبى . فقال خالد : وأنا أريده . قلت : وأنا معك .. وكنت أسن منهما فقدمتهما لأستدبر أمرهما . فبايعا على أن يغفر لهما ما تقدم من ذنوبهما ، فأضمرت أن أبايعه على أن يغفر لى ما تقدم وما تأخر . فلما بسط يده قبضت يدى ، فقال عليه السلام: مالك يا عمرو ! قلت : أبايعك يارسول الله على أن يغفر لى ما تقدم من ذنبى . قال : ان الاسلام والهجرة يجبان ما كان قبلهما . فبايعته ، ووالله ما ملأت عينى منه ولا راجعته بما أريد حتى لحق ربه حياء منى »

وقلنا قبل ذلك : « ومن سيرة عمرو بعد اسلامه نعلم انه كان يتعبد ويتصدق ويستغفر من ذنوب وقع فيها ويقيم الصلاة ويسرد الصوم ويعيش بين ذويه مسلما وكلهم مسلمون »

***

ويقال فى معاوية كل ما يقال فى عمرو مع اختلاف الطبائع وبقاء لوازمه أو ملازماته فى أعمق أعماق الطوية على غير وعى من صاحبها حيث يستوحيها مع العقيدة فى أعماله الظاهرة وسرائره الخفية

ومن حيل الطبع فى العلاقة بينه وبين ربه انها لا تخرج عن وحى سليقته فى العلاقة بينه وبين الناس

كان حريصا على أن يبرىء ذمته ويلقى تبعته بما وسعه من حيلة وحول ، وهكذا كان اجتهاده فى نفى التبعة عنه بين يدى الله

أنظر مثلا الى حيلة طبعه حيث أراد أن يبرأ الى الله من أخذ البيعة بعده لابنه يزيد . قال فى احدى خطبه « اللهم ان كنت انما عهدت ليزيد لما رأيت من فضله فبلغه ما أملت وأعنه ،وان كنت انما حملنى حب الوالد لولده وانه ليس لما صنعت به أهلا فاقبضه قبل أن يبلغ ذلك »

وكأننا به يسائل نفسه بعد ذلك : « ماذا بقى من التبعة على فى عقابيل هذه البيعة ؟ غاية ما أرعى به حق الله فى أمر ولدى الذى أحبه أن أسأل له الموت ان كان غير أهل لولاية العهد بعدى . فان كان الله قد أبقاه ولم يقبضه فقد صنعت ما يستطيعه والد يظن بينه وبين نفسه أنه قدم حب ولده على رعاية حق الله »

***

ومن حيل الطبع فى خطبته الأخيرة قوله : « ان من أحب لقاء الله أحب الله لقاءه . اللهم انى أحببت لقاءك فأحبب لقائى »

حجة مقبولة عند الله . مخلوق يحب أن يلقى خالقه فالله يحب أن يلقاه

واختلاف طبائع الناس فى الدين على غير وعى منهم لا معنى له الا أنهم يتدينون على حسب طبائعهم ، وليس معناه انهم يناقضون الدين ولا ينطوون فى بواطنهم عليه

ومن تحصيل الحاصل أن يقال ان معاويه يعلم من فقه دينه ما لا بد أن يعلمه رجل كتب للنبى وحضر مجالسه وحضر عهده كله وعهد خليفته من بعده ، ومرت به الأقضية التى فصل فيها ولاة الأمر على مسمع منه ، وراجع الفقهاء من الصحابة فيما أشكل عليه بعد ذلك من أشباه تلك الأقضية ، فهو على نشأته الجاهلية والاسلامية لم يقصر فى معارف دينه ودنياه عن الطليعة بين نظرائه من السادة الأمويين والقرشيين

الأعمال

منذ الفتح الاسلامى لم يعزل وال واحد من ولاة الشام لشكاية الرعية منه ، ولم يتول العراق وال واحد لم يعزل للشكايات الكثيرة التى كانت تتقاطر على دار الخلافة من رعيته

ويزول العجب بعض الشيء اذا نحن قسمنا القطرين قسمين آخرين : قسم هو حصة الدولة البيزنطية ، وقسم هو حصة الدولة الفارسية

فالشام التى كانت حصة الدولة البيزنطية كانت طويلة العهد بالنظم الادارية والحكومية ، وكانت فيها مدن من عواصم الدولة الكبرى وعليها رؤساء من المميزين فى الدولة بشارات السياسة والدين ، وقد فتحها المسلمون على شروطهم المحدودة للذميين المعاهدين ، لأن أهلها كانوا جميعا من أهل الكتاب ، فلما استقر الأمر للدولة الاسلامية فيها بعد زوال الدولة البيزنطية لم تكن من جانب الرعية مقاومة اجماعية ، ولم يكن على شروط المعاهدة خلاف بين الحكام والمحكومين

وكانت الشام كذلك أقرب الى الاستقرار لأن حدودها جميعا كانت فى بلاد الدولة الاسلامية ، الا الجانب الذى يلى تخوم الدولة البيزنطية ، ولم يكن منه خطر كبير بعد صدمة الهزيمة الكبرى التى منى بها هرقل وودع بعدها تلك البلاد وداع الأبد ، وكان كل خطر من هذا الجانب — عظم أو صغر — تتلقاها الدولة الاسلامية بجيوشها البرية وأساطيلها البحرية فى جملتها ، فلم تكن الشام منفردة بالدفاع اذا هجم الروم برا أو بحرا ، بل كانت الولايات من افريقية ومصر ومن الجزيرة فى بعض الأحايين تتجمع لدفع الهجمات أو لاتقائها قبل وقوعها

وكانت سياسة عمر فى تمكين الفتوح وتحصينها أنفع السياسات للشام

خاصة ، اذ كانت خطته كما جاء فى فتوح البلدان للبلاذرى انهم « كلما فتحوا مدينة ظاهرة أو عند ساحل رتبوا فيها قدر من يحتاج لها من المسلمين ، فان حدث فى شيء منها حدث من قبل العدو سربوا اليهــا الامداد » ..

فانتظمت معاقل الدفاع عن الشــام على شواطئها وعند أطرافهــا ، وأحيطت من كل جانب بالمدافعين عنها من جند الدولة الاسلامية فىالشرق والشمال والجنوب

***

ولا نحذرن شيئا كما ينبغي أن نحذر الاشاعات التى نسميها بالاشاعات التاريخية ، ومن قبيلها اشاعة الضعف عن عثمان بن عفان رضوان الله عليه ، فقد جنت هذه الاشاعة على النقد التاريخى حتى خيل الى الناس انه لم يعمل عملا قط اتسم بالقوة أو خلا من الضعف ، وهو اسراف فى الرأى كاسراف جميع الاشاعات من قبيلها ، لأن سياسة عثمان البحرية كانت أقوى السياسات وكان فيها قدوة لمن بعده ولمن يكن مقتديا بأحد قبله ، ونحسبه عرف خطر الشواطىء والموانىء من عمله فى التجارة ، فأصلح ميناء جدة فى الحجاز ولم يغفل لحظة عن الشواطىء المفتوحة فى افريقية ومصر والشام ، ولا يقال عن حملة واحدة من حملات البحر انه كان مسوقا اليها برأى غيره ، فانه ـــ على ما هو معلوم من سبق معاوية الى الاستئذان فى فتح قبرس أيام الفاروق ـــ لم يأت العزم الأكبر فى هذه الحملة الا من جانب عثمان ، اذ كتب الى معاوية يستوثق من جده فى فتح هذه الجزيرة وتأمين الملاحة حولها فأمره كما جاء فى البلاذرى بأن يركب البحر اليها ومعه امرأته « فان ركبت البحر ومعك امرأتك فاركبه مأذونا لك والا فلا »

كانت هذه حال الشام يوم تولّى معاوية اقليما منها على عهد الفاروق ثم تولاها جميعا على عهد عثمان

وبخلاف ذلك كانت حالة العراق من جميع الوجوه . فلم تكن فيها

معاهدات دمية تدين الرعية ، ولم تكن حدودها الشرقية والشمالية آمنة كل الأمان فى زمن من الأزمان ، فكانت ــ من البصرة الى أرمينية الى خراسان ــ عرضة للحملات والفتن فى كل آونة ، وكانت الدولة الاسلامية لا تفرغ لها كل قوتها كما أفرغتها للدفاع عن الشام أمام الدولة البيزنطية ، لأن دولة فارس ذهبت بذهاب ملكها فلم يحسب لها المسلمون حساب القوة المتجمعة ، وسلكوا فيها مسلك التأهب للمفاجآت الطارئة من هنا وهناك ، وليس فيها ما يشغل بال دولة فى مواجهة دولة أخرى

***

وعلى هذا كان العراق ، أو كانت الجزيرة كلها ، أطرافا مهملة فى أيام الدولة الفارسية ، فلم يكن لها نظام من نظم الادارة المتناسقة يسير عليه الحكم كما سارت الحكومة الادارية فى الشام ، ولم تتضح علاقات الحاكمين بالمحكومين فى أنحائها كما اتضحت مع المعاهدين الذميين

وأعضل من ذلك كله بين مشكلاتها ان الفتح الاسلامى قد جاءها بمجتمع مختلف منقول اليها بحذافيره من سادته وقادته الى سوقته ومواليه ..

فقد انتقل اليها رهط من القادة وذوى الرئاسة ليقيموا فيها ويزرعوا الأرض ويتجروا بين أنحائها ، وعاش الى جانبهم ألوف من الجند المقيمين والجند العاملين ، وكلهم لهم أعطية من بيت المال ، يعطاها من عمل فى الفتوح الأولى ومن يعمل فى الغزوات التالية ، وكان تقسيم الأعطية مشكلة من مشكلات هذا المجتمع المنقول . فمن بقى عاملا فى الغزوات يحسب له حقا يستكثره على سابقيه من المجاهدين المقيمين ، وأعطية بيت المال تأتى كلها من المدينة أو تصرف كلها بتقديرها ، ويلام الولاة فى نظر الجند لأنهم لا يفرقون فى الاحصاء والتقدير بين الفريقين ، ويلامون لأنهم يعيشون بين أقربائهم وعشيرتهم ويتعرضون لشبهات المحاباة بالحق أو بالباطل ، ولا تنقطع الشكاية من الولاية الا ريثما يعزل واحد منهم ويتلوه خلف له يأخذ فى العمل فيأخذه القوم كرة أخرى بالتهم والشبهات

وقد ثقلت أعباء هذه الشكايات على كاهل الفاروق وهو فى هيبته وعزمه واقتداره على فض المنازعات فلم يكن يرى فى جوانب المسجد مغموما الا علم أصحابه انه مشغول بشكاية من شكايات الرعية أو الجند فى العراق ..

***

وبدأ معاوية أعماله العامة فى الشام وهى بتلك الحالة من الاستقرار بالقياس الى جميع الولايات الاسلامية الأخرى ، وجاء عمله فيها تدريجا من معاونته لأخيه يزيد الى قيامه على ناحية من الشام خلفا له الى قيامه على الشام كلها فى أيام عثمان ، فكان كل عمل من هذه الأعمال بمثابة « فترة تمرين » للعمل الذى يليه ويزيد عليه فى السعة والتكليف ، وكانت الأعمال « الحربية » أو أعمال التحصين يتولاها من حوله رجال من صناديد الحرب كعبيدة بن الجراح وعبد الرحمن بن خالد ، فلم يقم قط بقيادة حربية مستقلة وصل بها الى نتيجة حاسمة أو ناجحة

ثم نشبت الفتنة الوبيلة فى خلافة عثمان وهو بمعزل عنها ، وقتل عثمان فاتخذ من مقتله ذريعة للخروج على الامام على وانكار بيعته ، وأسرف كل الاسراف فى التذرع بهذه الذريعة قبل استقلاله بالخلافة فما كان له من مسوغ يتعلل به غير مقتل عثمان يردده فى كل حديث وفى كل خطاب وفى كل جواب ، وينكر عليه بعض صحبه أن يمنع عليا وأصحابه الماء فى وقعة صفين ، فيجد المعذرة له فى صنيعه انه يمنعهم الماء لأنهم منعوا عثمان الماء وهو محصور

واستند الى آية من القرآن الكريم فسرها برأيه ليقنع أنصاره انه على حق وانه منصور ، وهى قوله تعالى : « ولا تقتلوا النفس التى حرم الله الا بالحق . ومن قتل مظلوما فقد جعلنا لوليه سلطانا فلا يسرف فى القتل انه كان منصورا »

وعلى قدر اللهج بهذه الفاجعة قبل استقلاله بالخلافة سكت عنها وأغفلها بعد ذلك فلم يعد اليها قط الا ليعتذر الى قرابة الخليفة المقتول

من سكوته واغفاله ..

وينبغي هنا أن نذكر أن معاوية لم يكن بحاجة الى قدرة خارقة لاثارة الشام باسم الخليفة المقتول . فان عثمان كانت له مصاهرة فى بنى كلب أكبر قبائل البادية فى الشام ، وكانت زوجه نائلة بنت القرافصة تصف مصرعه فى رسائلها وتبعث بقميصه المخضب بالدم وأصابعه المبتورة فترفع على المنبر حيث يراها شهود المسجد فى كل صلاة ، وكان جند الشام بعيدين عن معمعة الفتنة لم يسمعوا صوتا من أصوات الثورة على الخليفة المقتول ولا حجة من حجج السخط على حكمه ، وكانوا بين معسكرين أقربهما اليهم والى عملهم معسكرهم فى ولاية معاوية ، ومنهم طائفة كان يستبقيها لديه ولا يأذن لأحد منها أن يبتعد من جواره برهة الى معمعة الفتنة مخافة عليه من الاستماع لحجج المخالفين فيداخله الشك فى دعوته ودعواه ..

***

ولم ينته معاوية فى نزاعه لعلى الى موقف فصل بالحرب أو بالسياسة

ففى وقعة صفين حلت الهزيمة بجيشه ليلة الهرير وأيقن بسوء العاقبة اذا استمرت مدة القتال ، فأشار عليه عمرو بن العاص بحيلة المصاحف فرفعوها فى اليوم التالى ونادوا بالتحكيم الى كتاب الله ، فاختلف جند الامام واضطر فى جنده المختلف الى قبول التحكيم

ومن المؤرخين من يبالغ فى خطر التحكيم ويجعل له شأنا فى عواقب النزاع لم يكن له ولا كان من المعقول أن يكون له بحال

فهذا التحكيم لم يكن ليبدل تلك العواقب على أية نتيجة من النتائج انتهى اليها ، سواء اتفق الحكمان على خلع على ومعاوية معا أو اتفقا على خلع أحدهما دون الآخر ، أو لم يتفقا على شيء

ففى كل حالة من هذه الحالات كانت العواقب صائرة الى ما صارت اليه بلا اختلاف ، وكان المعسكران يمضيان فى طريقهما الذى مضيا فيه فلا يسلم أحدهما لصاحبه برأى يمليه عليه الحكمان متفقين أو غير متفقين

انما وقعت الواقعة الحاسمة بمقتل على رضوان الله عليه دون صاحبيه ، ثم آلت خلافته الى ابنه الحسن فى معسكر مضطرب بين الخوارج والشيعة والموالى والأتباع الذين لا يعملون عمل الأتباع طائعين ولا يعملون عمل الرؤساء مقتدرين مضطلعين ، وورث الحسن معسكرا لم يطل عليه عهد الولاء لأحد قط ليناضل به معسكرا لم يقع فيه خلاف قط منذ الفتح الأول ، الا الخلاف الذى كان يريده معاوية ويعمل له حذرا من مغبة الاتفاق عليه ..

***

ولما امتنع طلب البيعة لغير معاوية بويع معاوية وحده او بقى معارضوه متفرقين لا يلوذ فريق منهم برئيس يرشح نفسه لخلافة او ينهض لها بحجة . فترك هؤلاء المتفرقين فى العراق يضرب بعضهم بعضا او فى الحجاز لا يعملون شيئا غير الترقب والانتظار

ولا شك ان معاوية قد استفاد فى امارته منذ اللحظة الاولى من كل نظام مفيد فى حكومة الشام ، فأبقى ما لا غنى عنه من نظم الادارة وتوسع فيه وزاد عليه ، وابطل ما لا بد ان يبطل مع الدولة المتبدلة والدين الجديد ..

وقد وكل الادارة المالية الى القائمين بها فى ايام الدولة البيزنطية وعلى رأسهم سرجون بن منصور ثم ابنه منصور بن سرجون ، ووكل الادارة الكتابية الى عبد الله بن اوس الغسانى من وجوه الغساسنة اصحاب الملك القديم فى الشام ، ونظم البريد وتوسع فيه للاطلاع على اخبار الاقاليم وابلاغ الاخبار اليها على انتظام وترتيب ، وأنشأ ديوان الخاتم لمراجعة الحساب بين العاصمة والولايات ، وعزز بناء الاسطول بتجديد مصانع السفن فى عكاء ، واستجلب من فارس كل عامل نافع فى مسائل الخراج والاحصاء ، وعنى بتسجيل المواليد والوفيات لتقسيم الاعطية والأرزاق ، وجعل للجند عملا يصرفهم عن البطالة والشقاق فداول بينهم وبين مواعيد الصوائف والشواتى وهى مواعيد الحراسة والغزو فى بلاد

الروم من تخوم الشام الى ارباض القسطنطينية ، وكان يحرك الاساطيل من حين الى حين لتهديد القسطنطينية وسواحل الدولة البيزنطية ليشغلها بالدفاع عن التفكير فى الهجوم

وبرزت حزامة معاوية فى تدبير شئون ملكه مع ما اشتهر به ساسة العصر ــ فى اقبال الدولة والدنيا ــ من الكلف بمناعم العيش والتهافت على المتع والملذات ، بل مع اشتهار معاوية نفسه بمثل هذا الكلف فى بيته وفيما يشهده الناس من ابهته وزينته ، فكان عظيم العناية بأطايب الخوان كثير الزهو بالثياب الفاخرة والحلية الغالية ، وكان يأكل ويشرب فى آنية الذهب والصحاف المرصعة بالجوهر ، ويأنس للسماع واللهو ولا يكتم طربه بين خاصة صحبه « لأن الكريم طروب »

***

الا انه كان على هذا كله لا يضيع عملا فى سبيل لذة ولا ينكص عن مشقة تواجهه من اجل متعة تغريه ، وربما أمر بايقاظه ساعات من الليل لمراجعة الرسائل والشكايات من اطراف الدولة القاصية ، وربما جلس للمظالم نهارا فاستمع الى الجليل والدقيق منها ونظر فى بعضها وأحال بعضها الى من يناط بها ويحاسبه على النظر فيها ، وكانت له قدرة على ضبط هواه حين يريد ، وقدرة على تصريف وقته كما يشاء ..

ولما برزت منه هذه القدرة للشاهد والغائب أتيحت له حجة لطلب الخلافة اغنته عن اللجاجة بمظلمة عثمان ، فكان يخطب فيقول : « اننى ان لم اكن خيركم فأنا انفعكم لأنفسكم » وكان يقول للحسن ولغيره انه لو علم ان احدا اضبط لشئون الملك منه وأقدر على جمع الرعية حوله لما نازعه هذه الامانة الثقيلة على عاتقه

واذا كان الأمر أمر قدرة وعجز فلا جدال فى وصف معاوية بالقدرة ونفى العجز عنه لأنه من الصفات التى لا ترد على بال عارفيه أو خصومه

بيد ان القدرة ــ كما قلنا فى الصفحات الاولى من هذه الرسالة ــ هى احوج الصفات الى التقدير ، لأنها لا تعرف الا بمقدارها ولا تدل

على شيء ان لم تكن قدرة على هذا الشيء أو ذاك

وتقدير هذه القدرة التى امتاز بها رأس الدولة الأموية فيما نرى انها كانت الحزم غاية الحزم فى الشوط القصير ، ولكنها تخلو من الحزم أو تنحرف الى نقيضه فى الشوط الطويل والأمد البعيد

ان معاوية لم يضيع عملا حاضرا فى سبيل متعة حاضرة ، ولكنه أوشك ان يضيع الغد كله فى سبيل اليوم الذى يشهده او فى سبيل العمر الذى يحياه ..

ألجأته الحاجة الى انفاق المـال فى أبهة الملك والاغداق على الأعوان والخدام الى ارهاق الرعية بالضرائب ومخالفة العهود مع اصحاب الجزية فكان من الولاة من يطيعه ومنهم من يجيبه معترضا كما فعل وردان فى مصر حين أمره بذلك فأجابه سائلا : « كيف ازيد عليهم وفى عهدهم ألا يزاد عليهم ؟ »

***

ومن الولاة الذين انكروا ان تستصفى الأموال لبيت مال الخليفة والي خرسان الذى كتب اليه زياد يأمره ألا يقسم فى الناس ذهبا ولا فضة ، فكتب الوالى الى زياد : « بلغنى ما ذكرت من كتاب أمير المؤمنين وانى وجدت كتاب الله تعالى قبل كتاب أمير المؤمنين . وانه والله لو ان السماء والأرض كانتا رتقا على عبد ثم اتقى الله جعل له مخرجا والسلام »

الا ان الولاة الذين اطاعوا وبالغوا فى الطاعة لأكثر من الذين ذكروا بالمخالفة ، وكلما اشتدت الحاجة الى المال اشـتد الطلب على الرعية ، وعمد بيت المال الى احتجاز حصة الزكاة من الأعطية لحسبانها فى الهبات والهدايا ، وفتح هـذا الباب على مصراعيه فتوسع فيه كل خليفة بعد معاوية حتى جعلوا يحاسبون الناس على « التخمين » ويحصون عليهم ثمراتهم قبل ان تنبتها الأرض فيحسبوها عليهم بثمن دون ثمنها ويأخذوا منها ما يصل الى أيديهم بالثمن الذى اختاروه ، وتمادى هـذا العسف الى عهد عمر بن عبد العزيز الذى استنكره وكتب الى بعض ولاته يقول

ان عمالك يخرصون الثمار عن أهلها ثم يقومونها بسعر دون سعر الناس الذين يتبايعون به فيأخذونها قرفا على قيمتهم التى قوموها » ... ولم ينته هذا العسف حتى كانت نهايتــه بداية للخراب وافلاس الدولة فى ختام عهدها فكان افلاسها هذا ـ على حين حاجتها الى مضاعفة المورد ـ سببا من أسباب التعجيل بزوالها

وكأنما كان غرام معاوية بأبهة الملك زهوا فى قرارة النفس لا يبالى ان يباهى به من صادفه ولو كان من الزهاد المنكرين للترف والسرف وخيلاء الثراء والفخر بالبناء والكساء ، فلما بنى قصر الخضراء بلغ من اعجابه بالبناء أن سأل أبا ذر داعية الزهد والكفاف من الرزق : كيف ترى هذا ؟

فسمع منه جوابا كان خليقا ان يترقبه لو لم يكن لزهوه بما ابتناه لا يصدق ان أحدا يراه بغير ما رآه . قال أبو ذر امام « الاشتراكيين » فى ذلك الزمان : « ان كنت بنيته من مال الله فأنت من الخائنين ، وان كنت بنيته من مالك فأنت من المسرفين .. »

***

واشأم من هذه السياسة المالية سياسة الامن او سياسة ضبط الأمور كما كان يسميها ..

فليس اضل ضلالا ولا اجهل جهلا من المؤرخين الذين سموا سـنة « احدى واربعين هجرية » بعام الجماعة لأنها السنة التى استأثر فيهـا معاوية بالخلافة فلم يشاركه احد فيها ، لأن صدر الاسلام لم يعرف سنة تفرقت فيها الأمة كما تفرقت فى تلك السنة ، ووقع فيها الشتات بين كل فئة من فئاتها كما وقع فيها

اذ كانت خطة معاوية فى الأمن والتأمين قائمة على فكرة واحدة وهى التفرقة بين الجميع ، وسيان بعد ذلك سكنوا عن رضى منهم بالحال أو سكنوا عجزا منهم عن السخط والاعتراض ، وكان سكونهم سكون ايام او كان سكون الأعمار والأعوام

ولم يقصر هذه الخطة على ضرب خصومه بعضهم ببعض كما فعل فى

العراق حيث كان يضرب الشيعة بالخوارج ويضرب الخوارج بالشيعة ويفرق بين العشائر العربية بمداولة التقريب والاقصاء لعشيرة منهم بعد عشيرة . بل كان يفعل ذلك فى صميم البيت الأموى من غير السفيانيين ، فكان يأمر سعيد بن العاص بهدم بيت مروان كما تقدم ، ثم يأمر مروان بهدم بيت سعيد ، ويغرى أبناء عثمان بالمروانيين كما يغرى المروانيين بأبناء عثمان ..

وفرق بين اليمانية والقيسية ، أو بين جنوب الجزيرة وشمالها ، فأعطى حسان بن مالك سيد القحطانيين حكمه فى صدارة المجالس لليمانية ومضاعفة الأجر لهم أو للألفين الذين اصطفاهم من حزبه ورهطه ، وجعل لكل هؤلاء الالفين حق التوريث من بعده لأقرب الناس اليه فى رواتبه وأرزاقه ووجاهته وقيادته ، واشترط رؤساء اليمانية عليه ألا يعقد فى أمر أو يحله الا بعد مشورة منهم يقدمهم فيها على ولاته ووزرائه

***

وفرق كذلك بين العرب والموالى وأوشك ان ينكل بالموالى ليقصيهم عن مناصب الدولة وعن الاقامة فى عواصمها ، لأنه كان يعلم ان العرب يلوذون برؤسائهم ولا رؤساء للموالى يلوذون بهم فى نقمة أو مظلمة . وانفتح للموالى بذلك باب اللياذ بأصحاب المذاهب والدعوات لأنهم رؤوسهم دون الرؤوس وقادتهم دون القادة ، فلم يكد داعية من الدعاة يجهر بمذهب معقول أو غير معقول الا الفى الى جانبه جموعا من الموالى تصغى اليه ، ووافق ذلك ان الخوارج من صميم العرب كانوا يدعون الى مذهب فى الخلافة يوافق الموالى فى كل أمة ، لأنه مذهب لا يحصر الخلافة فى النسب ولا فى قريش ولا يرى لها شرطا غير التقوى والصلاح ، فتفرق الموالى بين الخوارج والشيعة ، ونصروا هؤلاء تارة وهؤلاء تارة أخرى لأنهم جميعا يحاربون بنى أمية

واتبع هذه الخطة ــ خطة التفرقة ــ بين أهل الشام الذين تمهدت له ولايتهم من قبل الاسلام ، فاستخلص لنفسه فرقة منهم لا تخرج من الشام

ولا تلتقى بأحد من دعاة العراق أو الحجاز أو مصر أو افريقية ، ثم نقل الى الشام طوائف شتى من غير أهلها ، فنقل اليها طوائف الزط والسيابجة من البصرة ، ونقل الى الأردن وصور طوائف من الفرس والموالى ، ونقل الى انطاكية اساورة الموانىء بالعراق ، وخلط العرب بالعجم وهؤلاء بسلالة الشاميين فى كل بقعة من بقاع البلاد التى عرفت من قديم باسم البلاد السورية ..

ولم يستطع ان يستخلص قبيلة بنى كلب كلها لأن منهم اصهار عثمان وبيت مروان ، فاستخلص منهم أخوال يزيد وأصبحوا بعد ذلك فريقين : فريق يدعو الى خالد بن يزيد ، وفريق يدعو الى مروان

***

وواضح من هذه التفرقة انه كان يكف يده عن البطش والنكاية فى معاملتهم جميعا على اختلاف النسب والمقام ، لأنه كان يغرى بعضهم ببعض فيستغنى بالوقيعة بينهم عن الايقاع بهم ، ولكنه على هذا كان يؤيد سياسة الايقاع مهما يكن من قسوتها وغلظتها كما أيدها أقسى الولاة وأغلظهم فى زمانه وبعد زمانه ، وكان يختار لها من يعلم انه يفرط فيها ولا يقتصد فى شرورها وموبقاتها ، ولا يبالى أن يأخذ البرىء بذنب الأثيم ولا ان ينكل بالقريب قصاصا من البعيد ، وكذلك فعل واليه زياد فى البصرة حيث اعلن « شريعة » حكمه فقال فى خطبته التى افتتح بها حكمه : « .. انى لأقسم بالله لآخذن الولى بالمولى والمقيم بالظاعن والمقبل بالمدبر والصحيح منكم بالسقيم جتى يلقى الرجل منكم اخاه فيقول : انج سعيد فقد هلك سعد .. اياى ودلج الليل فانى لا اوتى بمدلج الا سفكت دمه ، وقد أجلتكم فى ذلك بقدر ما يأتى الخبر الكوفة ويرجع اليكم ، واياى ودعوى الجاهلية . فانى لا اجد احدا ادعى بها الا قطعت لسانه . وقد احدثتم احداثا لم تكن واحدثنا لكل ذنب عقوبة . فمن غرق قوما غرقناه ومن حرق على قوم حرقناه ومن نقب بيتا نقبت عن قلبه ومن نبش قبرا دفنته فيه حيا ، فكفوا عني أيديكم وألسنتكم

اكفف عنكم لساني ويدي ، واياي لا يظهر لأحـد منكم خلاف ما عليه عامتكم الا ضربت عنقه ..

«وقدكانت بيني وبين أقوام احن فجعلت ذلك دبر اذني وتحت قدمي . فمن كان منكم محسنا فليزدد احسانا ومن كان مسيئا فلينزع عن اساءته . اني لو علمت ان احدكم قد قتله السل من بغضي لم اكشف له قناعا ولم اهتك له سترا حتى يبدي لي صفحته فاذا فعل لم اناظره »

الى ان قال واعدا بعد هذا الوعيد : «واعلموا انني مهما قصرت عنه فلست بمقصر عن ثلاث : لست محتجبا عن طالب حاجة منكم ولو اتاني طارقا بليل ، ولا حابسا رزقا ولا عطـاء ، ولا مجمرا لكم بعثا . فادعوا الله بالصلاح لأئمتكم فانهم ساستكم المؤدبون وكهفكم الذى يه تأوون ، ومتى تصلحوا يصلحوا ، ولا تشربوا قلوبكم بغضهم فيشتد لذلك غيظكم ويطول له حزنكم »

ثم عاد الى النذير والوعيد فاختتم خطابه قائلا : « .. ان لي فيكم لصرعى كثيرة فليحذر كل امرىء منكم ان يكون من صرعاى »

***

وقد أمر صاحب شرطته ان يخرج بعد صلاة العشاء وانقضاء هزيع من الليل ، ثم لايرى انسانا الا قتله ، وجيء اليه يوما باعرابي لم يقتله صاحب الشرطة لاشتباه أمره عليه ، فسأله زياد : أما سمعت النداء ؟.. قال الاعرابي : لا والله قدمت بحلوبة لي وغشيني الليل واقمت لأصبح ولا علم لي بما كان من الأمير

قال : اظنك والله صادقا . ولكن في قتلك صلاح الأمة ، وأمر به فضربت عنقه ..

ومثل هذا الحكم لا يغتفر ولو كان من معاذيره « ضبط » الأمور وتأمين الناس ، لأنه يؤمنهم بخوف أشـد عليهم من خوف العدوان ، ولكنه على هذا لم يصلح للضبط والتـأمين الا فترة لم تطل ولا يزال سواء منها على الأمة ان تنقضي في عدوان أهل البغي، او في نكال السلطان

بمثل هذا النكال ، ثم انقضت هذه الفترة فنجمت نواجم الشر ولم تنشب فى تلك الانحاء ناشبة من الفتنة الا كان لها جرثومة من تلك السياسة التى تفسد الأمور فى زمانها وفيما بعد زمانها

وكان الناس من حين الى حين يهربون من هذه الشدة ويتحرمون بجوار العاصمة فيجيرهم معاوية ولا يكف يد واليه عن غيرهم ، وكتب اليه زياد مرة : ان هذا فساد لعملى كلما طلبت رجلا لجأ اليك وتحرم بك

فكتب اليه معاوية : « انه لا ينبغى ان نسوس الناس بسياسة واحدة فيكون مقامنا مقام رجل واحد ، ولكن تكون انت للشدة والغلظة واكون انا للرأفة والرحمة فيستريح الناس بيننا .. »

على ان زيادا تحرج أشد الحرج فى قضية حجر بن عدى وأرسله الى معاوية فلم يتحرج معاوية من قتله ، ولم يذكر الناس لزياد من جرائر قسوته فى حكمه ما ذكروه من جرائر هذه السقطة لمعاوية ..

وساءت العقبى من سياسة التفرقة كما ساءت العقبى من سياسة القسوة ، فلم تنجم فى الدولة ناجمة فتنة الا كانت جرثومتها فى هذه السياسة ، وكان حزم معاوية وكانت قدرته فى كل هذه الفتن حزما لابد له من تعقيب وكانت قدرته فى أعماله جميعا قدرة لابد لها من تقدير

وجماع الصدق فى هذا التقدير انها كانت قدرة على الشوط القصير والأمد القريب ، ولم تكن قط قدرة على الشوط الطويل والأمد البعيد

واستقر الملك لمعاوية على قلق دخيل الى ان أدركته الوفاة سنة ستين للهجرة ، وبطل نصفه قبل وفاته كأنه ضرب من الشلل ، وأصابته لوقة وسقطت أسنانه جميعا ، كأنها من أدواء التخمة التى تعجل الى الكبد والأسنان ، ويبدو أثرها فى مرض الجلد واللثة ، وكان يخلط فى وفاته أحيانا ولكنه كان يصحو ساعة بعد ساعة حاضر الذهن صحيح اللسان ، فدعا بصاحب شرطته الضحاك بن قيس الفهرى وبمسلم بن عقبة صاحب الأفاعيل المشهورة فى حرب أهل المدينة ، وقال لهما فى أشهر الأسانيد « بلغا يزيد وصيتى : انظر اهل الحجاز فانهم أهلك فأكرم من قدم عليك

منهم وتعاهد من غاب عنك ، وانظر أهل العراق فان سألوك ان تعزل عنهم كل يوم عاملا فافعل ، فان عزل عامل أحب الى من أن يشهر عليك مائة ألف سيف ، وانظر أهل الشام فليكونوا لسانك وعيبتك ، فان نابك شيء من عدوك فانتصر بهم ، فاذا أصبتهم فاردد أهل الشام الى بلادهم فانهم ان أقاموا بغير بلادهم أخذوا بغير أخلاقهم ، وانى لست أخاف من قريش الا ثلاثة : الحسين بن على ، وعبد الله بن الزبير ، وعبد الله بن عمر »

ويقال انه ألقى هذه الوصية الى يزيد فقال : « يابنى .. انى قد كفيتك الرحلة والترحال ووطأت لك الاشياء وذللت لك الأعداء وأخضعت لك أعناق العرب ، وجمعت لك من جمع واحد ، وانى لا اتخوف ان ينازعك هذا الأمر الذى استتب لك الا اربعة نفر من قريش : الحسين بن على ، وعبد الله بن عمر ، وعبد الله بن الزبير ، وعبد الرحمن بن أبى بكر . فأما عبد الله بن عمر فرجل قد وقذته العبادة فاذا لم يبق احد غيره بايعك ، وأما الحسين بن على فان أهل العراق لن يدعوه حتى يخرجوه . فان خرج عليك فظفرت به فاصفح عنه فان له رحما ماسة وحقا عظيما . واما ابن ابى بكر فرجل ان رأى أصحابه صنعوا شيئا صنع مثلهم . ليس همه الا فى النساء واللهو ، واما الذى يجثم لك جثوم الأسد ويراوغك مراوغة الثعلب فاذا امكنته فرصة وثب فذاك ابن الزبير »

وشبيه ان تكون هذه الوصية فى معناها آخر ما قاله وخلاصة ما خرج به من تجارب دنياه ، فانها سياسته التى كان يعيدها كما بدأها لو انه عاد ليبتدىء بها من جديد فى أيام يزيد ، معرفة بالرجال وقدرة على التدبير فى الشوط القصير ، واحكام العقدة بآلتها فى حينها ، وبغير نظر الى آلتها بعد ذلك الحين ، ومن ذلك اختياره لابلاغ الوصية أسوأ من يعين عليها مع الزمن : مسلم بن عقبة والضحاك بن قيس .. ومن ذاك مدافعته الفتن بالمجاراة والمداراة ، فيوصى خليفته بعزل وال فى كل يوم ولا يوصيه بالنظر فيما وراء ذلك من سخط على الحاكم وعجز عن ارضاء المحكوم .. وصية رجل قدير .. قدير غاية القدرة فى الشوط القصير ..

في الميزان

حق الأمانة على المؤرخ فى هذه المرحلة من التاريخ الاسلامى ان يراجع بينه وبين ضميره طائفة من الحقائق البديهية ، قبل ان يستقيم له الميزان الصادق لتقدير الرجال بأقدارهم وتقويم المناقب والمآثر بقيمتها

ومن هذه الحقائق البديهية ان الأموال التى بذلها معاوية للمأجورين من حوله لم تبذل لتعريف الناس بحسناته وسيئـاته كما يعرفها من لم يؤجر بمال ولم يتصل معه بسبب

ومن هذه الحقائق البديهية ان سلطان معاوية يدخل فى الحساب حيث يؤوب الباحث الى ذلك الزمن ليفرق بين ما يقال عن صاحب السلطان وما يقال عن رجل يحاربه السلطان فى سمعته وذكراه

ومن الحقائق البديهية تواطؤ الزمن على اقرار ما قيل وتكرر وطال وقوعه فى الأسماع حتى لتكاد تنفر من تغييره لو عرض لها فيه شيء من التغيير ، وحتى لتكاد تعجز عن النفاذ الى الحقيقة لو رغبت فى ذلك التغيير لسبب من الأسباب ، وقلما تعرض هذه الأسباب لمن لا يعنيهم تمحيص ما يقال فى الساعة الراهنة فضلا عما يقال ويعاد منه مئات السنين

ومن الحقائق البديهية ان المحاباة تأتى بتوافق الطبائع كما تأتى بالغرض والرشوة ، فلا يسهل على الانسان نقد صفة يعلم انه متصف بمثلها ، واستنكار وسيلة يعلم انه لا يستنكرها ولا يأبى النجاح اذا توسل بها اليه

ومن الحقائق البديهية ان المحاباة تأتى من جهات لم تخطر للمنتفع بمحاباتها على بال ..

فالدولة الأموية فى الاندلس أنشأت للشرق الاسلامى تاريخا لم يكتبه مؤرخوه ولا يكتبونه على هذا النحو لو انهم كتبوه ، وجاءت تلك الدولة الاندلسية بمؤرخين من الأعلام ينصبون الميزان راجحا لكل سيرة أموية

لا يقصدونها بالمحاباة ولكنهم لايستطيعون ان يقصدوها بالنقد والملامة لأنهم مصروفون بهواهم عن هذا الطريق

من هؤلاء اناس فى طبقة ابن خلدون ، يضع معاوية فى ميزانه فيكاد يحسبه بقية الخلفاء الراشدين ويتمحل المعاذير له فى اسناد ولاية العهد اليه مع فسوقه وخلل سياسته وكراهة الناس لحكمه حتى من أبناء قومه

ولا يهولن قارىء التاريخ اسم ابن خلدون فيذكره وينسى الحقائق البديهية التى لا تكلفه اكثر من نظرة مستقيمة الى الواقع الميسر لكل ناظر فى تواريخ الخلفاء الراشدين وتاريخ معاوية

فما فى وسع ابن خلدون ان يخرج من هذه التواريخ بمشابهة بعيدة تجمع بين معاوية والصديق والفاروق وعثمان وعلى فى مسلك من مسالك الدين أو الدنيا وفى حالة من أحوال الحكم أو المعيشة ، وانه لفى وسع كل قارىء ان يجد المشابهات الكثيرة التى تجمع بين معاوية ومروان وعبد الملك وسليمان وهشام ، فلا يفترقون فيها الا بالدرجة والمقدار ، أو بالتقديم والتأخير . واذا كان هذا شأن ابن خلدون ، فقل ماشئت فى سائر المؤرخين وسائر المستمعين للتواريخ ، من مشارقة شهدوا زمان الدولة ومشارقة لم يشهدوه ، ومن مغاربة عاشوا فى ظل تلك الدولة ، وتعلقت أقدارهم بأقدارها ، وأيقنوا انهم لا ينقصون منها شيئا ثم يستطيعون تعويضه من الأندلس بما يغنيهم عنه ، وما زال العهد بالمنبت عن ارومته ان يلصق بها أشد من لصوق القائمين عليها

اذا روجعت تلك الحقائق فى ميزان التاريخ فقد ذهب من الكفة كل ما زيد عليها فى ابان الدولة وكل ما علق بها من تواطؤ الزمن وتكرار العادة وكسل السامع من مشقة المراجعة وانتزاع الفكر مما ألفه ولم يألف سواه .. لقد تمهدت لمعاوية أسباب لم تتمهد فى عصره لأحد غيره من قبل الاسلام ، وفى صدر الاسلام الى أيام عثمان

ولم يكن مفرطا أو عاجزاً فلم يضيع ما تمهد له بعجلة لا تؤمن عاقبتها ، أو بتقصير عن الفرصة فى أوانها ، وكان له دهاء وحلم ، وكان فيه طموح

واعتداد بالنفس وسمة من سمات الرئاسة ..

وكان له من كل اولئك قدره الذى أعانه على مقصده كما أعين بغيره فكان فى يديه من المال والجند وسلطان الولاية ما لم يكن فى يدى أحد من نظرائه ومنازعيه ، ولولا ذلك لما أفاده دهاؤه مع اعوانه من الدهاة ، لأنه لم يغلبهم بعقل غالب ولم يصرفهم عن مقصدهم الى مقصده ، بل خدمهم وخدموه ، ولو لم يكن عنده ما يطلبونه لخدموا غيره أو نازعوه على سواء ، وربما نازعه بعضهم على رجحان

وكان له حلم أوشك أن يحرمه عزة الرئاسة ، ولكنه حلم من لا يغضب وليس بحلم من يغضب ويملك عنان غضبه ، فسيان ان يركب غضبه بعنان او بغير عنان ، فانه فى غنى عن قوة الساعد مع مطية لا تثور ثورة الجماح فى كل حين

وكان له طموح الى السيادة ، ولكنه طموح الألفة والعادة ، ورثه مع جاه الأسرة ولم يخلق فيه بتلك الخليقة « الحيوية » التى يطبع عليها العصاميون ، فكأنما هى جزء من التركيب وليست وجاهة من وجاهات البيت العريق يطلبها كما يطلب الميراث

واذا وزنت قدرة معاوية بميزان النجاح حصل من نجاحه فى كفة الميزان حاصل قليل يهون شأنه مع اثقال الكفة الأخرى من الجهود والشواغل والهموم ..

فقد أراد الملك له ولبنيه ، ولم يرده لبنى أمية أجمعين ، لأنه فرق بينهم ما اجتمع وأغرى اناسا منهم باناس ولم يعمل عمله الا ليتركه من بعده لعشيرته من بنى سفيان . فلم يخلفه من ذريته غير يزيد ، وذهب يزيد فى عنفوانه بداء الجنب فلم يخلفه أحد من ولديه

وتبعة معاوية فى عاقبة ولى عهده الذى خرق الخوارق من أجله اعظم جدا من مسعاته فى توريثه الملك وتوريث أبنائه من بعده . فقد جنت عليه تلك الخليقة الأموية فلم يعرف من البر بالأبناء غير الاملاء لهم فى النعمة والمتاع ، وما كان يزيد ليقصد فى مطاعمه ومناعمه وهو ينظر الى

قدوة سبقته الى تلك المطاعم والمنـاعم ، وسبقته الى تدبيرها له كلما استعصت عليه ، ولو لم تكن من الشهوات التى يقضيها الآباء للأبناء

ان ذات الجنب مرض من أمراض الكبد ، وأمراض الكبد قضاء حتم على المنهوم بطعامه والمفرط فى شهواته ، وقد صنع معاوية ليزيد هذا وصـنع له ذاك : صـنع له عدة النعمة والمتعة ووضـع له عدة الملك والسلطان ، وما يحسب له من هذا دون ما يحسب من ذاك ..

وخرج معاوية من الملك بالأيام التى قضاها فى نعمته وثرائه ، ولا نقول فى صولته وعزه ، فقد كاد يذل لكل ذى بيعة منشودة ذلا لم يصبر من بايعوه على مثله ، ولو وزن ما احتمله فى سبيل بيعتهم وما احتملوه فى سبيل طاعته لكان ما احتمله هو أثقل الكفتين . أما تبعته العامة فى أمر الملك فأمر جسيم لا تعدله جسامة عمـل فى عصره ، لأنه نكص بالملك خطوات ، وكان فى ميسوره أن يتقدم به خطوات تزيد عليها ، مع ما بين الخطوة الناكصة والخطوة المتقدمة من بون بعيد ..

لم يكن فى ميسوره ان يديم على الدولة خلافة كخلافة الصديق أو الفاروق ، ولكن كان فى ميسوره أن يجنبها الكسروية والهرقلية وأن يجعل للخلافة أثرا باقيا فى ولاية الأمر ، ان لم يصمد على سنة الراشدين لم يصمد على سنة الملك العقيم . ولو انه أنشأ هـذا الملك فى الدولة الاسـلامية والناس لا يعرفون غيره لخف نصيبـه من اللوم وهان حق التاريخ وحق العالم الاسلامى ، والعالم الانسانى ، عليه ..

غير ان الناس عرفوا فى زمانه فارقا شاسعا بين ولى الأمر الذى يتخذ الحكم خدمة للرعية وامانة للخلق والخالق ، وشريعة لمرضاة الناس بالحق والانصاف ، وبين الحكم الذى يحاط بالأبهة ويجرى على سنة المساومة ويملى لصاحبه فى البذخ والمتعة ويجعله قدوة لمن يقتدون به فى السرف والمغالاة بصغائر الحياة . كان الرجل من النصحاء يدخل عليه كأنما يبكته فيسلم عليه بالملك ولا يسلم عليه بالخلافة ..

وتتابع عليه فى أيامه الأولى من يقول له : السلام عليكم أيها الملك ..

فكان ينكر الاسم ولا ينكر السمة ، الى أن تنازعه الخيار بين ترك السمة أو التمادي فيها ، فتمادى فيها وقال جهرة لمن حوله : نعم أنا أول الملوك !

وتبعته فيما شجر بعده من خلاف توازن تبعته فى هذا الخروج بولاية الأمر من ورع الخلافة الى أبهة الهرقلية والكسروية

فما كان من المعقول ، ولا من طبائع الأمور ، ان تبذر فى الأرض كل تلك البذور من جراثيم التفرقة ثم تسلم الدولة من عقابيلها أو تظل التفرقة سندا لصاحب الأمر مئات السنين كماكانت لمعاوية سنوات معدودات

تبعات يحسب حسابها العسير ان كان للتاريخ جدوى يحرص عليها ، وكان لشرف الذكر وزن يقام

وليست جدوى التاريخ هنا كلمة مدح تنقص أو تزاد ، وانما جدواه ان يصان الذكر عن الابتذال وهو أشرف ما تملكه الانسانية من تشريف ابنائها فى الحياة وبعد الممات ، فلا يباح عرض الانسانية لكل من يملك طعاما يملأ به البطون أو مالا يملأ به الجيوب ، ولا يختلط الحق بالباطل ثم تذهب الحيلة فيه وتثوب العقول والضمائر الى التسليم ، ويتساوى الجوهر والطلاء فى ميزان الخلود والبقاء . ومعاوية فى هذا الميزان ، لا يخرج منه مغبونا ولا غابنا للحقيقة من بعده ، وانما تحسب له قدرته بتقدير ، ويعطى من أثر قدرته ، ومن أثر نيته ، ما هو به حقيق

وقد عمل بتلك القدرة ما افاده وافاد قومه وافاد الأمم التى تولاها فيما تستفيده من قرار الدولة و « ضبط » الأمور . وذلك حق القدرة الذى لا حاجة معه الى اللجاجة فى أمر النية ، فلو ان أحدا أراد أن يمحو من سجله كل ما عمله لنفسه ولبنيه لما بقى فى ذلك السجل عمل واحد تطول فيه اللجاجة حول النيات .. ونعود فنقول انها قدرة لا ترسل على اطلاقها بغير تقدير، وان تقديرها الحق انها غاية القدرة الى الشوط القصير

لقد كان قويا لا مشاحة فى وصفه بالقوة على مثالها ، ومثالها انك تصوغها فى خيالك على صورة من الصور ، فتحضرك صورة الجمل الصبور ولا تحضرك صورة الأسد الهصور

عبّاس محمود

العقّاد

داعي السّماء بلال

دار الكتاب اللبناني - بيروت

كلمة تصدير

« بين الحربين العالميتين شاعت الدعوة العنصرية فبلغت أقصى مداها ،
« وعملت فيها السياسة غاية عملها وأقحمها الدعاة في مباحث العلم والتاريخ
« في غير موضعها .

« وقد كانت للإسلام كلمة في انصاف العناصر والأجناس سابقة لكلمة
« الحضارة العصرية والعلم الحديث ، وكان في صحابة النبي عليه السلام رجل
« أسود هو بلال بن رباح مؤذنه الأول ، فكان أثيراً عنده وعند الخلفاء وجلة
« الصحابة والتابعين .

« فالكتابة عن بلال رضي الله عنه في هذا العصر تقع في سلسلة العبقريات
« والسير الإسلامية في موقعها وتصادف موعدها من الزمن في أعقاب الحرب
« العالمية القائمة .

« ولهذا كتبت هذه الصحائف في سيرة داعي السماء » .

مَسْألةُ العُنْصُر

مسألة العنصر – أو الجنس – مسألة اجتماعية كثيرة الورود على ألسنة المعاصرين وأقلامهم ، ولكنها على هذا من أقدم مسائل الاجتماع التي وجدت مع وجود القبائل الأولى .

وأكثر الباحثين في المسائل العنصرية من المختصين بها بين الغربيين يردون كلمة العنصر أو الجنس Race في لغتهم إلى أصل سامي يرجّحون أنه هو اللغة العربية ، ويعتقدون أنها مأخوذة من كلمة الرأس التي كانت تميز بين رؤوس السلالات الآدمية وغير الآدمية .

ولم يكن اختلاف القبائل وتفاخرها شراً كله في بداية أمره ، ولا كان مدعاة للنزاع دون غيره . فمن علماء الاجتماع من يرجع بالوشائج الاجتماعية كلها والآداب الإنسانية برمتها إلى الواشجة الأولى التي نشأت في مبدأ الأمر مع نشوء القبيلة الهمجية ، ثم كانت سبباً إلى التجاذب والتعارف بينها وبين القبائل الأخرى . ومصداق ذلك القرآن الكريم حيث جاء من سورة الحجرات : « يَأَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوباً وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا ... »

فكانت الواجبات التي تفرضها القبيلة على أبنائها أساساً لجميع الواجبات التي تعلمها الإنسان بعد ذلك ، سواء فرضتها عليه القبيلة أو الأمة أو الجامعة العنصرية أو الإنسانية بأسرها

وقد طبع الناس على التفاخر بما يخصهم ولا يعم غيرهم كائناً ما كان معدنه ومدار الفخر به . فشاعت بينهم المفاخرة بالأنساب والأصول كما شاعت بينهم المفاخرة بمعالم الأرض التي يسكنونها وصنوف المطاعم التي يأكلونها ، وتفاضلوا بالحقائق كما تفاضلوا بالأساطير والأوهام .

فمن قديم الزمن يفخر كل عنصر بعراقته وامتيازه على غيره ، ويزيده إمعاناً في عادة التفاخر والمباهاة أن تتاح له فرصة الغلبة والاستعلاء فترة من الزمن . فإن كانت الغلبة قائمة حاضرة فهي آية الفخر وحجة المباهاة ، وان كانت غابرة دائرة فهي عنده علامة على عراقة أصله وحداثة غيره ، وانه أحق من ذلك الغير بالفخر والمباهاة وان خدمته الحظوظ والمصادفات في حاضر أمره .

فلم تُعرف أمة قديمة قط خلت من مفاخرة بعنصرها واعتداد بنشأتها وبيئتها وبلادها ، والذي قال :

بلادي وان جارت عليّ عزيزة وأهلي وان ضنُّوا عليّ كرام

قد جمع هذه الحقيقة من جميـــع وجوهها وهو يدري أو لا يدري . فليس من اللازم أن تكون البلاد أطيب البلاد ولا أن يكون الآلُ أكرم الناس ليفخر بهم الرجل الذي ينتمي إليهم وتحسب سمعتهم عليه وسمعته عليهم . فإنه ليعظّمهم ويبجّلهم فراراً من المهانة التي تصيبه إذا تقاصروا عن شأو العناصر الأخرى في التعظيم والتبجيل ... فهو فاخر بهم ان عظموا مساهمة منه في فخارهم ، وفاخر بهم إن هانوا دفعاً للهوان عنه إذا اعترف بهوانهم ، ولا حساب للبحث أو للرأي في الحالتين إلا بعد حساب العاطفة والشعور .

كان المصري القديم يؤمن بأنه هو الانسان الكامل ثم تتلاحق الشعوب بعده إلى أن يأتي أبناء اليونان في المرتبة السادسة .

وكان اليوناني القديم يؤمن بأنه هو الانسان المهذب ومن عداه برابرة لا يدركون مكانه من الفهم والحضارة .

وكان العربي القديم يؤمن بأنه هو الانسان المبين الكريم ومن عداه « أعاجم » لا يفقهون ما يقال ولا يدينون بدين المروءة والأحساب .

وكذلك كان أبناء فارس والهند والصين ، بل كذلك كانت كل قبيلة من تلك القبائل حين تنظر إلى نظائرها وان تلاقت جميعاً في أصل قريب من الأحساب والأنساب .

وبقيت هذه الشنشنة بين أمم الحضارة في العصر الحديث فاعتزّ بها الأوربيون على أبناء القارات الأخرى، ولكنهم لبثوا فيما بينهم يفاخر كل شعب منهم جاره بالعادات والأخلاق والمآثر وإن تقاربوا في السلالة واللغة والعقيدة . فليس أشد تفاخراً بين الأوربيين من الطليان والأسبان والفرنسيين وهم يرجعون بلغتهم إلى اللاتينية وبعقيدتهم إلى المسيحية الرومانية وبعناصرهم إلى مزيج متقارب من السلالات ، ولكنهم تعلموا — بوحي المصلحة المتفقة — أن يجمعوا فخرهم كله إلى فخر واحد يتقارب فيه الأوربيون كافة ، وهو « اللون الأبيض » أو الانتماء إلى القارة المجتباة بين القارات ، وجعلوا هذا اللون الأبيض رسالة يبشّر بها الأوربيون من عداهم من الشعوب الانسانية، وسموا تلك الرسالة « عبء الرجل الأبيض » أو أمانة الرجل الأبيض ، أو تبعته أمام الله لهداية خلقه الذين لم يبلغوا مبلغهم من العلم والارتقاء .

وصدق العالم الانجليزي الحديث جوليان هكسلي حين قال إن هؤلاء الدعاة مسبوقون إلى دعواهم قبل ميلاد السيد المسيح . فقد سبقهم « أشعيا » من أنبياء اسرائيل فقال في إصحاحه التاسع والأربعين : « اسمعي لي أيتها الجزائر واصغوا أيها الأمم من بعيد . الرب من البطن دعاني . من أحشاء أمي ذكر اسمي . وجعل فمي كسيف حاد . في ظل يده خبأني وجعلني سهماً مبرياً . في كنانته أخفاني . وقال لي أنت عبدي اسرائيل الذي أتمجّد . أما أنا فقلت عبثاً تعبت ، باطلاً وفارغاً أفنيت قدرتي . لكن حقي عند الرب وعملي عند إلهي .

« والآن قال الرب جابلي من البطن عبداً له لإرجاع يعقوب إليه فينضم اليه إسرائيل ، فأتمجد في عيني الرب وإلهي يصير قوتي . فقال : قليلٌ أن تكون لي عبداً لإقامة اسباط يعقوب ورد محفوظي اسرائيل . فقد جعلتك نوراً للأمم لتكون خلاصي إلى أقصى الأرض . هكذا قال الرب فادي اسرائيل ... » .

فرسالة الرجل الأبيض التي تمخض عنها القرن التاسع عشر كله لم تذهب بأصحابها إلى أبعد من هذا المدى الذي سبقهم إليه بنو اسرائيل قبل ميلاد السيد المسيح بسبعة قرون .

* * *

وظلت المفاخر العنصرية كلها من قبيل هذه العادات الاجتماعية التي لا يرجع فيها إلى قياس منطقي ولا موازنة علمية ، فكانت أشبه شيء بمفاخرات الصبيان بعضهم لبعض بآبائهم وأمهاتهم وأخواتهم وجيرانهم وبيوتهم التي يسكنونها ومدنهم التي ينشأون فيها وكل شيء يتصل بهم وتنعقد فيه المقابلة بينهم وبين غيرهم . وفحوى مفاخر الأجناس من هذا القبيل أن كل جنس هو أفضل الأجناس لغير سبب . وليس هذا من القياس المنطقي ولا الموازنة العلمية في شيء .

ثم اتسع نطاق البحث العلمي في القرن التاسع عشر فأدخل الفوارق بين الشعوب في موضوعاته الكثيرة وجعل لها علماً خاصاً أو باباً خاصاً من أبواب المعرفة يسمى معرفة الأجناس البشرية .

وانتهى به البحث إلى وجود الفوارق الصحيحة بين خمسة من الأجناس التي ينتمي اليها شعوب البشر كافة ، وهي الجنس القفقاسي أو الأبيض ، والجنس الزنجي أو الأسود ، والجنس المغولي أو الأصفر ، والجنس الأسمر أو أهل الملايا ، والجنس الأحمر أو سكان القارة الأمريكية الأصلاء .

واختصر بعضهم هذا التقسيم إلى ثلاثة أقسام فجعل الأجناس الصفراء

والسمراء والحمراء فروعاً من أصل واحد ، وهو اختصار له سند معقول .

وقد عُني أصحاب هذه التقاسيم بالفروق التي تورث وتنتقل مع الأجيال ، أي بالفروق التي يسمونها فروقاً بيولوجية دون غيرها من الفروق الاجتماعية التي تكسب بالقدوة والمحاكاة .

وتناول العالم اللغوي الألماني ماكس موللر دراسة الأجناس من الناحية التي تعنيه وهي ناحية المقابلة بين اللغات ، فاستخدم كلمة اللغات الآرية وأحياها من جديد بعد أن سبقه إلى استخدامها السير وليام جونس في أواخر القرن الثامن عشر ، وقرر أن لهجات اللغة الهندية الفارسية نشأت من مهد واحد في أواسط آسيا التي كان الأقدمون يعرفونها باسم « أريانا » وأنها كانت في نشأتها الأولى لغة قبيل واحد من الأجناس البشرية ، وكلا القولين اليوم خطأ عند علماء هذه المباحث فيما أثبته جوليان هكسلي من كلامه عن الجنس في القارة الأوربية .

وأحس العالم الألماني الكبير أن دعوة الجنس الآري ستخرج من حيز التفكير العلمي إلى ميدان الصراع على الشهوات السياسية فحذر قراءه من الخطأ في تفسير كلامه وعاد إلى التحذير من ذلك في شيخوخته حيث قال : « لقد ناديت مرة بعد مرة أنني إذا ذكرت الآرية فلست أعني الدم ولا العظم ولا الشعر ولا الجمجمة ، وإنما أرمي إلى قصد واحد وهو أولئك الذين يتكلمون باللغة الآرية .. ومتى تكلمت عنهم فلست أتبع في ذلك الخصائص التشريحية ، ولا أعني أن أبناء السكنديناف ذوي العيون الزرق والشعر الأصفر قد كانوا قاهرين أو كانوا مقهورين ، ولا أنهم قد اتخذوا لغة السادة السمر الذين تغلبوا عليهم أو كان الأمر على نقيض ذلك . وعندي ان عالم الأجناس الذي يتكلم عن العنصر الآري والدم الآري والعيون الآرية والشعر الآري إنما هو في خطيئته العلمية كاللغوي الذي يتكلم عن معجم مستطيل الرأس أو أجرومية مستديرته على حد سواء » .

وكان القرن التاسع عشر قرن « مذهب النشوء » كما كان قرن المذاهب العلمية والفلسفية من شتى نواحيها ، فما زالت الأقوال في مذهب النشوء تتسع وتتشعب حتى عرض لبعض الباحثين فيه أن الأجناس البشرية تنتمي إلى أصول متفرقة لا إلى أصل واحد أو شجرة واحدة ، وان القردة العايا هي أجناس بشرية سفلى ، وأن المغولي والقرد المعروف بالاورانج نبتا من أصل واحد ، وان الزنجي والغوريلا والشمبانزي تنتمي إلى أصل آخر ، وكان رأس القائلين بهذا الرأي عالماً ألمانياً من علماء الأجناس هو الدكتور هرمان كلاتش Klaatsch أستاذ هـــذا العلم بجامعة برسلاو الالمانية . فأعلن في أوائل القرن العشرين رأيه هذا وأيده بما له من الشواهد والملاحظات التي كشفت عنها مقابلاته بين أنواع القردة وأنواع الانسان .

لكن القرن التاسع عشر لم يكن قرن المباحث العلمية ولا قرن النشوء والتطور دون غيرهما . بل كان كذلك قرن التوسع في الاستعمار وتسخير العلم لخدمة المطامع الاستعمارية والمنازعات السياسية .. فظهر من الكتّاب من يبشر بالجامعة اللونية أو العصبية الجنسية على أساس اللون والعنصر ، وقام في أوربا من يبشر بامتياز أجناس الشمال على سائر الاجناس البشرية ومن يرد الفضل في كل فتح من فتوح العلم والثقافة والحضارة إلى أصل الجنس الآري المزعوم في الشمال . وأشهر من اشتهر بهذه الدعوة « أرثر دي جوبينو » في فرنسا وهوستون شمبرلين الانجليزي المتجرمن في المانيا ، ولم تخل أمريكا من نصيبها من هؤلاء الدعاة وهي ميدان نزاع بين الاجناس البيضاء والحمراء والسوداء وميدان مفاخرة بين المهاجرين الاوربيين الذين يمتون بالنسب إلى أصول مختلفة . كالسكسون واللاتين وامم الشمال والجنوب . فكان لوثروب ستودارد Lothrop Stoddard وماديسون جرانت Madison Grant على رأس المبشرين بهذه العقيدة في الولايات المتحـــدة . ولم تكن كراهة الاجناس الملونة هي الباعث الوحيد في نفوس هؤلاء إلى التبشير بمزايا الرجل الأبيض أو مزايا الجنس الآري خاصة من بين الشعوب البيضاء ،

وانما كانت كراهتهم للحكومة الحرة – أو حكومة المساواة بين الطبقات – باعثاً آخر إلى إنكار صفاء الشعوب التي سمحت بهذه الحكومة الحرة واتهامها بالنكسة والفساد من جراء امتزاجها بأجناس غير الجنس الآري أو الجنس الشمالي المجيد ، فكانت هذه النكسة مدرجة لها إلى النزول عن أوج السيادة والاذعان لشريعة المساواة .

ولا شك أن حروب نابليون بونابرت كانت لها يد قوية في تمكين هذه النزعة بين الامم الجرمانية خاصة ، لأنها كانت سلاحها الذي تدرأ العار به عن فخارها القومي في مجال الصراع بينها وبين اللاتين أو بين أمم الشمال وأمم الجنوب ، وقد كان نابليون قائد فرنسا اللاتينية في صراعها مع الجرمان منحدراً من جنوب الجنوب بالقياس إلى القارة الاوربية ، فكانت صيحة الفخار القومي التي تستثار بها الامم الجرمانية إلى الوحدة هي تعظيم مزايا الجنس الشمالي الذي ينتمون اليه ، واتفق ذلك في عصر البحث عن الاجناس وعصر النشوء والتطور وعصر السباق إلى الاستعمار وعصر الديمقراطية التي تخلف فيها الجرمان عن جيرانهم ، فكانت صيحة التفوق العنصري على أشدها بين الالمان ، وكادت عقيدة الجنس الآري أن تنحصر فيهم بعد موالدها في بلاد الانجليز على لسان واحد منهم وهو العلامة ماكس موللر الذي سبقت الاشارة اليه ، ومن ثم ندرت دعوة إلى التفوق العنصري لم تكن لها صلة بالثقافة الالمانية الحديثة من قريب أو بعيد .

* * *

وقد تعددت الأسباب التي ألهجت ساسة الالمان بعد الحرب العالمية الماضية (١٩١٤ – ١٩١٨) بمسألة العنصر ودعوى الآرية أو الأقوام الشمالية وما لها من الرجحان على خلائق الله كافة من اوربيين وغير اوربيين ، سواء في الزمن القديم أو في الزمن الحديث .

فقد احتاج الساسة الالمان إلى محاربة المذهب الشيوعي فوضعوا بأزائه

مذهب الاشتراكية « الوطنية » وهي تعتصم بالخصائص القومية في وجه الدعوة الدولية التي يبثها الشيوعيون، وفاقاً لعقيدتهم المعروفة ، وهي عقيدة الثورة على الاوطان والاديان .

ووافقتهم الخصائص القومية في حربهم للشيوعيين من وجه آخر غير المقابلة بين المذهبين ، وذاك هو المقابلة بين عنصر السلافيين وعنصر التيوتون الذي ينتمي اليه الألمان . فكانوا يقولون انهم هم حماة الحضارة الاوربية من زحوف البرابرة التي تهددها من قبل آسيا في الزمن الحديث .

واستغلوا دعوة العنصر الآري استغلالاً غير هذا وذاك في محاربة اليهود باسم الساميين .

واستغلوها مع هذا وذاك لاستنهاض نخوة الأمم الجرمانية بعد هزيمتها المنكرة في ميادين القتال ، فنفخوا في أوداجها أنها أهل للظفر – وليست بأهل للهزيمة – لأنها خلقت للسيادة وتنزهت في سلالتها الآرية عن شوائب الاجناس ، وأدخلوا في روعها أنها كانت وشيكة أن تظفر بأعدائها لولا خيانة العمال من قبل الشيوعية ، وخيانة اليهود من قبل الشيوعية تارة ومن قبل أصحاب الأموال تارة أخرى .

فأصبحت دعوة العنصر هوساً جامحاً كهوس التعصب في كل عقيدة من العقائد الشعورية ، وبلغ من التهوس بالدم الآري المزعوم أنهم جعلوه فلسفة في الحكم وفلسفة في الاخلاق والفنون والآداب ، فكانوا يقولون إن الحكومة بنية حية تنبت من الدم القومي كما تنبت الجوارح في الأجسام ، وأن الزعيم تركيب داخل في تلك البنية بتقدير من طبيعة الكون أو طبيعة الخلاق العظيم ، وكان هتلر ينادي في كتابه « إننا معشر الآريين لا نعرف الحكومة إلا كبنية ذات حياة يتلبس بها الشعب من الشعوب».. فهي شيء لا يدخل في الارادة ولا في التربية السياسية ولا في نظم التشريع والانتخاب .

وتطوح الغلو بدعاة هذه العنصرية حتى بلغوا بها – مع تلك البواعث

النفسية والسياسية – مبلغاً لم يسبقهم اليه سابق في عالم البحث ولا في عالم الخيال . فجعلوا أجناس البشر فصائل تتعاقب طبقة تحت طبقة حتى تلتقي بالقردة ولا يبعد ان تناسلها ، وجعلوا أنفسهم نخبة مختارة بين فصائل الآرية جمعاء ترتقي إلى الذروة العليا في ذلك الترتيب ، وعادوا إلى كل رجل من أصحاب القرائح الخلاقة بين عظماء الامم فألحقوه بالآريين على وجه من الوجوه ، وعادوا إلى كل اختراع من مبتكرات الصناعة وأدوات الحضارة فنسبوه إلى شعبة آرية مقيمة في موطنها أو مهاجرة إلى وطن من الاوطان ، فحصروا الخلق والسيادة في الآرية المزعومة دون غيرها وجعلوا العناصر الاخرى جميعاً عالة على الآريين ينتفعون بما يخلقون ويدينون لسيادتهم طائعين أو كارهين .

ولعل هذا الغلو من جانب دعاة العنصرية قد جنح بنقاد هذا المذهب إلى الغلو في إنكار خصائص الأقوام والاجناس، وهم اذا غلوا في هذا الطرف كان لهم شفيع من الحجج والشكوك أدنى إلى الاقناع من شفيع العنصريين .

وإنما نعرض للبواعث التي امتزجت بالحقائق العلمية في مسألةالجنس والعنصر لأن الإلمام بهذه البواعث يعين على تجريد الحقائق العلمية من أخلاطها الغريبة ويرجع بها كرة أخرى إلى حيز الدراسة الفكرية والبحث المعقول .

ومن الواجب أن نصغي أولاً إلى دواعي التشكيك في تلك الدعوة الجازمة وهي كثيرة ، فإنها على التحقيق تدعو إلى الشك في دعوة العنصريين وتبطل اليقين بكل عقيدة من تلك العقائد التي خيل اليهم انهم يؤمنون بها ، لأنهم يشعرون بالحاجة إلى ذلك الإيمان .

فمن دواعي الشك في العنصرية الآرية أن العنصر الآري المزعوم لم يكن له وجود قط كأنه سلالة من السلالات الوراثية على النحو الذي تخيلوه ، وإنما كان جامعة لغوية يشترك فيها أقوام مختلفون لا يتأتى ردهم اليوم إلى سنخ واحد ، ولا يتشابهون في الخصائص العنصرية إلا كما يتشابه الأقوام الذين يتكلمون اليوم لغة واحدة على تباين المواطن والألوان .

قال العالم الانجليزي جوليان هكسلي في كلامه عن العنصر أو الجنس بالقارة الأوربية ، ان دعاة العنصرية يتكلمون عن الجرمان والآريين وأقوام الشمال « أو النورديين » كأنهم سلالة واحدة ، وهذا خلط لا مسوغ له من الحقائق . وإنما المقطوع به أن هناك نموذجاً بشرياً يعرف بالنموذج الشمالي موزعاً بين الأقطار الشمالية في أوربا من الجزر البريطانية إلى التخوم الروسية ، وان هذا النموذج وهو على أقرب ما يكون إلى النقاوة والصفاء في بعض الأقاليم السكندنافية لم ينسب إليه قط فتح من فتوح الحضارة أو كشف من كشوف العلم أو أداة من أدوات الاختراع التي اشتهرت في التاريخ ، وقد روجعت مخلفات العصر الحجري التي ترد إلى ما قبل الميلاد بثلاثة آلاف سنة في بريطانيا العظمى فاذا هي تمثل ثقافة من ثقافات البحر الأبيض المتوسط حملها ذووها إلى شبه الجزيرة الأيبيرية — التي نعرفها باسم الأندلس — ثم إلى فرنسا فالجزر البريطانية . ومن المحقق أن الخطوات الأولى التي خطاها الانسان إلى الحضارة حين تعلم الحرث والكتابة وبناء المنازل ونقل الأحمال على الدواليب قد تقدم بها في جوار البحر الأبيض حيث تقيم الأمم السمراء التي لم تنسب إلى السلالة النوردية ، ومن المحقق كذلك أن مشاهير الجرمان أمثال جيتي وبتهوفن وكانت كانوا مستديري الرؤوس ربعة في القوام ، وليس نابليون ولا شكسبير ولا آينشتين ولا غاليليو وعشرات من أمثالهم على الصفة التي يزعمونها للنورديين ، ومن طرائف المصادفات أن اللون الاشقر والقوام الطويل الرشيق لا يعرفان لزعيم من زعماء الدعوة النوردية أو الآرية المزعومة . فهتلر أسمر وجورنج سمين بادن وجوبلز قصير دميم وزعماء « الجنكر » من سكان المانيا الشرقية تختلط فيهم ملامح السلافيين والتيوتون ، وهم أكبر الدعاة إلى السيادة الجرمانية على الامم قاطبة .

ويتفق علماء الاجناس ووصف الانسان على توزع السلالات في العنصر الواحد كما يتفقون على ندرة النقاوة المحض في عنصر أو سلالة . فالجنس الابيض في القارة الاوربية وما جاورها ينضوي إلى عنوان واحد ولكنه

ينقسم إلى السلالات النوردية والالبية وسلالة البحر الابيض المتوسط ، وهذه السلالة الأخيرة تنضوي إلى عنوان واحد ولكنها تنقسم إلى ليبيين وايبيريين وليجوريين نسبة إلى اسم جبال الالب ما بين البحر وسافونا السفلى ، وقد يضاف إليهم البيلاسجيون Belasgian الذين ينعزلون وحدهم في بحر «إيجه» على مقربة من اليونان .

والجنس الأسود ، على كونه من العناصر المتميزة بين أجناس البشر ، يختلف في بعض الصفات وان تماثل في اللون أو تقارب فيه . فقد عرفت القبائل السوداء في استراليا ولكنها تخالف القبائل الافريقية في الخصائص الوراثية ، بل يقع الخلاف في بعض الملامح والاخلاق بين السود المتجاورين من أبناء القارة الأفريقية ، أو أبناء الأقليم الواحد منها . فالبوشمان والهوتنتوت كلاهما من سود أفريقية ولكن الاولين قصار وثابون مولعون بالصيد والقتال والآخرين طوال يرعون الماشية ويميلون إلى الاستقرار . ويجاورهم السود من أبناء قبائل البانتو الذين يعمرون السودان الجنوبي وبعض أقاليم الصحراء إلى الشواطىء الغربية ، وهم جماعات شتى بين رعاة رحل مقاتلين وزراع مقيمين موادعين ، وليست فوارقهم في اللغات بأقل من فوارقهم الكثيرة في الملامح والسمات والعادات .

* * *

وبعض هذه الشواهد المتواترة يقرر لنا أن السلالات البشرية لا تبقى على وحدتها وانفرادها مع تعاقب الأجيال واختلاف مطارح الهجرة والانتقال ، ولكنها تتوزع وتتفرع وينتشر التوزيع والتفريع في خصائصها ومزاياها . وليس أدعى من ذلك إلى التشكيك في مزاعم العنصريين الذين يحصرون مزايا البشر العليا جميعاً في سلالة واحدة تنفرد بها وحدها بين سائر السلالات .

ومن دواعي الشك القوية في مزاعم العنصريين أن كثيراً من المزايا التي يصفون بها سلالة من السلالات يسهل الرجوع بها إلى عواملها المحلية أو

الاجتماعية التي لا تحسب من العوامل الوراثية الحيوية ، ونعني بها ما يعرف بالعوامل البيولوجية .

فقد زعموا – مثلاً – للسلالات الأوربية انها انفردت بحب المعرفة النظرية وملكة البحث عن حقائق الأشياء و « التفلسف » المجرد الذي لا يرمي إلى المنفعة القريبة سواء منها ما ينتفع به الأفراد أو ما تنتفع به الجماعات . وقالوا ان الشعوب الشرقية لا تحب المعرفة هذا الحب ولا تتجرد للمباحث الفلسفية هذا التجرد ، ولكنها تعنى بالعلم لتطبيقه في الصناعات ومرافق العيش ومطالب الحياة العملية ، ودليلهم على ما يزعمون ذلك الفارق الظاهر بين ثقافة اليونان وثقافة المصريين .

وحقيقة الأمر أن البحث عن أسرار الغيب وقوانين الوجود يدخل في سلطان الكهانات القوية وأن هذه الكهانات القوية ترسخ وتتوطد وتبسط يديها على العقول إلى جانب الدول العظيمة التي لا بد من قيامها في أودية الأنهار الكبيرة . فحيثما وجد نهر كبير في صقع من الاصقاع لم يكن هنالك بد من قيام دولة عظيمة على شطيه تسوس الري والزرع وتصون الامن وتضمن سلامة المعاملات ، ومتى قامت هذه الدولة العظيمة لم يكن لها بد من الاعتماد على دعائم الدين وسلطان الكهانة والتفرد بحق البحث في العقائد والسيطرة على عالم الروح والضمير ، وكثيراً ما تجتمع الوظيفتان في شخص واحد كما اتفق لبعض الملوك الأرباب أو « انصاف الارباب » في التاريخ القديم . فاذا أصبحت المباحث الغيبية والمعارف التي تتناول أصول الوجود حقاً للكهانة تحميه الدولة فليس من المعقول أن تتسع الحرية للناس يثبتون فيها وينكرون كما تتسع لهم في غيبة الكهانة القوية والدولة العريقة ، ولا مناص من اختلاف مقاصد التفكير جيلاً بعد جيل بين الأمتين حتى يلوح للنظر العاجل في النهاية أنه اختلاف بين طبيعتين أو معدنين من معادن الخليقة الانسانية .

وقد كانت أمم الشرق القديم دولاً لها كهانات قائمة قبل أن تظهر

الفلسفة اليونانية بألوف السنين : فامتد تفكير اليونان إلى محاريب الفلسفة التي كانت حرماً منيعاً في ظل الكهانات الشرقية لا يتخطاه عامة الناس ، وظهر الفارق من أجل ذلك بين ثقافة اليونان وثقافة الشرقيين ، ولو انعكس الامر بين أرض اليونان وأودية النيل ودجلة والفرات لانعكست الآية بلا مراء .

ومما يؤيد هذه الحقائق أن الكهانة القوية صنعت في أوربا حين توطدت فيها مثل ما صنعته الكهانات في الشرق القديم . فلما امتد سلطان الكنيسة البابوية على الامم الاوربية ضُرب الحجر على العقول فأحجم الناس دهراً طويلاً عن البحث المجرد والتفكير في حقائق الوجود ، وبلغت الكهانة الأوربية على حداثتها ما بلغته كهانات الشرق بعد أحقاب وأحقاب تتوالى من بداية عهد التاريخ .

كذلك زعم بعض النقاد العسكريين من أهل أوربا أن الاوربيين يمتازون على الاسيويين والافريقيين في معدن الشجاعة والبطولة الحربية ، واستدلوا على ذلك بانتصار اليونان مع قلتهم على الفرس مع كثرتهم في معركة ماراتون ومعركة سلاميس :

فالواقع الذي أسفرت عنه دراسات الثقات من النقاد العسكريين المحدثين أن الفخار الوطني قد لعب لعبته المعروفة بأخبار المعركتين فبالغ فيها جد المبالغة وأضفى عليها ثوباً من الحماسة الخيالية خرج بها من حيز التاريخ الصميم إلى حيز الملاحم الهومرية .

فلم يدر في خلد « دارا » يوماً من الأيام أن يستولي على أرض اليونان لأنها أرض جرداء لا تنفعه للزراعة ولا للتجارة ولا يخشى منها الخطر العسكري على دولته المترامية الأطراف . وإنما عناه أن يؤدب ارتريا وأثينا لأنهما تجرأتا على معاونة اليونان الثائرين عليه في آسيا الصغرى . واغتنم لذلك فرصة الشقاق بين المستبدين وأنصار الحرية في أثينا أو قيل إنه تلقى من زعماء الشعب المتمرد وعداً بالانضواء إليه وخذلان أولئك المستبدين . فأخمد الثورة في آسيا الصغرى

ثم زحف على « ارتريا » فعصف بها وأرسل أهلها أسارى وسبايا إلى شطوط الخليج الفارسي يسامون فيها سوم الأرقاء ثم تقدم إلى أثينا وفي حسابه أنها منقسمة على نفسها مسرعة إليه بالتسليم ولو من بعض طوائفها وزعمائها ، فلما وقع ما لم يكن في حسبان الفرس ولا اليونان واتفقت كلمة الأثينيين على الدفاع عن بلادهم لم يشأ أن يطيل الحصار لأنه لم يقصد إلى إسقاط المدينة ولم يجد في الأمر ما يستحق المطاولة والعناء .

أما معركة سلاميس فقد كانت المصادفة فيها أغاب من التدبير ، شغل الفرس بعد معركة ماراتون بالثورة المصرية ثم خرج زركسيس لقتال اليونان في جيش ضخم مختلط الأجناس لكنه دون الضخامة التي صورها اليونان بكثير ، وكانت ضخامته واختلاطه عائقاً له ولم تكن من مزاياه ومرجحاته ، لأن قيادة جيش كبير من قبيل واحد أيسر جداً من قيادة نصف هذا الجيش وهو مختلط الأجناس متعدد الأهواء ، ولأن الجيش كان مرتبطاً بمعونة الاسطول الذي يلازم الشاطىء ويحمل له المعونة والعتاد ويتكفل بنقله في المجازات البحرية ، فأصبح الجيش والاسطول معاً مقيدين بطريق واحد لا يعدوانه ولا يغيب علمه عن اليونان ، ولما التقى الأسطولان في سلاميس كانت كثرة السفن الفارسية عائقاً للأسطول أيضاً ولم تكن من مزاياه ومرجحاته . لأن المكان أضيق من أن يتسع لمناورات الاسطول كله ، ولان زركسيس لم يتقدم إليه إلا لعلمه باختلاف قواد اليونان في إدارة المعركة البحرية ، وكان الواقع أنهم مختلفون وأن بعضهم أعلن في مجلس الحرب نية التراجع بمعظم السفن من سلاميس .

فلما نشبت المعركة قبل أن يتم هذا التراجع كانت الكفة الراجحة إلى جانب اليونان ، وأصبح تموين الجيش الفارسي ضرباً من المحال بعد ضياع السفن التي مني بخسارتها في المعركة ، فعدل زركسيس عن المطاولة في المعركة البحرية وان كان قد ظفر بالاثينيين في المواقع البرية .

ولا شك أن الذي أصاب الفرس في هذه المعارك قد كان يصيب اليونان

لا محالة لو أنهم كانوا في موضعهم وكانوا ينقلون الجيش مثل نقلهم وهو في اختلاطه وتعدد أهوائه .

فليست المسألة كلها مسألة اختلاف في معدن القوم أو مناقب السلالة، ولكنها اختلاف في الأحوال والملابسات ، وخليق بالذين ينسون آفة الاختلاط في الجيوش ويحسبون مغبتها على الفرس أو الشرقيين دون غيرهم ان يذكروا أن الصليبيين على وفرة جموعهم وانتمائهم جميعاً إلى العنصر الأوربي قد أصابتهم الهزيمة على أيدي الشرقيين وهم دولة واحدة تقل عنهم في العدد والعتاد ، ولم تعوز الصليبيين في تلك المواقع حرارة العقيدة وشدة المراس .

ومع هذا ألا يقول دعاة البدعة الآرية أن الفرس قديماً من سلالة الآريين وأنهم أقرب إلى أمم الشمال من يونان الجنوب ؟

إن العالم النمسوي فريدريك هرتز يذكر أن اختلاط الزنوج بأهل اوربا في الزمن القديم ، ومن المفيد في هذا الصدد أن ننقل هنا ما أوردناه في كلامنا على مفاخر الأجناس بالجزء الثاني من « ساعات بين الكتب » ... وهذا بعض ما جاء فيه :

« . . للزنوج أثر في أوربا تدل عليه الجماجم التي وجدت في ألمانيا وبلجيكا وفرنسا وكرواتيا ومورافيا ، ووجد ما يشابهها منذ ثمان سنوات في أفريقيا الجنوبية . وقد بقي أثر للاقزام السود في جبال الألب إلى عهد بليني الذي تكلم عن هؤلاء الأقزام وعززت كلامه القصص والاساطير .

ويزعم شمبرلين أن عرفان حقوق الحياة هو مزية الآريين التي لا يعرفها الساميون في الشرق لاستغراقهم في المادة وتقديمهم المال والحطام على الأذهان والأرواح . فيجيبه الأستاذ هرتز بجواب مفحم هو المقابلة البسيطة بين شريعة الرومان وشريعة حمورابي في محاسبة المدينين . فاللوح الثالث من ألواح القانون الروماني يبيح للدائنين أن يقطعوا لحم المدين ويقتسموه بينهم وأن يقتلوه قتلاً في مدى سبعة وعشرين يوماً من يوم القبض عليه وتكبيله في

الحديد والحبال ، وأما شريعة حمورابي فهي تقضي بأن يخدم المدين دائنه ثلاث سنوات ، والقانون يحميه في خلال هذه الخدمة من سوء المعاملة والإرهاق. زد على هذا ان الفرق واضح بين الشريعتين في أمور أخرى : منها ان السارق المضطر معذور في شريعة حمورابي ، وهو غير معذور بحال من الأحوال في شريعة الرومان ، وأن الأب الروماني يجوز له أن يبيع أولاده ، ولا يجوز ذلك للآباء عند البابليين ، وأن الزوج البابلي لا يجوز له أن يقتني السراري بغير اذن من زوجته وليس للزوجة مثل هذا الحق عند الرومان ، وأن المدين يحق له أن يطلب الحط من دينه إذا نقصت غلة أرضه وليس في الشريعة الرومانية شيء من هذا القبيل . وهكذا من شواهد الرحمة وتقديم الحياة على الحطام في شريعة حمورابي ثم من شواهد القسوة وتقديم الحطام على الحياة في شريعة الرومان .

ويرفع شمبرلين اليونان إلى السماء ويقول إن علومهم وفلسفتهم وفنونهم مرجعها إلى طبيعتهم الآرية التي يمتازون بها على الآسيويين والساميين . فيقول له هرتز إن أرسطو في زمانه كان يطري مواهب الأسيويين في الفنون ويحكم على أمم الشمال بالعقم الذي لا علاج له في المعارف الفنية والسياسية لعلة الجو التي لا تبديل لها على تعاقب الازمان ، ويقول هرتز أيضاً إن ثوسيديد المؤرخ اليوناني ، ذكر أن اليونان كلها كانت في قبضة البرابرة ، وذكر هيرودوت أنه كان يسمع في زمانه لغة البرابرة في بعض أنحاء وطنه ، وأن العلماء المحدثين — كرشمر وكيسلنج وفلك — أقاموا الأدلة على أن سكان آسيا الصغرى وسكان اليونان كانوا جنساً واحداً من الآسيويين ، وأن أسماء بعض المواقع اليونانية لا ترد إلى مصادر من هذه اللغة لأنها مشتقة من اللغة القديمة كما اشتقت منها أسماء الارباب فيما يقول هيرودوت . والاقوال متفقة على أن طاليس رأس الفلسفة اليونانية من أصل أسيوي سامي وأنه تعلم العلم في البلاد المصرية ، وكذلك تتفق الاقوال على أن زينون رأس الفلسفة الرواقية أسيوي الاصل والنشأة ، بل يقول فيرث : إن هومر نفسه

اسم سامي أسيوي محرف من « زومر » المغني أو الزامر ، وغير ذلك كثير من الأقوال عن الفلاسفة الآخرين .

ولا يريد هرتز أن يقف في الإنصاف عند شعب من الشعوب ولا جنس من الأجناس . لأنه يرى ان الفواصل بين أي شعبين في العالم ليست من البعد والحيلولة بحيث تستعصي على التقارب مع تشابه الأحوال ومؤاتاة الأيام . فهنيبال الزنجي الذي اقتناه بطرس الأكبر ارتقى بذكائه واجتهاده إلى رتبة مهندس في المدفعية وبنى بسيدة من الاشراف ، وكان حفيدهما بوشكين أكبر شعراء الروس وأحد كبار الشعراء في الدنيا ، وسليمان وهو زنجي آخر كان في البلاط النمسوي في القرن الثامن عشر بنى بسيدة شريفة واقترنت بنته بسيد من الأشراف ، وتزوج تاجر من هامبورج بنت سلطان زنجبار فبلغت بأدبها ورجاحة لبها مكانة تغبط عليها في البلاط الالماني وأصبحت صديقة حميمة للامبراطورة فردريك وكتبت لها ترجمة حياتها التي عنوانها « من قصة أميرة عربية » . وقد كان الدم الزنجي يجري في عروق دوماس الكبير ودوماس الصغير كما هو معروف .

يقول هرتز : « لا ترى احداً يزعم أن هناك فجوة لا تعبر بين الحمص الأحمر والحمص الأزرق أو بين الحصان الابيض والحصان الاسمر . أما في بني الانسان فالفرق اليسير — بالغاً ما بلغ من التفاهة — كاف لأن ينشيء من الاوهام الجنسية والعصبيات الشعبية أسخفها وأنآها عن الحقيقة . وما الفرق هنا مع هذا إلا اختلاف في الدرجة لا في الجوهر . فقد يرينا المجهر أن الفروق الكثيرة بين ألوان بني الانسان إنما هي فروق في درجات التجمع والتوزع في مادة صبغة واحدة متماثلة في الجميع » .

كلام إذا رجعنا به إلى الاسانيد والبينات فهو أقوى سنداً وأثبت بينة من كلام المغرقين في تمجيد الاوربيين وتفضيلهم على جميع الشعوب ، وإذا رجعنا به إلى الهوى فهو أقرب إلى هوانا وأولى باصغائنا من كلام أولئك المغرقين .

فلا وقائع التاريخ ولا مباحث العلم ولا مشاهدات العيان تؤيد دعوى العنصريين الذين يستخلصون من النوع البشري كله نخبةً واحدة ويفردونها بأفضل المزايا وأشرف الاخلاق بين السلالات الانسانية .

ولكننا نتجاوز الحد المأمون اذا تجاوزنا هذه الحقيقة الى ما وراءها ، فكل ما هو محقق في صدد المفاخر العنصرية أن العلم لا يؤيد الامتياز المطلق الذي يدعيه العنصريون لبعض السلالات ، ولكنه لا ينفي وجود الاختلاف بين العناصر ، ولا توارث الخصائص الجسدية وما يتعلق بها من الخصال النفسية . فهذه الفروق موجودة يزداد ظهورها في بعض الافراد وينقص في آخرين ولكنها لا تبطل ولا يتأتى لنا أن نتجاهلها ونتجاوز عنها إلا اذا تجاوزنا العيان وأغضينا عن المحسوس الماثل لجميع الاذهان .

وقد يوجد من العنصرين المختلفين شخصان يتشابهان وتصعب التفرقة بينهما على الباحث المحقق فضلاً عن الناظر في عرض الطريق . ولكن التشابه حيناً لا يمنع الاختلاف في جميع الاحيان ، ولو ذهبنا نبطل المخالفة بين الانواع كلما وُجدت المشابهة بينها لأمكن إنكار الفارق بين الانسان والحيوان على هذا القياس ، فاذا قيل ان الحيوان يمشي على أربع أمكن ان يقال كذلك ان بعض الانسان يمشي على أربع ، وإذا قيل إن الحيوان أعجم أمكن ان يقال كذلك إن بعض الانسان أبكم وإن بعض الطير ينطق كما ينطق الانسان ، وإذا قيل إن الحيوان مسلوب العقل والتفكير أمكن أن يشار إلى افراد من الناس لا يعقلون ولا يفكرون ، واذا قيل ان الانسان والحيوان لا يتناسلان أمكن ان يقال إن الكلب حيوان والهر حيوان وهما لا يتناسلان .

فوجود المشابهة في بعض الأفراد لا ينفي المخالفة في عامة الأفراد .. وقد يتعذر تعريف الفارق الحاسم بلغة العلم المقرر ولكنه مع ذلك يبقى فارقاً حاسماً إلى ان يوجد التعريف .

والحدُّ المأمون الذي لا نريد ان نتجاوزه في هذا الصدد هو ما أسلفناه

من أن الدعوى التي تفرد بعض العناصر بأفضل المزايا وأشرف الأخلاق هي دعوى يعوزها الدليل القاطع من وقائع التاريخ ومباحث العلم ومشاهدات العيان . أما الاختلاف بين خصائص الأجناس فهو موجود لا شك فيه وإن تفاوتت درجات ظهوره في بعض الافراد .

فمن المشاهدات — ومن البديهات معاً — أن العزلة في النسب وفي التعرض للمناخ والبيئة وأحوال المعيشة وعادات الاجتماع تعقب العزلة في الصفات الجسدية والخلائق النفسية على السواء .

ومن المشاهدات — ومن البديهات معاً — أن الشعب الذي يقضي عشرة آلاف سنة ولاءً في مكافحة العوارض الجوية والاحتيال على موانع الطبيعة والتأهب للمفاجآت من جيرانه ومن طوارق الأرض والماء والسماء لا يشبه شعباً قضى مثل تلك الدهور في الدعة أو في التعويل على المصادفات وهو معفى من الحيلة والجهد في صراع الحياة .

وقد أظهر العلم الحديث أن التوارث في الخلق والخلق منوط بالناسلات Genes التي توجد في خلايا الذكور والإناث ، وان هذه الناسلات تتقارب في أفراد القبيل الواحد كما تتقارب في أفراد الأسرة الواحدة.ولكننا لا نعرف اليوم على وجه التحقيق كم من الزمن يكفي لتحويل العوارض التي تنشأ من البيئة والمعيشة إلى موروثات تستقر في تكوين الناسلات وتنتقل من الآباء إلى الأبناء ، ولا نعرف على وجه التحقيق هل ما يوجد الآن من اختلاف الناسلات وليد الاستمرار الطويل في عوارض البيئة والمعيشة أو هو وليد أصل آخر من أصول الاختلاف في التكوين .

والذي يلوح لنا من المشاهدة المحسوسة ، ونعتقد أن العلم وشيك أن يمثله في تجربة من التجارب المقررة — أن فراسة الوجه الانساني تدل على كثير ، وأن هذه الدلالة مرتبطة أوثق الارتباط بالأعصاب ثم بالعظام .

فأنت لا تخطىء تاريخ الأمة كلها إذا نظرت إلى وجوه أبنائها ، ولا

يفوتك أن تعلم ان هذا الوجه السهل الذي تغلب فيه ملامح اللحم والدم على ملامح الأعصاب والعظام هو وجه أناس مارسوا في ماضيهم قليلاً من الكفاح وقليلاً من التجارب وقليلاً من حوافز النفوس ، وان ذلك الوجه الحازم الذي يلفتك إلى متانة الأعصاب والعظام قبل ان يلفتك إلى بضاضة اللحم والدم هو وجه أناس ثابروا على الاعتزام والجلد ولم يستسلموا لسهولة العيش منذ زمن بعيد ، وليس في وسعنا أن نعلم اليوم كيف تورث هذه الملامح الحازمة في الوجوه ، فان اللحم لا ينقلها والدم قد يخزن الناسلات ولكنه لا يخزن القوى التي هي من قبيل الطاقة الكهربائية في الأحياء وغير الأحياء ، فأغلب الظن إذن أنها تنقل في مخازن الأعصاب ثم في مخازن العظام ، ولعلها تنحصر في الأعصاب على نحو لا يصعب على العلم — فيما نقدره — أن يهتدي اليه ، وقد يكون للأعصاب فيها اتصال كبير بالدماغ وسرعة الاستجابة بينه وبين مواطن الانتباه والتنبيه .

ومهما يقل العلم غداً في هذه المسألة فالذي نجزم به منذ الساعة أن وجوه الأمم التي قضت ألوف السنين في الجلد والاعتزام تخالف وجوه الأمم التي تيسرت لها المعيشة طوال تلك السنين ،وان الاستدلال بملامح الوجوه طبيعة في جميع الأحياء ، لأن الحيوان ينظر أول ما ينظر إلى وجه الحيوان الذي يقابله ليعلم هل يسالمه او يناجزه ويتحداه ، وان كانت الوجوه لا تبدي كل ما في النفوس والعقول فهي كذلك لا تخفي كل ما في النفوس والعقول .

وحسبنا الآن ان العلم يثبت كما تثبت المشاهدة أن خصائص الأجناس تورث إلى زمن بعيد ولا سيما حين ينحصر التزاوج في أبناء القبيلة الواحدة أو الوطن الواحد ، وان بعض العادات الاجتماعية التي تنجم من تشابه المعيشة تثبت في الافراد بعد زوال أسبابها إلى حقبة طويلة ، وان الابناء ينقلونها عن الآباء بالقدوة والتلقين وان لم ينقلوها بالوراثة كما تنقل الخصائص التي تتمثل في الناسلات

وليس بنا هنا آن نبسط القول في خصائص الاجناس جميعها ، لأن الجنس الأسود هو الذي يعنينا منها في هذا الكتاب ، وهو من الاجناس التي يسهل تمييزها بالخصائص الموروثة وعادات القدوة والمعيشة ، والاختلاف في وصفه أقل من الاختلاف في وصف غيره من الأجناس البشرية الخمسة أو الثلاثة على قول بعض المتأخرين .

ونحن ننقل هنا شذرات من أوصافه في كتب علم الأجناس وعلم الانسان ونصحح بعضها ونضيف إليه ما نعلمه من خصائص هذا الجنس بالمعاشرة والاختبار .

قال الدكتور سايس Sayce صاحب كتاب أجناس العهد القديم :

« إن الزنجي مستطيل الوجه شديد بروز الفكين مع ضمور في الذقن ، أنفه أفطس واسع المنخرين ، وشفتاه غليظتان ، وأسنانه كبيرة جيدة ، وضرس العقل منها يظهر سريعاً ويذهب أخيراً ، وهو بسيط الجمجمة طويل الذراعين ، وربلات ساقه معيبة ، وقصبة رجله منبسطة مع انقباض في الابهام ، ومادة الصبغة السوداء في الزنجي كما أسلفنا تسري إلى عضلاته وقد تسري إلى دماغه ، وهو بالقياس إلى الأدمغة الأخرى بسيط التلافيف . وميله إلى الفنون قليل ما عدا الموسيقى فهو مغرم بها أشد الغرام ، ومن عاداته أن يتأثر بالشعور دون التفكير . ويقال إن أبناء الزنوج قلما يتقدمون بعد الرابعة عشرة ، ويغلب عليه الكسل والايمان بالخرافة ومن طبعه العطف والوفاء . وهما خصلتان ترغبان من قديم الزمن في اقتنائه واستخدامه فمنذ عصور الفراعنة في الأسرة الأولى كانوا يبعثون الحملات إلى بلاد كوش لاستجلاب العبيد منها ، وكان عدد الزنوج المجلوبين كبيراً على الأغلب في جميع الازمان . ولعل عبد ملك الذي أنقذ حياة النبي أرميا كما جاء في الاصحاح الثاني والثلاثين كان من الزنوج وكذلك الكوشي جد اليهودي الذي جاء ذكره في الاصحاح السادس والثلاثين إذ يقول : (فأرسل كل الرؤساء

إلى باروخ يهودي ابن نثنيا بن شلميا بن كوشي قائلين : الدرج الذي قرأت فيه في آذان الشعب خذه بيدك وتعال) .

« ومع قدم الاتصال بالحضارة المصرية تلك القرون الطوال لم يتعلم الزنجي منها على الارجح غير صهر الحديد ، فجاء عصر الحديد معقباً لعصر الحجر تواً في تاريخ بعض القبائل بغير توسط من عصر الشبه أو النحاس .

« والزنجي مقلد شديد الميل إلى التقليد . ولهذا يلفت النظر أنه لم يظهر قط رغبته في الرسم خلافاً للمصري المثقف ، بل خلافاً لابناء قبائل البوشمان المقيمين بأقصى الجنوب في القارة الافريقية ، فان رسوم الحيوان على الجدران التي تحتمي بها قبائل البوشمان حية ملهمة ومنها ما ليس يخجل الفنان الأوربي إذا نسب إليه ، وهي على الجملة تفضي بنا إلى سؤال عن قدم الجنس الزنجي في التاريخ .

« ففي جنوب مصر تشاهد الصخور الرملية التي تغطيها رسوم الحيوان والانسان ، ومنها الحديث الذي لا شك في حداثته والقديم الذي لا شك كذلك في قدمه ، ويرى على الصخر الواحد شيء من تلك الرسوم ونقوش ترجع إلى الأسرة الخامسة ، فأما النقوش الأخيرة فيبدو عليها تغيير قليل من أثر العوارض الجوية حتى ليخيل إلى الناظر اليها أنها عمل أمس القريب،وأما الرسوم الأولى فيبدو مما أصابها من أثر العوارض الجوية أنها قد مضى عليها ردح طويل من الزمان ، ويرى — عدا هذا — بين الرسوم رسم الزرافة كثير التكرار ، فإذا لاحظنا أن ذلك الأقليم كان أرضاً قاحلة من بداية التاريخ المصري دل حضور الزرافة في رسومها على عهد بعيد القدم كانت فيه تلك الارض بطاحاً مروية بالماء تغطيها أشجار الحسك التي يرعاها الزراف وينتشر رسم النعامة في تلك الرسوم كما ينتشر رسم الزرافة مع اختفاء رسم النعامة من المقاطع الهيروغليفية التي تتمثل فيها الطيور المصرية على وفرة ملحوظة ، وخليق بهذا أن يدلنا على أن النعامة لم تكن معروفة عند مخترعي

الكتابة المصرية الأولى، وأن سير فلا ندرس بتري على حق حين يستخلص من هذا ان الرسوم التي ذكرناها هي بقايا متخلفة مما قبل التاريخ لأسلاف المصريين في وادي النيل ، وتؤيد رأيه كشوف السائحين في جهات أخرى من افريقية الشمالية حيث نشاهد أمثال تلك الرسوم في جنوب تونس ومراكش : وقد استطيع الاهتداء إلى تاريخها التقريبي من حالة واحدة أمكن العثور عليها ، فان الدكتور بونيه Bonnet وجد في وهران ان الأداة الحجرية التي كانت تنقش بها تلك الرسوم ملقاة تحت بعض الصخور التي عليها الرسوم ووجد على مسافة غير بعيدة منها المصنع النيولوتي الذي تصنع فيه تلك الآلات ، ومن ذلك يفهم أن الرسوم ترجع إلى العهد السابق لاستبدال الآلات المعدنية بالآلات الحجرية ، وهو عهد في مصر جد بعيد .

« فمن المحتمل اذن على ما يظهر أنه في العهد الذي كانت فيه الصحراء الكبرى محصبة وكانت دال مصر ذراعاً من البحر الملح كان جيل من الناس قريب إلى جيل البوشمان ينزل في أفريقية الشمالية بين السواحل الأطلسية وشواطىء نهر النيل ، ولعل قبائل الأكاسيين وغيرها من قبائل الأقزام المستديرة الرؤوس في أواسط أفريقية بقية ذلك الجيل القديم ، وقد أجلتهم عن مواطنهم غارات الزنج ولم تزل بهم غارات قبائل البانتو أو الكافرين حتى ألجأتهم إلى جنوب القارة الافريقية ، وقد كانوا جسدياً دون أعدائهم في القوة وإن لم يكونوا دونهم في المزايا الأدبية ، وكانوا على كل ذوي ملكة فنية تعوز الزنج والكافرين على السواء وهي ملكة الرسم ، إذ لم يكن في وسع الزنجي أن يرسم أو يتمم رسوم الصخور في بلاد البوشمان ولا رسوم الصخور في أفريقية الشمالية .

وقد كانت الجبال التي تحد الصحراء من الشمال مسكن قبائل من اللوبيين منذ عهد سحيق في القدم ، وقد وصفنا هذا الجيل آنفاً وبينا أنه ينتمي إلى سلالة مميزة بين سلالات الجنس الأبيض ، وربما شاهدنا اليوم في قرى انجلترة وايرلندة فروعاً من تلك القبائل على حسب الملامح الظاهرة ،

والنموذج العتيق الذي تبديه لنا تلك القبائل تؤكده لنا الآثار المصرية كما تجلوه الملامح البيضاء التي بقيت اه إلى الآن ... » .

*

وكلام الدكتور سايس هذا في أوصاف الجنس الزنجي وتاريخه العريق قليل الخطأ كثير الصواب ، أو هو من أصح ما كتب في هذا الموضوع ، ويزاد عليه من كتب الأجناس الحديثة أو كتب علم الانسان أوصاف أخرى يعد بعضها من قبيل التصحيح وبعضها من قبيل التكملة ، نأتي عليها بإيجاز .

فاللون الاسود في الاجناس السوداء لا يتعمق إلى ما وراء البشرة الظاهرة ثم تتساوى ألوان الجسم الانساني في جميع الاجناس، وانما يأتي السواد من صبغة في الغشاء الذي يلي البشرة الظاهرة ، ولا يسري على ما وراءه إلا عرضاً في قليل من الافراد .

وقد نفهم دلالة الضيق والسعة في تركيب الجمجمة اذا فهمنا أن جمجمة الجنس الابيض بين الاوربيين ليست أوسع الجماجم الانسانية ولا أوسع من جماجم غيرهم من الامم التي لا تجاريهم في الحضارة ، فاذا حسبنا قطر الدماغ من الامام إلى الخلف مائة فنسبة العرض إليه في الزنجي سبعون وفي الاوربي ثمانون وفي الساموي من أبناء الجزر المعروفة غرب المحيط الهادىء خمسة وثمانون .

والزنجي طويل الذراعين تصل ذراعه إلى الركبة في بعض الاحيان ، وشعره الصوفي المعروف هو أوضح العلامات المميزة له بين جميع الاجناس .

أما مزاياه الثقافية فيجب أن نتذكر حين نقابل بين تخلفه وتقدم الأجناس الأخرى أنه قد بلغ من الثقافة كل ما يحتاج إليه ، وان العبرة بالمجهود العقلي الذي يتطلبه فهم أمر من الأمور لا بالطبقة الثقافية التي تحسب لذلك الأمر في سلم الثقافة العامة . فالمعادلات الرياضية العليا أرقى في سلم المعرفة من الجمع

والطرح في الحساب ، ولكن المعادلة الرياضية العليا لا تتطلب من ذهن المهندس المتعلم جهداً أكبر من جهد الرجل الزنجي حين يفهم أن خمسة في خمسة تساوي خمسة وعشرين ، ولا سيما اذا كانت نهاية العدد عنده هي مجموع أصابع اليدين والرجلين ، أي عشرين .

وقد عرف أن الزنجي في قبائل « الوي » التي تقيم عند « سيراليون » قد اخترع نوعاً من الكتابة يوائم حاجاته ولا يرجع إلى أساليب الكتابة الأخرى التي عرفت في بلدان الحضارة .

أما حظه من الفنون فليس بالحظ القليل إذا نظرنا إلى حاجاته الطبيعية ودواعيه الضرورية إلى المعيشة الاجتماعية ولعل « هافلوك إيليس » حين قال : « إنه قد سلك سبيله إلى الحضارة راقصاً » قد لخص ملكاته الفنية أجمل تلخيص .

فالرقص لا يكون بغير نغمات ، والمرح المطبوع في الزنجي هو مبعث وحيه الذي ألهمه الرقص والغناء ، فهو عظيم الولع بالأغاني سريع الأذن إلى التقاطها حين يسمعها مرة أو مرات قليلة ، وينبغي ان نفرق بعض التفرقة بين ملكة الموسيقى وملكة الغناء والإيقاع ؛ لأن الأصوات الموسيقية تبع من التراكب والتنوع مبلغاً يبعدها من الإيقاع الذي يصاحب حركات الأجسام في الرقص الفطري أو الرقص الحديث .

والزنجي يحب الغناء الراقص ويبرع فيه ، وقد عرف به حيث نزل من بلاد العالم في عصور التاريخ ، ومن هذا رقص النوبة الذي علمنا — في سيرة النبي عليه السلام — أنه دعا السيدة عائشة رضي الله عنها إلى التفرج به والنظر إليه ، وكان يعرف بالزفيف لسرعته وتوالي الحركة فيه .

ولما اشتغل الزنجي بالفنون الأخرى كصنع التماثيل كان الإيقاع رائده الأول في هذه الصناعة التي قد يظهر للوهلة الأولى أنها بعيدة عن الغناء . لأن النسب التوقيعية كانت تغلب في التماثيل الزنجية على مشاهدات الحياة ،

وكانت منذ وجدت تنقل الشبه فتحسن نقله ولكن على نمط واحد يقل التصرف فيه ، وهي لا تزال اليوم بحيث وجدت منذ آلاف السنين .

وشيوع التماثيل وصوغ المعادن ونسج الثياب الموشاة بالخطوط والأشكال مع ندرة الرسم في قبائل الزنج أمر لا غرابة فيه ، لأن تقليد الجسم في أبعاده الثلاثة أسهل من تقليده في بعد واحد ، وهو التقليد الذي يوجب التصرف لتمثيل العرض والطول والقرب والبعد حيث لا عرض هناك ولا اقتراب ولا ابتعاد .

ولتماثيلهم — مع غلبة الإيقاع عليها — سمة أخرى تعرف بها بين سائر التماثيل القديمة ، وهي سمة الخوف والتخويف ، وهي كذلك سمة لا غرابة فيها إذا نظرنا الى الأخطار التي تحدق بالزنجي بين الوحوش والحيات وآفات الأرض وصواعق السماء ، ونظرنا إلى الغرض الذي يتوخاه من صنع كثير من تماثيله ، وهو لبس الوجوه والأقنعة التي تخيف أعداءه في ميدان القتال .

ولم تزل فنون القتال عند الزنجي ضرباً من الفن الجميل لأنها تمزج بين الحركة الرياضية وبين الرقص والإيقاع والغناء ، وليس أشبه بمناظر الرياضة البدنية من منظر الزنجي وهو يقذف بالرمح ويوازن بين وضع يديه وكتفيه وبين وضع صدره وكشحه حين يقذف به فيقع حيث أراد ، كأنه قد ركزه في الهدف بيمناه .

والزنجي شجاع مقدام لا يهاب الموت ولا ينكص عن الألم ، وقد تلهبه السياط ويسيل الدم من أهابه الممزق وهو صابر لا يتلوى ولا يتأوه ، لأنه يحسب الفرار من الألم كالفرار من الموت جبناً لا يجمل بالرجال ، وقد عودته مجالدة الوحوش والأفاعي والمحاذرة الدائمة من المتربصين به أن يقسو عليها وأن تقسو عليه ، وان يحتمل القسوة على نفسه كذلك .. وفيه إلى جانب الصبر والشجاعة عناد شديد حين يخشى أن يتهم بالجبن إذا صدع بالأمر فراراً من العذاب .

وهو مصدق وفيّ يؤمن بالعقائد التي توارثها عن أسلافه وأكثرها من قبيل السحر وعبادة الأرواح الخفية ، وتقديس الرُّقى والتعاويذ التي تعصمه من فعل تلك الأرواح .

والوفاء فيه طبيعة لأنه نشأ على طاعة الرئيس في القبيلة وطاعة الساحر الذي يعلمه ويحميه ، وقلما يغدر أو يخون إذا وجد من يكسب ثقته ويشتمل على عطفه وولائه ، وإنما يغدر ويخون إذا توجس وسلبت منه الطمأنينة ، فإنه ليرجع إذن إلى حياة المخاوف والأخطار التي علمته الحذر الدائم بين الوحوش والآفات ، أو بين الأسرار الغوامض التي يتكفل الساحر بجلائها له على ما يعتقد ويروم ، فيعمل في حالة التوجس وسلب الطمأنينة عمل الطريد المطارد أو عمل الهاجم الذي يتوقع الهجوم من كل مكان . فلا يبالي ما يصنع وهو غاضب يائس محروم من العطف والحنان .

وينبغي — قبل مراقبة الزنجي وتسجيل غرائبه — أن ننسى أننا نراقب خلقة غريبة تخالف ما طبعنا عليه ، لأننا حريون ان نستغرب كل شيء إذا نحن توقعنا الغرابة والاستغراب ، فيمر بنا العمل الذي يعمله أبناء لغتنا وعنصرنا دون ان نلتفت إليه ، ثم يمر بنا هذا العمل بعينه حين يعمله الغريب فنسرع إلى التنبيه له ونحسبه من البدوات التي لا تصدر إلا عن أمثال ذلك الغريب ، وكثير من غرائب الزنوج أو غرائب الأجناس عامة لا تحسب من قبيل الغرائب إلا على هذا الاعتبار .

ولو شاء الناس لالتفتوا إلى هذه الملاحظة في الحقائق الاجتماعية الكبيرة كما يلتفتون اليها كل يوم في الحقائق الاجتماعية الصغيرة . فإننا نسمع العامة في كل مكان يتحدثون عن بعض المشّهرين بالسوء فيقولون عنه « إن صوفته حمراء » ويعنون بذلك أنه يفعل الشيء الذي يفعله غيره فسرعان ما يتنبه اليه الناس ويتعقبونه بالذم والتشهير . ويمضي غيره بفعلته دون ان يتنبه أحد إليه فضلاً عن ذمه والتشهير بسمعته ، وهم يستعيرون هذا الوصف من لغة الرعاة الذين يفردون الخروف « الأحمر » بالزجر والعقاب وهو لا يصنع

شيئاً غير الذي يصنعه اخوته في القطيع من ذوات الفراء السود . ولكنه يظهر وهي لا تظهر ، فيعاقب وحده وتنجو هي من الملاحظة والعقاب .

والجنس الأسود له غرائبه الكثيرة في الأخلاق والعادات ، ولكننا إذا بدأنا بالاستغراب أو كان الاستغراب سابقاً للمراقبة كنا خلقاء أن نجد الغرابة حيث لا غرابة على الاطلاق ، وحسبنا أن يخالف الناس في أصول الطباع وهو لا يفعل إلا ما يفعله في مكانه سائر الخلق من أبناء آدم وحواء .

أما مداركه العقلية فمن الواجب قبل الحكم على طاقتها الأصيلة أن نذكر الضرورات المختلفة التي باعدت بينه وبين أجيال البشر الأخرى في مواطن الإدراك ، وهي مباحث العلوم والصناعات .

فليس من قصور العقل وحده أن نجد الزنجي مقصراً عن الاجناس البيضاء والسمراء في علوم الهندسة والفلك والطبيعة والكيمياء ، لأن حياته لم تلجئه قط إلى الملاحة في البحار الواسعة فيعرف ما عرفته الامم الاخرى من حركات الاجرام السماوية ومن علوم الفلك والظواهر الجوية والانواء ، ولم تلجئه قط إلى إقامة الصروح ومزاولة البناء بالاحجار فيعرف من قواعد الهندسة وصناعات النحت والعمارة ما عرفته الامم التي تهيأت لها الوسائل ودفعتها الضرورات إلى التشييد والتعمير ، ولم تلجئه قط إلى توقيت مواعيد الري ولا السيطرة على مجاري الماء فيتعلم الهندسة ويدرك خصائص الجوامد والسوائل ويراقب أسباب الخصب والقحط مراقبة المدير المسئول عن عواقب الاهمال في هذا التدبير ، ولم تلجئه قط إلى الافتنان في طهو الغذاء ونسج الكساء وصوغ الآنية والأدوات التي تستخدم في هذه الاغراض ، ولم تلجئه قط إلى تفتيق الحيلة في حفظ الطعام وادخاره وصيانته من العطب والفساد ، ولا ألجأته إلى تفتيق الحيلة في ابتداع أفانين الحرب من مطاولة للحصار وتنويع للأسلحة واعتماد على أسلوب في الكر والفر غير أساليب الاحياء المحدقة به في الجرأة تارة والاستخفاء تارة أخرى ، لأن أبناء القارة أجمعين

درجوا على نمط واحد في الهجوم والدفاع واستخدام السلاح وتشابهوا في مواقع واحدة يسكنها المغيرون والمدافعون ، فلا حاجة بهم إلى التفوق والاحتيال على مختلف المواقع والاسلحة والاساليب .

وكل ما احتاجوا إليه من ضرورات المعيشة وجدوه سهلاً ميسراً غنياً عن الجهد والحيلة في مواعيده التي تعودوها ، فاذا بقي من وراء ذلك سر يجهلونه أو محذور يتقونه فهنالك الساحر كفيل به يكفيهم مؤنته إذا صدقوه وأطاعوه ، ومن ثم عاشوا حياتهم كلها وقضوا عصور التاريخ وما قبل التاريخ وهم بين الدعة والطمأنينة إلى العيش ، وبين القتال والجلاد ، وبين التصديق والتعوذ بالرقى والطلاسم . ولزموا هذه الحالة أعواماً بعد أعوام ، أحقاباً بعد أحقاب ، بغير حاجة إلى التبديل أو التجديد .

فالامم التي عرفت الهندسة والفلك والعمارة والكيمياء وأدوات البذخ والرفاهة إنما عرفتها لانها لا تستطيع أن تعيش في بيئتها حقبة طويلة بغيرها ، ولو عاشت في القارة الافريقية كما عاش الزنوج لأهملتها ولم تفكر فيها ، ولا شك أن الزنوج لو بدأوا الحياة الاجتماعية حيث بدأها اولئك الاقوام لاخترعوا اختراعهم وفهموا فهمهم وعرفوا معرفتهم وأعادوا سيرتهم بغير فارق كبير في جوهر الامور .

أما الطب ومداواة الامراض فكل ما حذقه الانسان الفطري بمعزل عن العلوم الاخرى فقد حذقه السود وبرعوا فيه ، ولم تفتهم خاصة لازمة لهم من خواص العشب والنبات أو خواص الإيحاء والتأثير بالعقيدة والتنويم .

ونحن لا نعني بهذه المقابلة بين ضرورات السود وضرورات غيرهم من أجناس البشر أن الفرق بينهم وبين تلك الأجناس معدوم او قريب التحصيل والاستدراك ، ولكننا نعني انه يرجع إلى اسباب تجوز عليهم كما تجوز على غيرهم ، فهم وسائر البشر في أصولها سواء .

ولو نظرنا إلى النصيب الذي تيسر لهم من الثقافة الادبية فحصلوه وأجادوه

لعلمنا أنهم حريون أن يبلغوا بالعطف والمعاملة الحسنة شأواً محموداً في مجال الآداب والعلوم ، فقد نبغ منهم في العربية شعراء معدودون من طراز عنترة وسحيم عبد بني الحسحاس ونصيب والأغربة المشهورين الذين أجادوا الحماسة كما أجادوا الغزل والنسيب ، وبين غزلهم والاغاني المرقصة التي عكف عليها السود من آلاف السنين صلةٌ قريبة لا تصعب النقلة فيها ، ولكن الطبقة الفنية — والنفسية — التي ارتفعوا إليها في ذلك الغزل تدل على أن الآباد الطوال التي قضوها في المعيشة الآبدة لا تحجبهم عن الظرف الاجتماعي إذا وجدوا السبيل اليه ، وما احسب شاعراً من شعراء الحضارة يترفع عن توقيع هذه الابيات التي نظمها سحيم لمعشوقة مريضة فقال :

ماذا يريد السقام من قمر ... كلُّ جمال لوجهه تبع
ما يرتجي ؟ خاب ! من محاسنها ... أما له في القباح متسع ؟
غيَّر من لونها وصفّرها ... فارتد فيه الجمال ، والبدع
لو كان يبغي الفداء قلت له ... ها أنا دون الحبيب يا وجع

ففي هذه الابيات من روح الفكاهة ودعابة الظرف والفطنة إلى محاسن الملاحة المريضة والخبرة بتدليل النساء غير قليل .

* * *

ويبدو لنا أن فوارق الإدراك لم تضلل العقول في أمر الجنس الأسود كما ضللها ذلك اللون الماثل للنظر قبل مثول الفوارق العقلية والخلقية للبصائر والأفكار ، فعاملتهم الأمم منذ أقدم العصور معاملة لا هوادة فيها ، وانطلق النخاسون في طريق البحر الأحمر وبحر الهند ونهر النيل يحملونهم إلى بلاد العرب وما بين النهرين كما يحملونهم إلى مصر واليونان والرومان ، ولم تكد الدنيا الجديدة تنكشف لأبناء الدنيا القديمة حتى شاطرتها في هذا السباء الذي بدأت فيه أقدم الأمم من ألوف السنين ، ولعل فضائل هذا الجنس — وفي مقدمتها الوفاء والصبر والقناعة — كانت أسرع من نقائصه في الجناية

عليه ، ولهذا تمادى النخاسون في نقـــل السود إلى امريكا وانقطعوا عن نقل الهنود الحمر إلى اوربا بعد سنوات قليلة ، لإخفاق التجربة وضياع الأمل في صلاح هؤلاء الهنود « للتطبيع » والعمل المفيد .

وخلاصة ما يقال في تاريخ الجنس الاسود إنه جنس قديم معرق في القدم يوغل في أصوله إلى ما قبل التاريخ بزمن بعيد .

وإنه جنس قد وقف به النماء عند حدود الفطرة الاولى لأن معيشتـــه في القارة الافريقية لم تلجئه إلى كشف العلوم وتعمير المدن واختراع الصناعات وتدبير وسائل الادخار والحيطة للمستقبل البعيد ، ولكنه عرف كثيراً من الفضائل والملكات التي توائمه في بيئته المستقرة ، لأنه عرف النضال والمرح والإيمان . فعرف الشجاعة والوفاء والصبر على الألم . واستنبط الفنون التي توافق مرحه وايمانه بالمجهول .

وكأنما اتفقت عليه منذ القدم عوادي الاجحاف جميعاً ولم يسعده حظه بباعث واحد من بواعث الانصاف والرعاية ، فاصطلحت عليه أسباب الجشع والاستغلال وغرابة المظهر وقلة الحيلة في الدفاع وسهولة التطبيع والتعويد ، وجعلته هدفاً يسيراً للقناصين والنخاسين الذين يحفزهم الطمع ولا يزعهم عنه وازع من وشائج العطف أو زواجر الأخلاق .

ومضى العهد به على ذلك عصوراً طوالاً بعد عصور طوال إلى عصرنا هذا الذي نحن فيه . فقامت الثورات بعد الثورات باسم الانسان وحقوقه ، واشتعلت في الكرة الارضية حربان عالميتان في النصف الاول من هذا القرن العشرين ولا تزال الكلمة الباقية التي تقال لإنصافه وحماية حوزته أكبر وألزم من الكلمة التي قالتها الحضارة الحديثة إلى الآن .

ففي هذه السنة التي نحن فيها (١٩٤٥) انعقد مؤتمر الجماعات التي تشتغل بالتبشير في الجزر البريطانية ووجه إلى العالم نداء شديداً أهاب فيه بأمم الحضارة إلى محو الفوارق القائمة بين البيض والسود في المستعمرات

وأعلنت لجنة الكنائس البريطانية موافقتها على قرار المؤتمر وهي ترجو معه « أن تنجز الامم المتحالفة وعودها المتكررة بالتسوية بين الالوان والعناصر في فرص التعليم والحياة » .

ولا تزال الفوارق الجنسية قائمة في الولايات المتحدة على تعدد الدعوات فيها إلى المساواة والإعراض عن المزاعم العنصرية التي روّجها خصوم الدولة الامريكية في الحرب العالمية الحاضرة ، ففي الولايات الجنوبية تقوم الفوارق بين البيض والسود بنصوص القوانين والاوامر الحكومية ولا يباح للسود الجلوس مع البيض في المركبات العامة ولا النزول معهم في الخانات والفنادق ، ولا تعليم أبنائهم في المدارس التي يتعلم فيها أبناء البيض، ولما صدر القانون الذي يخول الطفل الاسود حقاً في التعليم كحق الطفل الابيض مع انفصال المدارس والجامعات — تبين من التنفيذ أن المساواة صورة لا حقيقة ، وأن التلميذ الابيض يكلف الدولة في تسع ولايات من ولايات الجنوب نحو تسعة وخمسين ريالاً في السنة ولا تزيد كلفة التلميذ الاسود فيها على تسعة عشر ريالاً على الرغم من نص القانون ، وتبين أن الفارق في ولاية مسيسيبي يتجاوز ذلك كثيراً لأن الدولة تنفق على الطفل الأبيض ريالين وخمسين ريالاً ولا تزيد نفقة الطفل الأسود على سبعة ريالات ونصف ريال .

وقد ألغي في ولايات الشمال معظم القوانين التي تنص على التفرقة بين البيض والسود، ولكن هذه التفرقة ما تزال قائمة بحكم العرف والعادة على نحو لا يقل في صرامته عن صرامة القانون، فلا يرى الاسود نازلاً بفندق من الفنادق الكبيرة أو جالساً في مطعم من المطاعم الفاخرة وإن كان من أصحاب الثراء .

* * *

وإبطاء الحضارة الغربية كل هذا الإبطاء في تقرير مبدأ الانصاف— فضلاً عن تنفيذه — هو المقياس الصادق لسبق الشريعة الاسلامية في هذا المضمار الانساني المتوعر المهجور من قديم الدهور ، فانها قد خلصت إلى أدب الانصاف

والمساواة بين بني الانسان منذ أربعة عشر قرناً بغير ما حافز من المصالح الاقتصادية أو من عادات العرف والأخلاق ، بل خلصت إليه على كره من تلك المصالح وعلى الرغم من تلك العادات ، واجترأت على سلطان المادة الطاغية بسلطان الروح الرفيع ، ولا يحسب الدين ديناً ما لم يكن له سلطان روحي يغلّبه على طغيان المصالح والشهوات .

* * *

وقد كان هذا السلطان الروحي هو السلطان الذي أذعن له السادة والعبيد عند ظهور الدعوة الاسلامية بين قبائل البادية العربية ، واشتمل على بلال ابن رباح صاحب هذه السيرة وهو مولى ضعيف غريب عن ارض الحجاز ، كما اشتمل على أبي بكر والفاروق وعثمان بن عفان وهم سادات مكة واقطاب قريش .

والذي يعنينا في هذه المقدمة عن تاريخ الأجناس والجنس الأسود خاصة أن نجمع الملتقى بينها وبين صاحب هذه السيرة بلال .

وليس الملتقى بينهما بعسير .

فمن مجمل الصفات المتواترة التي وُصف بها بلال يتراءى لنا أنه قريب الملتقى بخصائص الجنس الأسود التي أجملناها في هذه الصفحات .

ولا نحب ان نقول ان الذي يتصف بتلك الصفات لن يكون حتماً لزاماً إلا من الجنس الأسود بخصائصه المعلومة ، فلا يزال من الجائز جداً أن يكون بلال على تلك الصفة — فيما عدا اللون — ولا يكون من القبائل الأفريقية السوداء ، ولكن الذي يقال ولا يتجاوز حد الصحة في المقال إنه لو لم يكن كذلك لكان هذا من غرائب المصادفات ، ولا داعية عندنا الآن لتقدير تلك المصادفات .

فلو لم يكن بلال أسود الإهاب لكانت في صفاته النفسية علامات لا

تستغرب في الاجناس السوداء لأنها من خصائصها المميزة التي تبرز فيها عند مراقبتها على الإجمال ، ومنها حب الإيقاع الموسيقي وسليقة الإيمان والتضحية والعناد والصبر على عذاب الجسد والوفاء لمن يستولي منه على مكان الثقـة والاعجاب .

ولكن الجنس الاسود لا يحتويه كله على ما يظهر من بعض صفاته الجسدية فيما عدا لون السواد ، فلم يوصف بالفطس ولا بغلظ الشفتين ولا بالشعر المنقبض المتصوف الذي خص به الزنوج ، والذين يُشاهَدون على هذا التكوين بين أمم أفريقية الشرقية كثيرون حتى هذه الأيام ، وتحقيق تاريخهم يدل على امتزاج قديم بالأجناس السامية أو بالعربية منهـا على التخصيص ، لأن رحلات العرب إلى سواحل افريقية الشرقية قديمة قبل الاسلام بزمن بعيد .

ومن علماء الأجناس من يربط بين جلة الاحباش وجلة العرب — ولا سيما اليمانية — برباط وثيق ، لان عبور أهل اليمن إلى الحبشة وعبور أهل الحبشة إلى اليمن ميسران معهودان من أقدم العصور .

وقد قيل في تاريخ بلال انه من الموالي المولدين بمكة أو بالسراة اليمانية ، فأصدق ما يقال فيه إنه من سلالة زنجية سامية ، وأنه على أقرب ما يكون الزنج من خلائق العرب أو المستعمرين .

* * *

العرب والأجناس

ألممنا في فصل سابق بأقوال بعض العلماء في مسألة العنصر وفوارق الأجناس ، فأياً كان قول العلم في هذه العصبية العنصرية – أو الجنسية – فالقول الذي لا ريب فيه إن هناك شيئين مختلفين يدوران حول هذه العصبية ، ويلتبسان في بعض الأحوال فتجب التفرقة بينهما : وهما المفاخرة الجنسية والعداوة الجنسية .

فقد تكون مفاخرة جنسية ولا عداوة .

وقد تكون عداوة جنسية ولا مفاخرة .

لأن المفاخرة طبيعة الجماعات حيث كانت من قديم أزمانها ، وقد توجد المفاخرة في الأمة الواحدة بين أهل الحضر وأهل القرى ، أو بين أبناء الشمال وأبناء الجنوب ، وقد تتفاخر البطون من القبيلة الواحدة ولا تتعادى ، وقد تتعادى ولا تتفاخر ، وقد تتفاخر وتتعادى في آن ، وهي من جنس واحد وقبيلة واحدة .

وعندنا في مصر مفاخرات كثيرة بين أبناء القاهرة وأبناء الاسكندرية ، وبين أبناء الصعيد وأبناء الريف ، ومفاخرات أخرى حول اللهجات والأذواق والأطعمة لا تتجاوز الفكاهة الى الجد في عامة أوقاتها .

ومثلها متكرر يشاهد بين أبناء الأقاليم الانجليزية أو الفرنسية أو الايطالية

أو الألمانية ، وحيثما تعددت الجماعات في صقع واحد ولو من أرومة واحدة.

وقد تتجاور العناصر ألوف السنين ولا تتجاوز المنافسة بينها حدود المفاخرة اللسانية والمنافرة الكلامية ، ولكنها تتجاوز المفاخرة العنصرية إلى العداء العنصري كلما اندفعت إلى التنازع بينها على مغنم واحد لا يتأتى لإحداها بغير القضاء على الأخرى أو إذلالها ، ويستحكم العداء بينها على الزمن إذا تداولت بينها الذحول والغارات فلا يهمها المغنم كما يهمها الثأر والانتقام .

والعرب قد عاشت في جزيرتها بمأمن من سطوة جيرانها إلا من أطراف الجزيرة ، حيث لا يبلغ النزاع بينهم وبين أولئك الجيران مبلغ الإبادة والاستئصال .

وعاشوا ثمة وهم يحسون مكان جيرانهم ويحس جيرانهُم مكانهم . فوُجدت بينهم أسباب المفاخرة ولم توجد بينهم أسباب العداء اللدود .

وأملى التاريخ على العرب وجه المفاخرة إملاء لا اختيار لهم فيه .

فقد كان جيرانهم الفرس والروم والأحباش أصحاب ثروة ودولة ومعاش ومتاع ، وكانوا يعيّرون جيرانهم العرب شظف العيش وسوء الطعام والكساء ، وكان العرب لا يجهلون حظ هاتيك الدول من الجاه والترف وغزارة الأمواه والأزواد ، فإذا فاخروهم تركوا المفاخرة بطعام أمتع من طعامهم وكساء أنفس من كسائهم وحطام أوفر من حطامهم ، ورجعوا إلى فخرهم الذي يملكونه ولا يهابون المقالة فيه ، وهو فخر الفصاحة وعراقة الأحساب والأعراض .

فهؤلاء كلهم عند العرب أعاجم !

وهؤلاء كلهم عند العرب أخلاط لا حساب عندها للحسب العريق .

وقد رضوا عن أنفسهم بهذا الفخر واستطاعوا المقالة فيه ، ولم ينشب بينهم وبين مفاخريهم من العناصر الأخرى قتال طويل يبيدون فيه أو يبادون .

فوقفوا بالمفاخرة دون اللدد في الخصومة الدموية ، ونُقلت عنهم وعن مفاخريهم أحاديثُ مستطرفات في هذا الصدد هي أقرب إلى مساجلات الأدباء في موقف الدعابة منها إلى المنازعات التي تسفك فيها الدماء .

إن فخر الروم والفرس ببياض الالوان قال العرب : تلك وجوه مقشّرة !

وإن فخر الروم والفرس بالخوان الحافل فخر عليهم العرب بالجود وبذل الموجود .

وساجلوا وسوجلوا في هذا المجال فأثبتوا بحق أنهم أصحاب فصاحة وأصحاب أعراق .

لكنهم لم يعرفوا قط عداء العنصر أو عداء الجنس كما عرفه البيض والحمر في القارة الامريكية ، أو كما عرفه الاوربيون والأصلاء في القارة الأستّرالية أو كما عرفه السلافيون والتيوتون في أوربا الشرقية،أو كما عرفه الاسرائيليون والكنعانيون أو عرفه المغاربة والأسبان في زمن من الأزمان .

وإذا سمعت الزراية بالعبيد على لسان العربي فآخر شيء يتبادر إلى الذهن أنهم يقصدون عداء الألوان والأجناس ، أو يخصون اللون الأسود بذلك الازدراء أو ذلك العداء .

فقد غلبت على بعض العرب أنفسهم سمرةٌ تضرب شديداً إلى السواد ، وكان من سادتهم مَن وُصف بحلكة اللون وشابه الزنج بالأهاب الخشن والبشرة الفاحمة .

فإذا قالوا « العبد » فهم لا يقصدون الزنجي ولا يخصّون سواد اللون بالمهانة ، ولكنهم يقصدون كل أسير لم يفكّ إساره وكل جليب يباع ويشرى في الأسواق ، ومنهم صفر الوجوه وبيض الوجوه .

ويقصدون على الأخص كل إنسان مجهول النسب لا ينتمي إلى أصل من أصولهم المشهورة .. إذ لم يكن في وسعهم أن يجهلوا مفخرة النسب وقد

فرضتها عليهم معيشة البادية ومفاخرة الحاضرة مئات السنين .

فلا يُزدرى العبد عندهم لأنه حالك اللون ولا لأنه من جنس يعادونه ويعاديهم ، ولكنه يزدرى لعلة اجتماعية لا لعلة عنصرية ، وقد تزول هذه العلة من حيث لا تزول علل العناصر وعداوات الأجناس .

وجاء زمن على الدولة العربية بعد اتساعها وسطوتها كثر فيه جلب الزنوج السود من القارة الأفريقية إلى فرضات البحار المقاربة للعاصمة العربية ، وأكبرها البصرة في ذلك الحين . فشجر بين الزنج والعرب يومئذ عداء يشبه عداء الأجناس في عصوره الحديثة والقديمة ، ونشبت فتنة الزنج بالبصرة على مثال الفتن الجنسية التي نشهدها اليوم أو توصف لنا في التواريخ ، ولكنها كانت غاشية عابرة ، فذهب أثرها بعد ذهابها بسنوات .

أما في غير تلك الآونة فقد كان الزنج قلة في بوادي الجزيرة وحواضرها ، وكان الرجل العربي يولد الجارية السوداء ويتبنى وليدها اذا نجب وصلحت حاله وظهرت منه الفروسية والفصاحة . وربما كان له عبد يحمد خصاله فيعتقه ويستلحقه ويزوجه بنته أو ذات محرم منه ، ولا يمنعه أن يصنع ذلك عداء الجنس أو بغضاء اللون ، بل يمنعه عرف اجتماعي توجد له النظائر في كل عرف يدور حول الزواج ، ولو بين الأقرباء .

وعلينا أن نحترس كثيراً من نسبة كل عبد أسود يذكر في أيام العرب إلى الزنج أو أبناء حام كما يعرفون في علم الأجناس .

فلعله أن يكون سامياً عبر إلى أفريقية كما عبر الأثيوبيون ، ولعله أن يكون خلاسياً من الساميين والحاميين . ويغلب على الظن أن بلالاً — صاحب السيرة في هذا الكتاب — كان حامياً حبشياً ولم يكن زنجياً خالصاً من السود ، لأن العرب يحسنون وصف الملامح التي تميز الأجناس والسلالات ، ولم يذكروا من أوصاف بلال الفطس ولا الشعر الصوفي « المفلفل » اللذين يميزان معاً سلالة حام .

وقد كان بلال من أضنك العبيد حالاً قبل الإسلام، وكانت حال العبيد هي السوأى بين طبقات المجتمع العربي في الجاهلية ، ظلماً للضعيف لا عداوة للجنس أو كراهة للسواد . فقد كان شأن العبيد كشأن كل صعلوك وضيع النسب قليل العضد غير محسوب له حساب في شريعة الثأر والدية ، وكان العبيد أسوأ حالاً من وضعاء النسب لأنهم لا ينسبون إلى أحد معروف ، ولا يردع الظالم عن ظلمهم شرع ولا عرف ولا عقيدة ، فكانوا ضحايا الظلم والتفرقة في المنازل والأقدار، وكان خلاصهم كله في عقيدة تنكر الظلم لأنه قسوة كما تنكره لأنه ينقض شريعة المساواة .

وقد تكفل الإسلام بهذا الخلاص من جانبيه ، لأنه ينكر ظلم القسوة، وينكر ظلم الإجحاف والمحاباة .

فحق له أن يلبي دعوته ، وأن يدعو اليه .

* * *

الرِّقُّ في الإسلام

كان الايمان بالروح أول خطوة صحيحة في طريق الانسانية أو طريق الحكومة الديمقراطية كما نسميها اليوم .

لأن الايمان بالروح يعلم الانسان التبعة « وإن كل نفس بما كسبت رهينة » وهذا هو أساس التكاليف والحقوق .

ولأنه يوحي إلى العقل عقيدة المساواة بين جميع الناس أمام الله وأمام شريعة الله .

ولو جاء الايمان بالروح سابقاً للرق لامتنع الاعتراف به في الأديان التي تأمر بهذه العقيدة ، لأن بيع الانسان بيع السلع الصماء لا يوافق الإيمان بروح يتساوى فيها السادة والعبيد ، فضلاً عن الايمان بتفضيل روح العبد الصالح على روح السيد الذي يعوزه الصلاح .

ولكن الأديان « الروحية » جاءت بعد ظهور الرق في المجتمع الانساني بالآف السنين ، وكان الرق في تلك الأحقاب الطوال قد امتزج بنظام الثروة ونظام المعاملات فأصبح اقتلاعه دفعة واحدة من أعسر الأمور ، ولم تكن أذواق الناس وأخلاقهم في العصور القديمة قد بلغت من اللطف والتهذيب مبلغ الترفع عن تسخير الآدميين كما يسخرّ الحيوان أو كما تسخر الآلة الصماء . فدارت الأديان « الروحية » حول المشكلة ولم تقابلها وجهاً لوجه في معظم

الأحوال ، ولم تكن للعبيد أنفة تعزف بهم عن هذه المنزلة التي فرضتها عليهم ضرورات الزمان ، ومن كانت لهم الأنفة لم تكن لهم القدرة على التمرد والعصيان وتبديل المصالح والآداب .

ومع هذا لم يكن للمصلحين الدينيين بدٌّ من التوفيق بين عقيدة الروح وإباحة بيع الانسان وشرائه كما تباع الآلات .

فكان من توفيقاتهم في هذا الباب أن العبد عبد بجسده حرٌّ بروحه أمام الله ، وأنه في هذه الدنيا عبد وفي الآخرة سيد يرتفع إلى مراتب القديسين .

وكتب القديس بولس إلى أهل (أفسس) رسالة أوصى فيها العبيد بالإخلاص في الولاء لساداتهم كما يخلصون في الولاء للسيد المسيح ، وكان الحواري بطرس يأمر العبيد بهذا الأمر ويلزمهم الخشية من سادتهم كأنها أدب من آداب الدين الصحيح ، وجاءت الكنيسة فأقرت نظام الرق واعتمده أحبار رومة في المناشير والعظات ، وأيده توماس الأكويني كبير فلاسفة النساك والقسيسين وتلميذ أرسطو الذي اشتهر بالعلم والتقوى في القرن الثالث عشر للمسيح . فاستند إلى أقوال رسل المسيحية كما استند إلى أقوال أرسطو في كتابه عن السياسة ، لأن أرسطو اعتبر الأرقاء في حكم الآلات التي تراد لعمل من الأعمال ولم ير في نظام الرق شيئاً يعاب ، فما دام في الناس من يعجز عن كفالة نفسه فعليه أن يعيش في كفالة سواه ، وتبعه تلميذه الناسك لأن الزهد في الحياة يجعل القناعة بأبخس المنازل أمراً سائغاً لا غضاضة فيه ، بل لعله من المأثور المحمود عند من يرفضون الحياة .. وقد واجه الرقّ بهذا المزاج فحسبه من الحرمان الذي لا يناقض الخطة المثلى في آداب الديانة وفضائل السلوك ، وسهل عليه أن يجد للرق مصداقاً من أسرار الضرورات وتقييد بعض الحركات ببعض في نواميس الطبيعة وخصائص التكوين .

ومن أعجب العجب أن البلاد التي شاع فيها تحريم قتل الحيوان حتى ما يؤذي منه ولا يفيد ــ قد بلغت عقائدها القسوة القصوى في معاملة الأرقاء ،

فإن أناساً من براهمة الهند كانوا يضربون الذلة على العبيد المعروفين باسم السودرا، لأنهم خُلقوا من أسفل أعضاء الإله فلاتبرحهم وصمة الذل ما لبسوا ثوب الحياة ، فأيسر ما يعاقب به الرقيق على إغضاب سادته أن يُسَلّ لسانه أو يقتل بعد التمثيل به على مشهد من الناس .

وكانت الحضارة تلطف من هذه القسوة بعض التلطيف فتجري العادة أحياناً في الأمم المتحضرة بالشفقة على العبيد والجواري وتخويلهم بعض حقوق المساواة . فكان المصريون الأقدمون يجيزون معاملة الإماء كما تعامل الزوجات الحرائر ، ويحكمون بالقتل على من يقتل الرقيق في غير جريرة ، ويُلزمون الرجل في موقف الحساب بعد الموت أن يبرىء ذمته من إيذاء العبيد والاساءة اليهم ، ويجعلون هذا الابراء جوازاً لا مناص منه إلى حظيرة الأرباب .

ومن مصر أخذ العبرانيون تحريم القسوة على العبيد والأجراء لأنهم كثيراً ما كانوا يؤدون في مصر عمل الأجراء إن لم يكن عمل العبيد . فجنحت بهم الرغبة والقدوة إلى انصاف الأرقاء والأحلاس ، وأنكروا الإرهاق كما أنكروا الضرب والإيذاء في معاملة الأجراء .

وقال هيرودوت إن الفرس في زمانه كانوا يمنعون عقاب العبد على الهفوة الأولى ، ولكنهم يبيحون للسيّد ان يقتل عبده او يعذبه إذا أذنب مرة بعد أخرى . وكانت شريعة الفرس ارفق بالعبد على الجملة من شرائع اليونان والرومان ، لأنها كانت ترخص له في الراحة وتكره العدوان عليه ، وربما سرى اليهم أدب الشريعة هذا من عادة التسري واقتناء الزوجات من الاماء ، ووافق ذلك معيشة الحضارة في المدن الكبيرة وقلة الحاجة إلى إرهاق الأرقاء لتحصيل ضرورات المعيشة ، ولعلهم قد استفادوا ايضاً من سنن العبرانيين في معاملة الرقيق ، لطول العشرة بين اليهود وبين شعوب النهرين .

ولم تسلم أمة قط من اقرار نظام الرق وازدراء العبيد من اختلاف عناصر الأمم وأجناسها .

فما قيل عن فضل أمم الشمال الأوربية على أمم الجنوب كافةً في هذه المسألة خطأ ظاهر في البحث عن حقائق الأسباب ، لأن أمم الشمال لم تخل من نظام الرق سمواً في الأخلاق أو تفرداً بالصفات الانسانية التي تُدّعى للشماليين في الزمن الأخير ، ولكنها خلت من نظام الرق لأن اقتناء الأرقاء في تلك البلاد الباردة يكلفها أكثر مما يحَطّ عنها ، فهي فضيلة الضرورات لا فضيلة الأخلاق ، وهي مزية البقاع لا مزية عناصر الشمال . وما زال الرقيق محروماً من المساواة الانسانية إلى هذا اليوم في الأمم الاوربية والامريكية. وكانت القوانين إلى القرن الثامن عشر تجيز قتل العبيد في المستعمرات إذا هربوا من الاسر أو أغلظوا لمواليهم في الكلام ، ولم يكن على السيد الذي يقتل مولاه إرهاقاً أو تعذيباً عقابٌ منصوص عليه .

تلك كانت حالة الرقيق جملةً في القرون الاولى وفي القرون الحديثة ، وقبل ظهور الاديان « الروحية » وبعد ظهور تلك الاديان .

ومن الاسباب التي تذكر لتحسين أحوال الارقاء ومنع الاتجار بهم في العصر الحديث أن اقتناء العبيد كان ييسر لبعض البلاد أن تنافس البلاد التي تستخدم العمال الاحرار في الصناعة وتبذل لهم أجراً لا يطمع العبيد السود في مثله ، وكان اقتناء العبيد يضير أولئك العمال الاحرار في الوقت الذي عرفوا فيه حقوقهم ونهضوا للمطالبة بها ، وساعدهم على المطالبة بها أصحابُ الاموال الذين لا يستفيدون من تسخير الأرقاء .

ومهما يكن الرأي في حقيقة هذه الاسباب فهي مما يدخل في التقدير عند بيان فضل الاسلام وسبقه للحضارة الحديثة إلى أرفع الآداب وأكرمها في مسألة الرق ومعاملة الأرقاء .

فلم تكن معاملة الارقاء على الوجه الذي أمر به الاسلام مصلحة اقتصادية على فرض من هذه الفروض ، بل ربما كان من المصلحة إبقاء الرق على نظامه الأول ليفرغ الارقاء لاعمال المعيشة والسخرة ويفرغ الاحرار لأعمال الجهاد والرئاسة .

كذلك لا يقال ان الإسلام تهيّب النظام القائم في المجتمعات القديمة كما تهيبتها الاديان الروحية فدارت حول المشكلة ولم تقابلها وجهاً لوجه في معظم الاحوال ، ولم تأخذ بأيدي العبيد الا بما كانت تفرضه عليهم من الطاعة وتزجيه اليهم من العزاء المنظور في الدار الآخرة .

فلا يقال ان الإسلام قد منع رق المسلم وقصر الرق على الاسرى وأوجب لهم حسن المعاملة لأنه كان ديناً يؤمن بالروح ، ولا توافق بين الايمان بالروح وبين بيع الآدميين كما يباع الحيوان . فان الواقع أن أدياناً « روحية » كثيرة قد وقفت بين الأمرين على نحو من التوفيق .

ولا يقال ان الاسلام قد جاء بآداب الرفق بالرقيق بعد ذهاب الحاجة إلى تسخير الارقاء وتبدّل الأحوال الاقتصادية في مجتمعات المشرق والمغرب .. فان الواقع أن هذه الحاجة ظلت قائمة في البلاد الشرقية والغربية إلى زمن يذكره الأحياء ، ولا تزال قائمة حتى اليوم في بعض الأنحاء .

فإنما هو اذن فضل خالص من علل المادة ودواعي الثروة الاجتماعية ، وانما هو نصر صريح في عالم الروح يحسب للدين الاسلامي وحده بين سائر الأديان .

* * *

كان في وسع الدولة الاسلامية أن تمر بنظام الرق في العالم العربي وفي العالم بأسره ثم تتركه حيث كان فلا يحسب عليها ذلك — في حينها — إغضاء معيباً تسأل عنه ، لأن مسألة الرق لم تبلغ يومئذ ان تكون من المسائل الناطقة التي يؤوّل السكوت عنها بالاغضاء أو المداراة .

ومن المحقق أن الدعوة الاسلامية لم تكن تخسر شيئاً لو أنها أهملت مسألة الرق في أول ظهورها ! لأن المسلمين على نقيض ذلك كانوا يتجشمون خسارة لا يطيقونها في إعتاق العبيد والإماء ، كلما ساءت حالهم عند سادتهم

بدخولهم في دين الاسلام . وكان أبو قحافة يمثّل الرأي الحصيف وهو يأخذ على ابنه الصدّيق بذل الكثير في سبيل رهط من الضعاف المهازيل يتقاون كاهله ولا يغنون عنه أقل غناء .

فلم يكن ثمة من باعث إلى النظر في إنصاف الأرقاء وهدم نظام الرق القديم غير باعث الفضيلة المثالية التي تعنى بطلب الكمال ولا تحفل بالمصلحة المادية أقل احتفال .

وقد تبدل نظام الرق على يد الاسلام في أوسع نطاق للتبديل أو على أعمق أساس يبنى عليه كل تبديل في أمثال هذه الانظمة الاجتماعية ، لأنه عمد إلى أساس التفرقة بين الأجناس والأقوام فمحاه أو عفى عليه . وعلّم الناس أن المؤمنين إخوة وأنه لا فضل لمسلم على مسلم بغير التقوى ، وألقى اليهم في أحاديث النبي القدسية أن « الجنة لمن أطاعني ولو كان عبداً حبشياً والنار لمن عصاني ولو كان شريفاً قرشياً » أو كما قال .

وحصر الرق مع هذا في سبب واحد من اسباب الاسترقاق ، وهو الأسر في ميادين الحروب ، فلا يملّك الرجل او المرأة بالنخاسة والاختطاف ، ولا يعد من العبيد إلا من وقع اسيراً في ميـــدان القتال إلى أن يفدي نفسه أو يفديه من يفديه .

وقد مضت مئات السنين بعد ظهور الدعوة الاسلامية فبطل نظام الاسترقاق أو بطلت الحاجة اليه ، ولا يزال الأسر مشروعاً والفداء واجباً ولو بتبادل الأسرى أو بشرط من الشروط التي تقوم مقام الفداء ، ولا يقع في العقل نظام غير هذا النظام ما بقيت الحروب وبقي الأسر والاستئسار مقبولين في شرعة المتحاربين .

ولم تنته عناية الاسلام بمسألة الرق بتضييق نطاقه وحصره في هذا السبب الوحيد من اسباب الاسترقاق ، بل أمر المسلمين بقبول الفداء أو الإعتاق بغير فداء : « فإمَّا مَنّاً بَعْدُ وَإِمَّا فِدَاءً حَتَّى تَضَعَ الحَرْبُ أَوْزَارَهَا » .

واوجب على المسلم ان يقبل من الأسير تنجيم فديته حتى يستوفيها على سنة الرفق والسماحة : « والَّذِينَ يَبْتَغُونَ الكِتَابَ مِمَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ فَكَاتِبُوهُمْ إِنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْراً وآتُوهُمْ مِنْ مَالِ اللهِ الَّذِي آتَاكُمْ .. » .

وقد جعل الإعتاق حسنة تكفر عن كثير من السيئات ، وفرضها على الذين يخالفون بعض أحكام الدين كما فرض الصدقات واطعام المساكين ، وجعل وصية الرفق بهم مقرونة بوصية الرفق بالآباء والأقربين : « ... وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَاناً وَبِذِي القُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينَ وَالْجَارِ ذِي القُرْبَى وَالْجَارِ الجُنُبِ والصَّاحِبِ بِالْجَنْبِ وابنِ السَّبِيلِ وما مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ إِنَّ اللهَ لا يُحِبُّ مَنْ كَانَ مُخْتَالاً فَخُوراً » .

وكانت وصية النبي للمسلمين قبيل وفاته « الصلاة وما ملكت ايمانكم » وتكررت منه عليه السلام أحاديثه في هذا المعنى حتى قال في بعض تلك الاحاديث « لقد اوصاني حبيبي جبريل بالرفق بالرقيق حتى ظننت ان الناس لا تستعبد ولا تستخدم » .

وتجاوز الاشفاق على الارقاء من سوء المعاملة إلى الاشفاق عليهم من الكلمة الجارحة فكان عليه السلام يقول : « لا يقل احدكم : عبدي ، أمتي . وليقل فتاي وفتاتي وغلامي » .

أما ضرب الرقيق بغير تأديب محتمل فهو ذنب كفارته العتق ، أو كما قال عليه السلام : « من لطم مملوكه فكفارته عتقه » . فاذا قتله فهو يقتل به في قول اشهر الفقهاء .

وقد فضل الإسلام الزواج بالأمة المؤمنة على الزواج بالحرة المشركة ، وأوجب عتق الأمة متى ولدت للرجل واعترف بأبنائها .

وقد أعتق النبي عليه السلام مملوكه زيداً وزوّجه بعقيلة حرة من عقيلات بيته ، وتبناه وأقام ابنه أسامة من بعده والياً على جيش الشام وهو دون العشرين ، وفي الجيش نخبة من أجلاء الصحابة منهم عمر بن الخطاب .

وكانت معاملة النبي للأرقاء في ملك يده وفي ملك غيره تفوق سماحة هذه الوصايا على فرط ما فيها من السماحة بالقياس إلى آداب ذلك العصر، وإلى آداب جميع العصور، فكان يؤاكلهم ويلبي دعوتهم إلى الطعام ويقول للمسلمين: «هم إخوانكم وخولكم جعلهم الله تحت أيديكم، فمن كان أخوه تحت يده فليطعمه مما يأكل، ويلبسه مما يلبس، ولا تكلفوهم ما يغلبهم، فإن كلفتموهم فأعينوهم».

وأكرم ما قال في هذا الباب – وكله كريم – «إنما أنا عبد آكل كما يأكل العبد وأجلس كما يجلس العبد».

* * *

هذه الوصايا والمعاملات كانت كلها فيض الآداب العلوية الرفيعة ولم يكن شيء منها قط من إملاء الضرورات الاجتماعية أو المصالح الاقتصادية، بل هي ولا شك تقررت على الرغم من ضرورات الاجتماع ومصالح الاقتصاد التي كانت غالبة في تلك الآونة على الجزيرة العربية وعلى غيرها من أرجاء العالم المعمور.

وهي لم تتقرر – بالبداهة – دفعة واحدة في مستهل الدعوة الاسلامية ولا تقررت كلها أو بعضها قبل إسلام بلال وزملائه من الموالي والإماء. فقد تتابعت الأحكام الاسلامية في معاملة الرقيق على أثر قيام الحرب بين المسلمين والمشركين، وبعد ظهور حالة الأسرى والمستأسرين في معارك الفريقين.

فمن الخطأ أن يقال إن أحكام الرقيق هي التي جلبت إلى الاسلام من دخل فيه من الموالي والإماء أو إنهم سيقوا إلى الدخول فيه طلباً لراحة الجسد وهرباً من مظالم السادة ومتاعب التسخير.

ان يكن هناك أثر للمعاملة الحسنة في اقبال بلال وزملائه على الاسلام فهو على التحقيق أثر المثال الرفيع الذي تمثلوه في معاملة النبي عليه السلام

لصحبه ومواليه ولكل ضعيف منتمٍ اليه. ولم يكن سراً مجهولاً بينهم ان النبي عليه السلام أحسن إلى مولاه زيد بن حارثة فأنساه أباه وذويه ، وجاءه هؤلاء يفتدونه ويعرضون عليه الحرية والعودة إلى احضان أهله فآثر صحبة النبي على نعمة الحرية بين معشره الأولين وفي ظلال وطنه الذي فارقه مكرهاً منذ سنين .

فهذا المثال قد كان لهولا ريب أثره البالغ في تحبيب الاسلام ونبي الاسلام إلى الأرقاء وغير الأرقاء .

ولكنّ طلب الإسلام عند اولئك الأرقاء لم يكن طلباً لراحة الجسد ولا مفاضلة بين سيد وسيد أو معيشة ومعيشة .

فإننا لا نعرف في تواريخ العقائد الدينية أن أحداً يقبل على الدين مساومة على الراحة ورفاهة العيش ، ولم يكن طلاب الراحة ورفاهة العيش قط أعوان عقيدة ناشئة في عهدها الاول وهي مقدمة على المغامرة والجهاد تتطاب الضحايا وتفرض على الاتباع ألوان الفداء .

وفي حالة بلال وزملائه خاصة لم يكن الاسلام راحة لهم ولا انتقالاً من جانب الخطر إلى جانب السلامة والامان ، بل كان على نقيض ذلك انتقالاً من جانب السلامة والامان إلى جانب الخطر الذي لا يدفعه عنهم دافع . لأن العربي يحميه من الضيم آله وعشيرته ولا يبلغ الأمر مبلغ الخطر على حياته وماله إلا في قتال صريح بعد يأسٍ من الوفاق ، ولا حاجة إلى قتال صريح أو غير صريح لإهدار دم العبد المملوك المرهون بمشيئة مولاه ، وأهون من ذلك عند مولاه تعذيبه وإعناته وحرمانه الراحة وضرورات الحياة .

كذلك لم يكن طلب الاسلام عند هؤلاء الأرقاء طلباً للنقلة من رق ثقيل إلى رق خفيف ، أو من سيد قاسٍ إلى سيد رحيم لأن الاسلام في مبدأ أمره لم يكن ليخرجهم من ربقة الأسر عند سادتهم الأقوياء ، ولم يكن العتق جزءاً موعوداً لمن يُغضب سيده المشرك ويُرضي النبيّ عليه السلام بالدخول في دينه .

فإنما جاء العتق مصادفة واتفاقاً بعد تشديد العذاب على أولئك الضعفاء المساكين ، وقد كان العذاب يقيناً لا شك فيه ، ولم تكن النجاة إلا وعداً مأمولاً لم تبد تباشيره للعيان .

فمن الخطأ كما أسلفنا أن يعلل ايمان العبيد والإماء بأحكام الاسلام في معاملة الأرقاء ، أو بالطمع في الراحة والمساومة على حسن المعاملة ، فإنما عرفت تلك الأحكام بعد ابتداء الدعوة الاسلامية بزمن طويل، وانما كان العناء والخطر أول ما يصيب العبد الذي يصبأ عن دين مولاه، وكانت الراحة آخر ما يرجوه من أمل بعيد ، ان سلمت له الحياة .

وما زالت العقائد أكرم على ضمير الانسان من هذه المساومات التي تلازم الأسواق وتعرض في صفقات البيع والشراء ، وما زال قلق النفس هو الباعث لها وطمأنينة النفس هي البغية منها ، وتهون في سبيلها بعد ذلك مطالب العيش وراحة الأجساد .

وآية ذلك أنه لم يؤمن انسان قط لغنيمة تخصه ولا تعم سواه .

انه ليساوم في سوق التجارة على الغنيمة التي تخصه دون غيره ، ولكنه اذا آمن بعقيدة من العقائد التي تتناول الحياة والموت فلا بد من غاية تعمه وتعم غيره على السواء ، ولا بد من الأمل العام الذي يتخطى مصالح الفرد ومساومات الآحاد .

وبلال حين آمن بالاسلام قد آمن حقاً بالدين الذي ينصف العبيد ، ولكنه قد آمن به على السنة التي ترضي الكرامة الانسانية لا على سنة المساومة والمصافقة ، أو هو قد آمن به انساناً كما آمن به السادة الاحرار القادرون على شراء العبيد والإماء .

وأقل ما يقال في تعليل اسلامه انه إعجاب نفس طيبة بنفس عظيمة ، وانه ايثار للخير الكبير على الخير الصغير ، وانه استقامة طبع تهتدي إلى الصراط المستقيم ، وانه شوق إلى الحق الذي يريح النفوس وليس بشوق إلى الرفاهة التي تريح الاجساد .

ومما لا شك فيه أن إرضاء الكرامة بالمساواة بين جميع المسلمين كان أحب إلى أولئك العبيد والاماء من كل راحة يرجونها بعد الدخول في الدين الجديد أيّاً ما كانت الثقة بتحقيق ذلك الرجاء – في أجل قريب أو بعيد .

وقد غبرت القرون على وصايا الإسلام بالرقيق ، وعمل بها من المسلمين من عمل وخالفها من خالف ، واحتال عليها من احتال ، على عهد الناس بجميع الاوامر أو النواهي التي تشرعها العقائد والاديان .

ولكنها سواء روعيت أو خولفت ، قد كانت كسباً عملياً له أثر من النفع الواقع في تاريخ بني الانسان ، وقد بقي لها هذا الاثر إلى أن بطل الاسر وبطل الرق بشتى ذرائعه ودواعيه وارتفعت للحرية الفردية والحرية القومية صيحة لم ترتفع لها قط في زمن من الازمان .

فبعد وصايا الاسلام بألف ومائتي عام ، وفي العصر الذي راحت فيه اوربا تنكر الرق وراح فيه اليونان يطلبون الاستقلال ، نزل بمصر فوج من الاسرى اليونان يزيدون على خمسة آلاف وخمسمائة ووزعهم الولاة على بيوت السراة وذوي الثراء في القاهرة والاسكندرية ، ثم عقد الصلح وقضت شروطه برد الاسرى إلى بلادهم واعتاق من بيع منهم بمال الحكومة المصرية لا بمال الأسير أو بمال ذويه، فآثروا جميعاً البقاء في البيوت التي نزلوا بها نزول العبيد ، ولم يقبل منهم العتق غير اربعمائة أو دون ذاك ، كما جاء في بيان المندوب الانجليزي الذي نيط به تنفيذ تلك الشروط .

ومهما يقل القائلون في تعليل ذلك الإيثار ، فالأمر الذي لا ينكر في هذا المقام ولا ينسى هو : أن أولئك الجند الأوربيين الذين أسروا وهم يعلنون قضية الاستقلال ، ما كانوا ليحمدوا البقاء عند سادتهم المسلمين لو كانت وصايا الاسلام بالأرقاء قد ذهبت ذهاب الكلام في الهواء .

«فالعقائد الكبرى قد تتكلم بلسان الفضائل المثالية في نشأتها الأولى . وقد ينشدها المؤمنون بها حباً للمثال الأعلى وطموحاً إلى الكمال ، ولكنها لا تلبث بعد ذلك ان توزن بالميزان وتشخص للعيان .

نشأة بلال

اتفقت الأقوال على أن بلالاً كان من الحبشة المولدين ، وجاء في وصفه أنه رضي الله عنه كان « آدم شديد الأدمة نحيفاً طُوالاً — أي فيه انحناء — كثير الشعر خفيف العارضين » .

وهي أوصاف تعهد في سلالة المولدين من السود والساميين ، وقد كانوا كثيرين بين الحبشة واليمن من قديم الزمن ، فليست أوصافه المتفق عليها أوصاف الزنج ولا أوصاف أبناء سام ، وسواده وكثرة شعر رأسه مع خلوصه من فطس الانف وتقبض الشعر تدل على أنه مولد من السلالتين . وقد زعم بعضهم أنه كان ينطق السين شيناً على السود ، فنفى الثقات هذا الزعم وأكد نفيهم أنه كان يقيم الاذان وفيه السين والصاد .

ويختلف في مولده فيقال إنه ولد في مكة ويقال إنه ولد في السراة ، وربما رجح القول الاخير لان السراة أقرب إلى اليمن والحبشة ، ولأن بلالاً رضي الله عنه رجع اليها حين فكر في الزواج .

وأرجح الاقوال في سنة مولده أنه ولد قبل الهجرة بنحو ثلاث واربعين سنة ، ثم تختلف الاقوال حتى يبلغ التفاوت بينها زهاء عشر سنين .

وأبوه وأمه معروفان : أبوه يدعى رباحاً وأمه تدعى حمامة ، وكان ينبز بابن السوداء إذا غضب منه غاضب ، ولعل أمه كانت من إماء السراة

أو إماء مكة ، إذا صح أنه لم يولد بالسراة .

ويحسب بعض الإفرنج الذين كتبوا عنه أنه تلقى من أمه كلمات التوحيد كما كان يفهمه المتدينون والمتدينات بالمسيحية من أبناء الحبشة ، وأنه من ثم أسرع إلى تلبية الدعوة المحمدية حين جهر النبي عليه السلام برسالة التوحيد ، وهو حسبان جائز ولكنه بعيد ، لأن الاحباش في ذلك الزمن إنما كانوا يفهمون المسيحية على نحو أقرب إلى الوثنية ، ولا يرحبون برسالة التوحيد المحمدية ذلك الترحيب .

ويذكر لبلال أخ يدعى خالداً ويكنى بأبي رويحة ، والأغلب في الروايات المختلفة أنه كان أخاه في الإسلام على سنة المؤاخاة بين الصحابة التي سنّها النبي عليه السلام . وقيل إن له أختاً تسمى غفرة هي مولاة عمر بن عبدالله مولى غفرة المحدث المصري ، ولا خبر عنها غير ذلك فيما رُوي من أخباره .

وكانت نشأة بلال بمكة في بني جمح من بطون قريش المشهورة .

وفي بني جمح هؤلاء نشأ أبو محذورة أحد الثلاثة المختارين من مؤذني النبي ﷺ ، وهم بلال وأبو محذورة وعمرو بن أم كلثوم .. ولا يُدرى أمِن محض المصادفة أن كانت نشأة اثنين من الثلاثة في بني جمح أم كان لهؤلاء القوم بعض عناية بالصوت والغناء . وإنما المعروف عن القوم أنهم كانوا أصحاب الأزلام والأيسار في الجاهلية وأنهم كانوا من حزب عبد الدار حين شجر الخلف بينه وبين عبد مناف ، فكان بينهم وبين بني عبد مناف خلاف قديم .

واذا كان لنشأة بلال بين هؤلاء القوم أثر مقدور في بغضه لعبادة الجاهلية واقباله على الإسلام فذلك هو اطلاعه بين القوم على أسرار الأزلام والايسار وما يلزمها أحياناً من الغش والتلبيس ، وأن القوم فيهم مجافاة عن الرحمة والنزعة الروحية باعدت بينهم وبين خلائق عبد مناف — جد النبي عليه السلام — منذ القطيعة الاولى بين الاحزاب القرشية : وخليقٌ

بأمثال هؤلاء ألا يألفهم الضعفاء .

ولم يعلم على التحقيق من كانوا سادة بلال وأبيه من بني جمح هؤلاء . فقيل انه كان عند عقيلة من عقائلهم ، وقيل انه كان عند أيتام لأبي جهل ، وقيل انه كان عند أمية بن خلف وبعض ولده . واتفقت الأقوال على أن الصدّيق رضي الله عنه هو الذي استنقذه من أيديهم بعد ما عاينه من تعذيبهم اياه لدخوله في الإسلام . فاشتراه بخمس أواق من الذهب وقيل بسبع أواق وقيل بتسع أواق . وزعموا أن سيده أراد أن ينغص الصفقة على الصديق بعد شرائه فقال له : لو أبيت إلا أوقية لبعناك ! فقال له الصديق : لو أبيتم إلا مائة لاشتريته . ! ! ويزعم بعض الرواة أن الصديق استبدله بغلام له جلد من عبيده ، وهي رواية يشك فيها كثيراً . لأن الصديق لم يكن ليُسلم المشركين رجلاً من أتباعه ليستنقذ به رجلاً غيره ، وأدنى من ذلك وأشبه بخلائق الصديق رضي الله عنه أنه اشتراه بأمر النبي عليه السلام ، وأنه عليه السلام عرض عليه الشركة فيه ليخفف عنه عبء نفقته ونفقة المستضعفين من أمثاله ، فقال له : لقد أعتقته يا رسول الله . وعمل بعد ذلك خازناً له ثم خازناً للنبي ومؤذناً للمسلمين بعد إقامة الأذان .

واستراح بلال بعد عتقه من إيذاء السادة للعبيد ولكنه لم يسترح ولا استراح غيره من إيذاء الأحرار للأحرار ولا سيما المستضعفين الذين لا تحميهم العصبية ولا الخوف من الثأر . فقد كان المشركون يتعقبون المسلمين بكل ما استطاعوا من عنت ومساءة ، واشتدوا في ذلك حتى همّوا بقتل النبي عليه السلام وجمعوا كلمة القبائل على هذه النية ليفرقوا دمه الزكي بينها فلا تقوى هاشم وحدها على محاربتها أو تصمد لعداوتها . فأشفق النبي الكريم على صحبه وأذن لهم في الهجرة قبله ، وكان بلال ممن هاجر إلى المدينة على إيثار منه للبقاء في مكة . فلما وصل النبي عليه السلام وصاحبه الصديق إلى المدينة كانت « أوبأ أرض الله من الحمى » ولكنها أرحم من جيرة المشركين في مكة . ونزل الصديق وعامر بن فهيرة وبلال في

بيت واحد فأصيبوا جميعاً بالحمى – ولعلها الملاريا كما رجحنا في غير هـذا الكتاب – فكان بلال اذا تركته الحمى اضطجع بفناء البيت ثم رفع عقيرته يترنم بصوته الجهوري قائلاً :

ألا ليت شعري هل أبيتن ليلـة
بفخ وحولي إذخر وجليـل
وهل أردن يومـاً مياه مجنة
وهل يبدون لي شامـة وطفيل

وهي مواضع ومنابت بمكة وجوارها تشوقها بلال في العلة لما ابتعد عنها ، وليس أعجب في الوفاء لموطن الصبا من هذا الوفاء ، لأن بلالاً قد لقي عند تلك المواطن والمناسب قسوة في جاهليته وتعذيباً في اسلامه وخطراً على حياته ، ولكنه عاش فيها مع الصبا الأول وعاش فيها مع الإيمان الأول ، فهي حبيبة اليه أثيرة لديه ، وإن لقي الحفاوة والسلامة في الهجرة منها إلى غيرها .

وقد لزم بلال النبي والصديق بالمدينة ومكة وسائر المغازي والأسفار بعد ذلك . وكان لمسجد المدينة الذي اشترك النبي عليه السلام في بنائه حظ الأذان الأول فكان لبلال حظ السبق بهذا الأذان . ولم يزل له حظ التقدم على سائر المؤذنين في حضرة النبي حتى قبض عليـه السلام ، وميز بالتقدم عليهم لتقدمه في الاسلام وجهارة صوته وحسن أدائه ، وإن كان تقدمه في الاسلام هو أرجح المزيتين التي استحق بها التفضيل والتكريم .

كان إذا فرغ من الأذان وأراد أن يعلم النبي عليه السلام أنه قد أذن وقف على الباب وقال : حي على الصلاة ! حي على الفلاح ! الصلاة يا رسول الله . فاذا خرج رسول الله فرآه بلال ابتدأ في الاقامة .

وقيل في خصائص أذانه إنه كان يؤذن حين يدحض الشمس ويؤخر الاقامة قليلاً . أو ربما أخرها قليلاً ، ولكن لا يخرج في الأذان عن الوقت .

وربما ترنم ببعض الشعر وهو صاعد للأذان رثاءً لحاله وطلباً للتوبة والرحمة من الله . ومن ذاك أنه سمع وهو يقول :

ما لبلال ثكلته أمـــه وابتل من نضح دم جبينـــــه

وكان من عمل بلال في صحبة النبي عليه السلام قبل بناء المصلّى أنه كان يحمل العنزة بين يديه ويركزها حيث تقام الصلاة ، وكانت هذه العَنَزَة إحدى عنزات ثلاث أهداها نجاشي إلى النبي عليه السلام ، فأمسك واحدة لنفسه وأعطى كلاً من علي بن أبي طالب وعمر بن الخطاب واحدة ، واختص بلالاً بحمل العنزة بين يديه أيام حياته ، فكان يحملها في العيدين وفي أيام الاستسقاء ويركزها حيث تقام الصلاة ، وقيل انه كان يمشي بها بين يدي الصدّيق في خلافته ثم جعل سعد القرظ يمشي بها بين يدي عمر وعثمان بوصاة من بلال ، وهي العنزة التي احتفظ بها الولاة يُمشى بها بين أيديهم بعد عهد الخلفاء .

وقد آخى النبي في المدينة بين المهاجرين والأنصار : فآخى بين بلال وخالد أبي رويحة الخثعمي ، وقيل بل بينه وبين أبي عبيدة بن الحارث بن عبد المطلب ، أو وبين أبي عبيدة الجراح ، وهو على ما يظهر لبس في الاسماء ، والأول هو الارجح لبقاء الصلة بين بلال وأبي رويحة إلى أن فرقت بينهما الوفاة .

ويبدو من أحاديث النبي عليه السلام لبلال أنه كان يصطفيه لأنه أهل لاصطفاء التربية والتعهد بالنصيحة والتعليم ، فكان يقول له : يا بلال ! أفضل عمل المؤمن الجهاد في سبيل الله ، وكان يقول له : عش فقيراً يا بلال ومت مع الفقراء . وربما عهد إليه في تفريق ما يفضل من المال عنده وقال له : أنظر حتى تريحني منه . فيرى بلال القدوة في سيده ونبيه فإذا هو من خيرة المقتدين ، ويظل على هذه القدوة حتى فارق الحياة .

وقد أُري النبي عليه السلام أنه سمع دف نعلي بلال بين يديه في الجنة ،

فسأله بعد الصلاة : يا بلال ! حدثني بأرجى عمل عملته عندك في الاسلام منفعة ، فإني سمعت ليلة دفّ نعليك بين يدي في الجنة .. فلم يذكر بلال زهده ولا جهاده ولا صبره على العذاب ولا أمانته وتسليمه ، بل قال : « ما عملت عملاً في الاسلام أرجى عندي منفعة من أني لا أتطهر طهوراً تاماً في ساعة من ليل أو نهار إلا صليت بذلك الطهور ما كتب الله لي أن أصلي » .

فكان اصطفاء النبي هذا الصديق المؤمن الأمين اصطفاء المربي الكبير للرجل تثمر فيه التربية والقدوة الحسنة كما يثمر فيه الصنيع الجميل ، ويُحبّب للطف محضره كما يحب لخلوص طويته وفضائل نفسه . وقد كان كالحارس الملازم لشخص النبي عليه السلام في طويل صحبته بين الحرب والسلم والاقامة والسفر ، ولكنه عليه السلام لم يكن يتخذه حارساً يحميه كما يحمي الحراس الأمراء والسلاطين ، وإنما كان يستصحبه في إقامته وسفره استصحاب الحراس لأنه كان يستريح إلى رؤيته والشعور بصدق مودته ووفائه . وكانت مودة بلال لمولاه وهاديه تبدو منه حيث يريد وحيث لا يريد ، فاذا اشتد الهجير في رحلة من الرحلات أسرع إلى تظليله بثياب الوشي والنبي لا يسأله ذلك ، وإذا تهيأوا للقتال ضرب له قبة من أدم يرقب الموقعة منها وجعل يتردد بينها وبين الميدان ليطمئن عليه ويتلقى الأمر منه ، فلم يفرّقهما موقف ضنك ولا موقف خطر ، ولم ينقض يوم إلا جمعهما فيه الصلوات الخمس ومجالس العظة والحديث ، ما لم يكن في غيبة قصيرة لشأن من شؤون الدين الذي لم يكن له شأن سواه .

ولما فُتحت مكة أمره النبي عليه السلام أن يقيم الأذان على ظهر الكعبة فأقامه والمشركون وجوم يغبطون آباءهم لأنهم لم يشهدوا ذلك اليوم ولم يسمعوا ما سمعوه فيه ، ودخل النبي الكعبة فكان في صحبته ثلاثة هم : عثمان ابن طلحة صاحب مفاتيحها وأسامة بن زيد ، ابن النبي بالتبني ، وبلال .

وما زال يصحب النبي مجاهداً حتى قبض عليه السلام ، فأقام الأذان بعد وفاته أياماً على أرجح الأقوال ثم أبى أن يؤذن وأصر على الإباء ، لأنه

كان إذا قال في الاذان « أشهد أن محمداً رسول الله » بكى وبكى معه سامعوه ، فلم يطب له المقام حيث كان يصحب النبي ويراه ثم هو بعدُ لا يصحبه ولا يراه . وآثر الاغتراب على فرط حبه لمكة والمدينة ، وآثر الجهاد على فرط حاجته إلى الراحة في عشرة الستين . واتفقت أرجح الاقوال على أنه استعفى الصدّيق من الأذان معه واستأذنه في الخروج إلى الشام مع المجاهدين . فأذن له بعد إلحاح منه ، واشترك في معارك لا نعلمها على التفصيل ، ثم سكن إلى ضيعة صغيرة بجوار دمشق يزرعها ويعيش من غلتها ، ولم يسمع عنه خبر بعد ذلك إلا يوم أذن للخليفة الفاروق بدعوة من كبار الصحابة والتابعين ، ويوم تصدّى لمحاسبة خالد في مجلس الحكم بين يدي أبي عبيدة .

وأدركته الوفاة في نحو السبعين — لأنه كان ترب الصدّيق على أرجح الاقوال — وقيل انه مات في طاعون عمواس ، وقيل سنة عشرين للهجرة أو إحدى وعشرين . واستعذب الموت لانه سيجمع بينه وبين النبي وصحبه كما كان يقول في ساعات الاحتضار ، فكانت زوجته تعول إلى جانبه وتصيح صيحة الوله ! واحزناه . فيجيبها في كل مرة وافرحاه . غداً نلقى الأحبة محمداً وصحبه .

وكانت وفاته بدمشق فدفن عند الباب الصغير ، وقبره رضي الله عنه معروف يزار .

وليس أدل على قدر بلال عند الصحابة والتابعين من ذلك الوجد الذي اختلجت به حناياهم وهو يؤذنلهم في دمشق بعد انقطاعه عن الأذان تلك السنين الطوال. بكى عمر وبكى معه الشيوخ الأجلاء حتى اخضلت اللحى البيض واضطربت الأنفاس التي لا تضطرب في مقام الروع . ولو بدا لهم أنهم يستمعون إلى صوت آدمي ينطلق من حنجرة من اللحم والدم لما اختلجوا تلك الخلجة ولا تولاهم ما تولاهم يومئذ من الوجد والرهبة ، ولكنهم أنصتوا لوحي الغيب حين أصغوا اليه ، وقام في أفئدتهم أنه صوت جديد بمحضر النبي عليه السلام يسمعه معهم كما سمعوه معه آونةً من الزمان . فهم إذن في علّيّين أو قريب من

عليين ، وهم إذن على مسمع ومشهد من ذات الله جل وعلا وذات النبي عليه السلام في جواره، وهم إذن أرواح علوية يضيق اللحم والدم بفيضها الإلهي فترجف من الوجد وتنكسر الأجساد بالبكاء مغلوبة في عالم الأرواح وآفاق السماء .

رحم الله بلالاً إنه كان داعي السماء ليرفع أبناء الأرض بدعوتها . وقد رفعهم في ذلك اليوم إلى الأفق الأعلى ، إلى الحضرة التي ترتجف فيها الأجساد لأنها غريبة في ذلك الجوار .

* * *

وحق للمسلمين في ذلك العهد أن يقرنوا بين محضر النبي وصوت بلال حيث كان ، فمن سيرة بلال الوجيزة نعلم أنه كان يأوي إلى كفالة النبي في حياته البيتية كما كان يأوي إليه في حياته الدينية . وأن احداً من الصحابة لم يكن يذكّرهم بالنبي عليه السلام كما كان يذكرهم به مؤذنه وصاحبه ووليه طوال حياته حيث يرونه أو حيث يستمعون إليه . وقد شغل النبي بمعيشته في بيته كما شغل بعتقه ورزقه وتقويم دينه ، ففي روايات مختلفة أنه تزوج بوصية منه عليه السلام، وفي إحدى هذه الروايات « إن بني أبي البكير جاءوا إلى رسول الله ﷺ فقالوا : زوِّج أختنا فلاناً . فقال لهم : أين انتم عن بلال ؟ ثم جاءوا مرة أخرى فقالوا: يا رسول الله أنكح أختنا فلاناً، فقال لهم: أين انتم عن بلال ؟ ثم جاءوا الثالثة فقال لهم : اين انتم عن بلال ؟ اين انتم عن رجل من أهل الجنة. فأنكحوه » .

والظاهر أنه تزوج غير مرة وأنه مات بغير عقب ، فقد جاء في رواية قتادة أنه تزوج أعرابية من بني زهرة ، وجاء في رواية أخرى ان له زوجة تدعى هنداً الخولانية ، وهي من خولان اليمن لا من خولان الشام ، لأنها كانت معه قبل هجرته إلى الشام .

ذكره ابن اسحاق فيمن حضر بدراً فقال : وبلال مولى أبي بكر .

مولّد من مولدي بني جمح اشتراه أبو بكر من أمية بن خلف، وهو بلال بن رباح ، لا عقب له .

نعم ولكنه أعقب الميراث الذي يتصل بالأذان في كل مكان .. فلا ينساه من يسمع الأذان ويرجع به إلى أول من نادى به قبل أجيال وأجيال .

إسلام بلال

كل إيمان فهو شيء يتجاوز الفرد الواحد ولا ينحصر في مصلحته العاجلة أو الآجلة .

فليس بإيمان ذلك الذي يخص فرداً واحداً ولا يتجاوزه إلى غيره في زمنه ، وليس بإيمان ذلك الذي يدور على المصلحة الفردية وإن تعدد فيه الأفراد ، لأن الإنسان قد يضحي بالمصلحة في سبيل الإيمان ولا يفعل ذلك وهو يحسب حساب المصالح ولا يتجاوزها .

وقد يضحي الانسان أحياناً بالإيمان في سبيل المصلحة العاجلة أو الآجلة ، ولكن ذلك لا ينفي أن الايمان شيء أكبر من المصلحة عاجلها وآجلها ، وإنما يدل في هذه الحالة على أن ذلك الانسان يستبدل الذي هو أدنى بالذي هو خير ، وأنه ضعيف اليقين ضعيف الاستعداد للإيمان .

فالإيمان لا يقوم على أساس المصلحة العاجلة أو الآجلة .

ويكفي أن يضحي الناس بمصالحهم في سبيل إيمانهم — ولو في بعض الأحيان — لتقرير هذه الحقيقة من وراء الجدل والخلاف .

لأننا نفهم أن ينسى الرجل إيمانه في سبيل مصلحته فنقول ان المصلحة عزيزة عليه وإن الايمان ضعيف في نفسه .

ولكننا لا نفهم أن ينسى الرجل مصلحته في سبيل إيمانه إلا على وجه

واحد ، وهو أن الايمان والمصلحة معدنان مختلفان ، وأن المصلحة عزّت أو هانت هي شيء غير الايمان .

ولا يقال إن مصلحة الآخرة تدخل في حساب الرجل فينسى من أجلها مصالحه الدنيوية . فإن تصديقه بمصلحة الآخرة هو نفسه إيمان بالغيب ، وهو سابق لحصول المصلحة على كل حال .

ومع هذا وجد في زماننا هذا أناس – كأتباع كارل ماركس – يؤمنون بالمادة وينكرون كل شيء غير هذه الدنيا المحسوسة ، ويقولون إن الأديان والمذاهب والآداب وكل ما يحيك بضمير الانسان إن هي إلا صورة من حياته المادية التي لا بعث بعدها ولا محل للروح فيها ، ومنهم مع ذلك من يدخل السجن ويتعرض للنفي ويجازف بالحياة ويفقدهـا في سبيل إيمانه بمعتقده وانكاره لمعتقد الآخرين .. وليس بالمعقول أن يفقد الانسان الحياة لأنه يطمح إلى الطعام الهنيء والعيش الرغيد ، وليس بالمعقول من باب أولى أن يفقد الحياة ليأتي بعده من ينعم بالطعام الهنيء والعيش الرغيد وهو تحت التراب . فاذا هو أقدم على فقد الحياة فالمسألة عنده ليست مسألة حساب وموازنة أو مسألة مصلحة كبيرة بازاء مصلحة صغيرة ولكنه إنما يفعل ذلك لأنه بازاء قوة تمضي به حيث شاءت ولا يمضي بها حيث شاء ، أو لأنه في حالة نفسية غير حالة الحساب والموازنة ووضع الأرقام بازاء الارقام .

وقد شوهدت في الدنيا عبادات كثيرة وعقائد لا تحصى ، ولكن لم تشاهد قط عقيدة تقبل التضحية بالحياة وهي خلو من إيمان بحق وثورة على باطل ، ولم تشاهد قط عقيدة تقبل التضحية بالحياة وهي قائمة على منفعة تخص صاحبها ولا تتجاوزه إلى الآخرين . ومتى تجاوزت المنفعة فرداً واحداً وأصبحت قابلة للتعميم بين الأفراد الآخرين – فهي إذن مسألة حق سابق لوجود المنافع وسابق لوجود الأفراد .

فالايمان ابداً هو شعور بالحق وليس شعوراً بالمصلحة على وجه من الوجوه .

وقد تقف المصلحة في سبيل العقيدة قبل الايمان بها ، لان المصلحة موجودة والايمان غير موجود ، ولكنهما متى وجدنا معاً فهما شيئان وليسا بشيء واحد . ويظلان أبداً شيئين من معدنين مختلفين وإن تلاقيا في الطريق إلى مدى بعيد .

وإن إسلام بلال رضي الله عنه لمن الشواهد الكثيرة التي تقرر هذه الحقيقة في الأذهان .

وقد عنينا بأن نبين مزايا الاسلام في معاملة الارقاء . ولكننا عنينا مع ذلك بأن نبين حقيقة أخرى لا بد من تبيينها في هذا المقام ، وهي ان المعاملة نفسها ليست هي سبب دخول الارقاء في الاسلام ، وإنما هو « الحق » والشعور بجمال هذا الحق أو وجوب تغليبه على الباطل ، ولو لقي الارقاء في سبيله ما هو أقسى عليهم من معاملة المشركين للعبيد والإماء .

كان أول من أسلم ثمانية هم أولئك النخبة الأبرار : خديجة وأبو بكر وعلي وعمار وأمه سمية وصهيب وبلال والمقداد .

قال رواة صدر الاسلام : أما أبو بكر فمنعه الله بقوته وكذلك من كان لهم قوم يحمونهم . وأما سائرهم فأخذهم المشركون فألبسوهم أدراع الحديد وأصهروهم في الشمس فما منهم انسان إلا وقد واتاهم على ما أرادوا من الكفر وسب النبي عليه السلام . إلا بلالاً فانه هانت عليه نفسه في الله وهانت على قومه فأعطوه الولدان فجعلوا يطوفون به في شعاب مكة وهو يقول : أحد . أحد . ولا يزيد .

وجاء في طبقات ابن سعد بأسناده ما فحواه : إنه كان من المستضعفين من المؤمنين ، وكان يعذب حين أسلم ليرجع عن دينه فما أعطاهم قط كلمة مما يريدون ، وكان الذي يعذبه أمية بن خلف ..

وكانوا اذا اشتدوا عليه في العذاب قال: أحد . أحد . فيقولون له: قل كما نقول.فيقول: ان لساني لا يحسنه.وكانوا يأخذونه فيمطونه ويلقون عليه من

البطحاء وانطاع الأدم ويريدونه على أن يذكر اللات والعزى فلا يذكرهما ويقول : أحد . أحد . فأتى عليه أبو بكر فسألهم علام تعذبون هذا الانسان ! واشتراه بسبع أواق وأعتقه .

ومما جاء في الطبقات «أن أبا جهل جاءهم بالعشي فجعل يشتم سمية ويرفث ثم طعنها فقتلها فهي أول شهيد في الاسلام . وهانت على بلال نفسه في الله حتى ملوه فجعلوا في عنقه حبلاً ثم أمروا صبيانهم أن يشتدوا به بين أخشبي مكة فلم يزدهم على كلمته التي كان يرددها ولا يمل من تردادها : أحد ، أحد .

وكانوا يضربونه ويلقونه على الرمال الكاوية في وقدة الهجير ثم يضعون الحجارة على صدره وهو لا يجيبهم الى كلمة مما يسألونه ، ولا يسكت ولا يكف عن الجهر بالتوحيد » .

* * *

هذه صورة بلال رضي الله عنه في مبدأ إسلامه وهو يتلقى العذاب ويتعرض للموت ولا يصل به الإسلام إلى الوعود — فضلاً عن تحقيق الوعود — في معاملة المستضعفين من العبيد والاماء ، لأن أحكام الاسلام في معاملة الأسرى والأرقاء على التعميم لم تكن معروفة مفصلة في ذلك الحين ..

وإن آخر ظن يخطر على بال المرء إذ يرى بلالاً على تلك الصورة المؤلمة أنه يرى أمامه رجلاً وازن بين سوء المعاملة في الجاهلية وحسن المعاملة في الاسلام فاختار المعاملة الحسنة ودخل في الدين الجديد من أجلها .

لأن إسلام بلال لم يكن مخرجه من رق سادته المشركين ، ولم يكن سوء معاملتهم إياه قبل الاسلام شيئاً إلى جانب ذلك العذاب الأليم الذي كان يسامه بعد اسلامه ، ولو كان حسن المعاملة همه من الدين الجديد لانتظر حتى يسلم سادته فيطمع عندهم في تلك المعاملة الحسنة ، أو لانتظر حتى يمتنع جانب المسلمين بالعدد الكثير فيجهر بالاسلام بين مئات وألوف ، ولا يعجل إلى

دخول الدين الجديد بين نفر من المغلوبين المطاردين ، سواء من الأحرار أو العبيد .

واعجب شيء أن يخطر للعقل أن الاسلام قد سوى بين العبيد والأحرار فآمن به العبيد ، ولا يخطر له أن هذه التسوية تغضب الأحرار فتحميهم الأنفة ان يدخلوه ، وقد دخله الاحرار كما دخله العبيد في مبدأ التبشير بالدين الجديد .

فإن كانت ابلال وصهيب وأمثالهما مصلحة في الايمان بذلك الدين لأنه يسوي بينهم وبين أبي بكر وحمزة وعثمان وعلي والفاروق فما مصلحة هؤلاء في النزول بأقدارهم إلى حيث يتساوون بعبيدهم المستضعفين وهم أولئك ذوو الحمية التي تشمخ برؤوسهم على رؤوس الأحرار من أبناء كل قبيل لا يضارعهم في العزة والجاه !

فعن الحق وسكينته في النفوس فلنبحث في تعليل الايمان بكل عقيدة جديدة وكل مصلحة انسانية فوق مصالح الأفراد ، وانما يوجد الايمان حين يوجد للنفس حقٌ محبوب وباطل مكروه ، ولو ضاعت في سبيل حب الحق وكراهة الباطل كل مصلحة عاجلة أو آجلة أو ضاعت الحياة بغير أمل في الجزاء .

فلا العبيد آمنوا لأن الاسلام يسوي بينهم وبين الاحرار ولا الاحرار آمنوا لان الاسلام يسوي بينهم وبين العبيد. لان قصارى هذه التسوية انها مصلحة لفريق من الناس ، وما زال الايمان والمصلحة شيئين مختلفين ومعدنين متباينين . فالمصلحة شيء تحتويه حياة الفرد وقد تحتويه حصةٌ قليلة من حياته ، أما الايمان فهو ابداً شيء يتجاوز الفرد الواحد وقد يبذل في سبيله المصلحة والحياة .

أو لم يوجد في الوثنية وفي بعض الأديان الكتابية أناسٌ يؤمنون بالأرباب وهم يؤمنون ان الأرباب تفرق بين اقدارهم وأقدار سادتهم في الحياة وبعد الممات ؟

أو لم يكن بلال يؤمن باللات والعزى وغيرهما من أرباب الجاهلية وكان لا يرجو نصفةً منها ولا تسوية بينه وبين ساداته المتجبرين عليه وعلى سائر الضعفاء ؟

فلما ساء ظنه بهذه الأشتات من الأرباب كان حسن ظنه بالإله « الأحد » هو الذي سوّأ ظنه بدين الجاهلية ، وكانت وحدانية الله العلي الأعلى التي تجري على لسانه وتعمر قلبه وتعينه على شدته وهو يتلظى من ألم العذاب بين يدي سادته القساة .

فكانت الوحدانية هي الكلمة الواحدة التي لخص بها فضل الدين الجديد على الدين المهجور . وقد ألهم هذا التلخيص الصادق الوجيز إلهام الايمان الذي يهدي العقل إلى موقع الهدى من أوجز طريق . فلو انه كان يقول « الرحيم » في موضع « الأحد » لجاز أن يقال ان في الآلهة الوثنية من يتصف بالرحمة ، أو لجاز أن يقال إن الرحمة بدرت إليه في تلك اللحظة لانه يشتكي القسوة والعذاب . ولكنه لما ردد كلمة الوحدانية ولم يردد غيرها كان قد هدي إلى الصفة الوحيدة التي لا يدعيها المدعون لارباب الجاهلية ، كما هدي الى الصفة الوحيدة التي تجعل الايمان إيماناً بالحق ولا تجعله انتظاراً لرحمة او غفران او جزاء .

ولا نريد أن نقول إن الايمان والمصلحة لا يجتمعان ، ولا أن نقول إن المؤمن لا تخطر له المصلحة بحال او إنها لا شأن لها البتة في تحول العقائد والعبادات . فإن المصلحة قد تعوق كثيراً من الناس عن قبول دين جديد ، وقد تنبه الاذهان الى الاصغاء الذي يتبعه الارتياح والتصديق ، وقد تكون مصلحة فرد ومصلحة الوف من الناس ، فيستطاع الجمع بينها وبين الايمان بالخير العميم .

ولكن الذي نقوله ان المصلحة غير الايمان وانهما قد يفترقان كما يتفقان ، ولو كانت المصلحة هي الايمان لوجدتْ المصلحة ولم تكن هنالك

حاجة الى وجود ايمان على الاطلاق .. كفى ان يسعى الانسان الى مصلحته دون ان يجعل الايمان سبيلا اليها ، وكفى ان يلتزم المصلحة ولا يتعداها الى الذي يحبب اليه الموت . فأما وقد وجد الايمان في كل زمن من الازمان ، ووجد مع انتظار الجزاء ومع اليأس من كل جزاء ، فلا معنى لان يقال ان فرداً من الافراد قد آمن لأن له مصلحة في ايمانه . فإنه يضم الى المصلحة شيئاً آخر اذن حين يدعمها بالايمان .

كلا . ليست صورة بلال على رمال البطحاء الموقدة في قيظ الصحراء صورة الرجل الذي طلب الخلاص من قسوة السادة ، لان الخلاص هو كل ما يعنيه .

وليست صورته وهو يكرر « الاحد . الاحد » بصورة الرجل الذي دخل الدين الجديد وهو يجهل الفارق الصحيح بين الدينين ، ولا يعرف للدين الجديد فضلا الا الرحمة بالعبيد في الارض او في السماء .

لقد كادوا يقتلونه وهو لا يجيبهم الى تعظيم آلهتهم ولا يؤثر السكوت ، ولعلهم لم يبقوا عليه الا لشحهم بثمنه ان يضيع عليهم ان قتلوه ، ولعل أبا جهل قد قتل سمية لأنها جارية عجوز لا تصلح للبيع ولا للمبادلة ، ولم يقتل بلالا ولا عماراً ولا صهيباً لأنهم رجال عاملون يباعون ويشترون .. ولكنهم لا شك كانوا قاتليه آخر الأمر إن يئسوا منه ولم يجدوا من المشركين من يشتريه وهو صابيء عن دين الجاهلية ، فلم يكن إسلامه سبيل رفق ولا تخفيف من عناء ، بل كان سبيل عذاب ومخاطرة بالراحة والحياة .

وأي عذاب ذلك العذاب ؟

حسبنا أن نعلم أن رفقاء بلال جميعاً قبلوا ما سامهم المشركون أن ينبسوا به — ومنهم عمار بن ياسر — لنعلم أنه كان عذاباً يفوق طاقة الانسان.

إن عماراً لم يكن يهاب الموت في هرمه ، ولكنه ضاق — في صباه — بذلك العذاب الأليم .

كان يجاهد مع علي رضي الله عنه وقد آناف على التسعين ، وقد شهد المغازي في عهد النبي وعهود الخلفاء ، وكان عليه السلام يقول : « إن عماراً مليء ايماناً الى مشاشه » ويجعله قدوة للمسلمين في الهداية فيوصيهم أن يقتدوا بأبي بكر وعمر وأن يهتدوا بهدي عمار . وهو ايضاً لم يجذبه الى الايمان طلب راحة وطمع في حسن معاملة ، لأنه كان يرى طريق الراحة والغنيمة مع معاوية وينضوي الى جانب علي ليموت تحت لوائه في صفين ، وما كان علي لو انتصر بمغدقٍ عليه مالا ولا بمطمعه في عيش أرغد من عيشه ، وهو عيش الكفاف .

وقد كان عمار رضي الله عنه ممن يصدق عليهم القول بأنه قد وهب عبقرية الايمان . لان ايمانه كان ذلك الايمان الخالص الذي يوصف بأنه الإيمان حباً بالإيمان لا حباً بما وراءه من رضى أو جزاء . وآية المؤمن الموهوب أنه لا يرضى العيش بغير العقيدة ولا يطيب له البقاء وهو مخالف لما يعتقد فيقبل على الموت كراهة للبقاء في دنيا لا تواتيه على اعتقاده . وليس يقبل على الموت طلباً للجنة كما يقال . فإن من المؤمنين بالعقائد المادية كما أسلفنا من يموت في سبيلها ولا أمل له في حياة بعد الحياة ، وان الجنة لحبيبة الى كل انسان يصدق بها . فليس الفرق بين رجل يجاهد ورجل لا يجاهد ان هذا يكره الجنة التي يحبها ذاك ، وانما الفرق بينهما هو قوة الإيمان أو هبة العقيدة . وهي قد كانت في عمار على أقوى ما تكون في انسان .

ومع هذا خف الموت على نفس عمار فسعى الى لقائه عشرات المرات منذ غزا مع النبي الى ان نيف على التسعين ومات تحت لواء علي بمعركة صفين ، ولكنه ثقل عليه ذلك العذاب الاليم الذي صبر عليه « بلال » وظل صابراً عليه بغير أمل في الخلاص القريب .

وكل طمع في حسن المعاملة يزول ويبطل في مثل ذلك العذاب الذي ضاقت به طاقة عمار .

نعم يزول ويبطل لولا ايمان يهون معه الموت ويهون معه العذاب ، ويهون معه سوء المعاملة وحسنها على السواء .

نعم إن العبيد كانوا أسرع من الأحرار الى دخول الدين الجديد ، ولكن الذي يفهم من ذلك — أو ينبغي ان يفهم منه — ان المصلحة لم تكن عقبة بين العبيد وبين الإصغاء الى الدعوة الجديدة ، وأن الاحرار كانت لهم مصالح تحجبهم عن جمال تلك الدعوة وعن التأمل في صدقها وبطلان ما هم عليه ، وفرقٌ عظيم بين القول بأن المصلحة لم تكن عائقاً عن فهم الدين والدخول فيه وبين القول بأن الدين هو المصلحة التي أرادها المؤمنون ، إذ لو كانت المصلحة هي المراد بالعقيدة لما وجدت العقيدة على الاطلاق ، ولوجدت المصالح كما هي موجودة في الدنيا بغير اعتقاد على الاطلاق في شيء من الأشياء .

لقد كانت في نفس بلال حاجة الى الولاء والاخلاص ، فصدق النبي الكريم لأنه كان أهلا لولائه وإخلاصه ، وكان خليقاً أن يطمئن اليه ويشعر بالسكينة في الاصغاء الى قوله والاقتداء بعمله .

وسمع رجلا ينادي بأن الناس أمة واحدة وأن المؤمنين إخوة وهو في الذؤابة العليا من بني هاشم أو في الذؤابة العليا من قبائل العرب جمعاء ، فكان هذا سبب التصديق والايمان ، وكانت دعوة الرجل الحسيب النسيب التي لا مصلحة له فيها هي البرهان الاول على صدق العقيدة ، ولولا انعدام المصلحة في دعوة ذلك الرجل الحسيب النسيب لما أسرع بلال الى تصديقه والجنوح اليه .

فأما وقد جنح اليه وآمن بدعوته فالمسألة بعد ذلك لن تكون مسألة موازنة بين المعاملات أو مساومة على الزيادة والنقصان ، ولكنها أصبحت مسألة راحة بالإيمان أو راحة بغير الإيمان ، ولم تكن لبلال راحة بغير ذلك الإيمان بعد ان جنح اليه ومزجه بقلبه وضميره . فصبر في أيام معدودات

على عذاب لم يكن ليلقاه من المشركين مدى العمر لو بقي على دينهم كما كان .. وقد صبر على بلاء الجسد لانه مستريح القلب والضمير .

على أن المعاملة الحسنة قد جاءت إلى بلال من حيث يحتسب ومن حيث لا يحتسب كأحسن ما تصبو اليه الاحلام ويتعلق به الرجاء .

فبلغ من تعظيمه انه كان نداً لاعظم المسلمين في حياة النبي عليه السلام وحياة الصديق والفاروق . بل كان الفاروق رضي الله عنه يقول : « أبو بكر سيدنا وأعتق سيدنا » ويقصده بهذا اللقب الرفيع ، واتفق ان أبا سفيان بن حرب وسهيل بن عمرو بن الحارث ورهطاً من سادة العرب طلبوا لقاء الفاروق وطلبه معهم بلال وصهيب . فأذن لهما حتى يستمع لما يريدان ويفرغ بعدهما لعلية القوم . وعضب ابو سفيان وقال لأصحابه : لم أر كاليوم قط . يأذن لهؤلاء العبيد ويتركنا على بابه ؟ وكان سهيل أحكم منه وأدنى إلى الانصاف فقال لهم : « أيها القوم ! اني والله أرى الذي في وجوهكم . إن كنتم غضاباً فاغضبوا على أنفسكم . دُعي القوم – إلى الاسلام – ودعيتم فأسرعوا وأبطأتم . فكيف بكم إذا دعوا يوم القيامة وتركتم ! » .

* * *

جمال هذا الادب هو الذي يهون في سبيله الموت وسوء المعاملة والعذاب الاليم ، وهو الذي يوحي العقيدة إلى النفس فترتفع بها فوق المصالح والمساومات . ولقد كان هذا أدب النبي فأحبه الاحرار وأصغوا اليه وصدقوه.. ولقد تمت أداة العقيدة حين تم الحب والاصغاء والتصديق . فما يزال بنو الانسان على هذا الشأن إلى آخر الزمان : ليس بينهم وبين الفداء إلا قضية يحبونها وداع يصدقونه . وما يكونون يوماً أحوج إلى الايمان منهم يوم تعز عليهم القضية التي تحب والداعي الذي يصدّق . فإذا بلغت بهم الحاجة مداها فليس أمامهم محيص من إحدى غايات ثلاث : فناء ، أو حياة كحياة الحيوان ، أو إيمان يوجد حيث كان .

صِفاتُ بِلال

كان بلال رجلا على سواء الفطرة .

وآية ذلك أنه كان كما ينبغي أن يكون كل رجل قوي الطبع من بني جلدته وفي مثل نشأته ، يمر بالحوادث الّتي مرّ بها ويمارس التجارب الّتي مارسها .

وقد تقدم في صفات الموالي الأفريقيين أنهم ينقمون الإساءة على المسيء ويحفظون الحسنة لمن يحسن اليهم ويملكهم بمهابته وطيب سجاياه .

وهكذا كان بلال رضي الله عنه في مجمل صفاته : كان متصفاً بأجمل صفات بني جلدته : وهي الأمانة والطاعة والولاء والصدق مع الولاء ، وكانت فيه مع ذلك قسوة وعناد في موضع القسوة والعناد ، ولكنه لم يكن بالمبتدىء في قسوته ولا بالمكابر في عناده . إنما كان لقسوته عذر أو سبب ، وكان لعناده فضل الإصرار على الإيمان بالصواب .

قال ابن الرومي :

إذا الأرض أدّت ريع ما أنت زارع
من البذر فيها فهي ناهيك من أرض
ولا عيب أن تُجزي القروض بمثلها
بل العيب أن تدّان دّيناً فلا تقضي

فالذين أساءوا إلى بلال كانوا لا يحمدون أثر الاساءة فيه ، وكانوا يطلبون منه الرضا حيث أسلفوا له المساءة فلا يجدون الرضا حيث طلبوه ، فإذا بهم ينحلونه صفاتهم ويعيبونه بمساءتهم ، وينكرونَ صحبته كما ينكر صحبتهم . ومن ذاك أن مشترياً أراد ان يساوم فيه سيدته « قبل أن يفوتها خيره وتحرم ثمرته » فقالت له متعجبة : وما تصنع به ؟ إنه خبيث .. وإنه . وإنه ! الى آخر ما وصفت به سخطه على سوء المعاملة وسوء العشرة .

ومع هذا قد أجمع الذين وصفوا بلالا على أنه كان طيب القلب صادق الإيمان ، وأنه أبعد ما يكون عن خبث أو كنود ، وإنما هو بشرة سوداء على طبع صاف يرى الناس وجوه أعمالهم فيه .

وقد كان اكرم صفاته الفطرية مما يوافق الطاعة وصدق الولاء ، فكان إيمانه القوي بالله ، واخلاصه المكين لرسول الله ، هما الذروة التي ترتقي إليها محاسن بني جلدته ، ومحاسن كل مولى مطيع ، سواء كان ولاؤه ولاء تابع لمتبوع أو ولاء معجب بمن يستحق الإعجاب .

كان حبه لرسول الله هو لب الحياة عنده ، وهو معنى الدنيا والآخرة في طوية قلبه ، وعاش ومات وهو لا يرجو في دنياه ولا بعد موته إلا أن يأوي إلى جواره وينعم برضاه .

وحضرته الوفاة فكانت امرأته تئن وتغلبها النكبة في قرين حياتها فتصيح : واحزناه .

وكان هو يجيبها في سكرات الموت : بل وافرحتاه ! غداً نلقى الأحبة ، غداً نلقى الأحبة ، محمداً وصحبه .

على هذا عاش وعلى هذا مات ، وما كان له من علاقة تربطه بهذا الكون العظيم إلا وهي في جانب منها علاقةٌ بمحمد رسول الله ومحمد سيده ومولاه .

وتلك الزوجة الوفية البارة كانت ترضيه في معظم حالاتها وكانت لا

تخليه من مناكفة في بعض حالاتها كما يتفق أحياناً في كل عشرة بين زوجين وفي كل صلة بين إنسانين ، فكان يقبل منها كل ما يسر ويسوء إلا أن تمسه في لب اللباب وأصل الأصول ومناط الحياة والكرامة عنده : وهو إخلاصه لرسول الله وصدق الرواية عنه . فاستعظمت يوماً ما يحدثها به عن رسول الله فاذا به يثور ويغضب ويهم بالبطش بها ثم يدع المنزل محنقاً مقطباً حتى يلقاه الرسول ، فيلمح ما به من تغير حاله ويعلم سره فيشفق أن يدعه على ما هو فيه وأن يدع لزوجه مظنتها في صدقه . ويذهب معه إلى بيته فيقول للمباركة : « ما حدثك عني بلال فقد صدق . بلال لا يكذب . فلا تغضبي بلالا » .

فاذا المولى الأمين هانىء قرير .

وقد أثر عنه هذا الصدق بين الصحابة فكانوا يشكون في أبصارهم ولا يشكون في روايته ونقله . ويروون عنه رواية اليقين في شؤون الصلاة والصيام.

ففي صحراء العرب حيث يضيء النهار إلى ما بعد غروب الشمس وتشيع لمحات النور قبل مطلعها كان بعض المسلمين يترددون في مواعيد السحور والإفطار فيقولون : إنا لنرى الفجر قد طلع ، أو يقولون : ما نرى الشمس ذهبت كلها بعد ، فاذا سمعوا من بلال أن رسول الله أكل أو أنه ترك رسول الله يتسحر فالقول ما قال بلال ، وليس للشك في ضوء النهار مكان.

وقد لزمت بلالا عادة الصدق في كل كلام يبلّغه المسلمين عن النبي أو يبلغه إليهم في شأن من عامة الشؤون وخاصتها ، فلما رجاه أخوه في الاسلام — أبو رويحة — أن يسفر له في زواجه عند قوم من أهل اليمن لم يزد على أن قال : « أنا بلال بن رباح وهذا أخي أبو رويحة . وهو امرؤ سوء في الخلق والدين ، فإن شئتم أن تزوجوه فزوجوه ، وإن شئتم أن تدعوا فدعوا .. »

فزوجوه وكان حسبهم عنده أن يقبل الوساطة ولا يرده أو يموه عليهم أوصافه !

وقد كان من ولائه لأبي رويحة هذا أن ضم ديوان عطائه إليه حين خرج إلى الشام . فلما دون الفاروق دواوين الصحابة سأله : إلى من تجعل ديوانك يا بلال ؟ قال : إلى أبي رويحة « لا أفارقه أبداً ، للأخوة التي كان رسول الله عقد بينه وبيني » .

وذاك أن رسول الله قد آخى بينهما قبل الهجرة إلى المدينة كما آخى بين غيرهما من صحابته الأوفياء فكانت أخوّة العمر عنده من فضل الولاء لرسول الله : وكان أحب الناس إليه وأولاهم برعيه من أمره رسول الله أن يحبه ويرعاه .

* * *

وقد عرف له النبي عليه السلام هذه الخصال التي تتجمع كلها في صفة الأمانة — وهو قائد الرجال الخبير بمناقب النفوس — فأقامه في موضع الثقة منه وائتمنه على مال المسلمين وعلى طعامه ومؤونته وشخصه ، واستصحبه في غزوه وحجه وحله وترحاله ، وأسلمه العَنَزة يحملها بين يديه أيام العيد والاستسقاء ، ولم يعرف أحدٌ من الصحابة لازمه عليه السلام كما لازمه هذا المؤذن الذي يقيم معه الصلاة وهذا الأمين الذي يحفظ له المال والطعام ، وهذا الرفيق الذي كان يظله بالقبة والستار من لفحات الهجير في رحلات الصيف ، وربما تقدمه فركب ناقته « القصواء » التي قلما كان يركبها سواه عليه السلام .

ولم يدخل الكعبة معه بعد فتح مكة غير عثمان بن طلحة صاحب مفاتيحها وأسامة بن زيد مولاه ، وبلال .

ودامت هذه الصحبة حتى قبض عليه السلام وحتى دفن في ثراه . فكان بلال هو الذي ذكر واجب الحنان المكلوم في ذلك الموقف الأليم ، فحمل القربة ودار حول ذلك الثرى الشريف يبلله بالماء .

* * *

وعلى هذا الحنان في طويته لمولاه العظيم كان للرجل ضميرٌ يعرف الاصرار على الرأي كأشد ما عرف مؤمن بعقيدة ونافر من رذيلة.

وربما كان في هذا الإصرار شيء من عناد بني جلدته أبناء الحبشة المولّدين وأبناء السلالة السوداء. إلا أن العناد خصلة ذات لونين أحدهما يحمد ويفيد وثانيهما يذمّ ويضير.

فالعناد في أحد لونيه ثبات على الصواب والعقيدة، وفي لونه الآخر ثبات على الخطأ والهوى، ولم نعرف من العناد في تاريخ بلال إلا أجمل اللونين وأشبههما بقوة الأسر وخلائق الأمناء.

من ذلك عناده للمشركين حين ساموه العذاب ليفتنوه عن دينه ويكرهوه على سب أبيه كما تقدم في وصف إسلامه، ومنه إصراره على ترك الأذان لغيره حين وقر في نفسه أن أذانه بعد رسول الله نقص في الوفاء، وربما كان منه إصراره على الجهاد والسفر من المدينة إلى الشام حين سأله الخليفة البقاء. فقال له في رواية مشهورة: «إن كنت أعتقتني لنفسك فاحبسني، وإن كنت أعتقتني لله عز وجل فذرني أذهب الى الله عزَّ وجل» وأبى إلا أن يمضي حيث أراد.

ولا شك أن الرحمة بالاعداء أمر لا ينتظر من رجل طال عهده وعهد قومه وآبائه وأجداده بقسوة الطغاة وعذاب اللؤماء، فان رحمة رجل كهذا لمن أحسنوا إليه وسالموه خلق مفهوم لا غرابة فيه. أما الخلق الذي يستغربُ منه حقاً فهو رحمة في ميدان قتال أو رحمته خاصة لمن أفرط في الإساءة إليه.

ولهذا لا نستغرب ما روي عن بلال بعد وقعة خيبر وما روي عنه بعد وقعة بدر مع المشركين. ومنهم أظلم الناس له وأقساهم عليه.

فلما افتتح النبي حصن القموص بخيبر جيء له بصفية بنت صاحب الحصن وقريبة لها دون سنها. فأرسلهما عليه السلام مع بلال إلى رحله. فمر بهما بلال على القتلى من قومهما فصاحت البنت الصغيرة صياحاً شديداً

ولطمت وجهها . وعلم النبي بما صنع فقال له عاتباً: أنزعت منك الرحمة يا بلال حين تمر بجارية حديثة السن على القتلى ؟ فكان عذر بلال الذي اعتذر به في جوابه : يا رسول الله.ما ظننت أنك تكره ذلك . وأحببت أن ترى مصارع قومها !

أما في وقعة بدر فقد كان عذره أوضح وأسلم من عذره في وقعة خيبر .

فقد رأى أمية بن خلف وابنه بعد الوقعة في صحبة عبد الرحمن بن عوف يقودهما كما يقاد الأسرى ، وقد كانا أشد الناس إيذاء للمستضعفين من المسلمين كما تقدم ، وكان بلال أوفر المسلمين نصيباً من ذلك الإيذاء اللئيم . فما وقعت عينه على أمية حتى صاح بالمسلمين من حوله : رأس الكفر أمية بن خلف . لا نجوت إن نجا . ولم يغن عنه دفاع عبد الرحمن بن عوف بل جعل بلال يهم بقتله ويصيح : لا نجوت إن نجا . لا نجوت إن نجا . حتى اجتمع حولهم خلق كثير ، وضرب أحدهم ابن أمية فوقع صريعاً فاذا بأمية يصيح من الفزع صيحة لم يسمع بمثلها . قال عبد الرحمن بن عوف : انج بنفسك ولا نجاء بك ! فوالله ما أغني عنك شيئاً . ولكن المقاتلين هبروهما بأسيافهم قبل أن يخلص له سبيل إلى الفرار .

وقد يزيد في وضوح العذر لبلال من هذه النقمة أن أمية هذا كان من أحق الناس بالبغض وقلة الرحمة . لأنه كان يعذب المستضعفين تعذيب الجبان اللئيم لا تعذيب الساخط الغيور على عقيدة ، وكان يرهب القتال ولا يعرض حياته لمغامرات الحرب التي أقدم عليها شجعان المشركين . فما هو إلا أن سمع بنذير النبي إياه بالقتل حتى ارتعدت فرائصه وراح يسأل عن المكان الذي توعده بالقتل فيه ، وصارح قومه بالقعود عن القتال وأنه لا يخرج لحرب المسلمين في غزوتهم تلك وهو مقصود بذلك الوعيد ، ولم يتحرك للخروج حتى جاءه أبو جهل بين الملأ بمجمرة يبخره بها ، وقال له : تجمر يا هذا فإنما أنت من النساء .

ولما نشبت المعركة ببدر كان هو وابنه في طليعة الناكصين عن القتال، ثم قتل ابنه فكانت صيحته عليه صيحة فزع لا تسمع في ميدان. فانما كان تعذيبه المسلمين من لؤم الجرأة على الضعيف وهو آمن في عقر داره، ولم يكن من لدد العقيدة التي يغار عليها الرجل الشجاع ويلقى الموت هو وأبناؤه من أجلها غير وكِلٍ ولا هيّاب. وليس أحق من مثل هذا ببغضاء المنتقم في ساعة القصاص، وكفى لبلال عذراً في هيجة غضبه عليه أنه يعلم إنذار النبي إياه بالقتل وأن أبا بكر هنأه بعد قتله فقال:

هنيئاً زادك الرحمن خيراً   لقد أدركت ثأرك يا بلال

وفي غير هذه الهيجة التي تدرك أحلم الناس في موطن النقمة وحومة الحرب لم تكن شدة بلال غير حمية الرجل الفطري التي تبدر منه القسوة وهو لا يعنيها، وكان في جملة أحواله مثلا للخلق الوديع والطيبة الرضية وحلاوة النفس والاتضاع، فكان يخجله أن يسمع الناس يحمدون بلاءه في صدر الإسلام ويقدمونه على أجلاء الصحابة لثباته وصبره، فيطرق ويقول: إنما أنا رجل كنت بالأمس عبداً. وكانت قلة دعواه نفحة من نفحات تلك الطيبة الرضية، فلم يعرف عنه أنه تصدى لتعليم الناس ما يجهلون من أحاديث النبي عليه السلام بعد ملازمته الطويلة وكثرة سائليه والواثقين بصدق ما يرويه، ولم يزد في إخباره عن النبي على ما يعنيه من إقامة الصلاة والأذان أو مواعد الإفطار والصيام.

* * *

وكان بلال ابن قومه في خلقين آخرين يعرفان في بعضهم قدماء أو محدثين، وهما فراسة النظر وحب الراحة أو الضيق بالجهد الشديد.

أرسله النبي عليه السلام مع رعية السحيمي ليرد له ابنه الذي أسره المسلمون، فلم يفته وهو يقص نبأه على النبي أن يقول: والله ما رأيت واحداً منهما مستعبراً إلى صاحبه! فقال النبي: ذاك جفاء الأعراب.

ووكل إليه النبي وهو مقبل إلى وادي القرى بعد وقعة خيبر أن يوقظه لصلاة الصبح – وكان الحر شديداً ، فنام حتى طلعت الشمس . ثم صلى عليه السلام بمن معه وأن أحدهم ليسلت العرق من جبينه من حر ذلك اليوم ، فلما سلم قال : كانت أنفسنا بيد الله فلو شاء قبضها وكان أولى بها . ثم التفت الى بلال فهتف به : مه يا بلال . فبادر بلال معتذراً وهو يقول : بأبي وأمي . قبض نفسي الذي قبض نفسك ! فتبسم عليه السلام .

وإنما تدل هذه السهوة – وإن لم تتكرر – على إيثار الراحة لأنها غلبت كل حذر من تفويت صلاة الفجر حاضرة على النبي وصحبه، وهو حذر كان ولا شك في نفس بلال شديداً ، بل أشد من الشديد .

* * *

وآخر ما يروى من أعمال بلال وقفته مع خالد بن الوليد حين أمر الفاروق بسؤاله عن الهبات التي كان يهبها لبعض الشعراء . فقد سكت خالد وأبو عبيدة يسأله عن تلك الهبات أهي من ماله أم من مال المسلمين ؟ وهو معرض لا يجيب . فوثب إليه بلال ثم تناول عمامته ونقضها وعقله بها وخالد لا يمنعه . وسأله : ما تقول ؟ أمن مالك أم من إصابة ؟ فعند ذلك أجاب خالد : بل من مالي . فأطلقه وعممه بيده ، وهو يقول : « نسمع ونطيع لولاتنا ونفخم ونخدم موالينا » .

ذلك آخر ما روي من أعمال بلال في خدمة الخلافة ، ولكنه يجمع أعماله كلها وخلائقه كلها في عمل واحد وخلق واحد ، وهو الطاعة الجريئة التي لا تنسى التفخيم والتعظيم إلا في سبيل طاعة أكبر منها وأوجب . فلم يكن أسرع منه بين شهود الموقف إلى محاسبة خالد بأمر الخليفة وأمر الله ، ولم يكن أسرع منه إلى السرور بتفخيمه وتعظيمه حين فرغ الحساب .

كانت طاعته للمرء الذي يطاع وللأمر الذي تجب له الطاعة ، وهي طاعة القوي الشريف ، وليست بطاعة المسخر الضعيف ، وقد عصى سادته

والموت جاثم على صدره ، وفرض الطاعة على من يهابه العصاة . فكان سيد المطيعين ، ولا يشرّف الانسان إن لم يكن سيد الآمرين إلا أن يكون سيد المطيعين .

* * *

الأذان

أشبه الأشياء بالدعوة إلى الصلاة دعوةٌ تكون من معدن الصلاة وتنم على صوت من أصوات الغيب المحجّب بالأسرار : دعوة حية كأنما تجد الإصغاء والتلبية من عالم الحياة بأسرها ، وكأنما يبدأ الإنسان في الصلاة من ساعة مسراها إلى سمعه ، ويتصل بعالم الغيب من ساعة إصغائه إليها .

دعوة تلتقي فيها الأرض والسماء ، ويمتزج فيها خشوع المخلوق بعظمة الخالق ، وتعيد الحقيقة الأبدية إلى الخواطر البشرية في كل موعد من مواعد الصلاة ، كأنها نبأ جديد .

الله أكبر . الله أكبر .

تلك هي دعوة الأذان التي يدعو بها المسلمون إلى الصلاة ، وتلك هي الدعوة الحية التي تنطق بالحقيقة الخالدة ولا تومىء إليها ، وتلك هي الحقيقة البسيطة غاية البساطة ، العجيبة غاية العجب ، لأنها أغنى الحقائق عن التكرار في الأبد الأبيد ، وأحوج الحقائق إلى التكرار بين شواغل الدنيا وعوارض الفناء .

المسلم في صلاةٍ منذ يسمعها تدعوه إلى الصلاة ، لأنه يذكر بها عظمة الله وهي لب لباب الصلوات .

وتنفرج عنها هدأة الليل فكأنها ظاهرة من ظواهر الطبيعة الحية تلبيها

الأسماع والأرواح ، وينصت لها الطير والشجر ، ويخف لها الماء والهواء ، وتبرز الدنيا كلها بروز التأمين والاستجابة منذ تسمع هتفة الداعي الذي يهتف بها إن « الصلاة خير من النوم » .

فتخرج كلها إلى الحركة بعد لمحة أو لمحتين ، وتقول كلها إن الحركة صلاة خفية بيد محرك الأشياء ، وإن الصلاة خير من النوم .

وإذا ودع بها الهاتف ضياء النهار واستقبل بها خفايا الليل فهو وداع متجاوب الأصداء ، كأنه ترجمان تهتف به الأحياء أو تهمس به في جنح المساء ، وكأنه ينشر على الآفاق عظمة الله فتستكين إلى سلام الليل وظلال الأسر والأحلام .

وانها لتسمع بالليل ثم تسمع بالنهار .

تُسمع والنفوس هادئة كما تسمع والنفوس ساعية مضطربة : توقظ الأجسام بالليل وتوقظ الأرواح بالنهار ، فاذا هي أشبه صياح بسكينة ، وأقرب ضجيج إلى الخروج بالانسان من ضجيج الشواغل والشهوات .

حيّ على الصلاة !

حيّ على الفلاح !

نعم هذا هو الفلاح جد الفلاح ، لأن كل فلاح بغير الايمان هو الخسار كل الخسار .

* * *

وما يعرف وقع الأذان من شيء كما يعرف من وقعه بمعزل عن العقيدة ومعزل عن العادة والسنّة المتبعة ، او كما يعرف من وقعه في بداءه الأطفال وبداءه الغرباء عن البلاد ، وعن عقيدة الاسلام .

ففي الطفولة نسمع الأذان ولا نفهمه ولكننا نميزه حين يحيط بنا بين

دعوات هذه الأرض وبين صيحات اللعب وصيحات البيع والشراء ، ونؤخذ به ونحن لا ندري بم نؤخذ ، ونود لو نساجله ونصعد إليه ونستجيب دعاءه ، ويفسره المفسرون لنا « بأمر الله » فنكاد نفهم حلمة الأمر ونكاد نفهم كلمة الله ، ولكننا نحار في البقية ونحيلها إلى الزمن المقبل ... ثم نقضي السنوات بعد السنوات من ذلك الزمن المقبل ونحن نتعزى من حيرة الطفولة بأننا ما نزال حائرين ، وإن سميت الحيرة بأسماء بعد أسماء وأطلق عليها عنوان بعد عنوان .

وفي الذكريات أصداء تكمن في النفس من بعيد ويلتفت المرء لحظة من اللحظات فكأنما هو قد فرغ من سماع تلك الأصداء منذ هنيهة عابرة ، ثم التفت على حين غرة ليرقب مصدر ذلك الصدى الذي سرى إليه .

إن أبقى هذه الأصداء في كل ذاكرة لهو صيحة الأذان الأولى التي تنبهت إليها آذان الطفولة لأول مرة ، وما تزال تبتعد في وادي الذاكرة ثم تنثني اليه من بعض ثنياتها القريبة ، فاذا المرء من طفولته الباكرة على مدى وثبة مستطاعة ، لو تستطاع وثبة إلى ماض بعيد أو قريب .

أما الغرباء عن البلاد وعن عقيدة الاسلام فما يلفتهم من شيء من شعائر العبادة الاسلامية كما يلفتهم صوت الأذان على المنائر العالية ، كيفما اختلف الترتيل والتنغيم .

يقول إدوارد وليام لين صاحب كتاب « أحوال المحدثين وعاداتهم » إن أصوات الأذان أخاذة جداً ولا سيما في هدأة الليل .

يقول جيرار دي نرفال في كتابه سياحة بالمشرق : « إنني لأول مرة سمعت فيها صوت المؤذن الرخيم الناصع خامرني شعور من الشجو لا يوصف. وسألت الترجمان : ماذا يقول هذا الهاتف ؟ فقال : إنه ينادي أن لا إله إلا الله . قلت : فماذا يقول بعد هذا ؟ فقال : إنه يدعو النيام قائلا : يا من ينام توكل على الحي الذي لا ينام ... »

وأنشأ الكاتب المتصوف « لا فكاديو هيرن La Fcadio Hearn » رسالة وجيزة عن المؤذن الأول – أي بلال بن رباح ستأتي ترجمتها بعد هذا الفصل فقال : « إن السائح الذي يهجع لأول مرة بين جدران مدينة شرقية ، وعلى مقربة من إحدى المنائر ، قلما تفوته خشعة الفؤاد لذلك الجمال الوقور الذي ينبعث به دعاء المسلمين إلى الصلاة ... وهو لا شك يستوعب في قلبه – إذا كان قد هيأ نفسه للرحلة بالقراءة والمطالعة – كلّ كلمة من كلمات تلك الدعوة المقدسة ، ويتبين مقاطعها وأجزاءها في نغمات المؤذن الرنانة ، حيثما أرسل الفجر ضياءه المورد في سماء مصر أو سورية وفاض بها على النجوم . وإنه ليسمع هذا الصوت أربع مرات أخرى قبل أن يعود إلى المشرق ضياء الصباح . يسمعه تحت وهج الظهيرة اللامعة ، ويسمعه قبيل غياب الشمس والمغرب يتألق بألوان القرمز والنضار ، ويسمعه عقيب ذلك حين تنسرب هذه الألوان الزاهية في صبغة مزدوجة من البرتقال والزمرد ، ثم يسمعه آخر الأمر حين تومض من فوقه ملايين المصابيح التي ترصع بها تلك القبة البنفسجية فوق مسجد الله الذي لا يزول . ولعله يسمع في المرة الاخيرة عند نهاية التنغيم كلمات مقنّعة بالأسرار جديدة على أذنيه ، فإذا سأل عنها ترجمانه كما فعل جيرار دي نرفال أجابه ولا شك بتفسير كذلك التفسير : يا من تنام توكل على الحي الذي لا ينام .. عظات جليلة تعيد الى الذاكرة تلك الآيات التي ينقشونها في المشرق على بعض الحجارة الكريمة ومنهـا « لا تأخذه سِنة ولا نوم » .. فإن كان الترجمان ممن يعون طرفاً من تاريخ الإسلام فلعله ينبئه ان المؤذن الأول – أول من رتل الدعاء الى الصلاة – كان الخادم المقدس الذي اصطفاه نبي الإسلام لهذه الدعوة ، بلال بن رباح ، صاحب الضريح الذي يشار اليه للسائح في ناحية من دمشق حتى هذا اليوم » .

* * *

وقد لمسنا نحن أثر الأذان البالغ في روع كثير من السائحين والسائحات

الذين ينزلون ببلدتنـــا أسوان خلال الشتاء أو يمرون بهـــا في الطريق من السودان واليه.

فانهم كانوا يصلون الى أسوان وقد سمعوا الأذان مرات في القاهرة والاسكندرية وربما سمعوه في غيرهما من البلدان الاسلامية،ولكنه كان يفاجئهم بجدة لا تبلى كلما طرق أسماعهم بالليل أو النهار – ولا سيما في أيام الجمعة. وكان من المصادفات الطيبة أن مؤذن الجامع الأكبر بالمدينة كان حسن الصوت منطلق الدعاء يمزج الغيرة الدينية بالغيرة الفنية في أذانه، فكان يخيل الينا وهم يصغون اليه أنهم يتسمعون هاتفاً من هواتف الغيب يطرق الاسماع في وقت رتيب، أو يترقبون طائراً من طوائر الهجرة التي تأتي في الأوان ولكن كما يأتي كل شيء غريب.

وكان من عادات المؤذنين التي لبثوا يعيدونها في شهر رمضان الى عهد قريب ان يدقوا طبول السحور على المنائر العالية في الهزيع الأخير من الليل. فشكا بعض النازلين بالفنادق القريبة من المنارة وترددوا في تبليغ شكواهم الى رجال الحكومة لأنهم حسبوا هذه الطبول شعيرة من شعائر الإسلام، فلما سأل عنها بعضُ مثقفيهم وقيل لهم إنها عادة من عادات البلد وليست شعيرة من شعائر الدين تقدموا برجائهم وقالوا: إننا لا نشكو من الأذان لأنه لا يقلقنا ولا يزال يسري إلينا في ساعة الفجر كما يسري الحلم الجميل. ولكننا نقلق من هذه الطبول التي تدق فوق رؤوسنا، وكنا نحتملها لو علمنا أنها شعيرة لا تبديل لها. ولكنا علمنا أنها تبدل في كل بلد إسلامي على حسب عاداته، وان المدن الكبرى تستبدل بها طبولا صغيرة تدق على الأبواب: فاسمحوا لنا ان نهدي إلى البلد بعض هذه الطبول.

وكانت هذه الطبول مما يباع في كل موسم للسائحين على أحجام مختلفة. لأنها كانت تستخدم في عهد الدراويش بالسودان، إما لجمع الجند او لتنبيه الغافلين أو للتوقيع والتنغيم، وكانت ملابس الدراويش واسلحتهم وأدوات

معيشتهم مما يبحث عنه السائحون في أسواق البلدة ، فتبرعوا بالطبول الصغيرة فرحين لأنها تنقذهم من قرع الطبول حين يختلط بأصوات المؤذنين ، فيقلقهم ويشوه عندهم جمال الأذان الخفيف على اسماع النيام .

* * *

وقد كانت هذه الطبول وشيكة في بداية الأمر أن تقوم مقام الأذان في دعوة المسلمين الى الصلاة .

إذ لم يكن الأذان كما نسمعه اليوم معروفاً قبل انتشار الاسلام في مكة والمدينة ، وإنما كان المسلمون طائفة قليلة يدعون الى الصلاة الجامعة بالنداء الذي يُسمع من قريب ، فلما صرفت القبلةُ إلى الكعبة فكر المسلمون في دعاء الى الصلاة يسمعه المنتشرون بالمدينة من بعيد .

ومن جملة الروايات التي جاءت في طبقات ابن سعد وغيرها يفهم أنهم كانوا قبل أن يؤثر بالأذان ينادي منادي النبي عليه السلام : الصلاة جامعة ! فيجتمع الناس .. فلما صرفت القبلة الى الكعبة تذاكر المسلمون الأمر فذكر بعضهم البوق وذكر بعضهم الناقوس وذكر بعضهم ناراً توقد كنار القرى ، ثم تفرقوا على غير رأي ومنهم عبد الله بن زيد الخزرجي .. فلما دخل على أهله فقالوا : ألا نعشيك؟ قال: لا أذوق طعاماً. فاني قد رأيت رسول الله قد أهمه أمر الصلاة . ونام فرأى ان رجلا مر وعليه ثوبان اخضران وفي يده ناقوس . فسأله : أتبيع الناقوس ؟ فقال : ماذا تريد به ؟ قال : أريد ان أبتاعه لكي اضرب به للصلاة بجماعة الناس . فأجابه الرجل : بل احدثك بخير لكم من ذلك . تقول : الله أكبر . أشهد ان لا إله إلا الله . اشهد ان محمداً رسول الله . حيَّ على الصلاة . حيَّ على الفلاح . الله اكبر . الله اكبر . لا اله الا الله . ونادى الرجل بذلك النداء وهو قائم على سقف المسجد ثم قعد قعدة ثم نهض فأقام الصلاة .

فلما استيقظ عبد الله بن زيد من منامه ذهب الى النبي عليه السلام فقص

عليه ما رأى فقال له : قم مع بلال فألقِ عليه ما قيل لك . وجاء الفاروق بعد ذلك فقص على النبي مناماً يشبه ذلك المنام . وجرى الأمر في الدعوة إلى الصلاة منذ ذلك اليوم على الأذان كما نسمعه الآن ، وزاد بلال في أذان الصبح « الصلاة خير من النوم » فأقرها النبي عليه السلام ، وبقي النداء في الناس بالصلاة الجامعة للأمر يحدث فيحضرون له يخبرون به مثل فتح يقرأ أو دعوة يُدعون اليها ، وإن كان في غير وقت الصلاة .

ولا اختلاف في صيغة الأذان بين الطوائف الاسلامية جمعاء ... إلا ان الشيعة يضيفون اليه ، « حيَّ على خير العمل » مع حيَّ على الصلاة وحيَّ على الفلاح . ويردد المالكية التكبير مرتين بدلاً من أربع مرات .

ولا اختلاف كذلك في جواز التلحين والترجيع في الأذان ما لم يخل بنطق الكلمات ومخارج الحروف . إلا ان الحنابلة يعلنون الأذان بغير تلحين ، ويتصرف الأحناف في بعض الترجيعات .

وقد ندب بلال بن رباح للأذان من لحظته الأولى فلم يسمع لأحد أذانٌ قبله ولم يسبقه الى ذلك سابق في تاريخ الاسلام . وهو شرف عظيم ، لأن محمداً بن عبدالله كان إمام المسجد الذي كان مؤذنه بلال بن رباح .

ومن المتفق عليه في أقوال الصحابة إن بلالاً كان محبّب الصوت الى اسماع المسلمين ، وانهم كانوا يقرنون دعوته بصلاة النبي فيزيدهم هذا خشوعاً لسماع صوته فوق خشوع .

على أننا نقرأ في أنباء فتح مكة ان رهطاً من المشركين كانوا ينكرون نداءه ويتساءلون : أما وجد محمد غير هذا العبد ينهق على ظهر الكعبة ؟ وكانوا يستكبرون من رجل كائناً من كان أن يعلو ظهر البيت الذي لم يصعد إليه أحد في الجاهلية . فهالهم ان يروا « عبداً » يصعد اليه ويجهر بذلك النداء .

قال بعضهم للحارث بن هشام : ألا ترى هذا العبد أين يصعد ؟ فلجأ

الرجل الى حكمة المضطر وقال : دعه ، فإن يكن الله يكرهه فسيغيره .

وكان الحارث بن هشام وابو سفيان بن حرب وعتاب بن أسيد جلوساً بفناء الكعبة يوم أمر النبي بلالاً ان يصعد الى ظهر الكعبة فيقيم الأذان . فقال عتّاب : لقد أكرم الله أسيداً ان لا يكون سمع هذا فيسمع منه ما يغيظه ، وقال الحارث بن هشام : أما والله لو أعلم انه محق لاتبعته ، وانكر ابو سفيان ما سمع او قيل في بعض الروايات انه جمجم قائلا : لا أقول شيئاً ، ولو تكلمت لأخبرت عني هذه الحصا .

وقبل ان نحيل هذا الإنكار الى شيء يؤخذ مأخذ النقد ينبغي إن نذكر ان ذلك الوصف من المشركين كانوا خلقاء ان ينكروا أول أذان يرتفع في سماء مكة ولو ترنمت به الملائكة وتجاوبت به سواجع الأطيار ، وانهم سمعوه زعيقاً و « نهيقاً » كما قالوا لأنهم سمعوا شيئاً لا يطيقونه ولا يستريحون اليه ، وكانت بهم عنجهية السادة في النظر الى العبيد ، وكان لبلال عندهم وتر معروف بمن قتل من سادات مكة في غزواته مع النبي عليه السلام .

فإذا رددنا إعجاب المسلمين بصوت المؤذن الأول الى الخشوع ثم إلى ذكرى النبي الحبيب ، ورددنا كره المشركين إياه الى النفرة ثم الى العنجهية والعداء — فقد بقي شيء واحد يتفق عليه هؤلاء وهؤلاء وهو جهارة الصوت وابتعاد مداه في أجواز الفضاء ، ولا حاجة بنا إلى العناء في الموازنة بين خشوع المسلمين وعداء المشركين لنقول ان اختيار النبي اياه يدعوه ويدعو المسلمين دعوة عامة يسمعها كل يوم خمس مرات — هو الشهادة لصوت المؤذن الاول بالسلامة من النفرة والنشوز المعيب ، فما عهد محمد عليه السلام خاصة الا أنه كان يحمد المنظر الحسن ، وكان ينكر كل نكير ويستريح الى كل جميل.

المؤذن الأول

كتب عن الخلفاء الراشدين وكبار القادة والولاة من صحابة النبي عليه السلام كلام كثير باللغات الأوربية في أثناء الكتابة على تاريخ الاسلام. ولكن الذي كتب عن الصحابة ممن لم يتولوا الحكم ولا اشتركوا في السياسة العامة — كبلال بن رباح — جدّ قليل، وبين هذا القليل الذي كتب عن بلال خاصة فصل في اللغــة الانجليزية للأديب القصصي لفكاديو هيرن Lafcadio Hearn الذي عمل حيناً في الصحافة الأمريكية وقضى زماناً في جزر الهند الغربية التابعة لفرنسا ثم جال بين بلاد الشرق واستقر باليابان وبنى فيها بزوجة يابانية ومات هناك سنة ١٩٠٤ بعد ان قضى حياته الأدبية كلها هائماً بنفحات الشرق الروحية سواء هبت عليه من بلاد العرب أو من الصين أو اليابان.

ولا شك أن ترجمة هذا الفصل الى العربية ترده الى اللغة التي هي أحق به وأولى. وتعد مناسبةُ نقله الى العربية سانحةً كل السنوح في صدد الترجمة لبلال رضي الله عنه برسالة مستقلة به مقصورة عليه. وهو عدا ذلك فصل قيم يفيض بالعطف الانساني والروح الشعرية والفكاهة الأدبية، ويضيف كثيراً الى علمنا بأثر الأذان الإسلامي في نفوس الأدباء الغربيين، ولا سيما الادباء من طراز هيرن الذين أظمأتهم الحضارة العصرية وتشوقت نفوسهم الى الري الروحاني من ينابيع أخرى غير ينابيع امريكا واوربا.

وقد مهد هيرن لفصله عن « المؤذن الاول » بأبيات الشاعر إدوين أرنولد Edwin Arnold التي يقول فيها مخاطباً العزة الإلهية :

« لو أن عابديك اليوم على الأرض طاف بهم طائف من الفناء فجأة وصمت كل مؤذن يرفع الصوت بالتكبير في سكينة السماء — لما خلت الدنيا بعد هذا من آيات تشهد بوجودك على الارض وفي أغوار الماء . نعم ... ولو ذهبت هذه وذهبت الارض معها لبقيت لك آيات في أعالي السماء أعظم وأسمى . اذ كل شارقة فوقنا من تلك الشموس التي تشتعل الى مطلع النهار وتلك الكواكب التي يعود بها الليل كل مساء — هي يا رب « دراويشك » التي تدور في حلقة الذكر حول عرشك الوضّاء » .

ثم قال هيرن : « ان السائح الذي يهجع لأول مرة بين جدران مدينة من مدن الشرق على مقربة من احدى المنائر على المساجد الجامعة — قلما تفوته خشعة الفؤاد لذلك الجمال الوقور الذي ينبعث به دعاء المسلمين الى الصلاة ، وهو لا شك يستوعب في قلبه — اذا كان قد هيأ نفسه للرحلة بالقراءة والمطالعة — كل كلمة من كلمات الدعوة المقدسة ، ويتبين مقاطعها وأجزاءها في نغمات المؤذن الرنانة حيثما أرسل الفجر ضياءه المورّد في سماء مصر أو سورية وفاض بها على النجوم . وانه ليسمع هذا الصوت أربع مرات اخرى قبل ان يعود الى المشرق ضياء الصباح : يسمعه تحت وهج الظهيرة اللامعة ويسمعه قبيل غياب الشمس والمغرب يتألق بألوان القرمز والنضار ، ويسمعه عقيب ذلك حين تنسرب هذه الالوان الزاهية في صبغة مزدوجة من البرتقال والزمرد ، ثم يسمعه آخر الامر حين تومض من فوقه ملايين المصابيح التي ترصع بها تلك القبة البنفسجية فوق مسجد الله الذي لا يزول . ولعله يسمع في المرة الاخيرة عند نهاية التنغيم كلمات مقنّعة بالاسرار جديدة على اذنيه . فاذا سأل عنها ترجمانه كما فعل جيرار دي نرفال أجابه ولا شك بتفسير كذلك التفسير : يا من تنام توكل على الحي الذي لا ينام ... عظات جليلة تعيد الى الذاكرة تلك الآيات التي ينقشونها في المشرق على بعض

الحجارة الكريمة ومنها « لا تأخذه سِنة ولا نوم » ... فان كان الترجمان ممن يعون طرفاً من تاريخ الإسلام فلعله ينبئه أن المؤذن الاول — أول من رتل الدعاء الى الصلاة — كان الخادم المقدس الذي اصطفاه نبي الاسلام لهذه الدعوة — بلال بن رباح — صاحب الضريح الذي يشار اليه للسائح في ناحية من دمشق حتى هذا اليوم .

أما بلال فكان أسود أفريقياً من ابناء الحبشة قد اشتهر بقوة يقينه وهو يتخذ دين الاسلام ، وبغيرته على الدعوة النبوية ، وجمال النغم في ترجيع صوته — ذلك الصوت الذي تناوله ومد فيه وكرره كل مؤذن في الإسلام منذ اكثر من ألف ومائتي عام .

وقد رجّح بلال أذانه قبل ان ترتسم في الذهن صورة المنارة الاولى ، وقبل ان يؤثر القوم اختيار المؤذنين من العميان مخافة ان يرمق المؤذن بعينه منظراً محرماً وهو يطل من علٍ على سقوف المدينة .

واليوم ترتفع الى السماء منائر لا عداد لها في كل موطن من مواطن الإسلام حتى واحات الصحراء ، وقد تقوم على بناء بعضها أيد جاهلة بميزان البناء فيخيل الى من يراها أنها تتلوى من الوجد ، كمئذنة «أوجلة» التي رآها فكتور لارجو Largau في سنة ١٨٧٧ .

أما الكلمات التي يرددها المسلمون في أنحاء عالم الإسلام من حيث تقوم بِنيّ القرميد التي ترتفع على قبور الصحراء إلى تلك المنائر السحرية الحالمة التي ترتفع على مسجد « أجرا » عند ضريح «تاج محل» بالهند — فهي بنصها وفصها تلك الكلمات التي ترنم بها صوت بلال المكين .

ولا تزال للمؤذن شروط ترعى حتى اليوم ليسمح له بأداء الأذان . فعليه ان يحفظ القرآن وأن ينزه اسمه وسمعته عن كل سوء ، وان يكون له صوت واضح جهير ولهجة فصيحة ومخارج للحروف صحيحة ، ولكن شروط الصوت الحسن التي كانت تطلب من المؤذن في صدر الدعوة المحمدية

والمسلمون على ذكر من صوت بلال قد كانت أندر وأصعب مما اكتفي به بعد ذلك . وقد روى الشاعر الفارسي الأشهر مصلح الدين السعدي في كتابه بستان الورد غير نادرة واحدة تدل على آراء ابناء عصره فيما يرجع إلى اختيار المؤذنين وقراء آي الذكر الحكيم .

قال في بعض تلك النوادر إن مؤذناً في سنجار تعوّد أن يؤدي الأذان أداء صحيحاً ولكن بصوت كريه إلى من سمعوه ، وكان صاحب المسجد اميراً عادلاً لا يسيء في عمل من اعماله . فلم يشأ ان يجرح فؤاد المؤذن المسكين ، وخاطبه على نحو يرضيه فقال له : يا سيدي . إن لهذا المسجد مؤذنين أقدمين يعطى كل منهما خمسة دنانير . فهل لك في عشرة دنانير تأخذها انت على ان تترك لهم مهمة الأذان فيه ؟ .. فقبل الرجل عرض الامير وغادر المدينة إلى حيث شاءت له المقادير .

الا أنه لم يلبث غير قليل حتى قفل إلى الامير قائلاً : لقد ظلمتني يا مولاي اذ قد زينت لي ان اترك هذا المسجد من أجل عشرة دنانير . فإنهم قد عرضوا عليّ عشرين ديناراً حيث كنت على أن افارقهم فأبيتها .. فابتسم الامير وقال : لا يخدعوك اذن .. فإني لأحسبهم معطيك خمسين ديناراً او يزيد على ذلك اذا أصررت على البقاء هناك !

وفي الكتاب نادرة أخرى لا تقل عن هذه في طرافتها ، يزيدنا فهماً لها ان نذكر ان الاسلوب العربي المأثور في القرآن يكاد يعلو على كل أساوب معروف في التلاوات الدينية . وخلاصة النادرة ان قارئاً من حفاظ الكتاب كان يجوّد الآيات بصوت غير جيد . فمر به رجل فطن وسأله : كم أجرك على هذه القراءة ؟ فقال الحافظ : لا شيء ! قال الرجل : وفيم اذن عناؤك هذا ؟ قال : حباً بالله ! قال الرجل الفطن : حباً بالله اذن لا تقرأ يرحمك الله .

* * *

وبدأ بلال حياته عبداً لأنه كان وليد جارية حبشية ، ولم يعرف عن

نشأته في الطفولة غير النزر اليسير . ومن وصف سير وليـام موير اياه يظهر انه كان فاحم السواد كثيف الشعر وكانت لوجهه ملامح الزنوج ، وانه كان طويلاً أجنأ كأنه الجمل ، لا يروق النظر ولكنه شديد الأسر مفتول الجسد متين الأعصاب .

وقد كان لدعوة محمد الأولى أثر عميق في قلوب عبيد مكة ، لأن هؤلاء القوم الغرباء في ربقة العبودية بين أناس غير اهلهم قد تلقوا ولا ريب دعوة النبي إلى الأبوة العليا التي تكلأ الناس جميعاً كما يتلقى الجريح بلسم الشفاء والحزين سلوة العزاء .

ولعل بلالاً كان اول من دان بالاسلام من بني جلدته، ولذلك قال النبي عنه انه اول ثمرة من ثمرات الحبشة ، ولعل العبد الصغير قد تلقن من والدته السوداء شيئاً من تلك الخواطر الفجة التي شاعت في الحبشة باسم الديانة المسيحية في القرن الرابع فهيأت ذهنه لقبول وحدانية الإسلام .

وما هو الا أن بدأت فترة الاضطهاد حتى انصب أشده وأقساه على هؤلاء العبيد . فقد كانت سنة العرب منذ عهد بعيد ان يحمي الرجل ذوي قرباه ولو كلفته حمايته بذل الحياة . فمن سفك دم عربي فهو غير آمن أن يرتد عليه أهلـه بالثأر وان يستتبع ذلك حرباً سجالاً بين العشيرتين إلى زمن طويل . ومن ثم كان محمد وصحبه الأحرار يأمنون بعض الامان على أنفسهم من سطوة التنكيل العنيف . ولم يكن للعبيد مثل هذه الحماية ، فتعاورتهم الأيدي بالضرب وتلقوا نذر الموت وذاقوا أمر العذاب معرضين لنيران القيظ في شمس الجزيرة العربية السافعة . فكانت غواية الماء البارد والظل الوارف والطعام الشهي تحت هذا العذاب الذي يضاف اليه عذاب الجوع والظمأ أشد من أن تدفعها عزيمة اولئك المساكين ... فما زالوا واحداً بعد واحد يتفوهون بالعبارات التي كانت تملى عليهم سباً لنبيهم ولو خرجت من الشفاه دون القلوب ، وجعلوا يقسمون باللات والعزى على صدق ما

يقولون ، وطالما عاد بعضهم فبكى ندماً على ما فرط منهم في تلك المحنة النكراء .

ولكن النبي استنزل لأولئك المساكين عزاء وافياً بما ذكره القرآن عنهم ، جاء فيه : « إِنَّمَا يَفْتَرِي الكَذِبَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِ اللهِ وَأُولَئِكَ هُمُ الكَاذِبُونَ . مَنْ كَفَرَ بِاللهِ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِهِ ، إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمَانِ وَلَكِنْ مَنْ شَرَحَ بِالْكُفْرِ صَدْراً فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِنَ اللهِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ » .

وقد ظل بلال وحده ثابت القلب واللسان فلم يصبأ ولم ينل من عقيدته ألم الضرب ولا حر الظمأ ولا طول التعريض للشمس على بطاح مكة الملتهبة ، وعجزت كل هذه المحن أن تثني عزيمته الحديدية ، فلم يكن له من جواب على كل أمر يتلقاه من معذبيه الا ان يردد قوله : أحد ! أحد ! مشيراً إلى وحدانية الله الذي ليس له شريك .

هذه الفترة في حياة بلالٍ أيام دخوله في الإسلام هي التي اختارها الشاعر الفارسي فريد الدين العطار للاشادة بها في كتابه منطق الطير ، فقال : « إن بلالاً قد تلقى على جسده الهزيل ضربات العصي من الخشب ، والسياط من الجلد ، فتمزق إهابه وسال الدم من جراحه ولم يمسك قط عن توحيد الله الذي لا إله غيره » .

واتفق ذات يوم — والحبشي المسكين يتلظى من ألم ذاك العذاب — أن عبر به رجل نحيف البدن صغير القد جميل الملامح واسع الجبين فشهد فيمن يشهدون ثبات بلال وشدة عذابه .

وكان ذاك الرجل النحيف هو التاجر عبد الله بن عثمان أبي قحافة ، ويعرف في التاريخ الاسلامي باسم أبي بكر صديق النبي الحميم وزميله في ذلك الكهف الذي تقول الرواية ان العناكب نسجت على مدخله خيوطها لتخفي اللاجئين اليه عمن يتعقبونهما ، ويدعى أبو بكر أيضاً بالصديق أي المخلص الوفي ، وكان أبا السيدة عائشة التي قُدر لها ان تقترن بالنبي وقدر

لأبيها ان يخلف النبي على رعاية شأن المسلمين بعد وفاته ، وكان إلى ذلك الحين قد أنفق كثيراً من ثروته التي تبلغ اربعين الف درهم في شراء العبيد الذين سيموا العذاب على أيدي سادتهم من أجل دخولهم في دين الإسلام ، ومعظمهم رجال مهازيل او نساء ، فكان ابو قحافة يؤاخذه لأنه ينفق ماله في إعتاق النساء والضعفاء ويقول له : هلا أنفقته في إعتاق الأقوياء الذين يشدون أزرك ويدرأون عنك عدوك ؟ وكان ابو بكر يجيبه : كلا يا أبت . إنما أريد بهم وجه الله .

ويقول الرواة ان هذا البذل السخي في سبيل التقوى قد أفقر الرجل حتى لبس الثياب الخشنة من شعر المعز الذي يلفق بالسلا .

فلما شهد بلالاً في ذلك العذاب لم يطل صبره على رؤيته بتلك الحال وأخذ لتوه يساوم أمية بن خلف وأبي بن خلف في ثمنه فباعاه بعباءة وعشرة دنانير .

وقليلاً ما كان يخطر على بال احد من شهود تلك الصفقة ، ان يوماً من الايام سيأتي على أمية وابنه يسألان فيه الرحمة من عبدهما الذي ضنّا عليه بكل رحمة فلا ينالانها . فما انقضت عشر سنين على ذلك اليوم حتى ظفر بلال بصاحبيه وسنحت له فرصته بعد وقعة بدر الحامية ، فوقعت عليهما عيناه بين أسرى قريش ، وشفى قلبه ان ينظر اليهما وهما يذبحان على مشهد منه ، لأن الاسلام لا يأمر الذين يدينون به أن يجزوا الشر بالخير .

وقد كان بلال في الحقيقة أول عبد قيم أطلقه أبو بكر ، فأرسله عتيقاً لوجه الله .

وكان بلال رجلاً قوياً ، فلا يفهم وصفه بالهزال في قصيدة الشاعر الفارسي إلا على معنى الهزال الذي توصف به الطبيعة البشرية بالقياس إلى قوة الروح .

ولم يلبث لسان الكذب والوشاية ان قال قولته في السبب الذي بعث

أبا بكر إلى شراء الحبشي المعذب ، فزعم من زعم أنه توخى الفائدة ولم يتوخ التقوى والصلاح ، وكانت هذه الأكذوبة خليقة أن تسري مسراها في البيئة التي عهدت ذلك التاجر الورع زماناً وهو الأريب الخبير بتصريف التجارة ، ولكن محمداً كان ينكر ما يلغطون به ويوسع القائلين به تأنيباً وملامة ، وفي ذلك يقول الكتاب من سورة الليل : « وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَى وَالنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّى ، وَمَا خَلَقَ الذَّكَرَ وَالأُنْثَى . إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّى ، فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَاتَّقَى وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى ، فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَى ، وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنَى ، وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَى ، فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَى ، وَمَا يُغْنِي عَنْهُ مَالُهُ إِذَا تَرَدَّى ، إِنَّ عَلَيْنَا لَلْهُدَى ، وَإِنَّ لَنَا لَلآخِرَةَ وَالأُولَى ، . فَأَنْذَرْتُكُمْ نَاراً تَلَظَّى ، لَا يَصْلَاهَا إِلَّا الأَشْقَى ، الَّذِي كَذَّبَ وَتَوَلَّى ، وَسَيُجَنَّبُهَا الأَتْقَى ، الَّذِي يُؤْتِي مَالَهُ يَتَزَكَّى ، وَمَا لِأَحَدٍ عِنْدَهُ مِنْ نِعْمَةٍ تُجْزَى ، إِلَّا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِ الأَعْلَى ، وَلَسَوْفَ يَرْضَى » .

ومن ثم أصبح بلال خادماً أميناً لمحمد « عليه السلام » وكتب له ان يساهم بنصيب في نشر دعوة الاسلام .

وتزعم بعض الروايات ان بلالاً عاد بعد هجرة النبي فوقع في أسر قريش فعذبوه وضاموه ، ولكنها رواية لا يوثق بها في رأي المراجع التي تعتبر حجة في تاريخ الدعوة الاسلامية ، وإنما نلتقي ببلال مرة أخرى بعد عتقه في المدينة حيث كان المؤذن الأول بعد الاتفاق على الأذان .

* * *

ولم يكن الأذان معروفاً في مستهل الدعوة الاسلامية حين كان المؤمنون فئة قليلة تقيم إلى جوار نبيها ، وانما كان الأذان صيحة مسموعة ينادي بها المنادي إلى الصلاة الجامعة .

ثم عرف الأذان بعد بناء مسجد المدينة وتحويل القبلة من بيت المقدس

إلى مكة وكعبتها . إلا ان بيت المقدس لم يزل له شأن في المأثورات الاسلامية ولم يزل عزيزاً في قلوب المسلمين .

ألا يذكر الذاكرون من علامات الساعة الكبرى ان عيسى بن مريم سيقبل عند حلول الساعة إلى مسجد بيت المقدس قبيل صلاة الفجر فيشرق المسجد بطلعته ويتقدم إلى محراب الإمام فيبهت اولئك الذين يزعمون أنهم من اتباعه حين يعلن بينهم شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله ؟

أما كيف خطرت فكرة الأذان فقد كان ذلك بتوفيق عجيب ، وفحواه ان النبي حين فرغ من بناء مسجده — الذي يعد على زهادة بنيانه مثالاً للأسلوب العربي في البناء — تبين على الأثر ان دعوة المسلمين إلى الصلاة على النحو الذي اتبعوا قبل ذلك ليست مما يوائم أحوال المسلمين في ذلك الحين ! لأنها خلو من ذلك الجلال الذي لا غنى عنه في إقامة الفرائض العامة والشعائر العلنية .

وخطر للنبي في بداءة الامر أن يتخذ بوقاً للدعوة إلى الصلاة ، ولكنه لم يشأ ان يحول القبلة عن بيت المقدس ثم يتخذ لدعوة الصلاة أداة كان يستخدمها اليهود في بعض الصلوات .

ثم خطر له ان يتخذ للدعوة ناقوساً يدق في ساعات معلومات ، ولكنهم لم يجدوا في المدينة من يصنع الناقوس المطلوب .

وإنه ليوشك أن يتخذ للدعوة ناقوراً من الخشب إذ سنحت فكرة الأذان لبعض الصالحين في رؤيا المنام .

فقد رأى ذلك الرجل الصالح فيما يرى النائم أنه لقي على مقربة من داره — وهو يسري في ضوء القمراء — رجلاً طوالاً في ثياب خضر بيده ناقوس جميل ، وبدا له أنه قارب الرجل الطوال يسأله أن يبيعه الناقوس . فتبسم الرجل الطوال وراح يسأله : ولأي شيء تريده ؟ فقال له : إنما أشتريه

للنبي عليه السلام ليدعو به المسلمين إلى الصلاة .

قال الرجل الطوال . وكأنه يزداد في مقاله طولاً : كلا . بل أخبرك بما هو أصلح واجدى . فخير من ذاك ان ينادي مناد بالدعاء إلى الصلاة من سقف المسجد كما أصنع . وانطلق في ندائه بصوت رنان عجيب سماوي الجلال يبعث الوجل الأقدس في فؤاد سامعه ، وهو يردد ذلك الأذان كما يردد اليوم من شاطيء إفريقية الغربي إلى تخوم هندستان .

الله أكبر ..

الله أكبر ..

أشهد أن لا إلّه إلا الله ..

أشهد أن محمداً رسول الله ..

حيَّ على الصلاة ..

حيَّ على الفلاح ..

لا إلّه إلا الله .

فهب من رقاده والنغم العجيب يتردد في أذنيه ، وبادر إلى النبي فقص عليه رؤياه ، فسمعها منه النبي كما يسمع الرؤيا الصادقة التي تأتي بالهداية من الله ، وتذكّر تلك الهبة الصوتية النادرة التي خص بها مولاه الوفي بلال ، فأمره أن ينادي إلى الصلاة بتلك الكلمات التي سمعها المسلم الصالح في منامه ، وكان الليل في هزيعه الاخير فوعى المؤذن الأول واجب صناعته الجديدة قبل مطلع الفجر ، وما هو إلا ان طلعت بشائر النور الأولى حتى نهض أهل المدينة من نومهم على صوت الحبشي الساحر يردد الأذان من مشرف عال بجوار المسجد . فكان ذلك فاتحة تاريخ المنارة الجميلة التي تتسم بها قبل غيرها ملامح العمارة في المدن الاسلامية ، وكان مصعد بلال في تلك الليلة إلى

الشرفة المضاءة بنور الكواكب على سقوف المدينة هو أول خطوة على سلم المنارة الباقية قبل الف ومائتي عام .

* * *

في خلال تلك القرون جميعاً لم يعرف الاسلام يوماً واحداً لم ترتفع فيه صيحة الأذان إلى الله .

ولا تزال نغمات الأذان تعلّم طريق الساعات لسكان مدائن شتى لا عداد لها : وفي المأثورات انها ستكون علامة للساعة التي تقوم فيها القيامة ويظهر فيها المهدي المنتظر — مسيح الديانة الاسلامية — فيعلن الأذان بصوت جهوري يدوّي في أنحاء العالم بأسره .

وما برحت دعوات الصلاة تستجاب في العالم الاسلامي بدقة يدهش لها السياح ويعجبون .

وقد اشتهرت هذه الدقة عن المسلمين في استجابة داعي الصلاة حتى استخدمت احياناً في الاضرار بهم والاغارة عليهم . فاتفق في نيسابور— تلك المدينة المحببة إلى عطار الروح الشاعر المعروف باسم العطار — أن الأذان أعلن لأول مرة غدراً وختلاً للإيقاع بمن يستجيبون اليه . إذ حدث في السنة الثامنة من القرن السابع أن أغارت على المدينة جموع جنكيز خان ، وكان من عادة هذه الجموع التي درجت على الاستئصال والتخريب عادة فريدة بين الأمر في قسوتها وغدرها ، وهي ان يعودوا إلى المدينة فجأة بعد تخريبها ليعملوا السيف فيمن رجع اليها من أهلها مطمئناً إلى جلاء العدو عنها أو فيمن يقبلون على الانقاض المحترقة ليستخرجوا نفائس الاعلاق منها . فلما عادوا إلى نيسابور على هذا النحو أمر الزعيم المغولي باقامة الأذان فأقبل إليه بهذه الحيلة كثيرون ممن كانوا يعتصمون بالمخابىء والزوايا المهجورة ، وصدق المؤرخ الفارسي حين قال في وصف هذه الجموع : « إنهم يقصدون إلى

إبادة نوع الانسان وفناء العالم ولا يقصدون إلى السيادة أو الغنيمة » .

* * *

إن جو المأثورات - بما يحفه من الأشعة والهالات - ليرن فيه صوت بلال أبداً كما رن في الحلم صوت ذلك الغريب في الأكسية الخضر منبعثاً من عالم فردوسي إلهي مسربل بالضياء .

وليس في مقدورنا بعد انقضاء تلك المئات من السنين أن نعرف حقيقة المؤذن الافريقي ولا ان نقوم مزاياه الموسيقية التي لا شك فيها ، ولكننا ، إذا صح لنا ان نستدل بما قيل في وصفه على طبقته الموسيقية فالأغلب الأقرب إلى الحقيقة أنه كان من طبقة « الباريتون » المعروفة لدينا بالامتداد والغزارة خلافاً للنغمة العربية التي تعرف بشيء من الحدة والنعومة .

ولا يعوزنا السبب لأن نشك في ان احداً من المشهورين بين أرباب صناعة الغناء في الجاهلية كان من ذلك العنصر - العربي - الذي وصفه سائح فرنسي فقال : إنه شعب صخاب ، وقد أنبأنا الدكتور بيرون Perron في كتابه الممتع عن النساء العربيات الذي نشر بالجزائر سنة ١٨٤٨ أن معظمهم كانوا عبيداً وان جميع العبيد قبل الدعوة المحمدية كانوا على وجه الاجمال من الحبش أو الزنوج ، ولا يبعد أن تكون القينتان المشهورتان باسم جرادتي عاد - ولا يزال لأغانيهما بقية مروية - فتاتين حبشيتين .

وتقول الاخبار إنهما كانتا لعبد الله بن جدعان من سلالة عاد ، وأن فترات التاريخ العربي لم تخل من عتقاء او خلاسيين نبغوا في الشعر أو في الفن أو الغناء ، ومن هؤلاء الأغربة السود ذلك الأسود الذي نظم إحدى المعلقات ورويت له أغان وأناشيد بين أحسن القصيد ، ونعني به عنترة بن شداد .

ومنهم خفاف الشاعر الفارسي ابن عم الخنساء ، والشنفرى الذي لم يكن حظه من الشعر بالقليل ، وقد شهر الحرب وحده على قبيلة كاملة

ثأراً لحميه الذي قتلوه لأنه ارتضى لبنته زوجاً من غير أكفائها وأقسم لا يهدأن أو يقتل منهم مائة بقتيله . فأصاب تسعة وتسعين منهم ثم أصابوه وقطعوا رأسه وجاء رجل منهم فركله بقدمه العارية فجرح في قدمه وفسد جرحه فمات . فقيل إن الشنفرى بر بقسمه وهو قتيل .

ويروى عن النبي أنه ود لو شهد عنترة بن شداد ، ولعله لم يكن يود ذلك إعجاباً بشعره كما وده لعلمه بجدوى ذلك الشاعر لدعوته ، إذ يجنح إليها ويقود لها عتقاء الصحراء جميعاً تحت لواء نبي يبشر بالمساواة .

وطوت روح الإسلام شيئاً فشيئاً قصيد الصحراء الجميل بألوانه الساخنة التي تشبه ألوانها ، وحرارته التي تشبه حرارة رمالها ووقدته التي تشبه وقدة سمائها ، ولكن الأغربة لم تزل تغني وان كفت عن نظم المعلقات ! ولم يكن بالقليل عدد المغنين السود أو الخلاسيين الذين نبغوا في القرون الثلاثة الأولى بعد ظهور الاسلام ، فسعيد بن مدحج الذي صادر الخليفة عبد الملك ماله لأنه فتن أبناء الأشراف بسحر غنائه فأجزلوا له العطايا وضيعوا تراثهم عليه كان عبداً من عبيد مكة ، وأبو محجن نصيب بن الزنجي قد لقي الحظوة من أمراء كثيرين و حكام مختلفين منذ أيام عبد الملك إلى ايام هشام . وقد حشا يزيد الثاني فاه دراً في يوم من الأيام .

وأبو عباد معبد — أمير الغناء في عصره — أطرب ثلاثة من الخلفاء ، وغشي على يزيد من الطرب وهو يستمع لغنائه ، ومنحه خلفه إثني عشر الف دينار جائزة واحدة « ومشى في جنازته الوليد الثاني هو وأخوه في ثياب السواد حداداً عليه وقد مات في قصره .

ويبدو أن سلامة الزرقاء — التي بلغ ثمن القبلة منها أربعين الف درهم — كانت من سلالة السود ، وكانت سلامة القس وحبابة صاحبتها من جواري المدينة المولدات ، وتروى قصة من أشجى القصص العربية عن غرام يزيد بحبابة هذه وموته حزناً عليها .

والأدلة كثيرة على ان أصوات الجواري السود وأساليبهن في الغناء كان لها سحر ملحوظ في نفوس ساداتهن المسلمين ، كما يؤخذ من مطالعة أدباء العرب والفرس في بعض الاحيان . وقد قيل إن اسماعيل بن جامع أعظم المغنين في عصر الإسلام الذهبي أعطى جارية سوداء اربعة دراهم لينقل عنها نغماً غريباً سمعها تترنم به وهي تحمل الجرة على رأسها ، ثم وضع في ذلك النغم دوراً سمعه الخليفة هارون الرشيد فقال انه لم يسمع مثله قط في جماله وابتكاره وأجازه عليه بأربعة آلاف دينار ومنزل نفيس الأثاث والرياش .

ويقص علينا السعدي – الشاعر الفارسي – أنباء اخرى نعلم منها أن أرباب الغناء من السود قد بقيت لهم منزلتهم في هذا الفن إلى ما بعد صدر الإسلام ، ومن تلك الانباء قصة رواها في كتابه « بستان الورد » من أحوال الدراويش وكان لها شاهد عيان .

قال :

« خرجت إلى الحجاز في رفقة من الشبان الأذكياء ، وكانوا يترنمون في الطريق بين حين وحين ببعض الأشعار الصوفية ، وكان بيننا رجل من الأتقياء ينكر سلوك الدراويش لأنه يجهل حالهم ولا يعرف نجواهم ، فلما بلغنا نخل بني هلال برز لنا من خيام بعض العرب غلام أسود يتغنى بصوت يستنزل الطير من السماء ، ونظرت إلى جمل صاحبنا التقي قد أخذه الصوت الساحر فألقى براكبه إلى الارض وهام في الصحراء ، فصحت بالرجل : يا هذا ! إن صوت هذا الفتى قد عمل في الحيوان الأعجم ولم يعمل فيك » .

وذاك انه كان من عادات العرب القديمة أن يحفزوا الابل إلى المسير والصبر على السفر بألحان الحداء ، وقد روى جنتيوس Gentius معقباً على هذه الواقعة في ترجمته لبستان الورد (امستردام ١٦٥٤) قصة أخرى أعجب من الأولى فقال : « إن مؤلفاً من الثقات نزل بضيافة رجل في الصحراء

ضاعت منه جميع إبله ، فجاءه عبد زنجي وسأله ان يتشفع له عند مولاه في ذنبه ، فلما حضر الطعام أبى المؤلف الضيف أن يمد يده اليه أو يصفح صاحب الدار عن ذنب مولاه . فقال له صاحب الدار : إن هذا العبد خبيث ضيع عليه ماله ورده إلى اسوأ الحال ، وقد منحه الله صوتاً جميلاً فأقمته حادياً لإبلي فأجهدها بسحر حدائه حتى قطعت في يوم واحد مسيرة ثلاثة أيام . ولكنها لم تلبث أن نفقت جميعاً ساعة وضعت عنها أحمالها لفرط ما نالها من الإعياء ، وقد وجب لك حق الضيف فتقبلت شفاعتك وأعفيت هذا العبد الخبيث من الجزاء » .

ومن النوادر التي تروى في هذا المعنى وتدل على شأن الحداة في المشرق — نادرة حكاها جلال الدين في تاريخه حيث قال : إن المنصور أجاز سالماً الحادي بنصف درهم لأنه أطربه بحدائه حتى أوشك ان يسقط عن جمله ، فقال سالم : لقد حدوت لهشام فأجازني بعشرة آلاف ! » .

فمما لا شك فيه أن المغنين في الجاهلية وفي الصدر الأول من الإسلام كانوا على الأكثر من العبيد والمولدين ، وأن هؤلاء العبيد السود كانوا من ذوي الهبات الصوتية العجيبة وبلغوا الرفعة بمهارتهم في الصناعات الموسيقية ، فلا داعي للشك في ملكة الغناء عند بلال ولا في قيام المأثورات عن صوته الحسن على أساس صحيح .. ويبقى ان ننظر هل هو الذي أبدع لحن الأذان الذي مضى عليه المؤذنون من بعده أو أنه قد أدى الأذان كما أمر به وأوحي اليه .

وعلينا ان نذكر «اولاً» أن العرب الأقدمين مع حساسيتهم الموسيقية لم ترتفع الموسيقى بينهم فوق طبقة التجويد الصوفي إلا في الفرط النادر ، وغاية ما بلغوه في هذا الباب يشبه الصدحات الكورسيكية الحديثة بما فيها من الزركشة والترديد على هوى المغني أو على هوى السامعين . فتعاد الكلمة الواحدة مرة بعد مرة بتمويه وتجويد ومد وقصر يطول التكرار فيه حتى

ليستغرق إلقاء القطعة الواحدة من النظم بضع ساعات .

ولا تزال هذه النزعة في الغناء باقية على حالها بين العرب المحدثين ، فقد صدق بيرون Perron حين سأل : أي سائح في مصر لم يسمع كلمة يا ليل تعاد مرة بعد مرة نصف ساعة او تزيد ؟

والأغلب ان الانغام العربية لم تكن لتزيد في عهد الدعوة المحمدية على ثلاثة أنواع متميزات : وهي ما يسمى بالنغم البسيط ويغنى به في مقام الوقار ومعارض البطولة أو السهولة كغناء الحرب والحداء .

وما يسمى بالنغم المركب وهو يتألف من حركات عدة وترجيعات صوتية كثيرة ، وما يسمى بالخفيف وهو الذي يستخف السامع إلى الطرب ويهزه ويحرك أشجانه ويخرجه عن الوقار .

ولما كان بلال عبداً وكان لا ريب في بعض أوقاته يسوق الإبل فقد كان على الارجح يتغنى بالحداء ويعالج النغم البسيط ، ولكنه — بسليقته الافريقية التي طبع عليها أبناء جلدته — ربما وجد من وقته متسعاً لترديد الاصوات المركبة واستطاع من ثم أن يلقي الأذان في ألحانه المعروفة .

فلا يخفى أن النغم الذي يسمع في المنام قلما يثبت في الذاكرة ، وأن النغم الذي سمعه المسلم الصالح من الطيف الغريب صاحب الثياب الخضر يصعب أن يعلق بذاكرته ويجري على لسانه وهو يقص رؤيته على النبي (صلوات الله عايه) .

فلا يبعد إذن أن يكون بلال قد سمع الأذان وصاغ منه اللحن الذي أوحته اليه سليقته الافريقية الآبدة فأقره النبي عليه كما أقره على ما أضافه بعد ذلك إلى أذان الصبح حيث زاد عليه « الصلاة خير من النوم » .

ولا جرم يقره محمد على أسلوب ترتيله وهو الذي كان يقربه اليه ويسأله الرأي في مهمات الامور . وقد كان يؤثره على غيره من المؤذنين ، فلم يكن

يؤذن لأحد الرجلين اللذين ندبا للأذان بعده أن يدعو إلى الصلاة وبلال قادر على الدعاء اليه .

ولزم بلال النبي عن كثب طوال حياته . فكان يوقظ النبي بعد الأذان أحياناً بآية من الآيات أو بكلمة من جوامع الحكمة والتقوى . فإذا اجتمع المصلون بالمسجد إتجهت الأنظار نحو الافريقي الواقف بالصف الأول ليتلوه في حركات الصلاة ، فإن من واجب المؤذن بعد إعلان الأذان أن يصحب الإمام بالتكبير والدعاء كما يصنع الشماس مع الأسقف في الصلاة المسيحية .

ولما تعاظمت قوة الاسلام تعاظمت معه مكانة بلال وعهدت اليه أمور أهم وأكبر من الأذان . فكان خازن بيت النبي وأمينه على المال الذي يصل إلى يديه ، وتلقى من النبي مفاتيح الكعبة يوم دخل مكة في موكبه الظافر وكان هو الذي أقام الأذان على أعلى مكان في تلك البنية التي اشتهرت الآن في انحاء الكرة الأرضية . وكان هو الداعي إلى الصلاة يوم حضر إلى المدينة ملوك حضر موت للدخول في الاسلام ، وكان هو الذي يدعو إلى الصلاة حين يحتشد فرسان الاسلام بالصحراء لقتال عابدي الأوثان .

وتروى عنه أخبار شتى بعد وقعة بدر وفتح خيبر تشف عن بغض شديد لأعداء وليه والمحسن اليه لا حاجة بنا في هذا المقام إلى تفصيلها ، وأجمل من هذا أن نذكر للأسود الأمين غيرته على شخص النبي يوم ذهب معه في حجة الوداع فظل يحرص على راحته طوال الطريق ويمشي إلى جانبه مظللاً إياه بستار في يده يحميه وهج الظهيرة ، ولعله في تلك الرحلة قد عبر في الوادي المقدس تلك الاماكن التي كان سادات قريش يعذبونه هو في حر شمسها .

ثم توفي محمد « عليه السلام » فسكت الصوت العجيب ودعي مؤذنون آخرون لدعاء المسلمين إلى الصلاة . لأن بلالاً عاهد نفسه ألا يؤذن لإمام بعد نبيه ووليه .

ولا نعلم كم من الوقت قضاه بلال في صحبة أبي بكر بالمدينة ، ولكنه

ولا ريب كان في موضع الرعاية والكرامة بين المسلمين ، وكان له من جلالة القدر في أنظارهم ما خوله ان يخطب امرأة عربية حرة لأخيه الأسود وهي رعاية عظمى بين قوم لا يزالون يفخرون بصحة النسب ويسمون أنفسهم بالأحرار أي الخلص من النسب الخليط .

ويؤخذ من بعض الأنباء أن بلالاً قد تولى بعض مهام الدولة بعد الخليفة الاول . فلما أراد الخليفة العادل الصارم في عدله — عمر بن الخطاب — أن يحاسب « سيف الله » خالد بن الوليد على بعض أعماله كان بلال هو الذي نزع عمامة خالد وأوثق يديه أمام جماعة المسلمين بالمسجد وهو يردد مشيئة أمير المؤمنين .

ولكننا لا نسمع بعد هذه القصة عن بلال إلا القليل ، حتى وصل عمر إلى الشام فنعلم انه كان يصحب الجيش وأنه كان قد منح بجوار دمشق قطعة من الأرض واعتزل الحياة العامة كل الاعتزال .

وكان معظم الصحابة قد فارقوا الدنيا ، ولحق أبو بكر وخالد بالنبي في رضوان ربه كما لحق به آخرون ممن جاهدوا معه في معارك الاسلام الأولى . ولم يكن الجيل الجديد على نمط الجيل الذي تقدمه في المعيشة ، فزالت أو كادت تزول من حياة العرب تلك البساطة البدوية التي درجت عليها ، وظهرت بينهم بدع من الترف الأسيوي لم تكن معهودة فيما مضى ، وتدفقت أموال فارس على المدينة كأنها سيل من الذهب حتى دمعت عينا الخليفة عمر وهو ينظر اليها ويخشى منها الفتنة والحسد على رعاياه .

وفي خلال ذلك كانت العقيدة التي تعذب بلال من أجلها ودان بها زمناً وهي لا تتجاوز حي أبي طالب — قد جاوزت البرور والبحار إلى سورية وفلسطين وفارس وشهدها قبل أن يسلم روحه إلى ذلك الذي لا ينام وهي تسلك سبيلها إلى القارة الافريقية فتضمها إلى فتوح الاسلام . وبهذا أصبحت دعوته الاولى — دعوة الأذان — مستجابة بين أقوام من المتعبدين من تخوم

الهند إلى شواطىء الأطلس ، وقرع فرسان الصحراء العربية أبواب كابل ... ولعل ولداً من ذرية بلال قد عاش حتى رأى الدولة تُمتد على بقاع الارض مسيرة مائتي يوم بين المشرق والمغرب . وإن ما بلغته الفتوح الاسلامية — حتى في الثانية عشرة للهجرة — لخليق أن يستجيش في صدر الشيخ الهرم حمية الدين التي عمر بها ما بين جانحيه .

* * *

سكت صوت بلال عن ترديد الأذان بعد نبيه ووليه ، لأنه رأى في حسبانه التقي أن الصوت الذي أسمع نبي الله ودعاه إلى بيت الصلاة لا ينبغي ان يسمع بعد فراق مولاه . ولنا ان نتخيله في مأواه بالشام وأنه ليدعى مراراً إلى ترديد ذلك الدعاء الذي أعلنه لأول مرة تحت قبة السماء المضاءة بمصابيح الكواكب ، وانه ليضطر مراراً إلى الإباء والاعتذار لأولئك الذين كانوا يجلّونه إجلال القديسين وبودهم لو بذلوا أموالهم كلها ليسمعوه .

إلا أنه لما ذهب عمر إلى دمشق توسل اليه رؤساء القوم ان يسأل بلالاً إقامة الأذان تكريماً لمحضر أمير المؤمنين ، فرضي بلال وكان أذانه الأخير .

* * *

لقد كانت غيرة فتيان الدين الجديد في تلك الأيام غيرةً يوشك الا تعرف الحدود ، ومن المحقق ان النبأ الذي سرى بينهم مبشراً باستماعهم الى أذان بلال قد أذكى في نفوس أهل المدينة الوردية الشذى حميةً مفرحة لا نظن ان العالم المسيحي قد شهد لها مثيلاً في غير أيام الصليبيين .

فلما شاعت البشرى بين أبناء المدينة بسماع صوت المؤذن النبوي لاح للأكثرين ولا شك ان الظفر بسماع هذا الصوت غنيمة مقدسة تكاد أن تضارع الظفر بسماع صوت النبي عليه السلام ... وأنها أفخر أحدوثة في الحياة تروى بعد السنين الطوال للأبناء والأحفاد . وقد يكون في

المدينة من تلقي النبأ بشعور لا يتجاوز التطلع والاستشراف ، ولكن الأكثرين الذين تزاحموا في صمت وخشوع واجفي القلوب مرهفي الآذان لسماع «التكبيرة» المعروفة قد خامرهم ولا ريب شعور أعمق وأقوى من ان يلم به النسيان . وتزكي روايات العيان هذا الاعتقاد ، لأننا نعلم من تلك الروايات أنهم بعد لهفة الانتظار في تلك اللحظة لم يلبثوا أن سمعوا رنـــة الصوت الجهوري تشق حجاب الكون وتتعاقب من حنجرة الشيخ الافريقي بتلك الكلمات المحبوبة الباقية حتى بكى عمر ومن معه وتحدرت الدموع على وجوه أولئك الأبطال المجاهدين وارتفع لزفراتهم نشيج عـــال غطى في المسجد على دعاء الأذان الاخير .

أي فنان موسيقي أو دارس لتاريخ الموسيقى لا يود لو يسمع كيف كان صدى بلال في ذلك الأذان ، وأن يسمع الكلمات الخالدات كما كانت تسمع من أول المؤذنين ؟!

ولا حاجة بنا الى أن نقول إنها أمنية مستحيلة ، لأن فن النوطة أو تدوين الأنغام لم يكن معروفاً يومئذ بين العرب ، ولم تكن لهم وسيلة لنقل الصوت من جيل الى جيل غير تعليق الذاكرة ، فليس في وسعنا أن نجزم كل الجزم بما بقي أو بما تبدل مئن تلحين بلال للأذان . ولكننا نرجع الى الظن وقد يغني في هذا الباب . ولدينا من الأسباب ما يكفي لترجيح بقاء الأصوات نيفاً والف سنة محفوظة في الذاكرة بغير تدوين ، ولعلنا نستطيع القول بأن بعضاً من العبرية بقيت بهذه الوسيلة من أيام سليمان . وليست غيرة العرب على المأثورات الدينية بأقل من غيرة العبريين ، فلا جرم تسنح لأنغام الأذان فرصة للبقاء في الذاكرة كالفرصة التي سنحت لأناشيد إسرائيل .

فمن الجائز أن الأذان الحديث فيه على الأقل نغمات مشابهة للنغمات التي ابتدأ بها بلال إذ كانت الكلمات نفسها باقية بغير تبديل .

ولعل مصر التي فتحت وبلال بقيد الحياة — مصر بلد الخلود الذي لا

يقبل التبديل – قد حفظت دعوة الصلاة كما كانت ترتل في العشرة الثانية بعد الهجرة المحمدية . وقد سمعت الأذان من مؤذنين سمعوه من بلال .

ويرضينا ان نعتقد أن بلالاً نفسه قد أدى الأذان على نحو يشبه أداءه المسموع في مصر الحديثة كما سجله فيلوتو Villoteau وهو أنغام تذكر السامع برسوم العمارة العربية وتنقسم الى أجزاء واجزاء مما يقع موقع الغرابة في تأثيره على مسامع الغربيين .

وقد كان المؤذن الذي سمعه فيلوتو أقرب الى التفنن من المؤذن الذي سجل لين Lane نغماته في كتابه عن المصريين المحدثين فاذا بها تنتهي وفي السمع انتظار لبقية تالية ... ولعلنا نؤثر ان يكون تلحين بلال من قبيل ذاك الأذان لما فيه من تجزئة النغم التي يألفها العرب وتشبه تلك الخفايا المستغربة في الأصداء الإفريقية . إلا ان النغم الآخر مع هذا يعبر على بساطته عن جمال ووقار ويوحي إلى معنى العبادة الخالدة التي لا نهاية لها والتي هي أبداً في ابتداء بغير ختام ، كما يوحي إلى صلاة معلقة تتصل بما بعدها ولو كانت هي آخر صلاة .

تعقيب

من الصفحات التي مرت بنا – مترجمة من الانجليزية عن الكاتب الألمعي لفكاديو هيرن – يتبين للقارىء منزعه الأدبي في الكتابة والتصوير . وهو على الأغلب منزع الخيال والمجاز والعطف على الحياة الشرقية التي تمتزج بتواريخ الروحيات والدينيات على الإجمال ، وهو مع تحقيقه في مراجعة المصادر التي اعتمد عليها لم يخل من هفوة هنا أو هناك لا يعيبها سوء النية الذي تشف عنه أقوال الكثيرين من المستشرقين ، وإنما يوقعه في الخطأ حب المجاز أو الاسترسال في صقل موضوعه وتجميل صورته ، فلا يستغني هذا المقال الممتع الذي حيى به ذكرى المؤذن الأول عن تعقيب نصحح فيه من مقاله ما يحتاج الى التصحيح أو الاستدراك .

فمن هفواته العرضية إشارته إلى عقب بلال رضي الله عنه وليس له عقب كما ورد في ابن هشام نصاً ، وكما يفهم من السكوت عن ذكر بنين له أو بنات في كل ما قرأناه عنه .

ومن هذه الهفوات العرضية اعتقاده أن أبا رويحة كان أخاً لبلال من أبويه أو من احدهما وهو على ارجح الأقوال أخوه في الاسلام على سنة المؤاخاة التي كان النبي (صلوات الله عليه) يعقدها بين الصحابة من أنصار ومهاجرين .

إلا أن هفوته الظاهرة هي مذهبه في تعليل كثرة المغنين والمغنيات بين الموالي في بلاد العرب وقلتهم بين أبناء البلاد الأصلاء فإنه يجنح في كلامه إلى تعليل هذه الكثرة بنقص في الأداة الصوتية ، أو في القدرة الفنية عند العربي الاصيل ، وان الموالي والجواري من السود والاحباش سلموا من هذا النقص فكثر اشتغالهم بفن الغناء في الحجاز ثم في غيره من الاقطار الاسلامية .

وظاهر ان هذا التعليل بعيد من الصواب ، لأننا نسمع العرب اليوم في حديثهم ونداثهم كما سمعوا قبل الاسلام فلا نجدهم قاصرين في الجملة عن أداء صوت من الأصوات أو الارتفاع في جهارة الصوت وقوته إلى طبقة من الطبقات ، ولكنهم كانوا يعرضون عن صناعة الغناء لاعتقادهم في بداوتهم أنها صناعة أنثوية لا تليق بالفارس المقدام ولا بالرجل الكريم ، وأن المنادمة والتسلية بجمال المسمع أو جمال المنظر أدنى إلى عمل النساء منها الى عمل الرجال ، وكانوا أهل حرب أو تجارة فلا يحمدون من الرجل الكريم ان يشتغل بعمل غير القتال أو تسيير القوافل بين رحلتي الصيف والشتاء ، وكثيراً ما كان تسيير القوافل بالتجارة ضرباً آخر من ضروب القتال .

وتوارثوا هذا الاعتقاد إلى ما بعد أيام الدولة الاسلامية ، فكان الغناء مقصوراً على الموالي والجواري أو على المخنثين الذين يتشبهون بالنساء في المظهر والكساء ، ولهذا كانوا يرسلون الشعر ويطلون الوجوه ، وعنهم أخذ الأوربيون هذه العادة وعمموها في أزياء أصحاب الفنون من موسيقيين ومصورين وممثلين ، وظل إرسال الشعر وطلاء الوجه شائعاً بينهم إلى زمن قريب ، بعد ان نقلوه من الاندلس ونقله الاندلسيون عن أهل الصناعة في مدن الحجاز .

فكثرة المغنين بين الموالي والجواري إنما ترجع الى هذه العلة لا إلى عجز الأداة الصوتية في العرب الأصلاء ، وقد كانت لهم صناعة غناء لا ينكرونها وهي الحداء والنصيب وما اليه ، فكانوا يبلغون بها أقصى مدى الصوت

الانساني في العلو والقوة والامتداد ، وقد سمعناهم في البادية مع القمراء فكانت اصواتهم الجهيرة تملأ الصحراء . وهي في الغناء أعسر مكان على امتلاء.

وصوت بلال رضي الله عنه لم يطلب مع هذا للآذان لأنه عرف قبل هذا في أفانين الغناء ، ولعله رعى الإبل وحداها في بوادي الحجاز أو في الطريق بين الحجاز واليمن وبين الحجاز والشام ، ولم يذكر قط أنه اشتغل بغير هذا الضرب من الغناء قبل الاسلام أو بعد الاسلام ، فإنما عرفت جهارة صوته في الحرب والسلم وحداء الطريق فاختاره النبي عليه السلام للأذان ، وكانت تقواه وغيرته على الصلاة والعبادة ولزوم المسجد من أسباب ذلك الاختيار .

فهرس

عمرو بن العاص

صفحة

فهرس

معاوية بن أبي سفيان

فهرس

داعي السماء بلال

تمّ طبع هذا المجلد على مطابع
دار الكتـــاب اللبـــناني
برقياً : كتـــاليـــان
ص.ب. ٣١٧٦ ـ تلفون ٢٣٧٩٨٣ ـ ٢٨٣١٢٨
بيروت ـ لبـــنان